



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغات



اشرافيية
عليه صلوات الله
عليه وآله

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

الأمم

في تفسيرين كما جلا الله المنزلة

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ كاظم حكايم الشيرازي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل

كاتب:

آيت الله ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابى طالب (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٣٢	الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل المجلد ٥
٣٢	اشاره
٣٣	اشاره
٣٧	[اتمه سوره الأعراف]
٣٧	اشاره
٣٧	الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ٢٦ الى ٢٨]
٣٧	اشاره
٣٧	التفسير
٣٧	اشاره
٣٧	إنذار إلى كل أبناء آدم:
٣٩	نزول اللباس!
٤٠	اللباس فى الماضى و الحاضر:
٤٧	ما هو المقصود من الفحشاء؟
٤٨	الآيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ٢٩ الى ٣٠]
٤٨	اشاره
٤٨	التفسير
٤٩	بحثان
٤٩	اشاره
٤٩	١- ما المقصود من «أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ...»
٥٠	٢- أقصر الأدله على المعاد
٥٢	الآيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ٣١ الى ٣٢]
٥٢	اشاره
٥٢	التفسير

٥٢ اشاره

٥٥ الرّينّه و التّجمل من وجهه نظر الإسلام:

٥٧ توصيه صحيحه هامته: - - - - -

٥٩ الآيه [سوره الأعراف (٧): آيه ٣٣] - - - - -

٥٩ اشاره - - - - -

٥٩ التفسير - - - - -

٥٩ اشاره - - - - -

٥٩ المحرمات الإلهيه: - - - - -

٦٢ الآيه [سوره الأعراف (٧): آيه ٣٤] - - - - -

٦٢ اشاره - - - - -

٦٢ التفسير - - - - -

٦٢ اشاره - - - - -

٦٢ لكلّ أمّه أجل: - - - - -

٦٣ الرد على خطأ: - - - - -

٦٥ الآيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ٣٥ الى ٣٦] - - - - -

٦٥ اشاره - - - - -

٦٥ التفسير - - - - -

٦٥ اشاره - - - - -

٦٥ تعليم آخر لأبناء آدم: - - - - -

٦٦ رد على سفسطه أخرى: - - - - -

٦٧ الآيه [سوره الأعراف (٧): آيه ٣٧] - - - - -

٦٧ اشاره - - - - -

٦٧ التفسير - - - - -

٧٠ الآيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ٣٨ الى ٣٩] - - - - -

٧٠ اشاره - - - - -

٧٠ التفسير - - - - -

٧٠ اشارة

٧٠ تنازع القاده و الاتباع فى جهنم!

٧٤ الأيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ٤٠ الى ٤١]

٧٤ اشارة

٧٤ التفسير

٧٧ الأيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ٤٢ الى ٤٣]

٧٧ اشارة

٧٧ التفسير

٧٧ اشارة

٧٧ الظمأنينه الكامله و السعاده الخالده:

٨٠ لماذا عتر بالإرث؟

٨٢ الأيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ٤٤ الى ٤٥]

٨٢ اشارة

٨٢ التفسير

٨٢ اشارة

٨٤ من هو المؤذن او المنادى؟

٨٧ الأيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ٤٦ الى ٤٩]

٨٧ اشارة

٨٧ التفسير

٨٧ اشارة

٨٧ الأعراف معبر مهم إلى الجنة:

٩٠ من هم أصحاب الأعراب:

٩٥ الأيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ٥٠ الى ٥١]

٩٥ اشارة

٩٥ التفسير

٩٥ اشارة

٩٥ نعم الجَنَّة حرام على أهل النار:

٩٦ بحوث

٩٨ الأيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ٥٢ الى ٥٣]

٩٨ اشاره

٩٨ التفسير

١٠١ الآية [سوره الأعراف (٧): آيه ٥٤]

١٠١ اشاره

١٠١ التفسير

١٠١ اشاره

١٠١ هل خلق العالم في ستة أيام؟

١٠٣ و هذه الدورات-احتمالاً-هي على الترتيب:

١٠٤ لماذا لم يخلق الله العالم في لحظة واحدة؟

١٠٥ ما هو العرش؟

١٠٧ ما هو «الخلق» و«الأمر»؟

١١٠ الأيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ٥٥ الى ٥٦]

١١٠ اشاره

١١٠ التفسير

١١٠ اشاره

١١٠ شروط استجابته الدعاء:

١١٤ الأيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ٥٧ الى ٥٨]

١١٤ اشاره

١١٤ التفسير

١١٤ اشاره

١١٤ لا بد من المربي و القابلية:

١١٧ الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ٥٩ الى ٦٤]

١١٧ اشاره

التفسير ١١٧

اشاره ١١٧

رساله نوح أول الرسل من أولى العزم: ١١٧

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ٦٥ الى ٧٢] ١٢٣

اشاره ١٢٣

التفسير ١٢٤

اشاره ١٢٤

لمحه عن قضا قوم هود: ١٢٤

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ٧٣ الى ٧٩] ١٣٠

اشاره ١٣٠

التفسير ١٣١

اشاره ١٣١

قصة قوم صالح و ما فيها من عبر ١٣١

بأى شىء أهلك قوم ثمود: ١٣٥

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ٨٠ الى ٨٤] ١٣٧

اشاره ١٣٧

التفسير ١٣٧

اشاره ١٣٧

مصير قوم لوط المؤلم: ١٣٧

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ٨٥ الى ٨٧] ١٤٢

اشاره ١٤٢

التفسير ١٤٢

اشاره ١٤٢

رساله شعيب فى مدين: ١٤٢

الآيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ٨٨ الى ٨٩] ١٤٧

اشاره ١٤٧

التفسير ١٤٧

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ٩٠ الى ٩٣] ١٥٠

اشاره ١٥٠

التفسير ١٥٠

الآيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ٩٤ الى ٩٥] ١٥٣

اشاره ١٥٣

التفسير ١٥٣

اشاره ١٥٣

إذ لم تنفع المواعظ: ١٥٣

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ٩٦ الى ١٠٠] ١٥٦

اشاره ١٥٦

التفسير ١٥٦

اشاره ١٥٦

التقدم و العمران في ظل الإيمان و التقوى: ١٥٦

بحوث ١٥٧

اشاره ١٥٧

١- بركات الأرض و السماء ١٥٧

٢- معنى «البركات» ١٥٨

٣- ماذا يعنى «الأخذ»؟ ١٥٨

٤- المفهوم الواسع للآيه ١٥٩

لماذا تعيش الأمم الكافره في الرخاء؟ ١٥٩

اشاره ١٥٩

جواب على سؤال: ١٦٣

الآيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٠١ الى ١٠٢] ١٦٦

اشاره ١٦٦

التفسير ١٦٦

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٠٣ إلى ١٠٨] - - - - - ١٦٩

اشاره - - - - - ١٦٩

التفسير - - - - - ١٦٩

اشاره - - - - - ١٦٩

المواجهه بين موسى و فرعون: - - - - - ١٦٩

هل يمكن قلب العصا إلى حيه عظيمه؟! - - - - - ١٧٤

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٠٩ إلى ١١٢] - - - - - ١٧٧

اشاره - - - - - ١٧٧

التفسير - - - - - ١٧٧

اشاره - - - - - ١٧٧

بدء مواجهه: - - - - - ١٧٧

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١١٣ إلى ١٢٢] - - - - - ١٨٠

اشاره - - - - - ١٨٠

التفسير - - - - - ١٨٠

اشاره - - - - - ١٨٠

كيف انتصر الحق في النهايه؟ - - - - - ١٨٠

بحوث - - - - - ١٨٣

اشاره - - - - - ١٨٣

١-المشهد العجيب لسحر الساحرين - - - - - ١٨٣

٢-الاستفاده من السلاح المشابه - - - - - ١٨٤

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٢٣ إلى ١٢٦] - - - - - ١٨٩

اشاره - - - - - ١٨٩

التفسير - - - - - ١٨٩

اشاره - - - - - ١٨٩

التهديدات الفرعونييه الجوفاء: - - - - - ١٨٩

الاستقامه الواعيه: - - - - - ١٩٤

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٢٧ الى ١٢٩] ١٩٦

اشاره ١٩٦

التفسير ١٩٦

اشاره ١٩٦

سؤال: ١٩٨

جواب: ١٩٨

الآيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٣٠ الى ١٣١] ٢٠٢

اشاره ٢٠٢

التفسير ٢٠٢

اشاره ٢٠٢

العقوبات التنبيهية: ٢٠٢

التفاؤل و التشاؤم(الفأل و الطيره): ٢٠٥

الآيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٣٢ الى ١٣٣] ٢٠٨

اشاره ٢٠٨

التفسير ٢٠٨

اشاره ٢٠٨

التوائب المتنوعه: ٢٠٨

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٣٤ الى ١٣٦] ٢١٢

اشاره ٢١٢

التفسير ٢١٢

اشاره ٢١٢

نقض العهد المتكرر: ٢١٢

الآيه [سوره الأعراف (٧): آيه ١٣٧] ٢١٦

اشاره ٢١٦

التفسير ٢١٦

اشاره ٢١٦

- ٢١٦ قوم فرعون و المصير المؤلم:
- ٢١٩ الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٣٨ الى ١٤١] - - - - -
- ٢١٩ اشاره
- ٢١٩ التفسير
- ٢١٩ اشاره
- ٢١٩ الاقتراح على موسى بصنع الوثن:
- ٢٢٠ بحوث
- ٢٢٠ اشاره
- ٢٢٠ ١-الجهل منشأ الوثنيه
- ٢٢٢ ٢-أرضيه الوثنيه عند بنى إسرائيل
- ٢٢٢ ٣-الكفره بالنعيم فى بنى إسرائيل
- ٢٢٥ الآية [سوره الأعراف (٧): آيه ١٤٢]
- ٢٢٥ اشاره
- ٢٢٥ التفسير
- ٢٢٥ اشاره
- ٢٢٥ الميعاد الكبير:
- ٢٢٦ بحوث
- ٢٢٦ اشاره
- ٢٢٦ ١-لماذا التفكيك بين الثلاثين و العشر؟
- ٢٢٧ ٢-كيف نصب موسى عليه السلام هارون قائدا و إماما؟
- ٢٢٧ ٣-لماذا طلب موسى عليه السلام من أخيه الإصلاح و عدم أتباع المفسدين؟
- ٢٢٨ ٤-ميقات واحد أو ميقات متعدد؟
- ٢٢٩ ٥-حديث المنزله
- ٢٢٩ اشاره
- ٢٢٩ أسانيد حديث المنزله:
- ٢٣٢ حديث المنزله فى سبعة مواضع:

- ٢٣٤ محتوى حديث المنزله:
- ٢٣٤ أسئلته حول حديث المنزله:
- ٢٣٨ الآية [سوره الأعراف (٧): آيه ١٤٣]
- ٢٣٨ اشاره
- ٢٣٨ التفسير
- ٢٣٨ اشاره
- ٢٣٨ المطالبه برؤيه الله:
- ٢٣٩ بحوث
- ٢٣٩ اشاره
- ٢٣٩ ١- لماذا طلب موسى رؤيه الله؟
- ٢٤٠ ٢- هل يمكن رؤيه الله أساسا؟
- ٢٤١ ٣- ما هو المراد من تجلى الله؟
- ٢٤٣ ٤- مم تاب موسى عليه السلام؟
- ٢٤٣ ٥- الله غير قابل للرؤيه مطلقا -
- ٢٤٥ الأيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٤٤ الى ١٤٥]
- ٢٤٥ اشاره
- ٢٤٥ التفسير
- ٢٤٥ اشاره
- ٢٤٥ ألواح التوراه:
- ٢٤٦ بحوث
- ٢٤٦ اشاره
- ٢٤٦ ١- نزول الألواح على موسى
- ٢٤٧ ٢- كيف كلم الله موسى؟
- ٢٤٧ ٣- عدم وجوب جميع تعاليم الألواح
- ٢٤٨ ٤- هل فى الألواح تعاليم حسنه و أخرى غير حسنه؟
- ٢٥٠ الأيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٤٦ الى ١٤٧]

٢٥٠ اشارة

٢٥٠ التفسير

٢٥٠ اشارة

٢٥٠ مصير المتكبرين:

٢٥٣ الأيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٤٨ الى ١٤٩]

٢٥٣ اشارة

٢٥٣ التفسير

٢٥٣ اشارة

٢٥٣ اليهود و عبادتهم للعجل:

٢٥٥ كيف كان للعجل الذهبى خوار؟

٢٥٨ الأيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٥٠ الى ١٥١]

٢٥٨ اشارة

٢٥٨ التفسير

٢٥٨ اشارة

٢٥٨ رده فعل شديده تجاه عباده العجل:

٢٦٢ مقاربه بين تواريخ القرآن و التوراه الحاضره:

٢٦٤ الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٥٢ الى ١٥٤]

٢٦٤ اشارة

٢٦٤ التفسير

٢٦٤ اشارة

٢٦٦ جواب على سؤالين:

٢٦٨ الأيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٥٥ الى ١٥٦]

٢٦٨ اشارة

٢٦٨ التفسير

٢٦٨ اشارة

٢٦٨ مندوبو بنى إسرائيل فى الميقات:

- ٢٧٥ الآية [سوره الأعراف (٧): آيه ١٥٧]
- ٢٧٥ اشاره
- ٢٧٥ التفسير
- ٢٧٥ اشاره
- ٢٧٥ اتبعوا هذا النبي:
- ٢٧٨ بحوث
- ٢٧٨ اشاره
- ٢٧٨ ١-خمسه أدله على التبوّه في آيه واحده
- ٢٧٩ ٢-كيف كان النبي أمّياً؟
- ٢٨٢ ٣-البشارات بظهور النبي في العهدين:
- ٢٨٥ الآية [سوره الأعراف (٧): آيه ١٥٨]
- ٢٨٥ اشاره
- ٢٨٥ التفسير
- ٢٨٥ اشاره
- ٢٨٥ دعوه النبي العالميه:
- ٢٨٨ الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٥٩ الى ١٦٠]
- ٢٨٨ اشاره
- ٢٨٨ التفسير
- ٢٨٨ اشاره
- ٢٨٨ جانب من نعم الله على بني إسرائيل:
- ٢٩٢ الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٦١ الى ١٦٢]
- ٢٩٢ اشاره
- ٢٩٢ التفسير
- ٢٩٢ اشاره
- ٢٩٣ ما هي «حطّه» و ماذا تعني؟
- ٢٩٥ الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٦٣ الى ١٦٤]

- ٢٩٥ اشارة
- ٢٩٥ التفسير
- ٢٩٥ اشارة
- ٢٩٥ قصه فيها عبره:
- ٢٩٩ بحوث
- ٢٩٩ اشارة
- ٢٩٩ ١- كيف ارتكبوا هذه المعصيه؟
- ٣٠٠ ٢- من هم الذين نجوا؟
- ٣٠١ ٣- هل أن كلا الفريقين عوقبوا بعقاب واحد
- ٣٠١ ٤- هل المسخ كان جسمانيا أو روحانيا؟
- ٣٠٤ ٥- المخالفه تحت غطاء الحيله الشرعيه
- ٣٠٥ ٦- أنواع الابتلاء الإلهي المختلفه
- ٣٠٦ الآياتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٦٧ الى ١٦٨]
- ٣٠٦ اشارة
- ٣٠٦ التفسير
- ٣٠٦ اشارة
- ٣٠٦ تفرق اليهود و تشتتهم:
- ٣٠٩ الآياتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٦٩ الى ١٧٠]
- ٣٠٩ اشارة
- ٣٠٩ التفسير
- ٣١٤ الآية [سوره الأعراف (٧): آيه ١٧١]
- ٣١٤ اشارة
- ٣١٤ التفسير
- ٣١٤ اشارة
- ٣١٤ آخر كلام حول اليهود:
- ٣١٥ أسئله و أجوبه:

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٧٢ الى ١٧٤] - ٣١٨

اشاره ٣١٨

التفسير ٣١٨

اشاره ٣١٨

العهد الأول و عالم الذر: ٣١٨

عالم الذر فى الزوايات الإسلاميه: ٣٢٣

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٧٥ الى ١٧٨] - ٣٢٥

اشاره ٣٢٥

التفسير ٣٢٥

اشاره ٣٢٥

العالم المنحرف «بلعم بن باعوراء»: ٣٢٧

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٧٩ الى ١٨١] - ٣٣١

اشاره ٣٣١

التفسير ٣٣١

اشاره ٣٣١

علائم أهل النار: ٣٣١

لماذا هم كالأنعام؟ ٣٣٤

بحوث ٣٣٤

اشاره ٣٣٤

١- ما هى الأسماء الحسنى؟ ٣٣٤

٢- الأئمة الهداه! ٣٤٠

٣- اسم الله الأعظم ٣٤١

الآيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٨٢ الى ١٨٣] - ٣٤٢

اشاره ٣٤٢

التفسير ٣٤٢

اشاره ٣٤٢

الاستدراج!... ٣٤٣

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٨٤ الى ١٨٦] ٣٤٧

اشاره ٣٤٧

سبب النزول ٣٤٧

التفسير ٣٤٨

اشاره ٣٤٨

التهمة و الأباطيل: ٣٤٨

الآية [سوره الأعراف (٧): آيه ١٨٧] ٣٥١

اشاره ٣٥١

سبب النزول ٣٥١

اشاره ٣٥١

أتان يوم القيامة؟! ٣٥١

التفسير ٣٥٢

الآية [سوره الأعراف (٧): آيه ١٨٨] ٣٥٤

اشاره ٣٥٤

سبب النزول ٣٥٤

التفسير ٣٥٤

اشاره ٣٥٤

لا يعلم الغيب إلا الله: ٣٥٤

ملاحظه ٣٥٧

اشاره ٣٥٧

ألم يكن النبي صلى الله عليه و آله و سلم يعلم الغيب؟! ٣٥٧

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٨٩ الى ١٩٣] ٣٥٩

اشاره ٣٥٩

التفسير ٣٥٩

اشاره ٣٥٩

٣٥٩ جحد نعمه عظمى:

٣٦٠ الجواب على سؤال مهم!

٣٦٣ روايه مجعوله:

٣٦٥ الأيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٩٤ الى ١٩٥]

٣٦٥ اشاره

٣٦٥ التفسير

٣٦٨ الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٩٦ الى ١٩٨]

٣٦٨ اشاره

٣٦٨ التفسير

٣٦٨ اشاره

٣٦٨ المعبودات التي لا قيمه لها:

٣٧٠ الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٩٩ الى ٢٠٣]

٣٧٠ اشاره

٣٧٠ التفسير

٣٧٠ اشاره

٣٧٠ وساوس الشيطان:

٣٧٢ أجمع آيه أخلاقيه...:

٣٧٧ الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ٢٠٤ الى ٢٠٦]

٣٧٧ اشاره

٣٧٧ التفسير

٣٨٣ سوره الأنفال

٣٨٣ اشاره

٣٨٥ نظره خاطفه إلى محتويات هذه السوره

٣٨٧ الآيه [سوره الأنفال (٨): آيه ١]

٣٨٧ اشاره

٣٨٧ سبب النزول

٣٨٨ التفسير

٣٨٨ اشاره

٣٨٨ ما هي الأنفال؟

٣٨٩ ملاحظات

٣٩٣ الآيات [سورة الأنفال (٨): الآيات ٢ الى ٤]

٣٩٣ اشاره

٣٩٣ التفسير

٣٩٣ اشاره

٣٩٣ خمس صفات خاصه بالمؤمنين:

٣٩٦ الآيات [سورة الأنفال (٨): الآيات ٥ الى ٦]

٣٩٦ اشاره

٣٩٦ التفسير

٣٩٨ الآيات [سورة الأنفال (٨): الآيات ٧ الى ٨]

٣٩٨ اشاره

٣٩٨ غزوه بدر أول مواجهه مسلحه بين الإسلام و الكفر...

٤٠٤ التفسير

٤٠٧ الآيات [سورة الأنفال (٨): الآيات ٩ الى ١٤]

٤٠٧ اشاره

٤٠٨ التفسير

٤٠٨ اشاره

٤٠٨ دروس مفيده من ساحه المعركه:

٤٠٩ هل قاتلت الملائكه؟

٤١٣ الآيات [سورة الأنفال (٨): الآيات ١٥ الى ١٨]

٤١٣ اشاره

٤١٣ التفسير

٤١٣ اشاره

- ٤١٣ الفرار من الجهاد ممنوع!
- ٤١٩ الآية [سورة الأنفال (٨): آية ١٩]
- ٤١٩ اشاره
- ٤١٩ التفسير
- ٤٢١ الآيات [سورة الأنفال (٨): الآيات ٢٠ الى ٢٣]
- ٤٢١ اشاره
- ٤٢١ التفسير
- ٤٢١ اشاره
- ٤٢١ الذين قالوا سمعنا و هم لا يسمعون!
- ٤٢٤ ملاحظتان
- ٤٢٤ اشاره
- ٤٢٤ ١- «و لو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم»
- ٤٢٤ ٢- لاستماع الحق مراحل
- ٤٢٤ الآيات [سورة الأنفال (٨): الآيات ٢٤ الى ٢٦]
- ٤٢٤ اشاره
- ٤٢٤ التفسير
- ٤٢٤ اشاره
- ٤٢٤ دعوه للحياه:
- ٤٣٢ الآيات [سورة الأنفال (٨): الآيات ٢٧ الى ٢٨]
- ٤٣٢ اشاره
- ٤٣٢ سبب النزول
- ٤٣٤ التفسير
- ٤٣٤ اشاره
- ٤٣٤ الخيانه و أساسها:
- ٤٣٧ الآية [سورة الأنفال (٨): آية ٢٩]
- ٤٣٧ اشاره

٤٣٧ التفسير

٤٣٧ اشاره

٤٣٧ الإيمان و وضوح الرؤيه:

٤٤٢ الآية [سوره الأنفال (٨): آيه ٣٠]

٤٤٢ اشاره

٤٤٢ سبب النزول

٤٤٣ التفسير

٤٤٣ اشاره

٤٤٣ سر بدايه الهجره:

٤٤٥ الآيات [سوره الأنفال (٨): الآيات ٣١ الى ٣٥]

٤٤٥ اشاره

٤٤٥ التفسير

٤٤٥ اشاره

٤٤٥ القائلون شططا:

٤٥٢ الآيات [سوره الأنفال (٨): الآيات ٣٦ الى ٣٧]

٤٥٢ اشاره

٤٥٢ سبب النزول

٤٥٣ التفسير

٤٥٣ ملاحظات

٤٥٦ الآيات [سوره الأنفال (٨): الآيات ٣٨ الى ٤٠]

٤٥٦ اشاره

٤٥٦ التفسير

٤٥٦ اشاره

٤٥٨ الهدف من الجهاد و بشرى كريمه:

٤٦٣ الآية [سوره الأنفال (٨): آيه ٤١]

٤٦٣ اشاره

التفسير ٤٦٣

اشاره ٤٦٣

الخمسة فرض إسلامي مهم: ٤٦٣

ملاحظات ٤٦٤

اشاره ٤٦٤

١- يوم الفرقان بين الحق والباطل ٤٦٤

[٢- عدم وجود تضاد بين آية الأنفال و هذه الآية] ٤٦٥

٣- ما هو المراد من ذى القربى؟ ٤٦٥

٤- ما هو المراد من اليتامى و المساكين و ابن السبيل ٤٦٦

٥- هل الغنائم منحصره فى غنائم الحرب ٤٦٧

اشاره ٤٦٧

و أما ما قاله المفسرون: ٤٦٩

٦- ألا يعد تخصيص نصف الخمس لبنى هاشم تبغيضا بين المسلمين؟! ٤٧٢

اشاره ٤٧٢

الجواب: ٤٧٢

٧- ما هو المراد من سهم الله؟ ٤٧٥

الآيات [سورة الأنفال (٨): الآيات ٤٢ الى ٤٤] ٤٧٦

اشاره ٤٧٦

التفسير ٤٧٦

اشاره ٤٧٦

الأمر الذى لا بد منه: ٤٧٦

الآيات [سورة الأنفال (٨): الآيات ٤٥ الى ٤٧] ٤٨١

اشاره ٤٨١

التفسير ٤٨١

اشاره ٤٨١

سته أوامر أخرى فى شأن الجهاد: ٤٨١

الآيات [سوره الأنفال (٨): الآيات ٤٨ الى ٥١] ٤٨٤

اشاره ٤٨٤

التفسير ٤٨٤

اشاره ٤٨٤

المشركون و المنافقون و وساوس الشيطان: ٤٨٤

هل جاء الشيطان عن طريق الوسوسة أو ظهر متجسدا لهم؟ ٤٨٤

الآيات: ٤٩٠

اشاره ٤٩٠

التفسير ٤٩٠

اشاره ٤٩٠

سنه الله تقبل التغيير و التبديل: ٤٩٠

الجواب على سؤال: ٤٩١

ملاحظتان ٤٩٢

اشاره ٤٩٢

١-أسباب حياه الشعوب و موتها ٤٩٢

٢-لا جبر في العاقبه و لا جبر في التأريخ،و لا في سائر الأمور... ٤٩٤

الآيات [سوره الأنفال (٨): الآيات ٥٥ الى ٥٩] ٤٩٨

اشاره ٤٩٨

التفسير ٤٩٨

اشاره ٤٩٨

مواجهه من ينقض العهد بشده! ٤٩٨

الآيات [سوره الأنفال (٨): الآيات ٦٠ الى ٦٤] ٥٠٢

اشاره ٥٠٢

التفسير ٥٠٢

اشاره ٥٠٢

المزيد من التعبئه العسكريه و الهدف منها: ٥٠٢

ملاحظات ٥٠٣

اشاره ٥٠٣

الهدف من تهيئته السلاح و زياده التعبئه العسكريه: ٥٠٦

ملاحظتان ٥٠٨

اشاره ٥٠٨

١-من هم المقصودون فى الآيه «الذين لا تعلمونهم» ٥٠٨

٢-الاستعداد فى كل مكان و زمان ٥٠٩

أهداف الجهاد فى الإسلام و أركانه: ٥١٠

الاستعداد للصلح: ٥١١

ملاحظتان ٥١٣

الآيتان [سوره الأنفال (٨): الآيات ٦٥ الى ٦٦] ٥١٦

اشاره ٥١٦

التفسير ٥١٦

اشاره ٥١٦

لا ترتقبوا تساوى القوى: ٥١٦

بحوث ٥١٨

اشاره ٥١٨

١-هل نسخت الآيه الأولى ٥١٨

٢-أسطوره توازن القوى ٥١٩

٣-ما هو المراد من الآيتين؟ ٥٢١

الآيات [سوره الأنفال (٨): الآيات ٦٧ الى ٧١] ٥٢٣

اشاره ٥٢٣

التفسير ٥٢٣

اشاره ٥٢٣

أسرى الحرب: ٥٢٣

ملاحظات ٥٢٦

- ٥٢٦ اشاره
- ٥٣٠ هل أن أخذ «الفداء» أمر منطقي عادل؟! ..
- ٥٣٤ الآيات [سوره الأنفال (٨): الآيات ٧٢ الى ٧٥] ..
- ٥٣٤ اشاره
- ٥٣٥ التفسير
- ٥٣٥ اشاره
- ٥٣٥ أربع طوائف مختلفه: ..
- ٥٣٩ ملاحظات ..
- ٥٣٩ اشاره
- ٥٣٩ ١-الهجرة و الجهاد ..
- ٥٤٢ ٢-المبالغه و الإغراق في تنزيه الصحابه ..
- ٥٤٤ ٣-الإرث في قوانين الإسلام ..
- ٥٤٥ ٤-ما المراد من الفتنه و الفساد الكبير ..
- ٥٤٧ سوره التوبه ..
- ٥٤٧ اشاره
- ٥٤٩ ١-أسماء هذه السوره...
- ٥٤٩ ٢-متى نزلت هذه السوره ..
- ٥٥٠ ٣-محتوى السوره ..
- ٥٥١ ٤-لم تبدأ هذه السوره بالبسملة؟ ..
- ٥٥٢ ٥-فضيله هذه السوره و آثارها ..
- ٥٥٣ ٦-حقيقه تاريخيه يسعى بعضهم إلى طمس معالمها ..
- ٥٥٦ توضيح و تحقيق: ..
- ٥٥٩ الآياتان [سوره التوبه (٩): الآيات ١ الى ٢] ..
- ٥٥٩ اشاره
- ٥٥٩ التفسير
- ٥٥٩ اشاره

إلغاء عهود المشركين: ٥٥٩

ملاحظات ٥٦٠

اشاره ٥٦٠

١- هل يصح إلغاء المعاهده من جانب واحد؟! ٥٦٠

٢- متى بدأت الأشهر الأربعة؟ ٥٦٢

الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ٣ الى ٤] ٥٦٣

اشاره ٥٦٣

التفسير ٥٦٣

اشاره ٥٦٣

العهود المحترمه: ٥٦٣

ملاحظات ٥٦٥

اشاره ٥٦٥

١- الحج الأكبر! ٥٦٥

٢- المواد الأربع التي أعلنت ذلك اليوم ٥٦٦

٣- من هم الذين كانت لهم عهود «إلى مده» ٥٦٦

الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ٥ الى ٦] ٥٦٧

اشاره ٥٦٧

التفسير ٥٦٧

اشاره ٥٦٧

الشده المقرونه بالتزقق: ٥٦٧

ملاحظات ٥٦٩

اشاره ٥٦٩

١- ما المراد من الأشهر الحرم؟ ٥٦٩

٢- هل الصلاه و الزكاه شرط في قبول الإسلام؟ ٥٧٠

٣- الإيمان وليد العلم ٥٧٠

الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ٧ الى ١٠] ٥٧١

٥٧١ اشارة

٥٧١ التفسير

٥٧١ اشارة

٥٧١ المعتدون الناقضون العهد:

٥٧٤ ملاحظتان

٥٧٤ اشارة

٥٧٤ ١-من هم المستثنون فى هذه الآيه؟

٥٧٥ ٢-متى يجوز الغاء المعاهده؟

٥٧٦ الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ١١ الى ١٥]

٥٧٦ اشارة

٥٧٦ التفسير

٥٧٦ اشارة

٥٧٦ لم تخشون مقاتله العدو؟!

٥٧٩ ملاحظات

٥٨٤ الآيه [سوره التوبه (٩): آيه ١٦]

٥٨٤ اشارة

٥٨٤ التفسير

٥٨٦ الآيتان [سوره التوبه (٩): الآيات ١٧ الى ١٨]

٥٨٦ اشارة

٥٨٦ التفسير

٥٨٦ اشارة

٥٨٦ من يعمر مساجد الله؟

٥٨٨ ملاحظات

٥٨٨ اشارة

٥٨٨ ١-ما المراد من العماره

٥٨٩ ٢-العمل الخالص ينبع من الإيمان فحسب

٥٨٩ ٣-الحماه الشجعان

٥٨٩ ٤-هل المراد من الآية هو المسجد الحرام فحسب؟!

٥٩٠ ٥-أهميه بناء المساجد

٥٩١ الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ١٩ الى ٢٢]

٥٩١ اشاره

٥٩١ سبب النزول

٥٩٢ التفسير

٥٩٢ اشاره

٥٩٢ مقياس الفخر و الفضل:

٥٩٤ ملاحظتان

٥٩٤ اشاره

٥٩٤ ١-تحريف التاريخ

٥٩٨ ٢-ما هو مقام الرضوان؟

٥٩٩ الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ٢٣ الى ٢٤]

٥٩٩ اشاره

٥٩٩ التفسير

٥٩٩ اشاره

٥٩٩ كلّ شيء فداء للهدف:

٦٠٢ ملاحظات

٦٠٢ اشاره

٦٠٣ الماضي و الحاضر مرهونان بهذا الأمر:

٦٠٤ الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ٢٥ الى ٢٧]

٦٠٤ اشاره

٦٠٤ التفسير

٦٠٤ اشاره

٦٠٤ الكثرة وحدها لا تجدى نفعاً:

٦٠٧ ----- ملاحظات

٦٠٧ ----- اشاره

٦٠٧ ----- ١-غزوه حنين ذات العبره

٦٠٩ ----- ٢-من هم الفازين

٦١١ ----- ٣-الإيمان و السكينه

٦١٤ ----- الآية [سوره التوبه (٩): آيه ٢٨]

٦١٤ ----- اشاره

٦١٤ ----- التفسير

٦١٤ ----- اشاره

٦١٤ ----- لا يحقّ للمشركين أن يدخلوا المسجد الحرام:

٦١٦ ----- الآية [سوره التوبه (٩): آيه ٢٩]

٦١٦ ----- اشاره

٦١٦ ----- التفسير

٦١٦ ----- اشاره

٦١٦ ----- مسئوليتنا إزاء أهل الكتاب:

٦٢٠ ----- ما هي الجزية؟!

٦٢٣ ----- نص كتاب المعاهده:

٦٤٠ ----- تعريف مركز

سرشناسه: مکارم شیرازی، ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدیدآور: الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل / تالیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا]

وضعیت ویراست: [ویرایش ۲]

مشخصات نشر: قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری: ج ۲۰

شابک: ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۳-X(دوره)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۹-۱(ج.۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۳-۲(ج.۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۸-۳(ج.۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۲-۴(ج.۴)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۷-۵(ج.۵)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۱-۶(ج.۶)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۶-۷(ج.۷)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۰-۸(ج.۸)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۵-۹(ج.۹)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۴-۱۰(ج.۱۰)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۲-۱۱(ج.۱۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۷-۱۲(ج.۱۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۱-۱۳(ج.۱۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۰-۱۵(ج.۱۵)

وضعیت فهرست نویسی: فهرست نویسی قبلی

یادداشت: کتاب حاضر ترجمه و تلخیص "تفسیر نمونه" است

یادداشت: کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است

یادداشت: کتابنامه

موضوع: تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)

رده بندی کنگره: BP۹۸/م ۷ ۷۰۴۴۷ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی: م ۷۹-۱۰۳۹۱

إشارة

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ٢٦ إلى ٢٨]

إشارة

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسٌ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنَ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ (٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِذَا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَحَدَّثْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨)

التفسير

إشارة

إنذار إلى كل أبناء آدم:

إن قصة آدم و مشكلته مع الشيطان- كما أسلفنا في آخر بحث في الآيات السابقة- عكست تصويرا واقعيا عن حياه جميع أفراد البشر على الأرض، و لهذا بين الله تعالى في الآيات الحاضره و ما بعدها سلسله من التعاليم و البرامج البّناءه لجميع أبناء آدم، و هي تعتبر في الحقيقه استمرارا لبرامج آدم في الجنه.

ففي البدايه يشير إلى مسأله اللباس و ستر سوعات البدن التي كان لها دور

ص: ٥

مهم في قصه آدم، إذ يقول: يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ .

و لكن فائده اللباس الذي أرسلناه لكم لا- تقتصر على ستر البدن و إخفاء العيوب و السوءات، بل للتجمل و الزينه أيضا حيث يجعل أجسامكم أجمل ممّا هي عليه. وَ رِيشًا .

و كلمه «ريش» في الأصل هو ما يستر أجسام الطيور، و حيث أنّ ريش الطيور هو اللباس الطبيعي في أجسامها، لهذا أطلق على نوع من أنواع الألبسه، و لكن حيث أنّ ريش الطير في الأ-غلب مختلف الألوان جميلها، لذلك تتضمن هذه الكلمه مفهوم الزينه و الجمال، هذا مضافا إلى أنّه تطلق كلمه الريش على الأقمشه التي تلقى على سرج الفرس أو جهاز البعير.

و قد أطلق بعض المفسّرين و أهل اللغه هذه اللفظه على معنى أوسع أيضا، و هو كل نوع من أنواع الأثاث و الحاجيات التي يحتاج إليها الإنسان، و لكن الأنسب في الآيه الحاضره هو الألبسه الجميله و ثياب الزينه.

ثمّ تحدث القرآن عقيب هذه الجمله التي كانت حول اللباس الظاهري، عن حدّ اللباس المعنوي تبعا لسيرته في الكثير من الموارد التي تمزج بين الجانبين المادى و المعنوي، الظاهري و الباطني إذ قال: وَ لِبَاسٍ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ .

و تشبيه التقوى باللباس تشبيه قوى الدلاله، معيّر جدا، لأنّه كما أنّ اللباس يحفظ البدن من الحرّ و القرّ، يقى الجسم عن الكثير من الأخطار، و يستر العيوب الجسمانيه، و هو بالإضافة الى هذا و ذاك زينه للإنسان، و وقايتها من الكثير من الأخطار الفرديه و الاجتماعيه، تعدّ زينه كبرى له... زينه ملفته للنظر تضيف إلى شخصيته رفعة و سَمَوا، و تزيدها جلالا و بهاء.

ثمّ إنّ هناك مذاهب متعدده للمفسّرين في تحديد المراد من لباس التقوى،

و أنه ما هو؟ في بعض فسّيره ب«العمل الصالح» و بعض ب«الحياء» و بعض ب«لباس العباده»، و بعض ب«لباس الحرب» مثل الدرع و الخوذه، و حتى الترس، لأنّ لفظه التقوى مشتقّه من ماده «الوقايه» بمعنى الحفظ و حمايه، و بهذا المعنى جاء في القرآن الكريم أيضا، كما نقرأ في سورة النحل الآيه (٨١): وَ جَعَلَ لَكُم سَرَائِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَ سَرَائِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ....

و لكن للآيات القرآنيه- كما قلنا مرارا- معنى واسع في الغالب، و لها مصاديق متعدده و مختلفه، و في الآيه الحاضره- أيضا- يمكن استفاده جميع هذه المعاني منها.

و حيث أنّ لباس التقوى في هذه الآيه موضوع في مقابل اللباس الساتر للبدن، لهذا يبدو للنظر أنّ المراد منه هو «روح التقوى» التي تحفظ الإنسان، و تنطوي تحتها معاني «الحياء» و «العمل الصالح» و أمثالهما.

ثمّ إنّ الله تعالى يقول في ختام الآيه: ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ أَى إِنَّ هَذِهِ الْأَلْبَسَةُ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لَكُمْ، سِوَاءِ الْأَلْبَسَةِ الْمَادِيَةِ أَوِ الْمَعْنَوِيَةِ، اللباس الجسماني أو لباس التقوى، كلّها من آيات الله ليتذكر الناس نعم الربّ تعالى.

نزول اللباس!

نلاحظ في آيات متعدده من القرآن الكريم أنّ الله سبحانه يقول في صعيد توفير اللباس للبشر: «و أنزلنا» و هو بمعنى الإرسال من مكان عال إلى الأسفل، إذ يقول: قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا فِي حِينِ أَنْ اللباس كما هو المعلوم أمّا أنّه يتّخذ من الصوف، أو يتّخذ من مواد نباتيه و ما شاكل ذلك من أشياء الأرض.

كما أننا نقرأ في الآيه (٦) من سورة الزمر وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ و في سورة الحديد الآيه (٣٥) وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ. فما ذا يعنى هذا؟

يصرّ كثير من المفسّرين على تفسير مثل هذه الآيات بالتّزول المكانيّ أى من فوق إلى تحت، مثلاً يقولون: إنّ ماء المطر ينزل من السماء إلى الأرض فتروى منه النباتات و الحيوانات، من هنا تكون موادّ اللباس قد نزلت- بهذا المعنى- من السماء إلى الأرض.

و فى مجال الحديد أيضا يقولون: إنّ الأحجار و الصخور السماويه العظيمه التى تحتوى على عناصر الحديد قد انجذبت إلى الأرض.

و لكن التّزول ربّما استعمل بمعنى التّزول المقامى، و قد استعملت هذه اللفظه فى المحاورات اليوميه بهذا الشكل كثيرا، فيقال مثلا: أصدر الحاكم أمره إلى أمرائه و معاونيه، أو يقال: رفعت شكواى إلى القاضى، لهذا لا داعى إلى الإصرار على تفسير هذه الآيات بالتّزول المكانيّ.

فحيث أنّ النعم الإلهيه قد صدرت من المقام الرّبوبى الرفيع إلى البشر، لهذا عبّر عن هذا المفهوم بهذا اللفظ، و هو تعبیر يدركه الإنسان بدون إشكال أو صعوبه.

و يشبه هذا الموضوع ما نلاحظه فى ألفاظ الإشاره القريبه و البعيده أيضا، فقد يكون شىء ما ذا بال أو موضوع مهمّ فى متناول أيدينا، و لكنّه- لما كان من حيث الشّأن- يتمتّع بمقام مهمّ رفيع، فإنّنا نشير إليه باسم الإشاره البعيده، فنقول فى محاوراتنا مثلا: تلك الشّخصيه، و نحن نقصد رجلا حاضرا قريبا، و قد جاء فى القرآن الكريم: **ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ**. و المقصود من الكتاب المشار إليه بالإشاره البعيده القرآن الحاضر، و لكن تعظيما له أستعيض فى الإشاره إليه عن أداء الإشاره القريبه بأداه الإشاره البعيده.

اللباس فى الماضى و الحاضر:

لم يزل الإنسان فيما مضى- كما يشهد به التاريخ- يلبس الثياب، و لكن

الألبسه قد تغيرت و تنوعت تنوعا بالغا عبر الزمن، فقد كانت الثياب تلبس فيما سبق-و في الأغلب-لأجل حفظ الجسم من الحرّ و القرّ و كذا للزينة و التجميل، و الجانب الوقائي كان يأتي في الدرجة اللاحقه، و لكن في ظل الحياه الصناعيه الحاضره أصبح الجانب الوقائي في المرتبه الأولى من الأهميه في كثير من الحقول، فرجال الفضاء و رجال الإطفاء، و عمال المعادن و المناجم و الغواصون، و غيرهم كثيرون، يستخدمون ألبسه خاصه لوقايه أنفسهم من مختلف الأخطار.

لقد تطورت وسائل إنتاج الألبسه و الثياب في عصرنا الراهن تطورا هائلا، و اتسع نطاقها اتساعا كبيرا، بحيث أصبح لا يقاس بما مضى.

يقول كاتب تفسير المنار في المجلد الثامن عند تفسير الآيه المبحوثة هنا:

«لقد بلغ من إتقان صناعات اللباس أنّ عاهل ألمانيه الأخير (قيصرها) دخل مرّه أحد معامل الثياب ليشاهد ما وصلت إليه من الإتقان، فجزوا أمامه عند دخوله صوف بعض كباش الغنم، و لما انتهى من التجوال في المعمل و مشاهده أنواع العمل فيه، و أراد الخروج قدّموا له معطفا ليلبسه تذكارا لهذه الزياره، و أخبروه أنّه صنع من الصوف الذي جزوه أمامه عند دخوله، فهم قد نظفوه في الآلات المنظّفه، فغزلوه بآلات الغزل، فنسجوه بآلات النسج، ففصّموه فخاطوه في تلك الفتره القصيره، فانقل في ساعه أو ساعتين من ظهر الخروف إلى ظهر الإمبراطور» (1).

و لكن-للأسف-قد اتسعت الجوانب الفرعيه، بل و غير المحموده و الفاضحه للثياب و الألبسه و تعددت كثيرا إلى درجه أنّها غطت على الفلسفه الأصليه للباس.

لقد أصبح اللباس-اليوم-وسيله لأنواع التظاهر، و إشاعه الفساد، و تحريك الشهوات، و التكبر و الإسراف و التبذير، و ما شابه ذلك. حتى أنّنا ربّما نشاهد

ص: ٩

ألبسه يرتديها جماعات من الناس -و بخاصة الشباب المتغرب- يفوق طابعها الجنوني على الطابع العقلاني، و تكون أشبه بكل شئ إلا باللباس و الثوب.

و الذى تقود إليه الدراسة الموضوعية لهذه الظاهره، هو أنّ للعقد النفسى دورا مهمّا فى ارتداء مثل هذه الألبسه العجيبه الغربيه، فالأفراد الذين لا يتمكنون من القيام بعمل مهم و ملفت للنظر لتوكيد وجودهم فى المجتمع يلجأون إلى هذا الأسلوب و يحاولون بارتداء هذه الألبسه غير المأنوسه و العجيبه إثبات وجودهم و حضورهم، و لهذا نلاحظ أنّ أصحاب الشخصيات المحترمه، أو الذين لا يعانون من عقد نفسيه ينفرون من ارتداء مثل هذه الثياب.

و على كل حال فإنّ مبالغ طائله و ثروات عظيمه جدّا تهدر و تبدّد -اليوم- فى سبيل اقتناء و تعاطى الألبسه المتنوعه و الموضات المختلفه و لو منع من تبذيرها و تبديدها و الإسراف فيها لأمكن حل الكثير من المشكلات الاجتماعيه بها، و لتحولت إلى بلاسم و ضمادات ناجعه لكثير من جراحات الطبقات المحرومه و الفئات البائسه الفقيره فى المجتمعات البشريه.

هذا و يستفاد من تاريخ حياه رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم و سائر الأئمه العظام أنّهم كانوا يعارضون بشده مسأله التفاخر بالألبسه و الإفراط فى التجمل بها، إلى درجه أننا نقرأ فى الروايات أنّ وفدا من النصارى قدم على رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم المدينه، و هم يلبسون الألبسه الحريره الجميله جدا، و التى لم يرها العرب إلى ذلك اليوم و لم يعهد أن لبسوها، فلما حضروا عند رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم سلموا عليه، لم يردّ رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم على سلامهم، بل أحجم حتى عن التحدث معهم و لو بكلمه، و أعرض عنهم،

فلما سألوا علينا عليه السلام عن سبب إعراض النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم عنهم، قال عليه السلام لهم: أرى أن تضعوا حللكم هذه و خواتيمكن ثمّ تعودون إليه.

ففعل النصارى ما قاله لهم الإمام عليه السلام، ثمّ دخلوا على النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم فسلموا عليه فردّ عليهم و تحدث معهم. ثمّ قال النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم: «و الذى بعثنى بالحق لقد أتونى

الآية اللاحقة يحذّر فيها الله سبحانه جميع أبناء البشر من ذرية آدم من كيد الشيطان و مكره، و يدعو إلى مراقبته، و الحذر منه، لأنّ الشيطان أبدى عداؤه لأبيهم آدم، فكما أنّه نزع عنه لباس الجنّة بوساوسه يمكن أن ينزع عنهم لباس التقوى، و لهذا يقول تعالى: يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا .

و فى الحقيقة إنّ الأمر الذى يربط الآيه الحاضره بالآيه السابقه هو أنّ الآيه السابقه تحدثت عن اللباس الظاهرى و المعنوى للإنسان (لباس التقوى)، و هذه الآيه تضمنت تحذيرا و دعوه له لمراقبه الشيطان و الحذر من نزعه لباس التقوى عنكم.

على أنّ ظاهر عبارته لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ هو نهى الشيطان عن هذا العمل، و لكن أمثال هذه العبارات تعتبر كنايات لطيفه لنهى المخاطب، و تشبه ما إذا خاطبنا صديقا نجبه قائلين: لا يصح أن يوجه إليك فلان ضربه، أى راقبه حتى لا تتعرض لضربته و أذاه.

ثمّ إنّ الله تعالى يؤكّد على أنّ الشيطان و أعوانه يختلفون عن غيرهم من الأعداء إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ فلا بدّ من شدّه الحذر من مثل هذا العدو.

و فى الحقيقة عند ما تظن أنك و حيد، فإنّه من الممكن أن يكون حاضرا معك، فيجب عليك الحذر من هذا العدو الخفى الذى لا يمكن معرفه لحظات هجومه و عدوانه المباغت، و لا بدّ من اتخاذ حاله الدفاع الدائم أمامه.

و فى خاتمه الآيه يأتى سبحانه بجمله هى فى الحقيقة إجابته على سؤال

مهم، فقد يتساءل أحد: كيف سلط الله العادل الرحيم عدواً بهذه القوه على الإنسان... عدواً لا- يمكن مقايسه قواه بقوى الإنسان... عدوا يذهب حيث يشاء دون أن يحس أحد بتحركاته، بل إنه-حسبما جاء فى بعض الأحاديث-يجرى من الإنسان مجرى الدم فى عروقه، فهل تنسجم هذه الحقيقه مع عداله الله سبحانه؟! الآيه الشريفه-فى خاتمتها-ترد على هذا السؤال الاحتمالى إذ تقول: **إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ** .

أى إن الشياطين لا يسمح لهم قط بأن يتسللوا و ينقدوا إلى قلوب و أرواح المؤمنين الذين لم يكونوا على استعداد لقبول الشيطان و التعامل معه.

و بعبارة أخرى: إن الخطوات الأولى نحو الشيطان إنما يخطوها الإنسان نفسه، و هو الذى يسمح للشيطان بأن يتسلل إلى مملكه جسمه. فالشيطان لا يستطيع اجتياز حدود الروح و يعبرها إلا بعد موافقه من الإنسان نفسه، فإذا أغلق الإنسان نوافذ قلبه فى وجه الشياطين و الأبالسه، فسوف لا تتمكن من النفوذ إلى باطنه.

إن الآيات القرآنيه الأخرى شاهده أيضا على هذه الحقيقه، ففى سوره النحل فى الآيه (١٠٠) نقرأ **إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ**، فالذين يتعشقون الشيطان و يسلمون إليه زمام أمرهم و يعبدونه هم الذين يتعرضون لسيطرته و وساوسه. و فى الآيه (٤٧) من سوره الحجر نقرأ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ** .

و بعبارة أخرى: صحيح أننا لا نرى الشيطان و جنوده و أعوانه، إلا أننا نستطيع أن نرى آثار أقدامهم، ففى كل مجلس معصيه، و فى كل مكان تهيات فيه وسائل الذنب، و فى كل مكان توفرت فيه زبارج الدنيا و بهارجها، و عند طغيان الغرائز، و عند اشتعال لهيب الغضب، يكون حضور الشيطان حتميا و مسلما، و كأن

الإنسان يسمع في هذه المواقع صوت وساوس الشيطان بآذان قلبه، ويرى آثار قدمه بأمّ عينيه.

و

قد روى في هذا الصعيد-حديث رائع عن الإمام الباقر عليه السلام إذ يقول:

«لما دعا نوح ربّه عز و جل على قومه أتاه إبليس لعنه الله فقال: يا نوح إنّ لك عندى يدا!! أريد أن أكافئك عليها.

فقال نوح: إنّه ليبغض إليّ أن يكون لك عندى يد، فما هي؟ قال: بلى دعوت الله على قومك فأغرقتهم، فلم يبق أحد أغويه، فأنا مستريح حتى ينشأ قرن آخر و أغويهم.

فقال نوح: ما الذى تريد أن تكافيني به؟ قال: أذكرك فى ثلاثه مواطن، فإننى أقرب ما أكون إلى العبد إذا كان فى أحدهن:

أذكركى إذا غضبت؟ و اذكركى إذا حكمت بين اثنين! و اذكركى إذا كنت مع امرأه خاليا ليس معكما أحدا! (1).

النقطه الأخرى التى يجب الانتباه إليها هنا، هي أنّ ثلّه من المفسّرين استنبطوا من هذه الآية أنّ الشيطان غير قابل للرؤيه للإنسان مطلقا، فى حين يستفاد من بعض الروايات أنّ هذا الأمر ممكن أحيانا.

و لكن الظاهر أنّ هذين الاتجاهين غير متعارضين، لأنّ القاعده الأوليه و الأصليه هي أن لا يرى، و لكن لهذه القاعده-كغيرها- استثناءات، فلا تناف فى الآية التالیه يشير تعالى إلى واحده من وساوس الشيطان المهمّه و التى

ص: ١٣

تجرى على ألسنه بعض الشياطين من الإنس أيضا، و هي أنه عند ما يسأل الشخص لدى ارتكابه عملا قبيحا، عن دليله يجب قائلا: هذا ما وجدنا آباءنا يفعلونه: وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا .

ثم يضيفون إلى هذه الحجّة حجّة كاذبه أخرى قائلين: وَاللَّهِ أَمَرْنَا بِهَا .

إنّ مسأله التقليد الأعمى للآباء، بالإضافة إلى الافتراء على الله، عذران مختلفان، و حجّتان داحضتان يتشبت بهما العصاه المتشيطون لتبرير أعمالهم القبيحه غالبا.

و الملفت للنظر أنّ القرآن الكريم لم يعبأ بالدليل الأوّل (يعنى التقليد الأعمى للآباء و الأسلاف) و لم يعتن به، و كأنّه وجد نفسه فى غنى عن الرّد عليه و إبطاله، لأنّ العقل السليم يدرك بطلانه، هذا مضافا إلى أنّه قد ردّ عليه فى مواضع عديده من القرآن الكريم. و إنّما اكتفى بالردّ على الحجّة الثانيه، أو بالأحرى (التبرير الثاني) حيث قال: قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ .

إنّ الأمر بالفحشاء حسب تصريح الآيات القرآنيه عمل الشيطان لا- عمل الله، فإنّه تعالى لا يأمر إلاّ بالمعروف و الخير (1) ثمّ يختم الآيه بهذه العبارة: أ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

و رغم أنّ الأنسب أن يقول: لماذا تنسبون ما هو كذب و ليس له واقع إلى الله؟ لكنّه قال بدل ذلك: لماذا تقولون ما لا تعلمون على الله؟ و هذا فى الحقيقة استنادا الى الحدّ الأدنى من موضع قبول الطرف الآخر، فيقال: إذا كنتم لا- تتيقنون كذب هذا الكلام، فعلى الأقلّ ليس لديكم دليل على إثباته، فلما ذا تتهمون الله و تقولون على الله ما لا تعلمون؟!.

ص: ١٤

ما هو المراد من الفحشاء هنا؟ قالت طائفة كبيره من المفسرين: إنها إشاره إلى تقليد كان سائدا بين جماعه من العرب فى العهد الجاهلى، و هو الطواف حول بيت الله المعظم عريانا «رجالا- و نساء» ظنا منهم بأن الثياب التى ارتكبت فيها الذنوب لا تليق بأن يطاف بها حول الكعبه المعظمه.

على أن هذا التفسير يتناسب مع الآيات السابقه التى دار الحديث فيها عن الثياب و الألبسه.

و لكننا نقرأ فى روايات متعدده أن المراد من الفحشاء هنا هو كلام حكام الجور الذين يدعون الناس إلى أنفسهم، و يعتقدون بأن الله فرض طاعتهم على الناس.

و لكن بعض المفسرين-مثل كاتب «المنار» و «الميزان»-أخذوا للآيه مفهومه و اسعا إذ قالوا: إن الفحشاء تشمل كل عمل قبيح منكر، و بملاحظه سعه مفهوم لفظه الفاحشه، فإن الأنسب هو أن للآيه معنى و اسعا سعه معنى الكلمه، و مسأله «الطواف بالبيت عريانا» و «اتباع القاده و الزعماء الظلمه» تعد من المصاديق الواضحه لذلك، فلا منافاه بين الطائفتين من الروايات.

هذا و قد أعطينا توضيحا كافيا حول التسليم المطلق لتقاليد الأسلاف و أعرافهم عند تفسير الآيه (١٧٠) من سوره البقره.

اشاره

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشُّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠)

التفسير

حيث أنّ الحديث في الآيه السابقه دار حول الفحشاء التي يشمل مفهومها كلّ أنواع الفعل القبيح، وتؤكد أنّ الله يأمر بالفحشاء إطلاقاً لهذا أشير في هذه الآيه إلى أصول و مبادئ التعاليم الإلهيه في مجال الوظائف و الواجبات العمليه في جمله قصيره، ثم تبعه بيان أصول العقائد الدينيه، أى المبدأ و المعاد، بصوره مختصره موجزه.

يقول أولاً: أيتها النبي قلّ أمر ربّي بالقسط و العدل.

و نحن نعلم أنّ للعدل مفهومًا واسعًا يشمل جميع الأعمال الصالحه، لأنّ حقيقه العدل هي استخدام كل شيء في مجاله، و وضع كل شيء في محله.

ثمّ إنّه و إن كان بين «العداله» و «القسط» تفاوتًا، إذ تطلق «العداله» و يراد

منها إعطاء كل ذى حق حقه، و يقابلها «الظلم» و هو منع ذوى الحقوق من حقوقهم، بينما يعنى «القسط» أن لا تعطى حق أحد لغيره.

و بعبارة أخرى: أن لا يرضى بالتبعيض، و يقابله أن يعطى حق أحد لغيره.

و لكن المفهوم الواسع لهاتين الكلمتين اللتين قد تستعملان منفصلتين، متساو تقريبا، و هما يعنيان رعايه الاعتدال و التوازن فى كل شىء و فى كل عمل، و بالتالى وضع كل شىء فى مكانه.

ثم إنه سبحانه أمر بالتوحيد فى العباده و محاربه كل ألوان الشرك و أنواعه، إذ قال: **وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ** أى وجهوا قلوبكم نحو الله الواحد دون سواه، **وَ اذْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** .

و بعد تحكيم و إرساء قاعده التوحيد، وجه الأنظار نحو مسأله المعاد و البعث يوم القيامة، إذ قال: **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** .

بحثان

إشارة

هنا نقطتان يجب الالتفات إليهما و الوقوف عندهما:

١- ما المقصود من «أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ...»

ذكر المفسرون فى تفسير **أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ** تفاسير متنوعه، فتاره قالوا: المراد هو التوجه صوب القبله.

و أخرى: إنَّ المراد هو المشاركه فى المساجد أثناء الصلوات اليوميه.

و ثالثه احتملوا أيضا أن يكون الهدف منه هو حضور القلب و النيه الخالصه عند العباده.

و لكن التفسير الذى ذكرناه أعلاه (أى التوجه إلى الله، و محاربه كل ألوان

الشرك و التوجه إلى غير الله) يبدو للنظر أنه أنسب مع ما سبق و ما يلحق هذه الجملة، و إن لم تكن إرادته كل هذه المعاني بعيدة عن مفهوم الآيه أيضا.

٢- أقصر الأدله على المعاد

لقد بحث أمر المعاد و البعث في يوم القيامة كثيرا، و يستفاد من آيات القرآن الكريم أنّ هضم هذه المسأله كان أمرا صعبا و عسيرا بالنسبه إلى كثير من الناس في العصور الغابره، إلى درجه أنّهم كانوا يتخذون أحيانا من طرح مسأله القيامة و المعاد من قبل الأنبياء دليلا على عدم صحه دعوتهم، و بل حتى (و العياذ بالله) دليلا على الجنون و يقولون: أفتري على الله كذبا أم به جنه (١).

و لكن يجب الانتباه إلى أنّ ما كان يدعو لمزيد من تعجبهم و دهشتهم، هو مسأله المعاد الجسماني، لأنهم ما كانوا يصدّقون بأنّ الأبدان بعد صيرورتها ترابا، و تبعثر ذراتها بفعل الرياح و الأعاصير و تناثرها في أرجاء الأرض. أن تجتمع هذه الذرات المتبعثره من بين أكوام التراب. و أمواج البحار، و من بين ثنايا ذرات الهواء، و يلبس ذلك الإنسان لباس الوجود و الحياه مره أخرى.

إن القرآن الكريم أجاب في آيات متنوعه على هذا الظن الخاطيء، و الآيه الحاضره تعكس إحدى أقصر و أجمل التعابير في هذا المجال، إذ تقول: أنظروا إلى بدايه الخلق، انظروا إلى جسمكم الذي يتكون من مقدار كبير من الماء، و مقدار أقل من المواد المعدنيه و شبه المعدنيه المختلفه المتنوعه أين كان في السابق؟ فالمياه المستخدمه في جسمكم يحتمل أنّ كل قطره منها كانت سادره في محيط من محيطات الأرض ثمّ تبخّرت و تبدلت إلى السّحب، ثمّ نزلت في شكل قطرات المطر على الأرض، و الذرات التي استخدمت في نسيج جسمكم من مواد الأرض الجامده كانت ذات يوم في هيئه حبه قمح أو ثمره شجره، أو خضروات مختلفه جمعت من مختلف نقاط الأرض.

ص: ١٨

و على هذا فلا مكان للتعجب و الدهشه إذا سمعنا أنه بعد تلاشى بدن الإنسان و رجوعه إلى حالته الأولى تجتمع تلك الذرات ثانية، و تتواصل و تترابط و يتشكل الجسم الأول، فلو كان هذا الأمر محالاً فلما ذا وقع في مبدأ الخلقه.

إذا «كما بدأكم» الله «تعودون» أى يعيدكم فى الآخره، و هذا هو الموضوع الذى تضمنته العبارة القصيره.

فى الآيه اللاحقه يصف سبحانه ردود الفعل التى أظهرها الناس قبال هذه الدعوه (الدعوه إلى التوحيد و الخير و المعاد) فيقول:
فَرِيقًا هَدَىٰ وَ فَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ . (١)

و لأجل أن لا يتصور أحد أن الله يهدى فريقاً أو يضلّ فريقاً من دون سبب، أضاف فى الجمله ما يلى: إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أى إنّ الضالين هم الذين اختاروا الشياطين أولياء لهم بدل أن يدخلوا تحت ولايه الله، فضلوا.

و العجب أنه رغم كل ما أصابهم من ضلال و انحراف يحسبون أنهم المهتدون الحقيقيون و يحسبون أنهم مهتدون .

إنّ هذه الحاله تختص بالذين غرقوا فى الطغيان و المعصيه، و كان انغماسهم فى الفساد، و الضلال و الانحراف، و الوثنيه، كبيراً إلى درجه أنه انقلبت حاسه تمييزهم رأساً على عقب، فحسبوا القبيح حسناً، و الضلالات هدايه، و فى هذه الحاله أغلقت فى وجوههم كل أبواب الهدايه، و هذا هو ما أوجدوه و جلبوه لأنفسهم.

ص: ١٩

١ - ١) جملته «فريقاً هدى» من حيث الإعراب و التركيب تكون كالتالى: فريقاً مفعول هدى فعل و فاعل مؤخرين، و فريقاً (الثانيه) مفعول مقدم. و أضل فعل و فاعل مؤخران مقدران دل عليهما جملته «حق عليهم الضلاله».

اشاره

يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مِمَّنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢)

التفسير

اشاره

الحديث في هاتين الآيتين يتناسب مع قصه آدم في الجنه، وكذلك يتناول مسأله اللباس و سائر مواهب الحياه، و كيفيه الاستفاده الصحيحه منها.

في البدايه يأمر جميع أبناء آدم ضمن دستور عام أبدي، يشمل جميع الأعصار و القرون، أن يتخذوا زينتهم عند ما يذهبون إلى المساجد يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ .

هذه الجملة يمكن أن تكون إشاره إلى كل «زينه جسمانيه» ممّا يشمل لبس الثياب المرتبه الطاهره الجميله، و مشط الشعر، و استعمال الطيب و العطر و ما شابه ذلك كما يمكن أيضا أن تكون إشاره إلى كل «زينه معنويه» يعنى الصفات

الإنسانيه و الملكات الأخلاقيه، و صدق النيه و طهارتها و إخلاصها.

و إذا رأينا أنّ بعض الروايات الإسلاميه تشير فقط- إلى اللباس الجيد أو مشط الشعر، أو إذا رأينا أنّ بعضها الآخر يتحدث فقط- عن مراسيم صلاه العيد و صلاه الجمعة، فإنّ ذلك لا يدل على الانحصار، بل الهدف هو بيان مصاديقها الواضحه (1) و هكذا إذا رأينا أنّ طائفه أخرى من الروايات تفسر الزينه بالقاده الصالحين (2)، فإنّ كل ذلك يدل على سعه مفهوم الآيه الذى يشمل جميع أنواع الزينه الظاهريه و الباطنيه.

و هذا الحكم و إن كان يتعلق بجميع أبناء آدم فى كل زمان و مكان، إلاّ أنّه ينطوى ضمنا على ذم عمل قبيح كان يقوم به جماعه من الأعراب فى العهد الجاهلى عند دخولهم فى المسجد الحرام و الطواف بالكعبه المعظمه، حيث كانوا يطوفون بالبيت المعظم عراه من دون ساتر يستر عوراتهم، كما أنّه يتضمن- أيضا - نصيحه لأولئك الذين يرتدون عند إقامة الصلاه أو الدخول إلى المساجد ثيابا و سخره خلقه أو ألبسه تخصّ المنزل، و يشتركون فى مراسيم عبادته و هم على تلك الهيئه المزريه، الأمر الذى نشاهده اليوم- و للأسف- بين بعض الغفله السذج من المسلمين، فى حين أننا مكلفون- طبقا للآيه الحاضره، و الروايات الوارده فى هذا الصعيد- بأن نرتدى لدى ارتيادنا للمساجد أفضل ثيابنا و ألبستنا.

ثمّ فى العبارة اللاحقه يشير سبحانه إلى مواهب أخرى، يعنى الأطمعه و الأشربه الطاهره الطيبه، و يقول: وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا .

و لكن حيث أنّ الإنسان حريص بحكم طبيعته البشريه، يمكن أن يسيء

ص: ٢١

١ - ١) للاطلاع على هذه الروايات راجع تفسير البرهان المجلد ٢، الصفحه الثانيه ٩ و ١٠ و تفسير نور الثقلين المجلد الثانى الصفحه ١٨ و ١٩.

٢ - ٢) المصدر السابق.

استخدام هذين التعليمين، و بدل أن يستفيد من نعمه اللباس و الغذاء الصحيح بالشكل المعقول و المعتدل، يسلك سبيل الإسراف و التبذير و البذخ، لهذا أضاف مباشرة قائلا: **وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** .

و كلمه «الإسراف» كلمه جامعه جدًا بحيث تشمل كل إفراط فى الكم و الكيف، و كذا الأعمال العابثه و الإتلاف و ما شابه ذلك، و هذا هو أسلوب القرآن خاصه، فهو عند الحث على الاستفاده من مواهب الحياه و الطبيعه يحذّر فوراً من سوء استخدامها، و يوصى برعايه الاعتدال.

و فى الآيه اللاحقه يعمد إلى الرّد-بلهجه أكثر حدّه-على من يظن أنّ تحريم أنواع الزينه و التزين و الاجتناب من الأطمعه الطيبه الحلال علامه الزهد، و سببا للتقرب إلى الله فيقول: **أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ؟** إذا كانت هذه الأمور قبيحه فإنّ الله تعالى لا يخلق القبيح، و إذا خلقها الله ليمتّع بها عباده فكيف يمكن أن يحرمها؟ و هل يمكن أن يكون هناك تناقض بين جهاز الخلق، و بين التعاليم الدينيه؟! ثم أضاف للتأكيد: **قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ** أى أنّ هذه النعم و المواهب قد خلقت للمؤمنين فى هذه الحياه، و إن كان الآخرون-أيضا-يستفيدون منها رغم عدم صلاحيتهم لذلك، و لكن فى يوم القيامة حيث الحياه الأعلى و الأفضل، و حيث يتميز الخبيث عن الطيب، فإنّ هذه المواهب و النعم ستوضع تحت تصرف المؤمنين الصالحين فقط، و يحرم منها الآخرون حرمانا كلياً.

و على هذا الأساس فإنّ ما هو للمؤمنين فى الدنيا و الآخرة، و خاص بهم فى العالم الآخر كيف يمكن أن يحرم عليهم؟ أنّ الحرام هو ما يورث مفسده، لا ما هو نعمه و موهبه.

هذا وقد احتتمل أيضا فى تفسير هذه العبارة من الآيه أن هذه المواهب و إن كانت فى هذه الدنيا ممزوجه بالآلام و المصائب و البلايا، إلا أنها توضع تحت تصرف المؤمنين و هى خالصه من كل ذلك فى العالم الآخر (و لكن التفسير الأول يبدو أنه أنسب).

و فى ختام الآيه يقول من باب التأكيد: كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

الزينة و التجميل من وجهه نظر الإسلام:

لقد اختار الإسلام-كسائر الموارد-حدّ التوسط و الاعتدال فى مجال الانتفاع و الاستفاده من أنواع الزينه، لا كما يظن البعض من أن التمتع و الاستفاده من الزينه و التجميل-مهما كان بصوره معتدله-أمر مخالف للزهد، و لا كما يتصور المفرطون فى استعمال الزينه و التجميل الذين يجوّزون لأنفسهم فعل كل عمل شائن بغيه الوصول إلى هذا الهدف الرخيص.

و لو أننا أخذنا بناء الجسم و الروح بنظر الإعتبار، لرأينا أن تعاليم الإسلام فى هذا الصعيد تنسجم تماما مع خصائص الروح الإنسانيه و بناء الجسم البشرى و متطلباتهما، و احتياجاتهما الذاتيه.

توضيح ذلك: إن غريزه حبّ الجمال-باعتراف علماء النفس-هى إحدى أبعاد الروح الإنسانيه الأربعة، و التى تشكل مضافا إلى غريزه حب الخير، و غريزه حب الاستطلاع، و غريزه التدين، الأبعاد الأصلية فى النفس الإنسانيه.

و يعتقدون بأنّ جميع الظواهر الجماليه الأدبيه و الشعريه، و الصناعات الجميله، و الفن بمعناه الواقعى، إنما هو نتيجة هذه الغريزه و هذا الإحساس.

و مع هذا كيف يمكن أن يعمد قانون صحيح إلى خنق هذا الحس المتأصل و المتجذر فى أعماق الروح الإنسانيه، و يتجاهل العواقب السيئه فى حال عدم

إشباعه بصورة صحيحة.

ولهذا لم يكتف في الإسلام بتجويز التمتع بجمال الطبيعه والاستفاده من الألبسه الجميله والمناسبه، واستعمال كل أنواع العطور، وما شابه ذلك، بل أوصى بذلك وحث عليه أيضا، ورويت في هذا المجال أحاديث كثيره عن أئمة الدين في المصادر والكتب الموثوقه.

فإننا نقرأ-مثلا-في تاريخ حياه الإمام الحسن المجتبي عليه السلام أنه عند ما كان ينهض إلى الصلاه كان يرتدى أحسن ثيابه، و لما سئل: لماذا يلبس أحسن ثيابه؟

قال: «إنَّ اللهَ جميل يحبُّ الجمال، فأَتَجَمَّلُ لِرَبِّي وَهُوَ يَقُولُ: خذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ» (١).

و

في الحديث أنَّ أحدَ الزهاد، ويدعى عباد بن كثير البصرى، رأى الإمام الصادق عليه السلام وهو يلبس ثيابا غاليه الثمن فقال معترضا عليه: يا أبا عبد الله، إنَّكَ من أهل بيت نبوه و كان أبوك و كان، فما لهذه الثياب المزينه عليك؟ فلو لبست دون هذه الثياب. فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «ويلك-يا عباد- من حرّم زينته الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟» (٢).

و أحاديث أخرى.

إنَّ هذا التعبير، أى أنَّ اللهَ جميل يحب الجمال، أو أنَّ اللهَ مصدر الجمال إشاره إلى هذه الحقيقه، وهى: أنَّ الاستفاده من كل نوع من أنواع الزينه و الجمال لو كان ممنوعا لما خلق الله تلك الزينه أبدا، إنَّ خلق الأشياء الجميله فى عالم الوجود دليل على أنَّ خالقها يحبُّ الجمال.

و لكن المهم هنا أنَّ الناس يسلكون-غالبا-فى مثل هذه المواضع طريق الإفراط و المبالغه، و يعمدون إلى الترف بمختلف الحجج و المعاذير.

ص: ٢٤

١-١) الوسائل، المجلد الثالث، أبواب أحكام الملابس.

٢-٢) الوسائل، أبواب أحكام الملابس الباب ٧، ح ٣.

ولهذا يعمد القرآن الكريم فوراً و بعد ذكر هذا الحكم الإسلامى - كما أسلفنا - إلى تحذير المسلمين من الإسراف و الإفراط و المبالغة فى الاستفاده من هذه الأمور، وفى أكثر من عشرين موضعاً من القرآن الكريم يشير إلى مسأله الإسراف و يذمّه بشدّه (و قد تحدثنا بإسهاب حول الإسراف فى تفسير الآيات المناسبه) و على كل حال، فإنّ أسلوب القرآن الكريم و الإسلام فى هذا الصعيد أسلوب يتسم بالتوازن و الاعتدال، فلا جمود فيه يجمع الرغبات المودعه فى الروح الإنسانيه إلى الجمال، و لا هو يؤيد مسلك المسرفين المتطرفين و ذوى البطنه و الجشع فى التمتع بالزينه و الجمال.

بل هو ينهى حتى عن التزين و التجمل المعتدل فى المجتمعات التى يعيش فيها محرومين مساكين، و لهذا نلاحظ فى بعض الروايات و الأحاديث أنّه عند ما يسأل أحد الأئمّه: لماذا يلبس ثياباً فاخره، و قد كان جدّه لا يلبس مثل هذه الثياب؟ فيجيب الإمام عليه السلام قائلاً:

«إنّ على بن أبى طالب عليه السلام كان فى زمان ضيق فإذا اتسع الزمان فأبرار الزمان أولى به» (١).

توصيه صحيحه هامه:

إنّ عبارته كُلوْا و اشْرَبُوا و لا تُسْرِفُوا التى جاءت فى الآيه الحاضره، و إن كانت تبدو للنظر أمراً بسيطاً جداً، إلاّ أنّه ثبت اليوم أنّه واحد من أهم الأوامر و التعاليم الصححيه، و ذلك لأنّ تحقيقات العلماء توصلت إلى أنّ منبع الكثير من الأمراض و الآلام هو الأظعمه الإضافيه الزائده التى تبقى فى بدن الإنسان إنّ هذه المواد الإضافيه تشكل من جانب عبئاً ثقيلاً على القلب و غيره من أجهزه الجسم، و هى من جانب آخر منبع مهياً لمختلف أنواع العفونات و الأمراض، و لهذا فإنّ

ص: ٢٥

الخطوة الأولى لعلاج الكثير من الأمراض هو أن تحترق هذه المواد الزائدة التي تمثل -في الحقيقة- فضلات الجسم، و تتم عملية تطهير الجسم منها عمليا.

إنّ العامل الأصل في وجود هذه المواد الزائدة هو الإسراف، و الإفراط في الأكل و البطنه، و الطريق إلى تجنب هذه الحالة ليس إلاّ رعايه الاعتدال في الأكل، و خاصّه في عصرنا هذا الذي كثرت فيه أمراض مختلفه مثل السكري، و تصلب الشرايين، و أنواع السكته، و ما شابه ذلك من الأمراض التي يعدّ الإفراط في الأكل مع عدم الحركة البدنيه بالمقدار الكافي أحد العوامل الاساسيه لها، و ليس هناك من سبيل لإزاله هذه الأمراض و تجنبها إلاّ الحركة البدنيه الكافيه، و الاعتدال في المأكل و المشرب.

و قد نقل المفسّر الكبير العلامه «الطبرسي» في «مجمع البيان» قصه رائعه في هذا المجال و هي أنّه:

حكى أنّ هارون الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق، فقال ذات يوم لعلي بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، و العلم علمان: علم الأديان، و علم الأبدان.

فقال له علي: قد جمع الله الطب كلّه في نصف آيه من كتابه و هو قوله: **كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لَا تُسْرِفُوا** و جمع نبينا صلّى الله عليه و آله و سلّم الطب في قوله: «المعدة بيت الداء و الحميه رأس كل دواء، و أعط كل بدن ما عودته».

فقال الطبيب: ما ترك كتابكم و لا نبيكم لجالينوس طبّا (١).

فمن كان يظن أنّ هذه التوصيه سطحيه، فما عليه إلاّ أن يجربها في حياته كما يدرك أهميتها و يسبر غورها، و يشاهد المعجزه في سلامه الجسم برعايه هذا الدّستور الصحى.

ص: ٢٦

اشاره

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)

التفسير

اشاره

المحرمات الإلهيه:

لقد شاهدنا مرارا أنّ القرآن الكريم كلّما تحدث عن أمر مباح أو لایزم، تحدث فوراً عن ما يقابله، من الأمور القبيحه و المحرمات، ليكمل كلّ واحد منهما الآخر.

و هنا أيضاً تحدّث-عقيب السماح بالتمتع و الاستفاده من المواهب الإلهيه و إباحه كل ما هو زينه و جمال-عن المحرمات على نحو العموم، ثم أشار بصورة خاصه إلى عده نقاط مهمه.

ففي البدايه تحدث عن تحريم الفواحش و قال: يا أيها النبي قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ .

و«الفواحش» جمع «فاحشه» و تعنى الأعمال القبيحه البالغه فى القبح

و السوء لا- جميع الذنوب، و لعلّ التأكيد على هذا المطلب (ما ظهر منها و ما بطن) هو لأجل أنّ العرب الجاهليين كانوا لا يستقبحون عمل الزنا إذا أتى به سراً، و يحرمونه إذا كان ظاهراً مكشوفاً.

ثمّ إنّه عمّم الموضوع، و أشار إلى جميع الذنوب و قال «و الإثم» أى كل إثم.

و الإثم فى الأصل يعنى كل عمل مضرّ، و كل ما يوجب انحطاط مقام الإنسان و تردى منزلته، و يمنعه و يحرمه من نيل الثواب و الأجر الحسن. و على هذا يدخل كل نوع من أنواع الذنوب فى المفهوم الواسع للإثم.

و لكن بعض المفسرين أخذوا الإثم هنا فقط بمعنى «الخرم» و استدلوا لذلك بالشعر المعروف.

شربت الإثم حتى ضلّ عقلى

كذاك الإثم يصنع بالعقول (١)

و لكنّ الظاهر أنّ هذا المعنى ليس هو تمام مفهوم الكلمه، بل أحد مصاديقه.

و مرّه أخرى يشير بصوره خاصّه إلى عدد من كبريات المعاصى و الآثام، فيقول: وَ الْبَغْيُ بَغْيٌ الْحَقُّ أَى كل نوع من أنواع الظلم، و التجاوز على حقوق الآخرين.

و «البعي» يعنى السعى و المحاولة لتحصيل شىء، و لكن يراد منه غالباً الجهود المبذوله لغصب حقوق الآخرين، و لهذا يكون مفهومه فى الغالب - مساوياً لمفهوم الظلم.

و من الواضح أنّ وصف «البعي» فى الآيه المبحوثه بوصف «غير الحق» من قبيل التوضيح و التأكيد على معنى «البعي».

ثمّ أشار تعالى إلى مسأله الشرك و قال: وَ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا فَهُوَ أَيْضًا مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ.

ص: ٢٨

(١-١) التبيان عند تفسير الآيه المبحوثه، و تاج العروس ماده «إثم».

و من الواضح أنّ جملة مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا للتأكيد، ولإلفات النظر إلى حقيقته أنّ المشركين لا يملكون أى دليل منطقي و أى برهان معقول، و كلمه «السلطان» تعنى كل دليل و برهان يوجب تسلط الإنسان و انتصاره على من يخالفه.

و آخر ما يؤكّد عليه من المحرمات هو نسبه شيء لم يستند إلى علم الله وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

و لقد بحثنا حول القول على الله بغير علم عند تفسير الآية (٢٨) من نفس هذه السوره أيضا.

و لقد أكّدت في الآيات القرآنيه و الأحاديث الإسلاميه على هذه المسأله كثيرا، و منع المسلمون بشده عن قول ما لا يعلمون إلى درجه أنّه

روى عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من أفتى بغير علم لعنته ملائكه السماوات و الأرض». (١)

و لو أنّنا أمعنا النظر و دققنا جيدا في أوضاع المجتمعات البشريه، و المصائب و المتاعب التي تعاني منها تلكم المجتمعات، لعرفنا أنّ القسط الأكبر من هذا الشقاء ناشئ من بث الشائعات، و القول بغير علم، و الشهاده بغير الحق، و إبداء و جهات نظر لا تستند إلى برهان أو دليل.

ص: ٢٩

١-١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، طبقا لروايه تفسير نور الثقلين، المجلد الثاني، الصفحه ٢٦.

اشاره

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤)

التفسير

اشاره

لكل أمة أجل:

فى هذه الآيه يشير الله تعالى إلى واحده من سنن الكون و الحياه، يعنى فناء الأمم و زوالها، و يلقى ضوءاً أكثر على الأبحاث التى تتعلق بحياه أبناء البشر على وجه الأرض و مصير العصاه، التى سبق الحديث عنها فى الآيات السابقه.

فيقول أولاً: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ثُمَّ يشير إلى أنّ هذا الأجل لا يتقدم و لا يتأخر إن جاء فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ .

أى أنّ الأمم و الشعوب مثل الأفراد، لها موت و حياه، و أنّ الأمم تندثر و ينمحي أثرها من على وجه الأرض، و تحل مكانها أمة أخرى، و إنّ سنّه الموت و قانون الفناء لا يختصان بأفراد الإنسان، بل تشمل الجماعات و الأقوام و الأمم أيضاً، مع فارق و هو أنّ موت الشعوب و الأمم يكون-فى الغالب- على أثر

انحرفها عن جاده الحق و العدل، و الإقبال على الظلم و الجور، و الانغماس فى بحار الشهوات، و الغرق فى أمواج الإفراط فى التجمل و الرفاهيه.

فعند ما تسلك الأمم فى العالم هذه المسالك و تنحرف عن سنن الكون و قوانين الخلقه، تفقد مصادرها الحيويه الواحد تلو الآخر، و تسقط فى النهايه إنّ دراسته زوال مدنيت كبرى، مثل حضاره بابل، و فراعنه مصر، و قوم سبأ، و الكلدانيين و الآشوريين، و مسلمى الأندلس و أمثالها، توضح الحقيقه التاليه، و هى أنّه لدى صدور الأمر بزوال هذه المدنيت و الحضارات الكبرى إثر بلوغ الفساد أوجه فيها لم تستطع حكوماتها أن تحفظ أسسها المترعزعه حتى ساعه واحده.

و يجب الالتفات إلى أنّ «الساعه» فى اللغه تعنى أصغر وحده زمنيّه، فربّما تكون بمعنى لحظه، و ربّما تكون بمعنى أقل قدر من الزمن، و إن كانت الساعه تعنى فى عرفنا الحاضر اليوم مده واحد من أربع و عشرين ساعه فى اليوم.

الرد على خطأ:

رأت بعض المذاهب المختلفه التى ظهرت فى القرون الأخيره بغيه الوصول إلى أهدافها، أن تززع-بظنها-قبل أى شىء أسس خاتميّه رسول الإسلام صلّى الله عليه و آله و سلّم، و لهذا تمسكت ببعض الآيات القرآنيه التى لا تدل على هدفها، و بمعونه من تفسيرها بالرأى، و شىء من المغالطه و السفسطه للتدليل على مقصودها.

و من تلك الآيات الآيه المبحوثه هنا. فقالوا: إنّ القرآن يصرّح بأنّ لكل أمّه أجيال و نهايه، و المراد من الأمّه الدين و الشريعه، و لهذا فإنّ للدين الإسلامى أمدًا و نهايه أيضا!.

إنّ أفضل الطرق لتقييم هذا الاستدلال هو أن ندرس المعنى الواقعى للفظه

الأُمَّة في اللغة، ثم في القرآن الكريم.

يستفاده من كتب اللغة، وكذا من موارد استعمال هذه اللفظة في القرآن الكريم، والتي تبلغ ٦٤ موقعا، إنَّ الأُمَّة في الأصل تعنى الجماعة.

فمثلا في قصه موسى نقرأ هكذا: **وَ لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ (١)** أى يمتحون الماء من البئر لأنفسهم و لأنعامهم.

و كذا نقرأ في مجال الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر: **وَ لَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ (٢)**.

كما نقرأ أيضا: **وَ إِذِ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ (٣)**.

و المعنيون بالأُمَّة هم أهالى مدينه إيله من بنى إسرائيل.

و نقرأ حول بنى إسرائيل: **وَ قَطَعْنَا لَهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَّمًا (٤)** من هذه الآيات يتضح جيدا أنَّ الأُمَّة تعنى الجماعة، و لا تعنى الدين، و لا أتباع الدين، و لو أننا لا حظنا استعمالها فى أتباع الدين، فإنما هو بلحاظ أنهم جماعه.

و على هذا الأساس يكون معنى الآيه المبحوثة هنا هو أنَّ لكل جماعه من الجماعات البشريه نهايه، فليس آحاد الناس هم الذين يموتون، و تكون لأعمارهم آجال و آماذ فحسب، بل الأُمَّة هى الأخرى تموت، و تتلاشى و تنقرض.

و أساسا لم تستعمل لفظه الأُمَّة فى الدين أبدا، و لهذا فإنَّ الآيه لا ترتبط بمسأله الخاتميه مطلقا.

ص: ٣٢

١-١ (١) القصص، ٢٣.

١٠٤-٢ (٢) آل عمران، ١٠٤.

١٦٤-٣ (٣) الأعراف، ١٦٤.

١٦٠-٤ (٤) الأعراف، ١٦٠.

اشاره

يَا بَنِي آدَمِ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦)

التفسير

اشاره

تعليم آخر لأبناء آدم:

مره أخرى يخاطب الله سبحانه أبناء آدم و ذريته، إذ يقول: يَا بَنِي آدَمِ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١) أي إذا أتاكم رسلى يتلون عليكم آياتى فاتبعوهم، لأن من اتقى منكم و اتبعهم و أصلح نفسه و الآخرين كان فى أمن من عذاب الله الأليم، فلا يخاف و لا يحزن.

و فى الآيه اللاحقه يضيف سبحانه و تعالى قائلا: وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

ص: ٣٣

١- ١) «أما» مركبه فى الأصل من «أن»، و«ما» و«إن» حرف شرط و«ما» حرف للتأكيد.

فتلك عاقبه المؤمنين، و هذه عاقبه المكذبين لهم.

رد على سفسطه أخرى:

أقدم جماعه من مختلقى الأديان و المذاهب فى العصور الأخيره-على غرار ما قلنا فى تفسير الآيات السابقه-على التمسك بطائفه من الآيات القرآنيه بغيه تعبيد الطريق لأهدافهم و التمهيد لتحقيقها، و ادعوا كونها دليلا على نفي خاتميته رسول الإسلام، على حين لا تربط هذه الآيات بتلك المسأله قط.

و من تلكم الآيات الآيه الحاضره، فهم من دون أن يلاحظوا ما يسبقها و ما يلحقها من الآيات قالوا: إن «يأتينكم» فعل مضارع، و يدلّ على أنه من الممكن أن يبعث الله رسلا آخرين فى المستقبل.

و لكن لو رجعنا إلى الورا قليلًا، و استعرضنا الآيات التى تتحدث عن خلقه آدم و سكونته فى الجنّه، ثمّ إخراجها منها هو و زوجته. و لا حظنا أنّ المخاطبين فى هذه الآيات ليسوا المسلمين، بل مجموع البشر و جميع أبناء آدم، لا تضح جواب هذه الشبهه و ردّ هذا الاستدلال، لأنّه لا شكّ أنّه قد بعث لمجموع أبناء آدم رسل كثيرين، جاء ذكر أسماء طائفه معتد بها فى القرآن الكريم، و جاء ذكر آخرين فى كتب التواريخ.

غايه ما فى الأمر أنّ هذا الفريق من مختلقى المذاهب و الأديان، تجاهلوا الآيات السابقه بغيه إضلال الناس و خداعهم، و قالوا: إنّ المخاطبين فى هذه الآيه هم خصوص المسلمين، و استنتجوا من ذلك إمكان وجود رسل آخرين.

إنّ لأمثال هذه السفسطات نظائر كثيره فى السابق، و بخاصّه فى حاله الفصل بين آيه و أخرى و جملة و أخرى، و التغافل عن سوابق الآيه و لواحقها، فينتزعون منها مفهوما يوافق رغباتهم و إن كان يقابل المفهوم الواقعى للآيه فى الحقيقه.

اشاره

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيِنَّا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيْنَا أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧)

التفسير

من هذه الآيه فما بعد تتضمن الآيات بيان أقسام مختلفه من المصير السىء الذى ينتظر المفترين و المكذبين لآيات الله تعالى، و فى البدايه تشير إلى كيفيه حالهم عند الموت، إذ تقول: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ .

و كما أسلفنا فى سوره الأنعام فى ذيل الآيه ٢١- لقد عرف «أظلم الناس» فى عدّه آيات من القرآن الكريم بتعابير مختلفه، و لكن الصفات التى ذكرت لهم تعود كلّهم إلى جذر واحد، و هو الشرك و عباده الأصنام و تكذيب آيات الله سبحانه. و فى الآيه المبحوثه هنا ذكرت مسأله الافتراء على الله سبحانه كصفه بارزه من صفاتهم، مضافا إلى صفه التكذيب بالآيات الإلهيه.

و نظرا إلى أنّ منشأ جميع أنواع الشقاء في نظر القرآن هو الشرك، و رأس مال جميع السعادات هو التوحيد، يتّضح لماذا يكون هؤلاء الضالون المضلون أظلم الناس. إنّ هؤلاء ظلموا أنفسهم كما ظلموا المجتمع الذي يقيمون فيه، إنّهم يغرسون النفاق و التفرقة في كل مكان، و يشكّلون سدّا و مانعا كبيرا في طريق وحده الصفوف و التقدم و الإصلاحات الواقعيه (١).

ثمّ إنّّه تعالى يصف وضعهم عند الموت فيقول: **أُولَئِكَ يَدْعُوكَ يَا اللَّهُمَّ نَصِيْبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ**. أى أنّ هؤلاء سيأخذون ما هو نصيبهم و ما هو مقدر مكتوب لهم من النعم المختلفه، حتى إذا استوفوا حظهم من العمر، و انتهوا إلى آجالهم النهائيه، حينئذ تأتيهم ملائكتنا الموكلون بقبض أرواحهم.

و المراد من «الكتاب» هي المقدرات من النعم المختلفه التي قدرها الله تعالى لعباده في هذا العالم، و إن احتمل بعض المفسرين أن يكون المراد من الكتاب هو العذاب الإلهي، أو ما هو أعمّ من المعنيين.

و لكن بالنظر إلى كلمه (حتى) التي تشير عادة إلى انتهاء الشئ، يتّضح أنّ المراد هو فقط نعم الدنيا المتنوعه المختلفه التي لكل أحد فيها حظ و نصيب، سواء المؤمن أو الكافر، الصالح و الطالح، و التي تؤخذ عند الموت، لا العقوبات الإلهيه التي لا تنتهى بحلول الموت، و التعبير بالكتاب عن هذه النعم و المقدرات إنّما هو لأجل شبهها بالأمر التي تخضع للتقسيم و الأسهم و تكتب.

و على كل حال، فإنّ عقوباتهم تبدأ منذ لحظه حلول الموت، ففي البدايه يواجهون التوبيخ و عتاب الملائكه المكلفين بقبض أرواحهم، فيسألونهم: أين معبوداتكم التي اتخذتموها من دون الله و التي طالما تحدثتم عنها، و كنتم

ص: ٣٦

١- ١) لمزيد من التوضيح راجع تفسير الآيه (٢١) من سوره الأنعام.

تسوقون إليها ثرواتكم سفها. قَالُوا أَيَّنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ .

فيجيبهم هؤلاء بعد أن يرون أنفسهم منقطعين عن كل شيء، و يرون كيف تبددت جميع أوهامهم و تصوراتهم الخاطئه حول آلهتهم و ذهبت أدراج الرياح، قائلين: لا نرى منها أثرا و إنها لا تملك أن تدافع عنا، و أنّ جميع ما فعلناه من العباده لها كان عبثا و باطلا قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا .

و هكذا يشهدون على أنفسهم بالكفر و الضلال و شَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ .

إنّ ظاهر المسأله و إن كان يوحى بأنّ الملائكه تسأل و أنهم يجيبون، و لكنّه فى الحقيقه نوع من العقوبه النفسيه لهم يلفتون بها نظرهم إلى الوضع المأساوى الذى يصيبهم من جراء أعمالهم، و يرونهم كيف ضلوا و تاهوا فى المتاهات و الضلالات مده طويله من العمر، و ضيعوا كل رؤوس أموالهم الثمينه دون جدوى دون أن يحصدوا منها حصيله مسرّه مشرفه فى حين أغلق فى وجههم طريق العوده، و هذا هو أوّل سوط جهنّمى من سياط العقوبه الإلهيه التى تتعرض لها أرواحهم.

ص: ٣٧

إشاره

قَالَ أَدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَادِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَأَتْنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَعَفْوَ لَكِن لَّا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أَوْلَادُهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)

التفسير

إشاره

تنازع القاده و الاتباع فى جهنم!

فى هذه الآيه يواصل القرآن الكريم بيان المصير المشؤوم للمكذبين بآيات الله.

ففى الآيات السابقه صور لنا وضعهم عند حلول الموت، و سؤال الملائكه القابضه للأرواح لهم، و هنا يرسم لنا ما يجرى بين الجماعات المظله و الغاويه، و بين من تعرضوا للإغواء فى يوم القيامه.

ففى يوم القيامه يقول الله لهم: التحقوا بمن يشابهكم من الجن و الإنس ممن

سبقوكم، و ذوقوا نفس مصيرهم النَّارِ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَّمٍ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ .

إنَّ هذا الأمر يمكن أن يكون بشكل أمر تكويني، يعنى أن يجعلهم جميعا فى مكان واحد، أو يكون شبيها بأمر تشريعى يصدر إليهم يسمعون به بأذانهم، و يكونون مجبورين على إطاعته.

و عند ما يدخل الجميع فى النَّارِ تبدأ مصادماتهم مع زملائهم و أشباههم فى المسلك، و هى مصادمات عجيبة، فكلما دخلت جماعه منهم فى النَّارِ لعنت الأخرى و اعتبرتها سببا لشقائها و مسئوله عن بلائها و محنتها كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا . (١)

و لعنا قلنا مرارا: إنَّ ساحه القيامه و ما يجرى فيها انعكاس واسع و كبير لمجريات هذه الدنيا. فلطالما رأينا فى هذا العالم الجماعات و الفرق و الأحزاب المنحرفه تلعن إحداها الأخرى، و تبدى تنفرها منها. على العكس من أنبياء الله، و المؤمنين الصالحين، و المصلحين الخيِّرين، فإنَّ كل واحد منهم يؤيِّد برنامج الآخر، و يعلن عن ارتباطه به و اتحاده معه فى الأهداف و الغايات.

إِلَّا أَنَّ الأَمْرَ لا ينتهى إلى هذا الحدِّ، بل عند ما يستقر الجميع -بمنتهى الذلَّة و الصغار- فى الجحيم و العذاب الأليم، تبدأ كل واحد منها برفع شكايته إلى الله من الأخرى.

فى البدايه يبدأ المخدوعون المغرَّرون بهم بعرض شكايتهم، و حيث أنَّهم لا يجدون مناصا ممَّا هم فيه يقولون: رَبَّنَا إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمَغْوِينَ هُمُ الَّذِينَ أَضَلُّونَا وَ خَدَعُونَا، فَضَاعَفْ يَا رَبِّ عَذَابَهُمْ، عَذَابًا لِّضَلَالِهِمْ وَ عَذَابًا لِّإِضْلَالِهِمْ إِيَّانَا. و هذا هو ما يتضمَّنه قوله تعالى:

ص: ٣٩

١ - ١) التعبير بالأخت كناية عن الارتباط الفكرى و الصله الروحيه بين هذه الفرق المنحرفه، و حيث أن الأمه مؤنث لفظى، لهذا عبر عنها بالأخت، لا الأخ.

حَتَّىٰ إِذَا اذَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ

ولا شك أنّ هذا الطلب منطقي و معقول جدًّا، بل إنّ المضلّين سينالون ضعفا من العذاب حتى من دون هذا الطلب، لأنّهم يتحملون مسئوليته انحراف من أضلّوا أيضا دون أن ينقص من عذابهم شيء، و لكن العجيب هو أن يقال لهم في معرض الإجابة على طلبهم: سيكون لكنا الطائفتين ضعفا من العذاب و ليس للمضلّين فقط قال لكلّ ضِعْفٌ وَ لَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ .

و مع الإمعان و الدقه يتّضح لماذا ينال المخدوعون المضللون ضعفا من العذاب أيضا، لأنّه لا يستطيع أئمه الظلم و الجور و رؤوس الانحراف و الضلال أن ينفذوا لوحدهم برامجهم، بل هؤلاء الأتباع المعاندون المتعصبون لأسيادهم هم الذين يمدون قاده الضلال و رؤوس الانحراف بالقوّه و المدد الذي يوصلهم إلى أهدافهم الشريره، و على هذا الأتباع يجب أن ينالوا ضعفا من العذاب أيضا، عذابا لضلالهم هم، و عذابا لمساعدتهم للظالمين و إعانتهم قاده الانحراف.

و لهذا نقرأ

في حديث معروف عن الإمام الكاظم عليه السلام حول أحد شيعته يدعى صفوان، حيث نهاه عن التعاون مع هارون الرشيد قائلا: «يا صفوان كلّ شيء منك حسن جميل ما خلا شيئا واحدا».

قلت: جعلت فداك أي شيء؟ قال عليه السلام إكراؤك جمالك من هذا الرجل (هارون الرشيد العباسي).

قلت: و الله ما أكرهته أشرا و لا بطرا و لا للصيد و لا للهو، و لكنّي أكرهته لهذا الطريق (يعنى طريق مكّه)...

فقال لي عليه السلام: يا صفوان أيقع كراؤك عليهم؟ قلت: نعم جعلت فداك.

فقال لي: أ تحبّ بقاءهم حتى يخرج كراؤك. قلت: نعم.

قال عليه السلام: «من أحبّ بقاءهم فهو منهم، و من كان منهم كان ورد النار». (١)

و فى الآيه اللاحقه ينقل القرآن الكريم جواب قاده الضلال و الانحراف بأنه ليس بيننا و بينكم أى تفاوت، فإذا قلنا فقد أيدتم، و إذا خطونا فقد ساعدتم، و إذا ظلمنا فقد عاونتم، و إذن فذوقوا بإزاء أعمالكم عذاب الله الأليم، وَ قَالَتْ أُولَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ .

و المقصود من «الأولى» الطائفة الأولى أى القاده (قاده الضلال الانحراف) و المقصود من «الأخرى» الأتباع، و الأنصار.

ص: ٤١

١-١) وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ١٧، ١٨٢

إشاره

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١)

التفسير

مره أخرى يتناول القرآن بالحديث مصير المتكبرين و المعاندين، يعنى أولئك الذين لا يخضعون لآيات الله و لا يستسلمون للحق، فيقول: إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ .

و

قد جاء فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «أما المؤمنون فترفع أعمالهم و أرواحهم إلى السماء فتفتح لهم أبوابها، و أما الكافر فيصعد بعمله و روحه حتى إذا بلغ إلى السماء نادى مناد: اهبطوا به إلى سجين». (١)

و قد رويت بهذا المضمون أحاديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم فى تفسير الطبرى و سائر التفاسير، فى ذيل الآيه المبحوثة.

ص: ٤٢

من الممكن أن يكون المقصود من السماء هنا معناه الظاهر، وكذا يمكن أن تكون كناية عن مقام القرب الإلهي، كما نقرأ في الآية (٩) من سورة فاطر: **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**.

ثم أضاف قائلا: **وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ**، أى حتى يدخل البعير في ثقب الإبره.

إنّ هذا التعبير كناية لطيفة عن استحاله هذا الأمر، وقد اختير هذا المثل والتصوير الحسى للإخبار عن عدم إمكان دخول هؤلاء الأشخاص في الجنه، فكما لا يتردد أحد في استحاله عبور الجملة بجنته الكبيره من خلال ثقب الإبره، فكذلك لا ينبغي الشك في عدم وجود طريق لدخول المستكبرين إلى الجنه مطلقا.

و«الجملة» في اللغة يعنى البعير الذى خرجت أسنانه حديثا، ولكن أحد معانى الجملة هو الحبل القوى و المتين الذى تربط به السفن أيضا (١).

و حيث إنّ بين الحبل و الإبره تناسباً أقوى و أكثر، لهذا ذهب بعضهم إلى هذا المعنى عند تفسير الآيه، و لكن أكثر المفسرين الإسلاميين رجّح المعنى الأول، و هم على حق في هذا الاتجاه لأمر:

أولاً: إنّ في أحاديث أئمة الإسلام كذلك تعابير تناسب التفسير الأول.

ثانياً: إنّّه يلاحظ نظير هذا التفسير حول الأثرياء (المتكبرين الأنانيين) في الإنجيل أيضاً، ففي إنجيل لوقا الباب ١٨ الجملة ٢٤ و ٢٥ نقرأ هكذا: إنّ عيسى قال: «ما أعسر دخول ذوى الأموال إلى ملكوت الله. لأنّ دخول الجملة من ثقب إبره أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله».

و لا أقل يستفاد من هذه العبارة أنّ هذه الكناية كانت متداوله بين الشعوب

ص: ٤٣

(١- ١) راجع «تاج العروس»، و«القاموس» مادة الجملة.

وقد نستعمل هذا المثل أيضا، في محاوراتنا اليومية الآن، فيقال عن الأشخاص المتشددّين جدّا أحيانا، والمتساهلين جدّا أحيانا أخرى: (إنّ فلانا تاره لا يدخل من باب المدينة، و تاره يدخل من ثقب إبره).

ثالثا: بالنظر إلى أنّ استعمال لفظه الجمل في المعنى الأوّل (أى البعير) أكثر، بينما استعمالها في الحبل الغليظ قليل جدا، لهذا يبدو أنّ التفسير الأوّل أنسب.

و في خاتمه الآية يضيف تعالى للمزيد من التأكيد و التوضيح قائلا: وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ .

و في الآية اللاحقه يشير إلى قسم آخر من عقوبتهم المؤلفه إذ يقول: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ (١) .

ثمّ يضيف للتأكيد وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ .

و الملفت للنظر و الطريف: أنّه يعبر عنهم مرّه ب«المجرم» و مرّه ب«الظالم» و ثالثه ب«المكذّبين» لآيات الله، و رابعه ب«المستكبرين»، و ترجع جميعها إلى حقيقه واحده في الواقع.

١ - ١) المهاد جمع مهد و زان عهد أى الفرش، و الغواش في الأصل غواشى جمع غاشيه بمعنى كل نوع من أنواع الغطاء، كما أنّه يطلق على الخيمه أيضا، و في الآية الحاضره يمكن أن يكون بمعنى الخيمه أو بمعنى الغطاء.

إشاره

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَبَّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)

التفسير

إشاره

الطمأنينه الكامله و السعاده الخالده:

إن أسلوب القرآن- كما أشرنا إلى ذلك سابقا- هو عرض الطوائف المختلفه و بيان مصائرهما جنبا إلى جنب لتأكيد الموضوع، و شرح أوضاعها عن طريق المقارنه و المقايسه بينها.

و لقد كان البحث في الآيات السابقه حول المكذبين لآيات الله، و المستكبرين و الظالمين، و هنا يشرح و يبين المستقبل المشرق للمؤمنين إذ يقول: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ... أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

وقد أتى بين المبتدأ والخبر بجملة معترضه (١). توضّح الكثير من الإبهامات إذ يقول: لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا .

وهذه الجملة تؤكد بأنّه لا ينبغي لأحد أن يتصور بأن الايمان بالله، والإتيان بالعمل الصالح و سلوك سبيل المؤمنين، أمر متعسر غير مقدور إلا لأفراد معدودين، لأنّ التكاليف الإلهيه فى حدود الطاقه البشريه و ليست أكثر منها، وبهذا فتح الطريق فى وجه كل أحد عالما كان أو جاهلا، صغيرا كان أو كبيرا، و دعا الجميع إلى اللحاق بهذا الصف، فالمطلوب من كل أحد العمل بمقدار قابليته الفكرية و البدنيه و إمكانياته.

إنّ هذه الآيه-مثل سائر الآيات القرآنيه-تحصر و سيله النجاه و السعاده الأبدية فى الإيمان و العمل الصالح، و هكذا تفنّد العقيدة النّصرانيه المحرفه الذين يعتبرون صلب المسيح فى مقابل ذنوب البشر و سيله للنجاه، و يقولون: إنّه قربان لخطايا الإنسانيه.

إنّ إصرار القرآن الكريم على مسأله الإيمان و العمل الصالح، فى الآيات المختلفه لتفنيد هذه المقوله و أمثالها.

و فى الآيه اللاحقه أشار تعالى إلى واحده من أهم النعم التى أعطاهها الله سبحانه لأهل الجنّه، و التى تكون سببا لطمأنيتهم النفسيه و سكنتهم الروحيه، إذ قال وَ نَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ .

و(الغل)فى الأصل بمعنى نفوذ الشىء خفيه و سرّا، و لهذا يقال للحسد و الحقد و العداوه، الذى يتسلّل إلى النفس الإنسانيه بصوره خفيه(الغل)، و إنّما يطلق «الغلول»على الرشوه بهذه المناسبه لأنّها تؤخذ خفيه و سرّا لارتكاب

ص: ٤٤

١- ١) ينبغي أن لا- يتصور أحد بأن معنى الجملة المعترضه هو أنّ مفادها أجنبي و غريب من الموضوع المعترض، بل لا بدّ أنّ هناك ارتباطا ما بينها و بين ما قبلها و ما بعدها، و إن كانت من حيث التركيب توسطت كلاما متصلا، و على هذا الأساس فإنّ الجملة المعترضه معترضه من حيث التركيب اللفظى، لا من حيث المعنى.

و فى الحقيقه إنّ من أكبر عوامل الشقاء التى يعانى منها الناس فى هذه الحياه، و مصدر الكثير من الصراعات الإجماعيه الواسعه التى تؤدى-مضافا إلى الخسائر الفادحه فى المال و النفس-الى زعزعه الاستقرار الروحى، هو الحسد و الحقد.

فنحن نعرف الكثير ممن لا ينقصهم شىء فى الحياه، و لكنهم يعانون من الحسد و الحقد للآخرين، و هو عذابهم الوحيد الذى يعكر صفو حياتهم و يضيق عليهم رحبها، و يترك معيشه هؤلاء المرفهين ساحه تجوال عساكر الحزن و الغم، و تدفعهم إلى سلوكيات مرهقه و غير منطقيه.

إنّ أهل الجنه معافون من هذه الشقاوات و المحن بالكليه، لأنّهم لا يتصفون بهذه الصفات القبيحه، فلا حسد و لا حقد فى قلوبهم، و لهذا لا يتعرضون لعواقبها النكره. إنّهم يعيشون معا فى منتهى التواد و التحاب و الصفاء و السكينه.

إنّهم راضون عن وضعهم الذى هم فيه، حتى الذين يعيشون فى مراتب أدنى من الجنه لا يحسدون من فوقهم أبدا، و لهذا تنحل أعظم مشكله تعترض طريق التعايش السلمى.

و لقد نقل بعض المفسرين حديثا فى المقام عن السدى قال: «إنّ أهل الجنه إذا سيقوا إلى الجنه وجدوا عند بابها شجره فى أصل ساقها عينان فيشربون من إحداهما فينزح ما فى صدورهم من غلّ، فهو الشراب الطهور، و اغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضره النعيم، فلن يشعثوا و لن يشحبوا بعدها أبدا» (٢) إن هذا الحديث و إن لم ينته سنده إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلّم و الأئمه عليهما السلام و إنّما رواه أحد المفسرين و هو «السدى» و لكنّه لا يبعد أن يكون قد روى عن النبى صلى الله عليه و آله و سلّم فى

١-١) للمزيد من التوضيح راجع الآيه (١٦١) من سوره آل عمران.

٢-٢) تفسير المنار، المجلد ٨، الصفحه ٤٢١.

الأصل، لأن هذه الأمور ليست من المسائل و القضايا التي يستطيع السدى و أمثاله الاطلاع عليها.

و على كل فهي إشاره لطيفه إلى الحقيقه التاليه، و هي أنّ أهل الجنّه قد تطهروا باطنا و ظاهرا، جسما و روحا، فهم يتحلون بالجمال الجسمانى، و الجمال الروحانى معا، و لهذا فهم لا يعانون، -مطلقا- من الحسد و الحقد.

فما أسعد من بينى لنفسه فى هذه الدنيا جنّه أخرى، بتطهير صدره من الحقد و الحسد ليتخلص من افرازاتهما المؤلمه.

و بعد ذكر هذه النعمه الروحانيه، يشير القرآن الكريم إلى نعمهم الماديه الجسديه، فيقول: تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ .

ثم بعكس رضى أهل الجنّه الكامل الشامل الذى يعبرون عنه بالحمد و الشكر لله و حده على ما هداهم إليه من النعم و قالوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ .

و هنا يأتيهم النداء بأن ما ورثتموه من النعم إنما هو بسبب أعمالكم و نُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

و مرّه أخرى نصل إلى هذه الحقيقه، و هي أنّ النجاه رهن بالعمل الصالح، و ليسن بالأمانى و الظنون الخاويه.

و«الإرث» فى الأصل بمعنى انتقال مال أو ثروه من شخص إلى آخر من دون أن يكون بينهما عقد(أى الانتقال عبر مسير طبيعى تلقائى، لا عن طريق البيع و الشراء) و لهذا يطلق الإرث على انتقال أموال الميت إلى خلفه.

لماذا عبّر بالإرث؟

و هنا ينفدح سؤال و هو: كيف يقال لأهل الجنّه: هذه النعم أورثتموها لقاء أعمالكم؟

حديث روى بطرق الشيعة و السنّه عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم حيث يقول: «ما من أحد إلّا و له منزل فى الجنّه، و منزل فى النّار، فأمرًا الكافر فيرث المؤمن منزله من النّار، و المؤمن يرث الكافر منزله من الجنّه، فذلك قوله أورثتموها بما كنتم تعملون». (١)

فهذا الحديث يشير إلى أنّ أبواب السعادة و الشقاء مفتوحة أمام جميع الناس قاطبه، و إنّّه لم يخلق أحد يوم خلق و هو من أهل الجنّه، أو من أهل النّار، بل يمتلك الجميع قابليه الوصول إلى كلا هذين المنزلين، و إنّما إرادتهم هى التى تحدد و تقرّر مصيرهم. و من البديهي أنّه عند ما يستقر المؤمنون بسبب أعمالهم الصالحه فى الجنّه، و يستقر الكفار و الأشرار فى النّار ينتقل مكان و منزل كل واحد منهما الى الآخر بصوره طبيعیه.

و على كل حال، فإن هذه الآيه و هذا الحديث هما من البراهين و الدلائل الواضحه على نفى الجبر، و ثبوت الإختيار و حريه الإراده فى الإنسان.

ص: ٤٩

(١ - ١) نور الثقلين، المجلد الثّانى، الصفحه ٣١، و تفسير القرطبي، المجلد الرّابع، الصفحه ٢٦٤٥، و تفاسير أخرى.

اشاره

وَ نَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَ هُمْ بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥)

التفسير

اشاره

بعد البحث فى الآيات السابقه حول مصير أهل الجنه و أهل النار، أشار هنا إلى حوار هذين الفريقين فى ذلك العالم، و يستفاد من ذلك أن أهل الجنه و أهل النار يتحادثون بينهم و هم فى مواقعهم فى الجنه أو النار.

فيقول أولاً: وَ نَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا .

فيجيبهم أهل النار قائلين: نعم وجدنا كل ذلك. عين الحقيقه قَالُوا: نَعَمْ .

و يجب الالتفات إلى أن(نادى)و إن كان فعلا- ماضيا، إلا- أنه هنا يعطى معنى المضارع، و مثل هذه التعابير كثيره فى القرآن الكريم، حيث يذكر الحوادث التى تقع فى المستقبل حتما بصيغه الفعل الماضى، و هذا يعدّ نوعا من التأكيد، يعنى أن

المستقبل واضح جداً، وكأنه قد حدث في الماضي و تحقق.

على أنّ التعبير ب«نادى» الذى يكون عادة للمسافه البعيده، يصوّر بعد المسافه المقاميه أو المكانيه بين هذين الفريقين.

و هنا يمكن أن يطرح سؤال و هو: و ما فائده حوار هذين الفريقين مع أنّهما يعلمان بالجواب؟ و جواب هذا السؤال معلوم، لأنّ السؤال ليس دائماً للحصول على المزيد من المعلومات، بل قد يتخذ أحيانا صفه العتاب و التوبيخ و الملامه، و هو هنا من هذا القبيل. و هذه هى واحده من عقوبات العصاه و الظالمين الذين عند ما كانوا يتمتعون بلذائذ الدنيا، حيث كانوا يؤذون المؤمنين بالعتابات المرّه، و الملامات المزعجه، فلا بدّ- فى الآخره- أن ينالوا عقابا من جنس عملهم كنتيجه طبيعه لفعالهم، و لهذا الموضوع نظائر فى سور القرآن المختلفه، منها ما فى آخر سوره المطففين.

ثمّ يضيف تعالى بأنّه فى هذا الوقت بالذات ينادى مناد بندااء يسمعه الجميع:

□ □
أَنْ لَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ .

□ □
ثمّ يعرف الظالمين و يصفهم بقوله: الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ . (١)

و من الآيه الحاضره يستفاد مرّه أخرى أنّ جميع الانحرافات و المفاسد قد اجتمعت فى مفهوم «الظلم» و للظالم مفهوم واسع يشمل جميع مرتكبي الذنوب، و الآثام، و خصوصا الضالون المضلّون.

ص: ٥١

١ - ١) يبغونها عوجا بمعنى يطلبونها عوجا، أى أنّهم يرغبون و يجتهدون فى أن يضلوا الناس بإلقاء الشبهات و الدعايات المسمومه عن الطريق المستقيم. كما أنّ الراغب قال فى «المفردات» عوج (بفتح العين) يعنى الاعوجاج الحسى، و عوج بكسر العين يطلق على الاعوجاجات التى تدرك بالفكر و العقل، و لكن هذا التفصيل لا- ينسجم مع ظاهر طائفه من الآيات القرآنيه مثل الآيه (١٠٧) من سوره طه (فتأمل بدقه).

من هو المؤذن! و المنادى؟

من هو هذا المؤذن الذى يسمعه الجميع؟ و فى الحقيقه له سيطره و تفوق على جميع الفرقاء و الطوائف؟ لا يستفاد من الآيه شىء فى هذا المجال، و لكن جاء فى الأحاديث الإسلاميه المفسّره و الموضّحه لهذه الآيه، تفسير المؤذن بأمر المؤمنين على عليه السلام.

روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني-الذى هو من علماء أهل السنّه بسنده عن «محمّد بن الحنفية» عن على عليه السلام أنّه قال: «أنا ذلك المؤذن».

و هكذا روى بسنده عن «ابن عباس» أنّ لعلّى عليه السلام أسماء فى القرآن الكريم لا- يعرفها الناس، منها «المؤذن» فى قول الله تعالى: فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ فهو الذى ينادى بين الفريقين أهل الجنّه و أهل النار، و يقول: «ألا لعنه الله على الذين كذبوا بولايتى و استخفّوا بحقّى» (١).

و لقد رويت روايات و أحاديث متعدده مماثله بطرق الشيعة، منها ما

رواه الصّيدوق رحمه الله بسنده عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ أمير المؤمنين عليه السلام خطب بالكوفه منصرفه فى نهروان، و بلغه أنّ معاويه يسبه و يعيبه و يقتل أصحابه، فقام خطيبا (إلى أن قال): «و أنا المؤذن فى الدنيا و الآخره، قال الله عزّ و جلّ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ أنا ذلك المؤذن، و قال: وَ أَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ أنا ذلك الأذان» (٢).

و نحن نرى أنّ السبب فى انتخاب أمير المؤمنين على عليه السلام مؤذنا و مناديا فى ذلك الوقت هو:

أولا: لأنّه كان له مثل هذا المنصب من قبل الله و التّبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم فى الدنيا أيضا، فهو بعد فتح مكّه كلّف من جانب الله بأن يتلو الآيات الأولى من سوره البراءه

ص: ٥٢

١- ١) مجمع البيان عند الآيه المطروحه هنا.

٢- ٢) تفسير البرهان، المجلد الثّانى، الصفحه ١٧.

على مسامع الناس بصوت عال في موسم الحج، تلك الآيات التي تبدأ بقوله:

وَ أَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ

(١)

ثانياً: إن موقف الإمام على عليه السلام طوال حياته الشريفه كان موقف المكافحه للظلم، و النضال ضد الظالمين، حتى أن دفاعه عن المظلوم و عداؤه للظالم و خاصه مع ملاحظه ظروف عصره لتسطع في الصفحات البارزه من تاريخه.

أفليست الحياه في العالم الآخر هي نوع من تجسم كبير و واسع و متكامل لحياه البشر في هذا العالم؟ و كلاهما بالتالي و جهان لعمله واحده.

فإذا كانت هذه حقيقه من الحقائق، لم يبق أى مجال لاستغراب أن يكون مؤذن ذلك اليوم، و الذى يلعن الظالمين في مكان بين الجنه و النار، بأمر من الله و النبي صلى الله عليه و آله و سلم هو على عليه السلام.

من هذا يتضح الجواب و الرد على ما كتبه كاتب «المنار» الذى شكك في كون هذا المقام لعلى عليه السلام فضيله، إذ يقول: و لو كنا نعقل لإسناد هذا التأذين إليه كرم الله وجهه معنى يعد به فضيله أو مثوبه عند الله تعالى لقبنا الرّوايه بما دون السند الصحيح.

(٢)

إذ يجب أن نقول له: كما أن النيايه عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم في إبلاغ سوره البراءه في موسم الحج تعتبر من أكبر فضائله عليه السلام، و كما أن مكافحته للظالمين و الجائرين تعتبر من أبرز فضائله، يكون حملته لهذه المهمه في القيامه و الذى يعد استمراراً لنفس ذلك البرنامج فضيله طاهره له أيضاً.

كما يتضح ممّا قلناه- أيضاً- الرد على ما كتبه «الآلوسى» كاتب تفسير «روح المعاني» الذى قال: و روايه الإماميه عن الرضا و ابن عباس أنه على كرم

ص: ٥٣

١- (١) التوبه، ٣.

٢- (٢) تفسير المنار، ج ٨، ص ٤٢٦.

اللّٰه تعالى وجهه ما لم يثبت من طريق أهل السنّة (١).

لأن هذا الحديث- كما أسلفنا- نقله علماء الفريقين السنه و الشيعة كلاهما في كتبهم و مصنفاتهم، فلا مجال للتشكيك في صدوره.

ص: ٥٤

١-١) روح المعاني، ج ٨ ص ١٢٣.

إشاره

وَ بَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسَيِّمَاتِهِمْ وَ نَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَيِّئَاتِنَا عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَ هُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَ إِذَا صُورَتْ أَبْصَارُهُمْ تَلَقَّاءُ أَصْحَابِ الذَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَ نَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسَيِّمَاتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ مَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَفْسَدْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أُدْخِلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩)

التفسير

إشاره

الأعراف معبر مهم إلى الجنه:

عقب الآيات السابقه التي بينت جانبا من قصه أهل الجنه و أهل النار، تحدث في هذه الآيات حول «الأعراف» التي هي منطقه في الحد الفاصل بين الجنه و النار مع خصوصياتها.

و فى البدايه يشير إلى الحجاب الذى أقيم بين أهل الجنّة و أهل النّار، إذ يقول: وَ بَيْنَهُمَا حِجَابٌ .

و يستفاد من الآيات اللاحقه أنّ الحجاب المذكور هو «الأعراف» و هو مكان مرتفع بين الفريقين يمنع من رؤيه كل فريق الفريق الآخر، و لكن وجود مثل هذا الحجاب لا يمنع من أن يسمع كل منهما صوت الآخر و نداءه، كما مرّ فى الآيات السابقه.

فلطالما رأينا جيره يتحادثون من وراء الجدار، و يستجلى أحدهما حال الآخر دون أن يراه، على أنّ الذين يقفون على الأعراف، أى على الأقسام المرتفعه من هذا المكان المرتفع، يرون كلا الفريقين (تأملوا جيدا).

و يستفاد من بعض آيات القرآن الكريم، مثل الآيه (٥٥) من سوره الصافات، أن أهل الجنّة ربّما تطلّعوا من أماكنهم و شاهدوا أهل النّار، و لكن مثل هذه الموارد الاستثنائية لا- تنافى ما عليه وضع الجنّة و النّار أساسا، و أنّ ما قلناه آنفا يعكس و يصور الكيفيه لهذين المكانين، و إن كان لهذا القانون- أيضا- بعض الاستثناءات، فيمكن أن يشاهد بعض أهل الجنّة أهل النّار فى شرائط خاصّه.

إنّ ما يجب أن نذكر به مؤكدين قبل الخوض فى بيان كيفيه الأعراف هو أن التعابير الوارده حول القيامه و الحياه الأخرى لا تستطيع- بحال- أن تكشف القناع عن جميع خصوصيات تلكم الحياه، بل للتعابير- أحيانا- صفه التشبيه و التمثيل.

و أحيانا تكشف بعض تلك التعابير عن مجرد شبح فى هذا المجال، لأنّ الحياه فى ذلك العالم تكون فى آفاق أعلى، و هى أوسع بمراتب كثيره من الحياه فى هذا العالم، تماما مثل سعه الحياه الدنيا هذه بالقياس إلى عالم الرحم و الجنين.

و على هذا فلا- عجب إذا كانت الألفاظ و المفاهيم المتداوله فى هذا العالم لا تستطيع أن تعكس بصوره كامله و معبّره تلك المفاهيم.

ثم إنَّ القرآن الكريم يقول: وَ عَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كَلًّا بِسِيمَاهُمْ يرون كَلًّا من أهل الجنَّة و أهل النَّار و يعرفونهم بملامح وجوههم.

و«الأعراف» فى اللغة جمع «عرف» بمعنى المحل و الموضع المرتفع، و لهذا يطلق على شعر ناصيه الفرس، و الريش الموجود على عنق الديك لفظ العرف، فيقال «عرف الفرس» أو «عرف الديك»، و من هذا المنطلق يطلق على المكان المرتفع من البدن لفظ العرف أيضا (و سوف نتحدث بتفصيل حول خصوصيات منطقه الأعراف التى جاء ذكرها فى هذه الآيه بعد الفراغ من تفسير الآيات).

ثم يقول: أَنْ هُوَ لاء الرجال ينادون أهل الجنَّة و يسلمون عليهم، و لكنهم لا يدخلون الجنَّة و إن كانوا يرغبون فى ذلك وَ نَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ. لَمْ يَدْخُلُوهَا وَ هُمْ يَطْمَعُونَ .

و لكن عند ما ينظرون إلى الطرف الآخر و يشاهدون أهل النَّار يصطلون فيها، يتضرعون إلى الله طالبين أن لا- يجعلهم مع الظالمين وَ إِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تَلَقَاءً أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١).

و الجدير بالذكر أنه استخدم فى رؤيه أهل النَّار فى الآيه لفظه وَ إِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ يعنى عند ما تعطف أبصارهم نحو جهنم لمشاهده أهلها، و هذه اشاره إلى أنهم يكرهون مشاهده أهل النَّار، و كأنَّ نظرهم إليهم مقرون بالإكراه و الإجبار.

و فى الآيه اللاحقه يضيف: إنَّ أصحاب الأعراف ينادون فريقا من الجهنميين الذين يعرفونهم بملامح وجوههم و يلومونهم قائلين: أمّا ترون أن جمعكم للأموال و الأفراد و التجبّر و التكبر عن قبول الحق لم ينفعكم شيئا، فأين تلك الأموال و أولئك الأعوان؟ و ماذا حصدتم من تلك المواقف و الصفات السيئه؟!

ص: ٥٧

١ - ١) «تلقاء» فى الأصل -حسب قول بعض المفسرين و أهل الأدب- مصدر، و هو بمعنى المقابله، و لكن استعمل فيما بعد فى معنى ظرف المكان، أى فى المكان المقابل و المحاذى.

وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ، وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ

و مرّه أخرى يقولون موبخين و معاتبين، و هم يشيرون إلى جمع من ضعفاء المؤمنين المستقرين فوق الأعراف: أ هؤلاء الذين أفسمتم لا ينالهم الله برحمه .

و فى المآل تشمل الرحمة الإلهيه هذه الطائفه من ضعفاء المؤمنين، و يقال لهم ادخلوا الجنة لا خوف عليكم و لا أنتم تحزنون .

من كل ما قلنا اتضح أنّ المراد من ضعفاء المؤمنين هم الذين آمنوا و عملوا الصالحات، و لكنهم بسبب تورطهم فى بعض الذنوب كانوا موضع ازدراء من قبل أعداء الحق فى الدنيا، و كانوا يركزون على هؤلاء و يقولون: كيف يمكن لمثل هؤلاء أن تشملهم الرحمة الإلهيه؟ و كيف يمكن لمثل هؤلاء أن يسعدوا؟ و لكن روح الإيمان و الحسنات التى كانت عندهم فعلت فعلتها- فى المآل- و فى ظلّ اللطف الربانى و الرحمة الإلهيه، فسعدوا و دخلوا الجنة.

من هم أصحاب الأعراف:

«الأعراف» فى الأصل- و كما أسلفنا-منطقه مرتفعه، و يتضح فى ضوء القرائن التى وردت فى آيات القرآن و أحاديث أئمه الإسلام، أنه مكان خاص بين قطبى السعاده و الشقاء، أى الجنة و النار. و هو كحجاب حائل بين هذين، أو كأرض مرتفعه فصلت بين هذين الموضوعين بحيث يشرف من يقف عليها على الجنة و النار، و يشاهد كلا- الفريقين، و يعرفهم بوجوههم المبيضة أو المسوده، المشرقه أو المظلمه المكفهرة.

و الآين لئرى من هم الواقفون على الأعراف؟ و من هم أصحاب الأعراف؟ إنّ دراسه الآيات الأربع المبحوثة هنا تفيد أنه ذكر لهؤلاء الأشخاص نوعين متناقضين مختلفين من الصفات.

ففى الآيه الأولى و الثانية وصف الواقفون على الأعراف بأنهم يتمنون أن يدخلوا الجنة، و لكنَّ ثمة موانع تحول دون ذلك، و عند ما ينظرون إلى أهل الجنة يحيونهم و يسلمون عليهم و يودون لو يكونون معهم، و لكنهم لا- يستطيعون فعلا أن يكونوا معهم، و عند ما ينظرون إلى أهل النار يستوحشون ممَّا آلوا إليه من المصير، و يتعوذون بأنَّه من ذلك المصير، و من أن يكونوا منهم.

و لكن يستفاد من الآيه الثالثة و الرابعة بأنهم أفراد ذوو نفوذ و قدره، يوبخون أهل النار و يعاتبونهم، و يساعدون الضعفاء فى الأعراف على العبور إلى منزل السعادة.

و قد قسمت الروايات الواردة فى هذا المجال أهل الأعراف الى هذين الفريقين المختلفين أيضا.

ففى بعض الأحاديث الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام نقرأ: «نحن الأعراف» (١) أو عبارته: «آل محمّد هم الأعراف» (٢) و ما شابه هذه التعابير.

و نقرأ فى طائفة أخرى عبارته:

«هم أكرم الخلق على الله تبارك و تعالى» (٣) أو

«هم الشهداء على الناس و التّيبون شهداؤهم» (٤) و روايات أخرى تحكى أنّهم الأنبياء و الأئمة و الصلحاء و الأولياء.

و لكن طائفة أخرى مثلما

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام تقول: «هم قوم استوت حسناتهم و سيئاتهم، فإن أدخلهم النار فبذنوبهم، و إن أدخلهم الجنة فبرحمته». (٥)

و ثمة روايات متعددة أخرى فى تفاسير أهل السنه قد رويت عن «حذيفه» و

ص: ٥٩

١-١) تفسير البرهان، المجلد الثانى، الصفحه ١٧ و ١٨ و ١٩.

٢-٢) المصدر السابق.

٣-٣) المصدر السابق.

٤-٤) نور الثقلين، المجلد الثانى، الصفحه ٣٣ و ٣٤.

٥-٥) تفسير البرهان، المجلد الثانى، الصفحه ١٧.

«عبد الله بن عباس» و«سعيد بن جبير» و أمثالهم بهذا المضمون (١).

و نرى فى هذه التفاسير أيضا مصادر تفيد أنّ أهل الأعراف هم الصلحاء و الفقهاء و العلماء أو الملائكة.

و بالرغم من أنّ ظاهر الآيات و ظاهر هذه الروايات تبدو متناقضة فى بدون النظر، و لعله لهذا السبب أبدى المفسّرون فى هذا المجال آراء مختلفه، و لكن مع التدقيق و الإمعان يتّضح أنّه لا يوجد أى تناقض و منافاه، لا بين الآيات و لا بين الأحاديث، بل جميعها تشير إلى حقيقه واحده.

و توضيح ذلك: أنّه يستفاد من مجموع الآيات و الروايات - كما أسلفنا - الأعراف معبر صعب العبور على طريق الجنّه و السعاده الأبدية.

و من الطبيعى أنّ الأقوياء الصالحين و الطاهرين هم الذين يعبرون هذا المعبر الصعب بسرعه، أمّا الضعفاء الذى خلطوا عملا صالحا و آخر سيئا فيعجزون عن العبور.

كما أنّه من الطبيعى أيضا أن تقف قيادات المجموع و سادته القوم عند هذه المعابر الصعبه مثل القاده العسكريين الذين يمشون فى مثل هذه الحالات فى مؤخره جيوشهم ليعبر الجميع. يقفون هناك ليساعدوا ضعفاء الإيمان، فينجو من يصلح للنجاه ببركه مساعدتهم و معونتهم و نجدتهم.

و على هذا الأساس، فأصحاب الأعراف فريقان: ضعفاء الإيمان و المتورطون فى الذنوب الذين هم بحاجة إلى الرحمه، و الأئمه الساده الذين يساعدون الضعفاء فى جميع الأحوال.

و على هذا فإن الطائفه الأولى من الآيات و الأحاديث تشير إلى الفريق الأول من الواقفين على الأعراف، و هم الضعفاء، و الطائفه الثانيه منها تشير إلى الفريق

ص: ٦٠

(١ - ١) تفسير الطبرى، المجلد ٧، الصفحه ١٣٧ و ١٣٨ عند تفسير الآيه.

الثانى من أصحاب الأعراف، وهم الساده و الأنبياء و الأئمه و الصلحاء.

و نرى فى بعض الروايات- أيضا- شاهدا واضحا و جليا على هذا الجمع مثل

الحديث المنقول عن الإمام الصّيدق عليه السلام الذى قال فيه: «الأعراف كثنان بين الجنّه و النار، و الرجال الأئمه يقفون على الأعراف مع شيعتهم و قد سبق المؤمنون إلى الجنّه بلا حساب». و يقصد من الشيعة الذى يقفون مع الأئمه على الأعراف العصاه منهم.

ثمّ يضيف قائلا:

«يقول الأئمه لشيعتهم من أصحاب الذنوب: انظروا إلى إخوانكم فى الجنّه قد سبقوا إليها بلا حساب، و هو قوله تبارك و تعالى: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَ هُمْ يَطْمَعُونَ ثُمَّ يُقَالُ: انظروا إلى أعدائكم فى النار، و هو قوله تعالى: وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ثُمَّ يَقُولُونَ لِمَنْ فى النَّارِ مِنْ أَعْدَائِهِمْ: هؤلاء شيعة و إخوانى الذين كنتم أنتم تختلفون (تحلفون) فى الدنيا أن لا ينالهم الله برحمه، ثمّ تقول الأئمه لشيعتهم: ادخلوا الجنّه لا خوف عليكم و أنتم تحزنون (١).

و نظير هذا المضمون روى فى تفاسير أهل السنه عن حذيفه عن النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم (٢).

و نكرر مرّه أخرى هنا أنّ الحديث حول تفاصيل و جزئيات القيامة و خصوصيات الحياه فى العالم الآخر أشبه بما لو أننا أردنا أن نصف شبعا من بعيد، فى حين أنّ بين ذلك الشبح و بين حياتنا تفاوتات واسعة و اختلافا كبيرا، فما نفعه فى هذه الصورة هو أننا نستطيع بالفاظنا المحدوده و القاصره أن نشير إليه إشاره ناقصه قصيره.

هذا، و النقطه الجديره بالالتفات هى أنّ الحياه فى العالم الآخر مبتنيه على

ص: ٦١

١- ١) تفسير البرهان، المجلد الثانى، الصفحه ١٩ و ٢٠.

٢- ٢) تفسير الطبرى، ج ٨ الصفحه، ١٤٢ و ١٤٣.

أساس النماذج و العيّنات الموجوده فى هذه الدنيا، فهكذا الحال بالنسبه إلى الأعراف، لأنّ الناس فى هذه الدنيا ثلاث فرق: المؤمنون الصادقون الذين وصلوا إلى الطمأنينه الكامله فى ضوء الإيمان، و لم يدخروا وسعا فى طريق المجاهده.

و المعاندون و أعداء الحق المتصلبون المتمادون فى لجاجهم الذين لا يهتدون بأيه وسيله. و الفريق الثالث هم الذين يقفون فى هذا الممر الصّعب عبوره فى الوسط بين الفريقين، و أكثر عنايه القاده الصادقين و أئمه الحق موجهه إلى هؤلاء، فهم يقفون إلى جانب هؤلاء، و يأخذون بأيديهم لإنقاذهم و تخليصهم من مرحله الأعراف ليستقروا فى صف المؤمنين الحقيقيين.

و من هنا يتّضح أن تدخّل الأنبياء و الأئمه فى انقاذ هذا الفريق فى الآخره كتدخلهم لذلك فى الدنيا لا ينافى أبدا قدره الله و حاكميته على كل شىء، بل كل ما يفعلونه إنّما هو بإذن الله تعالى و أمره.

ص: ٦٢

اشاره

وَ نَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ
اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَ لَعِبًا وَ غَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَ مَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١)

التفسير

اشاره

نعم الجنة حرام على أهل النار:

بعد أن استقر كل من أهل الجنة و أهل النار في أماكنهم و منازلهم، تدور بينهم حوارات نتيجة العقوبه الروحيه و المعنويه لأهل النار.

و في البدايه يبدأ الكلام من جانب أهل النار: وَ نَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ
فهم يطلبون أن يجودوا عليهم بشيء من الماء أو من نعم الجنة.

و لكن أهل الجنة يبادرون إلى رفض هذا المطلب قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ .

هنا عدّه نقاط يجب أن نتوقف عندها و نلتفت إليها:

١- يبدأ القرآن الكريم بأحاديث أهل النَّار مع أهل الجَنَّة بلفظه (و نادى) التى تستعمل عادة للتخاطب من مكان بعيد، و هذا يفيد بأنَّ بين الفريقين فاصله كبيره و مع ذلك يتم هذا الحوار و يسمع كل منهما حديث الآخر، و هذا ليس بعجيب، فلو أن المسافه بلغت ملايين الفراسخ لأمكن أن يسمع كل واحد منهما كلام الآخر، بل و يرى- فى بعض الأحيان- الطرف الآخر.

و لو كان القبول بهذا أمرا متعذرا أو متعسرا فى الماضى، و كانت تشكل مشكله بالنسبه إلى السامعين، فإنَّه مع انتقال الصوت و الصوره فى عصرنا الحاضر من مسافات بعيدة جدا انحلت هذه المشكله، و لم تعد الآيه موضع تعجب و غرابه.

٢- إنَّ أوّل طلب يطلبه أهل النَّار هو الماء، و هذا أمر طبيعى، لأنَّ الشخص الذى يحترق فى النَّار المستعره يطلب الماء قبل أى شىء حتى يبرد غليله و يرفع به عطشه.

٣- إنَّ عبارته مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ التى هى عبارته مجمله، و تتسم بالإبهام، تفيد أنه حتى أهل النَّار لا يمكنهم أن يعرفوا بشىء من حقيقته النعم الموجوده فى الجَنَّة و أنواعها. و هذا الموضوع يتفق و ينسجم مع بعض الأحاديث التى تقول:

(إنَّ فى الجَنَّة ما لا عين رأت و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر).

ثمَّ إنَّ عطف الجملة بـ «أو» يشير الى أنَّ النعم الاخرى و خاصه الفواكه يمكنها أن تحل محل الماء و تطفى عطش الإنسان.

٤- إنَّ عبارته إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ إشارة إلى أهل الجَنَّة بأنفسهم، ليسوا هم الذين يمتنعون عن إعطاء شىء من هذه النعم لأهل النَّار، لأنَّه لا يقلُّ منها شىء بسبب الإعطاء، و لا أنَّهم يحملون حقدًا أو ضغينه على أحد فى

صدورهم، حتى بالنسبه إلى أعدائهم، ولكن وضع أهل النار بشكل لا يسمح لهم أن يستفيدوا من نعم الجنه.

إن هذا الحرمان في الحقيقه-نوع من «الحرمان التكويني» مثل حرمان كثير من المرضى من الأطمعه اللذيذه المتنوعه.

في الآيه اللاحقه يبين سبب حرمانهم، و يوضح بذكر صفات أهل النار أهل هذا المصير الأسود قد هيئوه هم لأنفسهم، فيقول
أولاً: إن هؤلاء هم الذين اتخذوا دينهم لعباً للذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً .

و هذا إلى جانب أنهم خدعتهم الدنيا و اغتروا بها و عرّتهم الحياه الدنيا .

إن هذه الأمور سببت في أن يغرقوا في و حل الشهوات، و ينسوا كل شيء حتى الآخره، و ينكروا أقوال الأنبياء، و يكذبوا بالآيات الإلهيه، و لهذا أضاف قائلاً: فاليوم ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا، و ما كانوا بآياتنا يجحدون .

و من البديهي أن المراد من «النسيان» الذي نسب هنا إلى الله هو بمعنى أننا نعاملهم معاملة الناسى تماماً، مثل أن يقول شخص لصديقه: (كما أنك نسيته فسوف أنساك أن أيضاً) أى أننى سوف أعاملك معاملة المتناسى لشيء .

كما أنه يستفاد من هذه الآيه أن أول مرحله من مراحل الانحراف و الضلال، هو أن لا يأخذ الإنسان قضايا المصيريه بمأخذ الجد، بل يتعامل معها معاملة المتسللى و الهازل، فتؤدى به هذه الحاله إلى الكفر المطلق، و إنكار جميع الحقائق.

إشاره

وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣)

التفسير

هذه الآيه إشاره-فى الدرجه الأولى-إلى أن حرمان الكفار و مصيرهم المشؤوم إنما هو نتيجة تقصيراتهم أنفسهم،و إلا فليس هناك من جانب الله أى تقصير فى هدايتهم و قيادتهم و إبلاغ الآيات إليهم و بيان الدروس التربويه لهم، لهذا يقول تعالى:إننا لم نال جهدا و لم ندخر شيئا فى مجال الهدايه و الإرشاد،بل أرسلنا لهم كتابا شرحنا فيه كل شىء بحكمه و درايه و لَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ .

و هو كتاب فيه رحمه و هدايه،لا للمعاندين الأنايين،بل للمؤمنين هُدًى وَ رَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

الآيه اللاحقه تشير إلى الطريقه الخاطئه فى تفكير العصاه و المنحرفين فى صعيد الهدايه الإلهيه فيقول: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ أَى كَأَنَّ هَؤُلَاءِ يَتَوَقَّعُونَ أَنْ يَرَوْا نَتِيجَةَ الْوَعْدِ وَ الْوَعِيدِ الْإِلَهِيِّ بَعِيُونَهُمْ (أى يروا أهل الجنه و هم فيها، و أهل النار و هم فيها) حتى يؤمنوا.

و لكنّه توقّع سخيّف، لأنّه عند ما تترجم الوعود الإلهيه على صعيد الواقع ينتهى الأمر، و لم يعد هناك مجال للرجوع و لا طريق للعوده، و هناك سيترفون بأنهم قد تناسوا كتاب الله و تجاهلوا التعاليم الإلهيه التى أنزلها على رسله بالحق، و كان قولهم حقاً أيضاً: يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ .

سيغرقون فى هذا الوقت فى قلق و اضطراب، و يفكرون فى مخلص ينقذهم من هذه المشكله و يقولون فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا

و إذا لم يكن هناك شفعاء لنا، أو إننا لا- نصلح أساسا للشفاعه، أفلا- يمكن أن نرجع إلى الدنيا و نقوم بأعمال غير ما عملناه سابقا، و نسلّم للحق و الحقيقه أو نُزِدُ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ .

و لكن هذا التنبيه جاء- و للأسف- متأخرا جدا، فلا طريق للعوده و لا صلاحيه لهم للشفاعه، لأنهم قد خسروا كل رؤوس أموالهم، و تورطوا فى خسران جميع وجودهم قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ .

و سوف يثبت لهم أنّ أصنامهم و معبوداتهم ليس لها أى دور هناك، و فى الحقيقه ضاعت فى نظرهم جميعا وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

و كأنّ الجملتين الأخيرتين ردّ على طلبهم، يعنى إذا كانوا يريدون شفعاء يشفعون فإنّ عليهم حتما أن يتوسلوا بأصنامهم التى كانوا يسجدون لها، فى حين أنّ تلك الأصنام و لأوثان لا تكون مؤثره هناك مطلقا.

و أمّا عودتهم إلى الدنيا فإنّها ممكنه فى ما لو بقى لديهم رأس مال، و لكنهم

قد خسروا كل رؤوس أموالهم و فقدوا كل وجودهم.

من هذه الآيه يستفاد أولاً- أنّ الإنسان حرّ مختار في أعماله، وإلاّ لما طلب العوده و الرجوع إلى الدنيا لملافاه ما فات، و ثانياً: إنّ العالم الآخر ليس مكان العمل و اكتساب الفضائل و النجاه.

ص: ٦٨

اشاره

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسْحَرَاتٍ بَأْمَرِهِ أَلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)

التفسير

اشاره

فى الآيات السابقة قرأنا أنّ المشركين يقفون يوم القيامة على خطأهم الكبير فى صعيد انتخاب المعبود، و الآيه الحاضره تصف المعبود الحقيقى مع ذكر صفاته الخاصه حتى يستطيع الذين يطلبون الحقيقه و ينشدونها أن يعرفوه بوضوح فى هذا العالم و قبل حلول يوم القيامة، و يبدأ حديثه هذا بقوله: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ أَي أَنَّ المعبود لا يمكن أن يكون إلا من كان خالقا.

هل خلق العالم فى ستة أيام؟

لقد ورد البحث عن خلق العالم و تكوينه فى ستة أيام، فى سبعة موارد من

آيات القرآن الكريم (١)، و لكنّه فى ثلاثه موارد أضيف إلى السماوات و الأرض لفظه «و ما بينهما» أيضا. و التى هى فى الحقيقه توضيح للجمله السابقه، لأنّ جميع هذه الأشياء تدخل فى معنى السماوات و الأرض، لأننا نعلم أنّ السماء تشمل جميع الأشياء التى توجد فى الأعلى، و الأرض هى النقطه المقابله للسماء.

و هنا يتبادر هذا السؤال فورا و هو: قبل أن تخلق السماوات و الأرض لم يكن ليل و لا نهار ليقال: خلقت السماوات و الأرض فيهما، لأنّ الليل و النهار ناشئان من دوران الأرض حول نفسها فى مقابل الشمس.

هذا مضافا إلى أنّ ظهور المجموعه الكونيه فى ستّه أيام-يعنى أقل من أسبوع- يخالف العلم، لأنّ العلم يقول: لقد استغرق تكوّن الأرض و السماء حتى وصل الى الواضع الحالى مليارات من السنوات و الأعوام.

و لكن نظرا إلى المفهوم الواسع للفظه «يوم» و ما يعادلها فى مختلف اللغات، يكون جواب هذا السؤال واضحا، لأنّه كثيرا ما يستعمل اليوم بمعنى الدوره، سواء استغرقت مده سنه، أو مائه سنه، أو مليون سنه أو مليارات السنين، و الشواهد التى تثبت هذه الحقيقه، و تفيد أنّ أحد معانى اليوم هو الدوره، كثيره:

١- لقد استعملت لفظه اليوم و الأيام فى القرآن الكريم مئات المرات، و فى كثير من الموارد لم تكن بمعنى الليل و النهار، مثلا يعبر عن عالم البعث بيوم القيامه، و هذا يشهد بأنّ مجموع عمليه القيامه التى هى دوره طويله الأمد و المده، تسمى يوم القيامه.

و يستفاد من بعض الآيات القرآنيه أنّ يوم القيامه و محاسبه أعمال الناس يستغرق خمسين ألف سنه (سوره المعارج الآيه ٤).

ص: ٧٠

(١ - ١) و هى: الآيه المبحوثه هنا، و ٣ يونس، و ٧ هود، و ٥٩ الفرقان و ٤ السجده و ٣٨ ق، و ٤ الحديد.

٢-نقرأ فى كتب اللغه أفضا أنّ الؤوم ربّما ىطلق على الزمن بين طلوع الشمس و غروبها، و ربّما على مقدار من الزمان مهما كان قدره، قال الراغب فى المفردات: «الؤوم يعبر به عن وقت طلوع الشمس إلى غروبها، و قد يعبر عن مده من الزمان أى مده كانت».

٣-جاء فى روايات أنمه الدين و أحاديثهم- كذلك- استعمال الؤوم بمعنى الدهر، كما

روى عن أمير المؤمنين عليه السلام فى نهج البلاغه أنّه قال: «الدّهر يؤمان: يؤوم لك، و يؤوم عليك».

و نقرأ فى تفسير البرهان فى تفسير هذه الآيه

، عن تفسير على بن إبراهيم الإمام عليه السلام قال: «فى سته أيام، أى فى سته أوقات»، أى فى ست دورات.

٤-كثيرا ما نشاهد فى المحاورات اليوميّه، و أشعار الشعراء فى اللغات المختلفه، أنّ كلمه الؤوم و ما يعادلها قد استعملت بمعنى الدوره و العهد، مثلا نقول يؤوم كانت الكره الأرضيه حاره و مشتعله، و يؤوم صارت بارده و ظهرت فيها آثار الحياه، فى حين أنّ فتره سخونه الأرض و اشتعالها استغرقت مليارات من الأعوام.

أو عند ما نقول غضب آل أميه الخلافه الإسلاميه يؤوما، و غضبها بنو العباس يؤوما آخر. فى حين أنّ فتره اغتصاب الأمويين للخلافه استغرقت عشرات السنين و فتره اغتصاب العباسيين لها استغرقت المئات.

من مجموع الحديث السابق نستنتج أنّ الله سبحانه و تعالى خلق السماوات و الأرض فى ست دورات متواليه، و إن استغرقت كل دوره من هذه الدورات ملايين أو مليارات السنين، و العلم الحديث لم يبيّن أى أمر يخالف هذا الموضوع.

و هذه الدورات-احتمالا-هى على الترتيب:

١-ؤوم كان الكون فى شكل كتله غازيه الشكل، فانفصلت منها أجزاء

بسبب دورانها حول نفسها،و تشكلت من المواد المنفصله الكرات و الأنجم.

٢-هذه الكرات قد تحولت تدريجا إلى هيئه كتله من المواد الذائبه المشعه أم الباردة القابله للسكنى.

٣-فى دوره أخرى تألفت المنظومه الشمسيه و انفصلت الأرض عن الشمس.

٤-فى الدوره الرابعه بردت الأرض و أصبحت قابله للحياه.

٥-ثم ظهرت النباتات و الأشجار على الأرض.

٦-و بالتالى ظهرت الحيوانات و الإنسان فوق سطح الأرض.

و كل ما ذكرناه أعلاه من الأدوار الستة لعملية خلق و تكوين السماوات و الأرض تنطبق على الآيات (٨) إلى (١١) من سوره فصلت التى سيأتى تفسيرها فى المستقبل إن شاء الله.

لماذا لم يخلق الله العالم فى لحظه واحده؟

و هنا يطرح سؤال آخر نفسه و هو:لماذا خلق الله السماوات و الأرض فى دورات عديده و طويله،و هو القادر على خلقها فى لحظه واحده؟ إن جواب هذا السؤال يمكن الوقوف عليه بالالتفات إلى نقطه واحده،و هى أن الخلق لو تم فى لحظه واحده،لكان ذلك أقل دلاله على عظمه الخالق و قدرته و علمه،و لكن لما تمت عملية الخلق و التكوين فى مراحل مختلفه و أشكال متنوعه،وفق برنامج منظم محسوب،كان لذلك دلاله أوضح على معرفه الخالق.

ففى المثل لو كانت النطفه البشريه تتبدل فى لحظه واحده إلى وليد كامل،لما كان ذلك يحكى عظمه الخلق و التكوين،و لكن عند ما ظهر الوليد خلال ٩ أشهر، و ضمن برنامج دقيق و اتخذ فى كل يوم و شهر شكلا خاصا و صورته خاصه، استطاعت كل واحده من هذه المراحل أن تقدم آيه جديده من آيات العظمه

الإلهيه، و تكون دليلا جديدا على قدره الخالق.

ثم يقول القرآن الكريم: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَخَذَ زَمَامَ إِدَارَتِهَا بِيَدِهِ (أى ليس الخلق منه فقط، بل منه الإدارة و التدبير أيضا) فقال تعالى:

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ

و هذا جواب لمن يعتقد أنّ الكون محتاج إلى الله تعالى فى الخلق و الإيجاد دون البقاء.

ما هو العرش؟

«العرش» فى اللغة هو ما له سقف، و قد يطلق العرش على نفس السقف، مثل قوله تعالى: أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا (١) و ربما يأتى بمعنى الأسره الكبيره المرتفعه، مثل أسره الملوك و السلاطين، كما جاء فى قصه سليمان: أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا (٢) و هكذا يطلق لفظ العرش على الأسقف التى يقيمها المزارعون لحفظ بعض الأشجار، و بخاصه المتسلقه منها، كما نقرأ فى القرآن الكريم: وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ (٣) و لكن عند ما ينسب الى الله سبحانه و تعالى و يقال: عرش الله، يراد منه مجموعه عالم الوجود، الذى يعدّ فى الحقيقه سرير حكمه الله تعالى.

و أساسا فإنّ عبارته اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ كناية عن سيطره حاكم من الحكام على أمور بلده، كما أنّ المراد من جمله «ثَلَّ عَرْشَهُ» هو خروج زمام الأمر من يده و فقدان السيطره عليه، و قد استعملت هذه الكنايه فى اللغة بكثرة إذ

ص: ٧٣

١-١ (١) البقره، ٢٥٩.

٢-٢ (٢) النمل، ٢٨.

٣-٣ (٣) الأنعام، ١٤١.

يقال: إنَّ جماعه من الناس ثارت في البلد الفلاني، و أنزلت حاكمه من سريره و عرشه، في حين من الممكن أن لا يكون لذلك الزعيم و الحاكم تخت أصلا.

أو يقال: إنَّ جماعه من الناس أيدوا فلانا، و أجلسوه على العرش، فكل هذه كناية عن امتلاك السلطه أو فقدانها.

و على هذا تكون عبارته إِشْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ كناية عن الإحاطه الكامله لله تعالى و سيطرته على تدبير أمور الكون-سما و أرضا- بعد خلقها.

و من هنا يتضح أن الذين أخذوا هذه الجملة دليلا على «جسمانيه الله» كأنهم لم يلتفتوا إلى موارد استعمال هذه الجملة العديده في هذا المعنى الكنائى.

و هناك معنى آخر للعرش، و هو أنه قد ورد أحيانا في قبال «الكرسى» و في مثل هذه الموارد يمكن أن يكون الكرسى (الذى يطلق عادة على المقعد القصير القوائم) كناية عن العالم المادى، و العرش كناية عن عالم ما فوق الماده (أى عالم الأرواح و الملائكه) كما جاء في تفسير آيه وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ التى مرّت في سوره البقره.

ثم يقول بأنه تعالى هو الذى يلقي بالليل -كغشاء- على النهار، و يستر ضوء النهار بالأستار المظلمه يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ .

و الملفت للنظر أن العبارة المذكوره ذكرت في مجال الليل فقط، و لم يقل (و يغشى النهار الليل) لأنّ الغطاء و الغشاء يناسب الظلمه فقط و لا يناسب النور و الضوء.

ثم يضيف بعد ذلك قائلا: إنَّ الليل يطلب النهار طلبا حثيثا (يطلبه حثيثا).

إنّ هذا التعبير- نظرا لوضع الليل و النهار في الكره الأرضيه- تعبیر في غايه الروعه و الجمال، لأنّه لو نظر أحد إلى كيفيه حركه الكره الأرضيه من الخارج، و كيفيه دورانها حول نفسها و وقوع ظلها المخروطى الشكل على نفسها، مع العلم أنّ الكره الأرضيه تدور بسرعه فائقه حول نفسها (أى في حدود ٣٠ كيلومترا في

الدقيقه) لأحس أنّ غول الظلّ المخروطى الأسود يجرى بسرعه كبيره على هذه الكره خلف ضوء النهار.

و لكن هذا الأمر غير صادق بالنسبه إلى ضوء النهار، لأنّ ضوء الشمس منتشر في نصف الكره الأرضيه و في جميع الفضاء المحيط بأطراف الأرض، و لا يتخذ لنفسه شكلا خاصا، و إنّما ظلمه الليل فقط هي التي تدور مثل شبح غامض الأسرار حول الأرض.

ثمّ يضيف تعالى أنّه هو الذى خلق الشمس و القمر و النجوم، و هي خاضعه لأمره بعد خلقها: **وَ الشَّمْسُ وَ القَمَرُ وَ النُّجُومُ وَ هِيَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ .**

(و سوف نبحت حول تسخير الشمس و القمر و النجوم و معانى ذلك في ذيل الآيات المناسبه بإذن الله تعالى).

ثمّ بعد ذكر خلق العالم و نظام الليل و النهار، و خلق الشمس و القمر و النجوم، قال مؤكدا: **اعلموا أنّ خلق الكون و تدبير أموره كلّ بيده سبحانه دون سواه، أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَ الأَمْرُ .**

ما هو «الخلق» و «الأمر»؟

هناك كلام كثير بين المفسّرين حول المراد من «الخلق» و «الأمر» أنّه ما هو؟ و لكن بالنظر إلى القرائن الموجوده في هذه الآيه- و الآيات القرآنيه الأخرى يستفاد أنّ المراد من «الخلق» هو الخلق و الإيجاد الأوّل. و المراد من «الأمر» هو السنن و القوانين الحاكمه على عالم الوجود بأسره بأمر الله تعالى، و التي تقود الكون في مسيره المرسوم له.

إنّ هذا التعبير- في الحقيقة- ردّ على الذين يتصورون أنّ الله خلق الكون ثمّ تركه لحاله و أهله، و جلس جانبا. أى إنّ العالم بحاجه إلى الله في وجوده

إنّ هذه الجملة تقول: كلاً، بل إنّ العالم كما يحتاج إلى حدوثه إلى الله، كذلك يحتاج إليه في تدبيره و استمرار حياته و إداره شؤونه إلى الله، و لو أنّ الله صرف عنايته و لطفه عن الكون لحظه واحده لتبدد النظام و انهار و انهدم بصورة كامله.

و قد مال بعض الفلاسفه إلى أن يفسيّر عالم «الخلق» بعالم «الماده» و عالم «الأمر» بعالم «ما وراء الماده» لأنّ لعالم الخلق جانباً تدريجياً، و هذه هي خاصيه الماده. و لعالم الأمر جانباً دفعياً و فورياً، و هذه هي خاصيه عالم ما وراء الماده، كما نقرأ في قوله تعالى: **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١)** و لكن بالنظر إلى موارد استعمال لفظه الأمر في آيات القرآن، و حتى عباره **وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومُ مُسَيَّرَاتٍ بِأَمْرِ رَبِّهِ** الواردة في الآيه المبحوثة يستفاد الأمر يعنى كل أمر إلهى سواء في عالم الماده أو في عالم ما وراء الماده (تأملوا رجاء).

ثمّ في ختام الآيه يقول: **تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**.

في الحقيقه إنّ هذه الجملة -بعد ذكر خلق السماوات و الأرض و الليل و النهار و الشمس و القمر و النجوم و تدبير عالم الوجود- نوع من الثناء على الذات الربوبيه المقدسه، و قد سبق لتعليم العباد.

و «تبارك» من ماده البركه و أصلها «برك» و معناها صدر البعير، حيث أنّ الإبل عند ما تستقر في مكان ما تلصق صدورها على الأرض، لهذا اتخذت هذه الكلمه تدريجياً معنى الثبوت و الاستقرار و الاستتباب، ثمّ وصفت و سمّيت كل نعمه مستقره و دائمه، و كل كائن طويل العمر، و مستمر الآثار و الخيرات، بأنّه موجود مبارك، و يقال أيضاً للمكان الذى يتجمع فيه الماء «بركه» لبقائه في ذلك

من هنا يتضح أنّ رأس المال «المبارك» هو الذى يتصف بالدوام، والكائن «المبارك» هو الموجود المستديم الآثار، و من البديهي أنّ أليق وجود لهذه الصفه هو وجود الله تعالى، فهو وجود مبارك أزلى أبدى، و هو بالتالى منشأ جميع البركات و الخيرات، و منبع الخير المستمر **تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** (و سوف نتحدث فى هذا المجال فى تفسير الآيه (٩٢) من سوره الأنعام أيضا).

إشاره

أُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)

التفسير

إشاره

شروط استجابته الدعاء:

لقد أثبتت الآيه السابقه-في ضوء ما أقيم من برهان واضح-هذه الحقيقه، وهى أن الذى يستحق للعباده فقط هو الله، و فى عقيب ذلك ورد الأمر هنا بالدعاء،الذى هو مخ العباده و روحها،يقول أولاً: أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً .

و«التضرع» فى الأصل من ماده «ضرع»بمعنى الثدى،و على هذا يكون فعل التضرع بمعنى حلب اللبن من الضرع،و حيث إنه عند حلب اللبن تتحرك الأصابع على حلمه الثدى من جهاتها المختلفه استدارا للحليب،لهذا استعملت هذه الكلمه فى من يظهر حركات خاصه إظهارا للخضوع و التواضع.

و على هذا فإن الآيه المبحوثه،و عبارته أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا تَحْنُنًا على أن نقبل على الله بمنتهى الخضوع و الخشوع و التواضع،بل يجب أن تنعكس روح

الدعاء فى أعماق روحه، و على جميع أبعاد وجوده، و يكون اللسان مجرد ترجمانها، و يتحدث نيابه عن جميع أعضائه.

و أمره تعالى فى الآيه الحاضره - بأن يدعى الله «خفيه» و فى السّير، لأنه أبعد عن الرياء، و أقرب إلى الإخلاص، و لأجل أن يكون الدعاء مقرونا بتمركز الفكر و حضور القلب.

و نحن نقرأ

فى حديث أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لما كان فى إحدى غزواته، و وصل جنود الإسلام إلى واد رفعوا أصواتهم بالتهليل و التكبير قائلين: «لا إله إلا الله» و «الله أكبر» فقال النبى صلى الله عليه و آله و سلم: «يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم، أما إنكم لا تدعون أصمّ و لا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً، إنه معكم» (١).

كما و يحتمل فى هذه الآيه أيضاً أن يكون المراد من «التضرع» هو الدعاء الظاهر العلنى، و المراد من «الخفيه» الدعاء الخفى السّرى، لأن لكل مقام اقتضاء خاصاً، فقد يقتضى أن يكون الدعاء علناً، و ربّما يقتضى خفيه و سرا، و هناك روايه وردت فى ذيل هذه الآيه تؤيد هذا الموضوع.

ثم قال تعالى فى ختام الآيه: إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ أى أن الله لا يحب المعتدين.

و لهذه العبارة معنى واسع يشمل كل نوع من أنواع العدوان و التجاوز، سواء الصراخ و رفع الصوت عالياً جداً حين الدعاء، أو التظاهر و ممارسه الرياء، أو التوجه إلى غير الله حين الدعاء.

و فى الآيه اللاحقه يشير تعالى إلى حكم هو فى الحقيقه شرط من شروط تأثير الدعاء، إذ قال: وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا .

و من المسلم أن الأدعيه إنما تكون عند الله أقرب إلى الإجابة إذا تحققت فيها

ص: ٧٩

الشرائط اللازمه، و من جمله ذلك أن يكون الدعاء مقترنا بالجوانب البناء و العمليه فى حدود المستطاع، و أن تراعى حقوق الناس، و أن تلقى حقيقه الدعاء بأنوارها و ظلالها على وجود الإنسان الداعى بأسره، و لهذا فلا تستجاب أدعيه المفسدين و العصاه، و لا تنتهى إلى أيه نتيجه مرجّوه.

و المراد من «الفساد بعد الإصلاح» يمكن أن يكون الإصلاح من الكفر أو الظلم أو كليهما،

جاء فى روايه عن الإمام الباقر عليه السلام: (إِنَّ الْأَرْضَ كَانَتْ فَاسِدَةً فَأَصْلَحَهَا نَبِيُّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ) (١).

و مرّه أخرى يعود إلى مسأله الدعاء و يذكر شرطاً آخر من شرائطه فيقول:

وَ ادْعُوهُ خَوْفًا وَ طَمَعًا

أى لا تكونوا راضيين معجبين بأفعالكم بحيث تظنون أنه لا توجد فى حياتكم أيه نقطه سوداء، إذ أنّ هذا الظن هو أحد عوامل التقهقر و السقوط، كما لا تكونوا يائسين إلى درجه أنّكم لا ترون أنفسكم لائقين للعفو الإلهى، و لإجابته الدعاء، إذ أنّ هذا اليأس و القنوط هو الآخر سبب لانطفاء شعله السعى و الاجتهاد، بل لا بد أن تعرجوا نحوه تعالى بجناحي (الخوف) و (الأمل) (الخوف من المسؤوليات و العثرات، و الأمل برحمته و لطفه).

□
و فى خاتمه الآيه يقول تعالى للمزيد من التأكيد على أسباب الأمل بالرحمه الإلهيه إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ .

و يمكن أن تكون هذه العبارة إحدى شرائط إجابته الدعاء، يعنى إذا كنتم تريدون أن لا تكون أدعيتكم خاويه، و مجرد لقلقه لسان، فيجب أن تقرنوها بعمل الخير و الإحسان، لتشملكم الرحمه الإلهيه بمعونه ذلك وثمر دعواتكم، و بهذا تكون الآيه قد تضمنت الإشارة إلى خمس من شرائط قبول الدعاء

ص: ٨٠

و إجابته، و هي باختصار كالتالي:

١- أن يكون الدعاء عن تضرّع و خفيه.

٢- أن لا يتجاوز حدّ الاعتدال.

٣- أن لا يكون مقرونا بالإفساد و المعصية.

٤- أن يكون مقرونا بالخوف و الأصل المعتدلين.

٥- أن يكون مقرونا بالبرّ و الإحسان، و فعل الخيرات.

ص: ٨١

إشاره

وَ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ الرِّيحَ بِشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا - سَقَطْنَا لِيَلدِ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَ الْبَلَدَ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ بِبَاتِهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِي خَبِثَ لَّا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)

التفسير

إشاره

لا بد من المربى و القابلية:

فى الآيات الماضيه مرّت إشارات عديده إلى مسأله «المبدأ» أى التوحيد و معرفه الله، من خلال الوقوف على أسرار الكون، و فى هذه الآيات ضمن بيان طائفه من النعم الإلهيه و ردت الإشاره إلى مسأله «المعاد» و البعث، ليكمل هذان البحثان أحدهما الآخر.

و هذه هى سيره القرآن الكريم و دأبه فى كثير من الموارد، حيث يقرن بين «المبدأ» و «المعاد»، و الملفت للنظر أنه يستعين لمعرفة الله، و كذا لتوجيه الأنظار إلى أمر المعاد معا بالاستدلال بالأسرار الكامنه فى خلق موجودات هذا العالم.

فيقول تعالى أولاً: وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ .

ثم يقول: إِنَّ هَذِهِ الرِّيحُ الَّتِي تَهْبُ مِنَ الْمَحِيطَاتِ تَحْمِلُ مَعَهَا سَحَابًا ثَقِيلَةً مَشْبَعَةً بِالْمَاءِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا .

ثم يسوق تلك السحب إلى الأراضي الظامئة اليابسة، و يكلفها بأن تروى تلك العطاشى سُقْنَاهُ لِيَلِدَ مِيَّتٍ .

و بذلك ينهمر ماء الحياه فى كل مكان فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ .

و بمعونه هذا الماء نخرج للبشر أنواعا متنوعه من الثمار و الفواكه فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ .

نعم، إِنَّ الشَّمْسَ تَسْطَعُ عَلَى الْمَحِيطَاتِ وَ الْبَحَارِ، فَيَتَبَخَّرُ الْمَاءُ وَ يَتَصَاعَدُ الْبَخَارُ إِلَى الْأَعْلَى، وَ هُنَاكَ فِي الطَّبَقَاتِ الْعَالِيَةِ الْبَارِدَةِ مِنَ الْجَوِّ يَتَرَاكُمُ الْبَخَارُ وَ يَشْكَلُ كَتَلًا ثَقِيلَةً مِنَ السَّحَابِ، ثُمَّ تَحْمِلُ الرِّيحُ كَتْلَ السَّحَابِ الْعَظِيمِ عَلَى ظَهْرِهَا، وَ تَتَوَجَّهُ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي كَلَفَتْ بِسُقْيِهَا، فَتَجْرَى بَعْضُ هَذِهِ الرِّيحِ قَدَامَ كَتْلِ السَّحَابِ، وَ تَكُونُ مَزِيجُهُ بِشَيْءٍ مِنَ الرُّطُوبَةِ الْخَفِيفَةِ، فَتَحْدُثُ نَسِيمًا مَرِيحًا تَسْتَشْمُ مِنْهُ رَائِحَةَ الْمَطَرِ اللَّذِيذَةِ الْبَاعِثَةَ لِلْحَيَاةِ وَ النِّشَاطِ.

إِنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ - الْمَبْشِرَاتُ بِنَزُولِ الْمَطَرِ، ثُمَّ تَرْسُلُ كَتْلَ الْغَيْمِ الْعَظِيمِ حَبَاتِ الْمَطَرِ مِنْ بَيْنِ ثَنَائِيهَا، لَكِنَّهَا لَيْسَتْ بِالْكَبِيرَةِ جَدًّا فَتَتَلَفُ الزَّرْعُ وَ الْأَرْضُ، وَ لَا بِالصَّغِيرَةِ جَدًّا فَتَضِيعُ فِي الْفُضَاءِ وَ لَا تَصِلُ إِلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ تَحْطُ هَذِهِ الْحَبَاتُ عَلَى الْأَرْضِ بِرَفْقٍ وَ هَدْوٍ، وَ تَنْفُذُ فِي تَرَابِهَا شَيْئًا فَشَيْئًا، فَتَنْبِتُ الْبُذُورَ وَ الْحَبَاتِ. وَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ الْمُحْتَرِقَةَ بِالْجَفَافِ، وَ الَّتِي كَانَتْ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِمَقْبَرِهِ مَظْلَمَةٍ وَ سَاكِنَةٍ وَ هَامِدَةٍ، إِلَى مَرْكَزِ فَعَالٍ نَابِضٍ بِالْحَيَاةِ وَ الْحَرَكَةِ، وَ تَنْشَأُ الْجَنَائِنُ الْخَضِرَاءُ الْغَنِيَّةُ بِالْأَزَاهِيرِ وَ الثَّمَارِ.

ثُمَّ عَقِيبَ ذَلِكَ يَضِيفُ فُورًا كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمُؤْتَىٰ وَ نَلْبَسُهُمْ حُلَّةَ الْوُجُودِ وَ الْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَىٰ.

و لقد أتينا بهذا المثال لأجل أن نريكم أنموذجا من المعاد فى هذه الدنيا،

الذى يتكرر أمام عيونكم كل يوم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

و فى الآيه اللاحقه-و حتى لا يظن أحد أن نزول المطر على نمط واحد يدل على أن جميع الأراضى تصير حيّه على نمط واحدا أيضا،و حتى يتّضح أنّ القابليات و الاستعدادات متفاوتة تسببت فى أن تتفاوت حالات الاستفادة و الانتفاع بالموهب الإلهيه يقول: وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ لِبَاتِهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ أَى أَنَّ الأَرْض الصالحه هى التى تستفيد من المطر،و تثمر خير إثمار بإذن ربّها.

أما الأراضى السبخه و الخبيثه فلا تثمر إلا بعض الأعشاب غير النافعه وَ الَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا . (١)

هكذا يكون الأمر بالبعث،و إن كان سببا لعوده الحياه إلى جميع افراد البشر، إلا أنّ جميع الناس لا يحشرون على نمط واحد و هيئه واحده،إنهم مختلفون متفاوتون فى ذلك مثل تفاوت الأَرْض الحلوه،و الأَرْض المالحة،نعم يتفاوتون، و يكون هذا التفاوت ناشئا من الأعمال و العقائد و النيات.

ثمّ فى ختام الآيه يقول تعالى: إِنَّ هَذِهِ آيَاتٍ نَبِّئُهَا لِمَن يَشْكُرُوهَا، و يستفيدون من عبرها و مداليلها،و يسلكون فى ضوئها سبيل الهدايه كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ .

إن الآيه الحاضره-فى الحقيقه-إشاره إلى مسأله مهمه تتجلى فى هذه الحياه و فى الحياه الأخرى فى كل مكان،و هى أنّ فاعليه الفاعل وحدها لا- تكفى للإثمار و الإنتاج الصحيح المطلوب،بل لا بدّ من «قابليه القابل»فهى شرط للتأثير و الإثمار.فإنه ليس هناك شىء أطف و أكثر بعثا للحياه و النشاط من حبات المطر،و لكن هذا المطر نفسه الذى لا شك فى لطافه طبعه،يورق و يورد فى مكان،و ينبت الشوك و الحنظل فى مكان آخر.

ص: ٨٤

(١ - ١) التّكيد: هو البخيل الممسك الذى يتعذر أخذ شىء منه بسهولة،و لو أنه أعطى لأعطى الشىء اليسير الحقير.و لقد شبهت الأراضى المالحة السبخه غير المساعده للزرع بمثل هذا الشخص.

إشاره

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ
إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَالٌّ وَلَا لِي آلٌ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦١) أَلْبَلَّغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٢) أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَتُنذِرُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
(٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَاعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤)

التفسير

إشاره

رساله نوح أول الرسل من أولى العزم:

تقدم أنّ هذه السوره-بعد ذكر سلسله من القضايا الجوهرية و العامه في صعيد معرفه الله و المعاد و الهدايه الإلهيه للبشر، و مسأله
الشعور بالمسؤوليه-

تشير إلى قصص ثله من الأنبياء الكرام و الرسل العظام مثل «نوح» و«هود» و«صالح» و«شعيب» و بالتالى «موسى بن عمران» عليهم السلام أجمعين، كى تقدم أمثله حيه لهذه الأبحاث و بصوره عمليه فى ثنايا تاريخهم الحافل بالحوادث و العبر.

فيبدأ سبحانه من قصه نوح النَّبى، و يستعرض قسما من حواراته مع قومه الوثنيين المعاندين.

و قد وردت قصه نوح فى سور قرآنيه متعدده، مثل سوره هود، الأنبياء، و المؤمنون، الشعراء، كما أنّ هناك سوره قصيره فى القرآن الكريم باسم «سوره نوح» و هى السوره الحاديه و السبعون من سور الكتاب العزيز.

و سوف يأتى شرح و دراسه جهود هذا النَّبى العظيم، و كيفيه صنعه للسفينه، و الطوفان الرهيب، و غرق قومه الأنانيين الفاسدين و الوثنيين بإسهاب فى السور المذكوره، و هنا أكتفى فقط - بإعطاء فهرست عن ذلك ضمن ست آيات هى:

يقول أولاً: لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ .

إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ ذَكَرَهُمْ بِهِ هُوَ الْفَاتِ نَظَرَهُمْ إِلَىٰ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ، وَ نَفَىٰ أَيُّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْوَثْنِيَّةِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ .

إنّ شعار التوحيد ليس شعار نوح وحده، بل هو أول شعار عند جميع الأنبياء و المرسلين الإلهيين، و لهذا يشاهد فى آيات متعدده من هذه السوره - و غيرها من السور القرآنيه - أنّ أول ما يفتتح أكثر الأنبياء دعواتهم به هو هذا الشعار: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ (راجع الآيات ٦٥، و ٧٣ و ٨٥ من نفس هذه السوره).

من هذه العبارات يستفاد جيدا أنّ الوثنيه كانت أسوأ مانع فى طريق سعادته البشريه جمعاء، و أنّ حملته غصون التوحيد هؤلاء كانوا أول ما يفعلونه لغرس هذه الغصون فى مزرعه الحياه البشريه و تربيته أنواع الورود الزاهيه و الأشجار المثمره فيها، هو أنّهم يشمرون عن ساعد الجدّ ليظهروا الحياه البشريه بمنجل

تعاليمهم البناء من الأشواك، أشواك الوثنيه و الشرك و العبوديه لغير الله تعالى.

و يستفاد من الآيه (٢٣) في سوره نوح خاصه أنّ الناس في زمن النبي نوح عليه السلام كانوا يعبدون أصناما متعدده تدعى «ودّ» و «سواع» و «يعوث» و «يعوق» و «نسر»، التي سيأتي الحديث عنها عند تفسير تلك الآيه بإذن الله.

و بعد أن أيقظ نوح ضمائرهم و فطرتهم الغافيه، حدّثهم من مغبه الوثنيه و عاقبتها المؤلمه إذ قال: **إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**.

و المراد من **عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** يمكن أن يكون الطوفان المعروف بطوفان نوح، الذي قلّمَا شوهد مثله في العقوبات في العظمه و السعه، كما و يمكن أن يكون إشارة إلى العقوبه الإلهيه في يوم القيامه، لأنّ هذا التعبير قد ورد في معنيين من القرآن الكريم. فإننا نقرأ في سوره الشعراء الآيه (١٨٩): **فَأَخَذَهُمُ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** الآيه و ردت حول العقوبه التي نزلت بقوم شعيب في هذه الدنيا بسبب ذنوبهم و معاصيهم، و نقرأ في سوره المطففين الآيه (٥): **أَلَّا يَظُنُّ أَوْلِيكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ** (١).

إنّ عبارته «أخاف» (أى أخشى أن تصيبكم هذه العقوبه، بعد ذكر مسأله الشرك في الآيه المبحوثه، يمكن أن تكون لأجل أن نوحا يريد أن يقول لهم: إذا لم تتيقنوا وقوع هذه العقوبه، فعلى الأقل ينبغي أن تخافوا منها، و لهذا لا يجوز العقل أن تسلكوا- مع هذا الاحتمال- هذا السبيل الوعر، و تستقبلوا عذابا عظيما ألما كهذا.

و لكن قوم نوح بدل أن يستقبلوا دعوه هذا النبي العظيم الإصلاحيه، المقرونه بقصد الخير و النفع لهم، فينصون تحت رايه التوحيد و يكفون عن الظلم و الفساد، قال جماعه من الأعيان و الأثرياء الذين كانوا يحسون بالخطر على

ص: ٨٧

مصالحهم بسبب يقظه الناس و انتباههم، و يرون الدين مانعا من عبثهم و مجونهم و شهواتهم، قالوا لنوح بكل صراحه و قحه: نحن نراك في ضلال واضح قال المَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

و«المَلَأُ» تطلق عادة على الجماعه التي تختار عقيدته و فكره واحده، و يملأُ اجتماعها و جلالها الظاهري عيون الناظرين، لأن مادته «المَلَأُ» أصلا من «المَلَأُ»، و قد استعملها القرآن على الأغلِب في الجماعات الأناثيه المستبده ذات المظهر الأنيق و الباطن الفاسد الملوث بالأوضاد و الشرور، و الذين يملأون ساحات المجتمع المختلفه بوجودهم.

و لقد جابه نوح عليه السلام تعنتهم و خشونتهم بلحن هادئ و لهجه متينه تطفح بالمحبه و الرحمه، فقال في معرض الرد عليهم: أنا لست بضال، بل لست في أيه علامه للضلال، و لكنني مرسل من الله قال يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَ لَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

و هذه إشاره إلى أن الأرباب التي تعبدوها و تفترضون لكل واحد منها مجالا للسياده و الحاكميه، مثل إله البحر، إله السماء، إله السلام و الحرب، و ما شاكل ذلك، كله لا- أساس لها من الصحه، و رب العالمين ما هو إلا الله الواحد الذي خلقها جميعا و أوجدها من العدم.

ثم إن هدى إنما هو إبلاغ ما حملت من رساله أبلغكم رسالات ربي .

و لن آلو جهدا في تقديم النصح لكم، و قصد نفعكم، و إيصال الخير إليكم و أنصح لكم .

«أنصح» من ماده «نصح» يعنى الخلوص و الغلو عن الغش و عن الشىء الدخيل، لهذا يقال للعسل الخالص: ناصح العسل، ثم أطلقت هذه اللفظه على الكلام الصادر عن سلامه نيه، و بقصد الخير، و من دون خداع و مكر.

ثم أضاف تعالى وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

إن هذه العبارة يمكن أن يكون لها جانب تهديد في مقابل معارضاتهم و مخالفتهم، و كأنه يريد أن يقول: أنا أعلم بعقوبات إلهيه أليمه تنتظر العصاه لا- تعلمون شيئا عنها، أو تكون إشارة إلى لطف الله و رحمته، و تعنى أنكم إذا أطعتم الله، و كففتم عن تعنتكم، فإننى أعلم مثوبات عظيمه لكم لا تعلمونها و لم تقفوا لحد الآن على سعتها. أو تكون إشارة إلى أننى إذا كنت قد كلفت بهدايتكم فإننى أعلم أمورا عن الله العظيم و عن أوامره لا- تعرفونها، و لهذا يجب أن تطيعونى و تتبعونى. و لا مانع من أن تكون كل هذه المعانى مقصوده و مجتمعه فى مفهوم الجملة الحاضره.

و فى الآيه اللاحقه نقرأ لنوح كلاما آخر قاله فى مقابل استغراب قومه من أنه كيف يمكن لبشر أن يكون حاملا لمسؤوليه إبلاغ الرساله الإلهيه، إذ قال: أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ، وَ لِتَتَّقُوا وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

يعنى: أى شىء فى هذه القضية يدعو إلى الاستغراب و التعجب، لأن الإنسان الصالح هو الذى يمكنه أن يقوم بهذه الرساله أحسن من أى كائن آخر. هذا مضافا إلى أن الإنسان هو القادر على قياده البشر، لا الملائكه و لا غيرهم.

و لكن بدل أن يقبلوا بدعوه مثل هذا القائد المخلص الواعى كذبه الجميع، فأرسل الله عليهم طوفانا فغرق المكذبون و نجا فى السفينه نوح و من آمن فكذبوه فأنجيناؤه و الذين معه فى الفلك و أغرقنا الذين كذبوا بآياتنا .

و فى خاتمه الآيه بين دليل هذه العقوبه الصعبه، و أنه عمى القلب الذى منعهم عن رؤيه الحق، و أتباعه إنهم كانوا قوماً عمين (1)

و هذا العمى القلبي كان نتيجه أعمالهم السيئه و عنادهم المستمر، لأن

ص: ٨٩

١- ١) «عمين» جمع عمى، و هو يطلق عاده على من تعطلت بصيرته الباطنيه، و لكن الأعمى يطلق على من فقد بصره الظاهرى، و كذلك يطلق على من فقد بصيرته الباطنيه أيضا (و عمى حينما يدخل عليها الإعراب تتبدل إلى عم).

التجربه أثبتت أنّ الإنسان إذا بقى فى الظلام مده طويله، أو أغمض عينيه لسبب من الأسباب و امتنع عن النظر مده من الزمن، فإنّه سيفقد قدرته على الرؤيه تدريجا و سيصاب بالعمى فى النهايه.

و هكذا سائر أعضاء البدن إذا تركت الفعاليه و العمل مده من الزمن يبست و تعطلت عن العمل نهائيا.

و بصيره الإنسان هى الأخرى غير مستثناه عن هذا القانون، فالتغاضى المستمر عن الحقائق، و عدم استخدام العقل و التفكير فى فهم الحقائق و الواقعيات بصوره مستمره، يضعف بصيره الإنسان تدريجا إلى أن تعمى عين القلب و العقل فى النهايه تماما.

هذه لمححه عن قصه نوح، و أمّا بقيه هذه القصّه و كيفيه وقوع الطوفان و تفاصيلها الأخرى، فسوف نشير إليها فى السور التى أشرنا إليها فى مطلع هذا البحث.

ص : ٩٠

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ لَجَأَكُمْ بِرَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأُذَكِّرُوا إِذْ جَعَلْتُكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضِيطَةً فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سِمَاطٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَضِرِينَ (٧١) فَانجِنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمِهِ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)

لمحة عن قصه قوم هود:

عقيب ذكر رساله نوح و الدروس الغنيه بالعبر الكامنه فيها، عمد القرآن الكريم إلى إعطاء لمحة سريعة عن قصه نبي آخر من الأنبياء العظام، و هو النبي هود عليه السلام، و ذكر ما جرى بينه و بين قومه.

و هذه القصه ذكرت في سور أخرى من القرآن الكريم مثل سورة «الشعراء» و سورة «هود» التي تناولت هذه القصه بشيء من التفصيل، و أمّا في الآيات الحاضره فقد ذكر شيء مختصر عمّا دار بين هود و المعارضين له و نهايتهم.

يقول تعالى أولاً: و لقد أرسلنا إلى قوم عاد أخاهم هوداً و إلى عادٍ أخاهم هوداً.

و قوم «عاد» كانوا أمّه تعيش في أرض «اليمن» و كانت أمّه قويه من حيث المقدره البدنيه و الثروه الوافره التي كانت تصل إليهم عن طريق الزراعه و الرعي، و لكنّها كانت متخمه بالانحرافات الاعتقاديّه و بخاصّه الوثنيه و المفاسد الأخلاقيه المتفشيه بينهم.

و قد كلف «هود» الذي كان منهم - و كان يرتبط بهم بوشيجه القربى - من جانب الله بأن يدعوهم إلى الحق و مكافحه الفساد، و لعل التعبير ب«أخاهم» إشاره إلى هذه الوشيجه النسبيه بين هود و قوم عاد.

ثمّ إنّه يحمل أيضاً أن يكون التعبير ب«الأخ» في شأن النبي هود، و كذا في شأن عدّه أشخاص آخرين من الأنبياء الإلهيين مثل نوح عليه السلام (سوره الشعراء الآيه ١٠٦) و صالح (سوره الشعراء الآيه ١٤٢) و لوط (سوره الشعراء الآيه ١٦١) و شعيب (سوره الأعراف الآيه ٨٥) إنّما هو لأجل أنّهم كانوا يتعاملون مع قومهم في منتهى الرحمه، و المحبّه مثل أخ حميم، و لا يألون جهداً في إرشادهم و هدايتهم و دعوتهم إلى الخير و الصلاح.

إن هذه الكلمه تستعمل فى من يعطف على أحد أو جماعه غايه العطف، و يتحرق لهم غايه التحرق، مضافا إلى أنها تحكى عن نوع من التساوى و نفى أى رغبه فى التفوق و الزعامه، يعنى أن رسل الله لا يحملون فى نفوسهم أى دوافع شخصيه فى صعيد هدايتهم، إنما يجاهدون فقط لانقاذ شعوبهم و أقوامهم من ورطه الشقاء.

و على كل حال، فإن من الواضح و البين أن التعبير ب«أخاهم» ليس إشاره إلى الأخوه الدينيه مطلقا، لأن هؤلاء الأقوام لم تستجب- فى الأغلب- لدعوه أنبيائها الإصلاحيه.

ثم يذكر تعالى أن هود شرع فى دعوته فى مسأله التوحيد و مكافحه الشرك و الوثنيه: قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ .

و لكن هذه الجماعه الأنانيه المستكبره، و بخاصه أغنياؤها المغرورون المعجبون بأنفسهم، و الذين يعبر عنهم القرآن بلفظه «المالئ» باعتبار أن ظاهرهم يملأ العيون، قالوا لهود نفس ما قاله قوم نوح عليه السلام قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَ إِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ .

«السفاهه» و خفه العقل كانت تعنى فى نظرهم أن ينهض أحد ضد تقاليد بيئته مهما كانت تلكم التقاليد حاويه باطله، و يخاطر حتى بحياته فى هذا السبيل.

لقد كانت السفاهه فى نظرهم و منطقهم هى أن لا- يوافق المرء على تقاليد مجتمعه و سننه الباليه، بل يثور على تلك السنن و التقاليد، و يستقبل برحابه صدر كل ما تخبئه له تلك الثوره و المجابهه.

و لكن هودا- هو يتحلى بالوقار و المتانته التى يتحلى بها الأنبياء و الهداه الصادقون الطاهرون- من دون أن ينتابه غضب، أو تعتريه حاله يأس قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَ لَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

ثم إن هودا أضاف: إن مهمته هى إبلاغ رسالات الله إليهم، و إرشادهم إلى ما

فيه سعادتهم و خيرهم، و انقادهم من ورطه الشرك و الفساد، كل ذلك مع كامل الإخلاص و النصح و الأمانه و الصدق أبلغكم رسالاتِ رَبِّي وَ أَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ .

ثم إن هودا أشار- في معرض الرد على من تعجب من أن يبعث الله بشرا رسولا- إلى نفس مقوله نوح النبي لقومه: أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ أَى هَلْ تَعْجَبُونَ مِنْ أَنْ يَرْسِلَ اللَّهُ رَجُلًا مِنَ الْبَشَرِ نَبِيًّا، ليحذركم من مغبه أعمالكم، و ما ينتظركم من العقوبات في مستقبلكم؟ ثم إنه استثاره لعواطفهم الغافيه، و إثارة لروح الشكر في نفوسهم، ذكر قسما من النعم التي أنعم الله تعالى بها عليهم، فقال: وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ، فقد ورثتم الأرض بكل ما فيها من خيرات عظيمة بعد أن هلك قوم نوح بالطوفان بسبب طغيانهم و بادوا.

و لم تكن هذه هي النعمه الوحيد، بل وهب لكم قوه جسديه عظيمة وَ زَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصُطَةً .

إن جملة زادكم في الخلق بصطه يمكن أن تكون- كما ذكرنا- إشاره إلى قوه قوم عاد الجسديه المتفوقه، لأنه يستفاد من آيات قرآنيه عديده، و كذا من التواريخ، أنهم كانوا ذوى هياكل عظيمة قويه و كبيره، كما نقرأ ذلك من قولهم في سوره «فصلت» الآية ١٥ مَنْ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ فِي الْآيَةِ (٧) من سوره الحاقه نقرأ- عند ذكر ما نزل بهم من البلاء بذنوبهم- فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَارِعِينَ كَانَهُمْ أَعْيَازًا نَخْلًا خَاوِيَةً حَيْثُ شَبِهَ جِسْمَهُمْ بِجَذْوَعِ النَّخْلِ السَّاقِطَةِ عَلَى الْأَرْضِ .

و يمكن أن تكون إشاره- أيضا- إلى تعاضم ثروتهم و إمكانياتهم الماليه، و مدنيتهم الظاهريه المتقدمه، كما يستفاد من آيات قرآنيه و شواهد تاريخيه أخرى، و لكن الاحتمال الأول أنسب مع ظاهر الآية.

و في خاتمه الآية يذكر تلك الجماعه الأناثيه بأن يتذكروا نعم الله لتستيقظ

فيهم روح الشكر فيخضعوا لأوامره، عليهم يفلحون فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون .

و لكن في مقابل جميع المواعظ و الإرشادات المنطقيه، و التذكير بنعم الله و مواهبه، انبرت تلك الثله من الناس الذين كانوا يرون مكاسبهم الماديه في خطر، و قبول دعوه النبي تصدّهم عن التمادى في أهوائهم و شهواتهم، انبرت إلى المعارضه، و قالوا بصراحه: إِنَّكَ جئت تدعونا إلى عبادہ اللہ وحدہ و ترك ما كان أسلافنا يعبدون دهرًا طويلاً، كلاً، لا يمكن هذا بحال قالوا أ جئنا لنعبد الله و خيده و نذر ما كان يعبد آباؤنا؟ لقد كان مستوى تفكير هذه الثله منحطاً جداً- كما تلاحظ- إلى درجه أنهم كانوا يستوحشون من عبادہ اللہ وحدہ، بينما يعتبرون تعدد الآلهه و المعبودات مفخره من مفاخرهم.

و الجدير بالتأمل أنّ دليلهم في هذا المجال لم يكن إلاّ التقليد الأعمى لما كان عليه الآباء و الأسلاف، و إلاّ فكيف يمكن أن يبرروا خضوعهم لقطععات من الصخور و الأخشاب؟! و في النهايه، و لأجل أن يقطعوا أمل هود فيهم تماماً، و يقولوا كلمتهم الأخيره قالوا: إذا كان حقا و واقعا ما تنذرنا به من العذاب، فلتبادر به، أى أننا لا نخشى تهديداتك أبداً فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ .

و عند ما بلغ الحوار إلى هذه النقطة، و أطلق أولئك المتعنتون كلمتهم الأخيره الكاشفه عن رفضهم الكامل لدعوه هود، و أيس هود- هو الآخر- من هدايتهم تماماً، قال: إذن ما دام الأمر هكذا فسيحلّ عليكم عذاب ربكم قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ .

و«الرجس» في الأصل بمعنى الشئ غير الطاهر، و يرى بعض المفسرين أنّ لأصل هذه اللفظه معنى أوسع، فهو يعنى كل شئ يبعث على النفور و التقزز

و القرف، و لهذا يطلق على جميع أنواع الخبائث و النجاسات و العقوبات لفظ «الرجس» لأنّ جميع هذه الأمور توجب نفور الإنسان، و ابتعاده.

و على كل حال فإنّ هذه الكلمه فى الآيه المبحوثة يمكن أن تكون بمعنى العقوبات الإلهيه، و يكون ذكرها مع جملة «قد وقع» التى هى بصيغه الفعل الماضى إشاره إلى أنّكم قد أصبحتم مستوجبين للعقوبه حتما و قطعاً، و أن العذاب سيحل بكم لا محاله.

كما يمكن أن يكون بمعنى النجاسه و تلوث الروح، يعنى أنّكم قد غرقتم فى دوامه الانحراف و الفساد إلى درجه أنّ روحكم قد دفنت تحت أوزار كثيفه من النجاسات، و بذلك استوجبتم غضب الله، و شملكم سخطه.

ثمّ لأجل أن لا يبقى منطق عباده الأوثان من دون ردّ أضاف قائلاً:

أَتُجَادِلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ

فهذه براء، و جئتم تجادلونى فى عبادتها فى حين لم ينزل بذلك أى دليل من جانب الله.

و فى الحقيقه، أنّ هذه الأصنام لا تملك من الألوهيه إلاّ- أسماء من دون مسّميات، و هى أسماء من نسج خيالكُم و خيال أسلافكم، و إلاّ فهى كومه أحجار و أخشاب لا تختلف عن غيرها من أحجار البرارى و أخشاب الغابات.

ثمّ قال: فإذا كان الأمر هكذا فلننتظر جميعاً، انتظروا أنتم أن تنفعكم أصنامكم و معبوداتكم و تنصركم، و أنتظر أنا أن يحلّ بكم غضب الله و عذابه الأليم جزاء تعنتكم، و سيكشف المستقبل أى واحد من هذين الانتظرين هو الأقرب إلى الحقيقه و الواقع فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ .

و فى نهايه الآيه بين القرآن مصير هؤلاء القوم المتعنتين فى عباره قصيره موجزه: فَأَنْجِيَاهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ قَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا وَ مَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ أَجَلٌ، لقد أنجى الله هوداً و من اتبعه من القوم بلطفه و رحمته، و أمّا

الذين كذبوا بآيات الله، ورفضوا الانضواء تحت لواء دعوته، والانصياع للحق، فقد أيدوا نهائياً.

و«دابر» فى اللغة بمعنى آخر الشىء و مؤخرته، و بناء على هذا المفهوم يكون معنى الآية: أننا أبدنا هؤلاء القوم إباده كامله و استأصلنا شأفتهم.

(و سوف نبحت بالتفصيل حول قوم عاد و بقيه خصوصيات حياتهم و كيفيه عقوبه الله لهم و العذاب الذى نزل و حلّ بهم عند تفسير سوره هود بإذن الله).

ص: ٩٧

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْثُفًا بَيْنَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ هَاتِدِ نَاقَهُ اللَّهُ لَكُمْ آيَةٌ فَادْرُوهَا
 تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ
 تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
 مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا غُفُورًا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسِلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ
 اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ إِنَّا بِمَا تَعْبُدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ
 (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ
 لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)

قصة قوم صالح و ما فيها من عبر

فى هذه الآيات جاءت الإشارة إلى قيام «صالح» النبى الإلهى العظيم فى قومه «ثمود» الذين كانوا يسكنون فى منطقته جبلية بين الحجاز و الشام، و بهذا يواصل القرآن أبحاثه السابقة الغنيه بالعبر حول قوم نوح و هود.

و قد أشير إلى هذا القصة أيضا فى سوره: «هود» و «الشعراء» و «القمر» و «الشمس» و جاءت بصوره أكثر تفصيلا فى سوره «هود» أما هذه الآيات فقد أوردت ما دار بين صالح عليه السلام و قومه قوم ثمود، و عن مصيرهم، و عاقبه أمرهم بصوره مختصره.

فيقول تعالى فى البدايه: وَإِلَىٰ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا .

و قد مر بيان العله فى إطلاق لفظه «الأخ» على الأنبياء عند تفسير الآيه (٦٥) من نفس هذه السوره فى قصه هود.

و لقد كانت أول خطوه خطأها نبئهم صالح فى سبيل هدايتهم، هى الدعوه إلى التوحيد، و عباده الله الواحد قال يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ .

ثم أضاف: إِنَّهُ لَا يَقُولُ شَيْئًا مِنْ دُونِ حُجَّةٍ أَوْ دَلِيلٍ، بل قد جاء إليهم بيئنه من ربهم قد جاءكم ببيئنه من ربكم هذيه ناقه الله لكم آيه .

و «الناقه» أنثى الإبل، و قد أشير إلى ناقه صالح فى سبعة مواضع من القرآن الكريم (١) و أميا حقيقه هذه الناقه، و كيف كانت معجزه صالح الساطعه، و آيته المفحمه لقومه، فذلك ما سنبحثه فى سوره هود، فى ذيل الآيات المرتبطه بقوم ثمود بإذن الله.

ص: ٩٩

١ - ١) قال الطبرسى فى المجمع: الناقه أصلها من التوطئه و التذليل بعير منوق أى مدلل موطأ، و لعل إطلاقها على أنثى الإبل لكونها أكثر ذلولا للامتطاء و الركوب.

على أنه ينبغي الالتفات إلى أن إضافة «الناقة» إلى «الله» في الآيات الحاضرة من قبيل الإضافة التشريفية- كما هو المصطلح- فهي إشاره إلى أن هذه الناقة المذكوره لم تكن ناقة عاديه، بل كانت لها ميزات خاصه.

ثم إنه يقول لهم: اتركوا الناقة تأكل في أرض الله ولا تمنعوها فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم .

و إضافة الأرض إلى «الله» إشاره إلى أن هذه الناقة لا- تراحم أحدا، فهي تعلق من علف الصحراء فقط، ولهذا يجب أن لا يزاحمها.

ثم يقول في الآية اللائحه و اذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعدي عاد و بؤاكم في الأرض أى من جانب لا تنسوا نعم الله الكثيره، و من جانب آخر انتبهوا إلى أنه قد سبقكم أقوام (مثل قوم عاد) طغوا فحاق بهم عذاب الله بذنوبهم و هلكوا.

ثم ركز على بعض النعم الإلهيه كالأرض فقال: تتخذون من سهولها قصورا، و تتحتون الجبال بيوتا، فالأرض قد خلقت بنحو تكون سهولها المستويه و المزوده بالتربه الصالحه لإقامه القصور الفخمه، كما تكون جبالها صالحه لأن تنحت فيها البيوت القويه المحصنه لفصل الشتاء و الظروف الجويه القاسيه.

و يبدو للنظر من هذا التعبير هو أنهم كانوا يغيرون مكان سكناهم فى الصيف و الشتاء، فى فصل الربيع و الصيف كانوا يعمدون إلى الزراعه و الرعى فى السهول الواسعه و الخصبه، و لهذا كانت عندهم قصور جميله فى السهول، و عند حلول فصل البرد و الانتهاء من الحصاد يسكنون فى بيوت قويه منحوته فى قلب الصخور، و فى أماكن آمنه تحفظهم من خطر السيول و العواصف و الاخطار.

و فى ختام الآية يقول تعالى: فاذكروا آلاء الله و لا تعثوا فى الأرض

ثمّ إننا نلاحظ أيضا أنّ جماعه الأغنياء و المترفين ذوى الظاهر الحسن، و الباطن القبيح الخبيث،الذين عبر عنهم بالملاّ أخذوا بزمام المعارضه لهذا النبىّ الإلهىّ العظيم،و حيث أنّ عددا كبيرا من أصحاب القلوب الطيبه و الأفكار السليمه كانت ترزح فى أسر الأغنياء و المترفين،قد قبلت دعوه النبىّ صالح و اتبعته،لهذا بدأ الملاّ بمخالفتهم لهؤلاء المؤمنين.

فقال الفريق المستكبر من قوم صالح للمستضعفين الذين آمنوا بصالح:هل تعلمون يقينا أنّ صالحا مرسل من قبل الله قال المَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ .

على أنّ الهدف من هذا السؤال لم يكن هو تحرى الحق،بل كانوا يريدون بإلقاء هذه الشبهات زعزعه الإيمان فى نفوس من آمن،و إضعاف معنوياتهم، و ظنا منهم بأن هذه الجماهير ستطيعهم و تكف عن متابعه صالح و حمايته،كما كانت مطيعه لهم يوم كانت تحت سيطرتهم و نفوذهم.

و لكن سرعان ما واجهوا ردّ تلك الجموع المؤمنه القاطع،الكاشف عن إرادتها القويه و عزمها على مواصله طريقها،حيث قالوا:إننا لسنا نعتقد بأنّ صالحا رسول من قبل الله فحسب،بل نحن مؤمنون أيضا بما جاء به قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون .

و لكن هؤلاء المغرورين المتكبرين لم يكفوا عن عملهم،بل عادوا مرّه أخرى إلى إضعاف معنويه المؤمنين قال الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إنا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ .و كانت هذه محاوله منهم لجرّ هؤلاء المستضعفين الى صفوفهم مرّه

ص: ١٠١

١-١) «تعثوا» مشتقه من ماده «عثى» معنى إيجاد الفساد،غايه ما هنالك أنّ هذه ماده تستعمل فى الأغلب فى المفاسد الأخلاقية و المعنويه،فى حين تطلق ماده «عبث»على المفاسد الحسيه،و بناء على هذا يكون كلمه «المفسدين»بعد جمله «لا-تعثوا» لغرض التأكيد،لأنّ كليهما يعطيان معنى واحدا.

أخرى.

كانوا المقدمين في المجتمع و الأسوه للآخرين على الدوام بما كانوا يتمتعون به من قوه و ثراء،لهذا كانوا يظنون أنهم بإظهار الكفر سيكونون أسوه للآخرين أيضا،و أن الناس سوف يتبعونهم كما كانوا يفعلون ذلك من قبل،و لكنهم سرعان ما وقفوا على خطأهم،و علموا أن الناس قد اكتسبوا بالإيمان بالله على شخصيته حضاريه جديده و استقلال فكري،و قوه إراده.

و الجدير بالانتباه أن الأغنياء و المملأ- وصفوا في الآيات الحاضره بالمستكبرين،و وصفت الجماهير الكادحه المؤمنه بالمستضعفين،و هذا يفيد الفريق الأول قد وصلوا بشعورهم بالتفوق،و غضب حقوق الناس و استغلالهم إلى مرتبه ما يسمى في لغه العصر ب«الطبقه المستغله»، و الفريق الآخر بالطبقه المستغله.

عند ما يئس المملأ و الأغنياء المستكبرون من زعزعه الإيمان في نفوس الجماهير المؤمنه بصالح عليه السلام،و من جانب آخر رأوا أن وساوسهم و شائعاتهم لا- تجدى نفعاً مع وجود«الناقه»التي كانت تعدّ معجزه صالح عليه السلام،لهذا قرروا قتل الناقه،مخالفين بذلك أمر ربهم فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ (١).

و لم يكتفوا بهذا أيضا،بل أتوا إلى صالح نفسه و بصراحه قالوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ .

يعنى أننا لا- نخاف تهديداتك مطلقا،و أن هذه التهديدات جميعها لا أساس لها...و الحقيقه أن هذا الكلام نوع من الحرب النفسيه ضد صالح عليه السلام،بهدف إضعاف روحيته و روحيه المؤمنين به.

و عند ما وصل المعارضون بطغيانهم و تمردهم إلى آخر درجه،و أطفأوا في

ص: ١٠٢

١- ١) المراد من العقر هو قطع عصب خاص خلف رجل الناقه أو الفرس هو سبب حركتها،فإذا قطع سقط الحيوان،و فقد القدره على الحركه،و التنقل.

نفوسهم آخر بارقه أمل في الإيمان، حلت بهم العقوبة الإلهية طبقا لقانون انتخاب الأصلاح، وإهلاك و محو الكائنات الفاسده و المفسده فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ .

إنها كانت زلزله و رجفه عظيمه تهاوت على أثرها قصورهم و بيوتهم القويه، و اندثرت حياتهم الجميله، حتى أنه لم يبق منهم إلا أجساد ميتة... هكذا أصبحوا.

و«جاثم» في الأصل مشتق من ماده «جثم» بمعنى القعود على الركب، و التوقف في مكان واحد، و لا يبعد أن يكون هذا التعبير إشاره إلى أن الزلزله و الرجفه جاءتهم و هم في حاله نوع هنيهة، فجلسوا على أثرها فجأه، و بينما كانوا قاعدين على ركبهم لم تمهلهم الرجفه، بل ماتوا و هم على هذه الهنيهة، إمّا خوفاً، و إمّا بسبب انهيار الجدران عليهم، و إمّا بفعل الصاعقه التي رافقت الزلزال!!

بأى شيء أهلك قوم ثمود:

و هنا يطرح سؤال و هو: يستفاد من الآيه الحاضره أنّ الشيء الذى أهلك هؤلاء المتمردين كان هو الزلزال، و لكن يظهر من الآيه (١٣) من سوره فصلت أنه كان الصاعقه، بينما نقرأ فى الآيه (١٥) من سوره الحاقه فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ يعنى أنّ قوم ثمود اهلكوا بشيء مدمر، فهل هناك تناقض بين هذه التعابير؟ إنّ الجواب على هذا السؤال يمكن أن يلخص فى جمله واحده، و هى جميع هذه العبارات ترجع إلى معنى واحد، أو أنه يلزم بعضها بعضاً، فكثيراً ما تحدث الرجّه الأرضيه فى منطقه ما بفعل صاعقه عظيمه، أى أنه تحدث صاعقه أولاً، ثم تحدث على أثرها رجّه أرضيه.

و أمّا «الطاغيه» فهى بمعنى كائن تجاوز عن حدّه، و هذا ينسجم مع الزلزله و كذا مع الصاعقه، و لهذا فلا يوجد أى تناقض بين الآيات.

وفي آخر آية من الآيات المبسوثة يقول: فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصِيحَتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَنْ تُحِبُّوا النَّاصِحِينَ أي بعد هذه القضية تولى صالح و هو يقول: لقد أدت رسالتي إليكم، و نصحت لكم و لكنكم لا تحبون من ينصحكم.

و هنا يطرح سؤال آخر، و هو: هل كلام صالح هذا كان بعد هلاك المتمردين من قومه، أو أنّ هذا الكلام هو الحوار الأخير الذي جرى بينه و بين قومه قبيل هلاك القوم و موتهم، أي بعد إتمام الحجّة عليهم... و لكن ذكر في عبارته القرآن بعد قضية هلاكهم و موتهم بالرجف؟ هناك احتمالان: و الحقيقة أنّ الاحتمال الثاني أنسب مع ظاهر الخطاب، لأنّ الحديث مع قوم ثمود يفيد أنّهم كانوا أحياء. و لكن الاحتمال الأوّل هو أيضا غير بعيد، لأنّه كثيرا ما تتم محادثته أرواح الموتى بمثل هذا الكلام ليعتبر الباقون الحاضرون، تماما كما نقرأ نظير ذلك في تاريخ الإمام على عليه السلام فإنّه عليه السلام وقف-بعد معركة الجمل-عند جسد طلحه و

قال: «ويل أمك، طلحه! لقد كان لك قدم لو نفعك، و لكن الشيطان أضلك فأزلك، فعجلك إلى النار». (١)

كما نقرأ-أيضا-في أواخر نهج البلاغة أنّ الإمام عليا عليه السلام عند ما عاد من معركة صفين وقف عند مدخل الكوفة و التفت إلى مقابر الموتى، فسلم على أرواح الماضين أولا، ثم قال: «أنتم السابقون و نحن اللاحقون».

ص: ١٠٤

إشاره

وَ لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)

التفسير

إشاره

مصير قوم لوط المؤلم:

في هذه الآيات يستعرض القرآن الكريم فصلا آخر غنيا بالعبر من قصص الأنبياء، وبذلك يواصل هدف الآيات السابقة و يكمله، والقصة هذه المره هي قصة النبي الإلهي العظيم «لوط».

و لقد ذكرت هذه القصة في عدّه سور من القرآن الكريم، منها سوره «هود» و«الحجر» و«الشعراء» و«الأنبياء» و«النمل» و«العنكبوت».

و هنا يشير القرآن الكريم-ضمن آيات خمس- إلى خلاصه سريعه عن

و يظهر أنّ الهدف الوحيد فى هذه السوره (الأعراف) هو تقديم عَصارات و خلاصات من مواجهات الأنبياء و حواراتهم مع الجماعات المتمرده من أقوامهم، و لكن الشرح الكامل لقصصهم موكول إلى السور القرآنيه الأخرى (و سوف نأتى بقصّه هذه الجماعه بصوره مفصله فى سوره هود و الحجر إن شاء الله).

الآيه الأولى تقول فى البدء: اذكروا و إذ قال لوط لقومه: أ تتركبون فعلا قبيحا لم يفعله أحد قبلكم من الناس؟ وَ لُوطًا إِذِ قَالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ؟! فهذه المعصيه مضافا إلى كونها عملا قبيحا جدّا-لم يفعلها أحد قبلكم من الأقوم-و بذلك يكون قبح هذا العمل الشنيع مضاعفا، لأنه أصبح أساسا لسنّه سيئه، و سببا لوقوع الآخرين فى المعصيه عاجلا أو آجلا.

و يستفاد من الآيه الحاضره أنّ هذا العمل القبيح ينتهى-من الناحيه التأريخيه-إلى قوم لوط، و كانوا قوما أثرياء مترفين شهوانيين، سندكر أحوالهم بالتفصيل فى السور التى أشرنا إليها إن شاء الله تعالى.

و فى الآيه اللاحقه يشرح المعصيه التى ذكرت فى الآيه السابقه و يقول:

إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ

و أى انحراف أسوأ و أقبح من أن يترك الإنسان وسيله توليد النسل و إنجاب الأولاد، و هو مقاربه الرجل للمرأة، و الذى أودعه الله فى كيان كل إنسان بصوره غريزيه طبيعیه، و يعمد إلى «الجنس الموافق»، و يفعل بالتالى ما يخالف-أساسا-الفطره، و التركيب الطبيعى للجسم و الروح الإنسانيين، و الغريزه السويه الصحیحه، و تكون نتيجة عقم الهدف المتوخى من المقاربه الجنسيه.

و بعباره أخرى: يكون أثره الوحيد، هو الإشباع الكاذب و المنحرف للحاجه

الجنسيه، والقضاء على الهدف الأصلي، وهو استمرار النسل البشرى.

ثم يقول تعالى فى نهايه الآيه: **بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ** أى تجاوزتم حدود الله، و وقعتم فى متاهه الانحراف و التجاوز عن حدود الفطره.

و يمكن أن تكون هذه العبارة إشاره إلى أنهم لم يسلكوا سبيل الإسراف فى مجال الغريزه الجنسيه فحسب، بل تورطوا فى مثل هذا الانحراف و الإسراف فى كل شىء، و فى كل عمل.

و الجدير بالذكر أن الآيه الأولى ذكرت الموضوع بصورة مجمله، و لكن الآيه الثانيه ذكرته بصورة مبينه و واضحه، و هذا هو أحد فنون البلاغه عند بيان القضايا الهامه، فإذا فعل أحد عملا شيئا قال له مرشده و وليه الواعى الحكيم، لبيان أهميه الموضوع: أنت ارتكبت ذنبا عظيما، فإذا قال له الشخص، ماذا فعلت؟ يقول له مره أخرى: أنت ارتكبت ذنبا عظيما، و فى المآل يكشف القناع عن فعله و يشرحه.

إنّ هذا النوع من البيان يهيه فكر الطرف الآخر و نفسه للوقوف تدريجا على شناعه عمله القبيح و خطورته، و هو أبلغ فى التأثير.

و فى الآيه اللاحقه أشار القرآن الكريم إلى الجواب المتعنت و غير المنطقى لقوم لوط، و قال: **إِنَّهُمْ لَم يَكُنْ لَهُمْ** أى جواب فى مقابل دعوه هذا النبى الناصح المصلح، **إِلَّا أَنْ قَالُوا: أَخْرِجُوا لوطا و أتباعه من مدينتكم**. و لكن ما كان ذنبهم؟ إنّ ذنبهم هو أنّهم كانوا جماعه طاهرين لم يلوثوا أنفسهم بأدران المعصيه و **مَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**.

و هذا ليس موضع تعجب و استغراب أن يطرد جماعه من العصاه الفسقه أشخاصا طاهرين لا- لشىء إلا- لأنّهم أنقياء الجيب، يجتنبون المنكرات، و ذلك لأنّ هؤلاء القوم يعتبرون هؤلاء مزاحمين لشهواتهم، فكانت نقاط القوه لدى أولئك الأطهار نقاط ضعف و عيب فى نظرهم.

و يحتمل أيضا فى تفسير جملة إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ أَنَّ قوم لوط كانوا يريدون بهذه العبارة أن يتهموا ذلك النبى العظيم و أتباعه الأتقياء بالرياء و التظاهر بالتطهر، كما سمعنا و قرأنا فى الأشعار كثيرا حيث يتهم الخمارون الأشخاص الطيبين التزيهين بالرياء و التظاهر، و يعتبرون (خرفتهم الملوثة بالخمير) أفضل من (سجاده الزاهد) و هذا نوع من التزكيه الكاذبه للنفس التى يتذرع بها هؤلاء العصاه الأتقياء.

مع ملاحظه كل ما قيل فى الآيات الثلاثه أعلاه، يستطيع كل قاض منصف أن يصدر حكمه بحق مثل هذه الجماعات و الأقوام الذين يتوسلون- فى مقابل إصلاح المصلحين و نصيحه الناصحين، و دعوه نبى إلهى عظيم- بالتهديد و الاتهام، و لا يعرفون إلا لغه القوه و القهر، و لهذا قال الله تعالى فى الآيه اللاحقه:

فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ

(١)

أى لما بلغ الأمر إلى هذا الحد أنجينا لوطا و أتباعه الواقعين و أهله الطيبين، إلا زوجته التى كانت على عقيدته قومه المنحرفين فتركتها.

قال البعض: إن كلمة «أهل» و إن كان المتعارف إطلاقها على العائله، و لكن فى الآيه الحاضره استعملت فى الأتباع الصادقين- أيضا- يعنى أنهم كانوا معدودين جزءا من أهله و عائلته أيضا، و لكن يستفاد من الآيه (٣٦) من سوره الذاريات أنه لم يؤمن بلوط و دعوته أحد من قومه قط إلا عائلته و أقرباؤه، و على هذا الأساس يكون لفظ الأهل هنا مستعملا فى معناه الأصلى، أى أقرباؤه.

من الآيه (١٠) من سوره التحريم إجمالا- أن زوجة لوط كانت فى البدايه امرأه صالحه، و لكنّها سلكت سبيل الخيانه فيما بعد، و جرأت أعداء لوط عليه.

و فى آخر آيه من الآيات إشاره قصيره جدا- و لكن ذات مغزى و معنى

ص: ١٠٨

١- ١) يقال «الغابر» لمن ذهب أهله و فنوا و بقى وحده، كما ذهبت عائله لوط معه، و بقيت زوجته وحدها معه، و أصيبت بما أصيب به العصاه.

عميق- إلى العقوبه الشديده و الرهيبه التى حلت بهؤلاء القوم، إذ قال تعالى:

وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْرًا

أى مطر...إنه كان مطرا عجيبا حيث انهالت عليهم الشهب و النيازك كالمطر و أبادتهم عن آخرهم!! إن هذه الآية و إن لم تبين نوع المطر الذى نزل على القوم، و لكن من ذكر لفظه «المطر» بصوره مجمله اتضح أن ذلك المطر لم يكن مطرا عاديا، بل كان مطرا من الحجاره، كما سيأتى فى سوره هود الآية (٨٣).

فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ

إن هذا الخطاب و إن كان موجها إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم و لكنّه من الواضح أن الهدف هو اعتبار جميع المؤمنين به.

هذا و سيأتى تفصيل قصه هذه الجماعه، و كذا مضار اللواط المتعدده، و حكمه فى الشريعه الإسلاميه، عند تفسير آيات سوره «هود» و «الحجر».

ص: ١٠٩

إشارة

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا
النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَ
تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَ أذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ
كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧)

التفسير

إشارة

رسالة شعيب في مدين:

في هذه الآيات يستعرض القرآن الكريم فصلا خامسا من قصص الأقسام الماضية، وواجهه الأنبياء العظام معهم، و هذا الفصل يتناول قوم شعيب.

بعث شعيب عليه السلام الذى ينتهى نسبه-حسب كتب التاريخ-إلى إبراهيم عبر خمس طبقات، إلى أهل مدين. و هى مدينه من مدن الشام، كان أهلها أهل تجاره و ترف قد سادت فيهم الوثنيه، و كذا الحيله، و التطفيف فى المكيال و الميزان، و البخس فى المعامله.

و قد جاء تفصيل هذه المواجهه بين هذا النبى العظيم و بين أهل مدين، فى سور متعدده من القرآن الكريم، و بخاصه فى سوره «هود» و «الشعراء»، و نحن تبعاً للقرآن الكريم سنبحث بتفصيل هذه القصه فى ذيل آيات سوره هود إن شاء الله. أمّا هنا فنذكر شيئاً عن هذه القصه باختصار طبقاً للآيات المطروحه هنا.

فى البدايه يقول سبحانه: و لقد أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيباً و إلى مدين أخاهم شعيباً.

روى جماعه من المفسرين، مثل العلامة الطبرسى فى مجمع البيان، و الفخر الرازى فى تفسيره المعروف، أن «مدين» فى الأصل اسم لأحد أبناء إبراهيم الخليل، و حيث أن أبناءه و أحفاده سكنوا فى أرض على طريق الشام سميت تلك الأرض «مدين».

هذا و قد أوضحنا السرّ فى استعمال لفظه «أخاهم» فى الآية (٦٥) من هذه السوره.

ثمّ إنه تعالى أضاف: إن شعيباً مثل سائر الأنبياء بدأ دعوته بمسأله التوحيد و قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ.

و قال: إن هذا الحكم مضافاً إلى كونه من وحى العقل، ثابت بواسطة الأدله الواضحه التى جاءتهم من جانب الله أيضاً: قد جاءتكم بينة من ربكم.

أمّا أن هذه «البينه» ما هى؟ فإنّه لم يرد كلام حولها فى الآيات الحاضره، و لكن الظاهر أنّها إشاره إلى معجزات شعيب عليه السلام.

ثمّ أنه عليه السلام بعد الدعوه إلى التوحيد أخذ في محاربه المفسد الاجتماعيه و الأخلاقيه و الاقتصاديه السائده فيهم، و في البدء منعهم من ممارسه التطفيف، و الغش في المعامله، يقول: فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ (١) و واضح أن تسرّب أى نوع من أنواع الخيانه و الغش في المعاملات يزعزع بل و يهدم أسس الطمأنينه و الثقه العامه التى هى أهم دعامه لاقتصاد الشعوب و تلحق بالمجتمع خسائر غير قابله للجبران. و لهذا السبب كان أحد الموضوعات الهامه التى ركز عليها شعيب هو هذا الموضوع بالذات.

ثمّ يشير إلى عمل آخر من الأعمال الأئيمه، و هو الإفساد فى الأرض بعد أن أصلحت أوضاعها بجهود الأنبياء، و فى ضوء الإيمان فقال: وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا .

و من المسلمّ أنه لا يستفيد أحد من إيجاد الفساد و من الإفساد، سواء كان فسادا أخلاقيا، أو من قبيل فقدان الإيمان، أو عدم وجود الأمن، لهذا أضاف فى آخر الآيه قائلا: ذَلِكَم خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

و كأنّ إضافه عبارته: «إن كنتم مؤمنين» إشاره إلى أنّ هذه التعاليم الاجتماعيه و الأخلاقيه إنما تكون متجذره و مثمره إذا كانت نابعه من الإيمان و مستمده من نوره. أمّا لو كانت قائمه على أساس سلسله من ملاحظه المصالح الماديه، لم يكن لها بقاء و دوام.

و فى الآيه اللاحقه يشير إلى رابع نصيحه لشعيب، و هى منعهم عن الجلوس على الطرقات و تهديد الناس، و صدّهم عن سبيل الله، و تضليل الناس بإلقاء

ص: ١١٢

(١-١) البخس يعنى نقص حقوق الأشخاص، و التزول عن الحد بصوره توجب الظلم و الحيف.

الشبهات و تزييف طريق الحق المستقيم في نظرهم، فقال: **وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ، وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ بِهِ، وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا .**

و أما أنه كيف كانوا يهددون الراغبين في الإيمان، فقد ذكر المفسرون في هذا المجال احتمالات متعددة، فالبعض احتمل أنه كان ذلك عن طريق التهديد بالقتل، و بعض آخر احتمل أنه كان عن طريق قطع الطريق و نهب أموال المؤمنين، و لكن المناسب مع بقيه العبارات الأخرى في الآيه هو المعنى الأول.

و في ختام الآيه جاءت النصيحة الخامسة لشعيب، التي ذكّر فيها قومه بالنعم الإلهيه لتفعيل حسّ الشكر فيهم، فيقول: **تذكروا عند ما كنتم أفرادا قلائل فزادكم الله في الأفراد و ضاعف من قوتكم: وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ .**

ثم يلفت نظرهم إلى عاقبه المفسدين و نهايه أمرهم و مصيرهم المشؤوم حتى لا- يتبعوهم في السلوك فيصابوا بما أصيبوا به، فيقول: **وَ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ .**

و يستفاد من الجمله الأخيره أنه على العكس من الدعايات غير المدروسه لتحديد النسل في هذه الأيام فإنّ كثره أفراد المجتمع، يمكن أن تكون منشأ القوّه و عظمه و تقدم المجتمع في أكثر الموارد، طبعاً شريطه أن تضمن معيشتهم وفقاً لبرامج منظمه، من الناحيه الماديه و المعنويه.

إنّ آخر آيه من الآيات المبحوئه هنا بمثابة إجابته على بعض استفهامات المؤمنين و الكفار من قومه، لأنّ المؤمنين-على أثر الضغوط التي كانت تتوجه إليهم من جانب الكفار- كان من الطبيعي أن يطرحوا هذا السؤال على نبيهم: إلى متى نبقى في العذاب و نتحمل الأذى؟ و كان معارضوهم-أيضا-و الذين تجرأوا لأنهم لم تصبهم العقوبه الإلهيه فوراً يقولون: إذا كنت من جانب الله حقاً فلما ذا لا يصيبنا شيء رغم كل ما نقوم به

من إيذاء و معارضه؟ فيقول لهم شعيب: إن كانت طائفه منكم آمنت بما بعثت به، و أعرض أخرى فلا ينبغي أن يكون ذلك سببا لغرور الكفار، و يأس المؤمنين، اصبروا حتى يحكم الله بيننا و بينهم. فالمستقبل سوف يكشف عمن يكون على حق، و من يكون على باطل و إن كان طائفه منكم آمنوا بالذي أرسلت به و طائفه لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا و هو خير الحاكمين

اشاره

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ
(٨٨) قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا
كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)

التفسير

هذه الآيات تستعرض رد فعل قوم شعيب مقابل كلمات هذا النبي العظيم المنطقيه، وحيث أن الملا و الأثرياء المتكبرين في عصره كانوا أقوىاء في الظاهر، كان رد فعلهم أقوى من رد فعل الآخرين.

إنهم كانوا-مثل كل المتكبرين المغرورين يهددون شعيبا معتمدين على قوتهم و قدرتهم، كما يقول القرآن الكريم: قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا .

قد يتصور البعض من ظاهر هذا التعبير«لتعودن إلى ملتنا» أن شعيبا كان قبل

ذلك فى صفوف الوثنيين، والحال ليس كذلك، بل حيث أنّ شعيبا لم يكن مكلفا بالتبليغ، لذلك كان يسكت على أعمالهم، وكانوا يظنون أنه كان على دين الوثنية فى حين أنّ أحدا من النبيين لم يكن وثنيا حتى قبل زمان النبوه، وإنّ عقول الأنبياء و درايتهم كانت أسمى من أن يرتكبوا مثل هذا العمل غير المعقول و السخيف، هذا مضافا إلى أنّ هذا الخطاب لم يكن موجها إلى شعيب وحده، بل يشمل المؤمنين من أتباعه-أيضا-و يمكن أن يكون هذا الخطاب لهم.

على أن تهديد المعارضين لم يقتصر على هذا، بل كانت هناك تهديدات أخرى سنبحثها فى سائر الآيات المرتبطة بشعيب.

وقد أجابهم شعيب فى مقابل كل تهديداتهم و خشونتهم تلك بكلمات فى غاية البساطه و الرفق و الموضوعيه، إذ قال لهم: و هل فى إمكانكم أن تعيدونا إلى دينكم إذا لم نكن راغبين فى ذلك: قَالَ أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (١)؟ و فى الحقيقه يريد شعيب أن يقول لهم: هل من العدل أن تفرضوا عقيدتكم علينا، و تكرهونا على أن نعتنق ديننا ظهر لنا بطلانه و فساده؟ هذا مضافا إلى أنه ما جدوى عقيدته مفروضه، و دين جبرى؟! و فى الآيه اللاحقه يواصل شعيب قوله: قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا .

إن هذه الجملة فى الحقيقه توضيح للجملة السابقه المجمله، و مفهوم هذه الجملة هو: نحن لم نترك الوثنيه بدافع الهوى و الهوس، بل أدركنا بطلان هذه العقيدته بجلاء، و سمعنا الأمر الإلهى فى التوحيد بأذن القلب، فإذا عدنا من عقيدته التوحيد إلى الشرك-و الحال هذه- نكون حينئذ قد افترينا على الله عن وعى و شعور، و من المسلم أنّ الله سيعاقبنا على ذلك بشده.

ص: ١١٦

(١-١) إنّ فى هذه الجملة حذفاً و تقديراً، فالكلام فى الأصل على هذه الصوره: «أ تردونا فى ملتكم و لو كُنَّا كارهين».

ثُمَّ يَضِيفُ شَعِيبَ قَائِلًا: وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .

و مراد شعيب من هذا الكلام هو أننا تابعون لأمر الله، ولا نعصيه قيد شعره، فعودتنا غير ممكنة إلا إذا أمر الله بذلك.

ثُمَّ مِنْ دُونِ إِبْطَاءِ يَضِيفُ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِمِثْلِ هَذَا، لِأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ بِكُلِّ شَيْءٍ وَ يَحِيطُ عِلْمًا بِجَمِيعِ الْأُمُورِ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا وَ عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ لَيْسَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَعُودَ عَنْ أَمْرٍ أَعْطَاهُ، لِأَنَّهُ لَا يَعُودُ وَ لَا يَرْجِعُ عَنْ أَمْرٍ أَعْطَاهُ إِلَّا مَنْ كَانَ عِلْمُهُ مَحْدُودًا، وَ اشْتَبَهَ ثَمَّ نَدَمَ عَلَى أَمْرِهِ، أَمَّا الَّذِي يَعْلَمُ بِكُلِّ شَيْءٍ وَ يَحِيطُ بِجَمِيعِ الْأُمُورِ عِلْمًا فَيَسْتَحِيلُ أَنْ يَعِيدَ النَّظَرَ.

ثُمَّ لِأَجْلِ أَنْ يَفْهَمَهُمْ بِأَنَّهُ لَا يَخَافُ تَهْدِيدَاتِهِمْ، وَ أَنَّهُ ثَابِتٌ فِي مَوْقِفِهِ، قَالَ:

عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا

وَ أَخِيرًا لِأَجْلِ أَنْ يَثْبِتَ حَسَنَ نِيَّتِهِ، وَ يَظْهَرُ رَغْبَتُهُ فِي طَلْبِ الْحَقِيقَةِ وَ السَّلَامِ، حَتَّى لَا يَتَهَمَهُ أَعْدَاؤُهُ بِالشَّغْبِ وَ الْفَوْضُويَةِ وَ الْإِخْلَالِ بِالْأَمْنِ يَقُولُ: رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ .

أى: يا رب أنت أحكم بيننا و بين هؤلاء بالحق، و ارفع المشاكل التي بيننا و بين هؤلاء، و افتح علينا أبواب رحمتك، فأنت خير الفاتحين.

وَ قَدْ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: مَا كُنْتُ أَعْرِفُ مَاذَا يَعْنِي الْفَتْحُ فِي الْآيَةِ حَتَّى سَمِعْتُ امْرَأَةً تَقُولُ لِرَوْجِهَا: أَفَاتْحُكَ عِنْدَ الْقَاضِي، يَعْنِي أَطْلُبُكَ عِنْدَ الْقَاضِي لِلْفَصْلِ بَيْنَنَا، فَعَرَفْتُ مَعْنَى الْفَتْحِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَوَارِدِ، وَ أَنَّهُ بِمَعْنَى الْقَضَاءِ وَ الْحُكْمِ (لِأَنَّ الْقَاضِيَ يَفْتَحُ الْعَقْدَةَ فِي مَشْكَلَةِ الطَّرْفَيْنِ) (١)

ص: ١١٧

إشاره

وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١)
الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِ
رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣)

التفسير

تتحدث الآيه الأولى عند الدعايات التي كان يبثها معارضو شعيب ضد من يحتمل فيهم الميل إلى الإيمان به فتقول: وَقَالَ الْمَلَأُ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ .

و المقصود من الخساره-هنا-الخسارات الماديه التي تصيب المؤمنين بدعوه شعيب، إذ من المسلم عدم عودتهم إلى عقيدته
الوثنيه، و على هذا الأساس كان يجب يخرجوا من بلدهم و ديارهم بالقهر، و يتركوا بيوتهم و أملاكهم.

و هناك احتمال آخر في تفسير الآيه، و هو أن مرادهم هو الأضرار المعنويه

بالإضافة إلى الأضرار المادية، لأنهم كانوا يتصورون أن طريق النجاه يتمثل في الوثنيه لا في دين شعيب.

و عند ما وصل أمرهم إلى الإصرار على ضلالتهم، و على إضلال غيرهم أيضا، و لم يبق أى أمل فى إيمانهم و هدايتهم، حلت بهم العقوبه الإلهيه بحكم قانون حسم ماده الفساد، فأصابهم زلزال رهيب شديد بحيث تهاوى الجميع أجسادا ميتة، فى داخل بيوتهم و منازلهم فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ .

و قد مرّ فى ذيل الآيه (٧٨) من هذه السوره- تفسير لفظه «جاثمين» و قلنا هناك أنه قد استعملت عبارات و ألفاظ مختلفه للتعبير عن عامل هلاك هذه الجماعه لا منافاه بينها.

فمثلا: جاء فى شأن قوم شعيب- فى الآيه الحاضره- أن عامل هلاكهم كان هو: «الزلزال» و فى الآيه (٩٤) من سوره هود أنه «صيححه سماويه» و فى الآيه (١٨٩) من سوره الشعراء: أنه «ظله من السحاب القاتل» و تعود كلها إلى موضوع واحد، و هو أن العذاب المهلك كان صاعقه سماويه مخيفه، اندلعت من قلب السحب الكثيفه المظلمه، و استهدفت مدينتهم، و على أثرها حدث زلزال شديد (هو خاصيه الصواعق العظيمة) و دمر كل شىء.

فى الآيه اللاحقه شرح القرآن الكريم أبعاد هذا الزلزال العجيب المخيف الرهيب بالعباره التاليه: الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنَّ لَمْ يَكُونُوا فِيهَا (١). أى أن الذين كذبوا شعيبا أبعدوا إباده عجيبيه، و كأنهم لم يكونوا يسكنون تلك الديار.

و فى ختام الآيه يقول: الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنَّهُمْ الْخَاسِرِينَ .

و كأن هاتين الجملتين جوابا لأقوال معارضى شعيب، لأنهم كانوا قد هدّدوا بأن يخرجوه هو و أتباعه فى حاله عدم انصرافهم من دين التوحيد إلى الدين

ص: ١١٩

١- ١) «يغنون» مشقه من ماده «غنى» بمعنى «الإقامه فى المكان» يقول الطبرسى فى مجمع البيان: لا يبعد أن يكون المفهوم الأصيلى للغنى هو عدم الحاجه، لأن من كان عنده منزل حاضر، فهو مستغن عن منزل آخر.

السابق، فقال القرآن: إنهم أبيدوا كامله، و كأنهم لم يسكنوا فى تلك المنازل، فضلا عن أن يستطيعوا إخراج غيرهم من البلد.

و فى مقابل قولهم: إن أتباع شعيب يستلزم الخسران، قال القرآن الكريم: إن نتيجة الأمر أثبتت أن مخالفه شعيب هى العامل الأسمى فى الخسران.

و فى آخر آيه-من الآيات المبحوثة-نقرأ آخر كلام لشعيب مع قومه بعد اعراضه عنهم حيث قال: لقد بلغت رسالتي ربي، و نصحتكم بالمقدار الكافى، و لم آل جهدا فى إرشادكم: فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ .

ثم قال فكيف آسى على قوم كافرين أى لست متأسفا على مصير الكافرين، لأننى قد بذلت كل ما فى وسعى لهدايتهم و إرشادهم، و لكنهم لم يخضعوا للحق و لم يسلموا، فكان يجب أن ينتظروا هذا المصير المشؤوم.

أما أنه هل قال شعيب هذا الكلام بعد هلاكهم، أم قبل ذلك؟ هناك احتمالان، فيمكن أن يكون قبل هلاكهم، و لكن عند شرح القصة جاء ذكره بعد ذلك.

و لكن مع الالتفات إلى آخر عبارته، و التى يقول فيها: إن مصير هؤلاء الكافرين المؤلم لا يدعو إلى الأسف أبدا، يترجح للنظر أن هذه الجملة قيلت بعد نزول العذاب، و أن هذه التعابير-كما أشرنا فى ذيل الآيه (٧٩) من هذه السوره قيلت و تقال للأمم كثيرا(و قد أشرنا إلى شواهد ذلك).

إشاره

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَعْتَهُ وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ (٩٥)

التفسير

إشاره

إذ لم تنفع المواعظ:

إنّ هذه الآيات-التي ذكرت بعد استعراض قصص مجموعه من الأنبياء العظام، مثل نوح و هود و صالح و لوط و شعيب، و قبل أن يعمد القرآن الكريم إلى استعراض قصّه موسى بن عمران-إشاره إلى عدّه أصول و قواعد عامّه تحكّم في جميع القصص و الحوادث، و هي قواعد و أصول إذا فكّرنا فيها كشفت القناع عن حقائق قيمه ترتبط بحياتنا-جميعا-ارتباطا وثيقا.

في البدايه يقول: وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ فالصعاب و المشاق و البلايا التي تصيب الأفراد إنّما يفعلها الله بهم عسى أن ينتبهوا، و يتركوا طغيانهم، و يرجعوا إلى الله و يتوبوا إليه

و ذلك لأنّ الناس ما داموا فى الرخاء و الرفاه فهم فى غفله و لما يكون لديهم استعداد و قابليه لقبول الحق. أمّا عند ما يتورّطون فى المحنه و البلاء، يشرق نور فطرتهم و توحدهم و يتذكرون الله قهرا بلا اختيار، و تستعد قلوبهم لقبول الحق.

و لكن هذه اليقظه و النهضه ليست عند الجميع على حدّ سواء، فهى فى كثير من الناس سريعه و عابره و غير ثابتة، و بمجرد أن تزول المشكلات يعودون إلى غفلتهم و غفوتهم، و لكن هذه المشكلات تعتبر بالنسبه إلى جماعه آخرين نقطه تحول فى الحياه، و يعودون إلى الحق إلى الأبد.

و الأقوام الذين جرى الحديث فى الآيات السابقه-حولهم كانوا من النمط الأوّل.

و لهذا قال تعالى فى الآيه اللاحقه: عند ما لم تغتير تلك الجماعات سلوكها و مسيرها تحت ضغط المشكلات و الحوادث، بل بقوا فى الضلال، رفعنا عنهم المشكلات و جعلنا مكانها النعم و الرخاء فازدهرت حياتهم و كثر عددهم و زادت أموالهم ثُمَّ يَدُلُّنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا .

و«عفوا» من ماده «عفو» التى تكون أحيانا بمعنى الكثره، و أحيانا بمعنى الترك و الإعراض، و تاره تكون بمعنى محو آثار الشىء. و لكن لا يبعد أن يكون أصل جميع تلك الأمور هو الترك، غايه ما هنالك قد يترك شىء لحاله حتى يتجذر، و يتوالد و يتناسل و يزداد، و ربّما يترك حتى يهلك و ينهدم تدريجا و شيئا فشيئا. و لهذا جاء بمعنى الزيادة و الهلاك معا.

و قد احتمل المفسّرون فى الآيه المبحوثه ثلاثه احتمالات أيضا:

الأوّل: أنّنا أعطيناهم إمكانيات حتى يزدادوا فيستعيدوا كل ما فقدوه-فى فتره الشدّه و الضراء-من الأفراد و الأموال.

الآخر: أنّنا أعطيناهم نعما كثيره جدا بحيث غرتهم، ففسدوا الله، و تركوا شكره.

الثالث: أنّنا أعطيناهم نعما كى يستطيعوا بها أن يزيلوا آثار فتره النكبه

إنّ هذه التفاسير و إن كانت متفاوتة من حيث المفهوم، و لكنّها من حيث النتيجة متقاربه فيما بينها.

ثمّ أضاف: أنّهم عند زوال المشكلات بدل أن يلتفتوا إلى هذه الحقيقه و هي «النعمة» و «النقمه» بيد الله، و أنّهم راجعون إلى الله، يتذرعون-لخداع أنفسهم- بهذا المنطق، و هو إذا تعرضنا للمصائب و البلايا، فإنّ ذلك ليس بجديد، فقد مس آباءنا الضراء و السراء، و كانت لهم حالات رخاء و حالات بلاء، فالحياه لها صعود و نزول، و الصعاب أمواج غير ثابتة و سريعه الزوال و قالوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ. فهي إذن قضيه طبيعيه، و مسأله اعتياديه.

فيقول القرآن الكريم في الختام: إنّ الأمر عند ما بلغ إلى هذا الحد، و لم يستفيدوا من عوامل التربه-أبدا- بل ازدادوا غرورا و عنجهيّه و تكبرا أهلكتناهم فجأه و من غير سابق إنذار، لأنّ ذلك أشد إيلاما و نكالا لهم، و عبره لغيرهم:

فَأَخَذْنَا هُمْ بِغَتَّتِهِمْ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ

إشاره

وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ لَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أ
فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَ هُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أ وَ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَ هُمْ يُلْعَبُونَ (٩٨) أ فَأَمِنُوا
مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أ وَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصِيبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ
وَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)

التفسير

إشاره

التقدم و العمران في ظل الإيمان و التقوى:

في الآيات الماضيه وقع البحث فيما جرى لأقوام مثل قوم هود و صالح و شعيب و نوح و لوط على نحو الإجمال، و إن كانت تلك الآيات كافيه لبيان

النتائج المشحونه بالعبر في هذه القصص، ولكن الآيات الحاضره تبين النتائج بصورة أكثر وضوحاً فتقول: **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ** **آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**، أى لو أنهم سلكوا سبيل الإيمان و التقوى، بدل الطغيان و التمرد و تكذيب آيات الله و الظلم و الفساد، لم يتخلصوا من غضب الله و عقوبته فسحب، بل لفتحت عليهم أبواب السماء و الأرض.

و لكن للأسف- تركوا الصراط المستقيم الذى هو طريق السعادة و الرفاه و الأمن، و كذبوا الأنبياء، و تجاهلوا برامجهم الإصلاحية، فعاقبناهم بسبب أعمالهم **وَ لَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** .

بحوث

إشارة

و هنا مواضع ينبغى الوقوف عندها:

١- بركات الأرض و السماء

لقد وقع حديث بين المفسرين فى ما هو المراد من «بركات» الأرض و السماء؟ فقال البعض: إنها المطر، و النباتات التى تنبت من الأرض.

و فسرها البعض بإجابه الدعاء، و حل مشاكل الحياه.

و لكن هناك احتمال آخر- أيضا- هو أن المراد من البركات السماويه هى البركات المعنويه، و المراد من البركات الأرضيه هى البركات الماديه.

و لكن مع ملاحظه الآيات السابقه يكون التفسير الأول أنسب من الجميع، لأنه فى الآيات السابقه التى شرحت العقوبات الشديده التى حلت بالمجرمين و الطغاه، فأشارت تاره إلى نزول السيول من السماء و طغيان الينابيع و العيون من الأرض (مثل طوفان نوح) و أخرى إلى الصواعق و الصيحات السماويه، و ثالثه إلى الزلازل الأرضيه الرهيبه.

و فى الآيه المطروحه هنا طرحت هذه الحقيقه على بسط البحث، و هى: أنّ العقوبات ما هى إلا لأفعالهم هم، و إلا فلو كان الإنسان طاهرا مؤمنا، فإنه بدل أن يحل العذاب السماوى أو الأرضى بساحته، تتواتر عليه البركات الإلهيه من السماء و الأرض... أجل، إنّ الإنسان هو الذى يبدل البركات بالبلايا.

٢- معنى «البركات»

«البركات» جمع «بركه» و هذه الكلمه - كما أسلفنا - تعنى فى الأصل «الثبات» و الاستقرار، و يطلق على كل نعمه و موهبه تبقى و لا تزول، فى مقابل الموجودات العارويه عن البركه، و السريعه الفناء و الزوال، و الخاليه عن الأثر.

و الملفت للنظر أنّ فائده التقوى و الإيمان لا تقتصر على نزول البركات الإلهيه، بل هما سبب فى أن يصرف الإنسان ما لديه فى المصارف اللازمه الصحيحه.

فى المثل نلاحظ اليوم أنّ قسما كبيرا من الطاقات الإنسانيه، و المصادر الاقتصاديه تصرف فى سبيل سباق التسلح و صنع الأسلحه المدمره. و بذلك تنعدم البركه فيها، و لا تثمر سوى الدمار و الخراب، و لكن المجتمعات البشريه إذا تحلّت بالتقوى و الإيمان، فإنّ هذه المواهب الإلهيه سيكون لها وضع آخر، و من الطبيعى أن تبقى آثارها و تخلد، و تكون مصداقا لكلمه البركات.

٣- ماذا يعنى «الأخذ»؟

فى الآيه أعلاه استعملت كلمه «أخذ» فى مفهوم المجازاه و العقوبه، و هذا فى الحقيقه لأجل أنّ الشخص الذى يراد عقوبته يؤخذ أولا فى العاده، ثم يوثق بوسائل خاصه حتى لا تبقى له قدره على الفرار، ثم يعاقب.

إنّ الآيه الحاضره و إن كانت ناظره إلى وضع الأقسام الغابره، و لكنّه من المسلّم أن مفهومها مفهوم واسع و عام و دائم، و لا تنحصر في شعب معين أو قوم خاص، فإنّها سنه إلهيه أن يبتلى غير المؤمنين، و المتورطين في المعاصي و الذنوب بأنواع مختلفه و متنوعه من البلايا في هذه الدنيا، فربّما ينزل عليهم البلاء السماوى و الأرضى، و ربّما تشتعل نيران الحروب العالميه أو المحليه فتبتلع أموالهم و تبيدها و ربّما يفارقهم الأمن و الاستقرار، فتسحق المخاوف و الهواجس بأظلافها أبدانهم و نفوسهم، و حسب تعبير القرآن يكون كل ذلك بما كسبت أيديهم ورد فعل لأعمالهم.

إن فيض الله ليس محدودا و لا ممنوعا، كما أنّ عقوباته لا تختص بقوم أو شعب.

لماذا تعيش الأمم الكافره في الرخاء؟

إشاره

من كل ما قلناه يتّضح الجواب على سؤال يدور كثيرا بين جماعه من الناس، و هو: إذا كان الإيمان و التقوى يبعثان على نزول أنواع البركات الإلهيه، و يكون العكس موجبا لسلب البركات، فلما ذا نشاهد الشعوب غير المؤمنه ترفل في الرخاء و الرفاه، في حين يعيش جماعه من أهل الإيمان بعسر و مشقّه؟ إنّ الإجابة على هذا السؤال تتّضح بملاحظه نقطتين:

١- إنّ تصوّر أنّ الشعوب غير المؤمنه الفاقده للتقوى ترفل في النعمه و الرخاء و تغرق في السعاده هو تصور خاطئ ينبع من اشتباه أكبر، و هو اعتبار الثروه دليلا على السعاده.

إنّ الناس يتصورون-عاده- أنّ كل شعب امتلك صناعه أكثر تقدما، و ثروه أكبر، كان أسعد من غيره، في حين لو تسنى لنا أن ننفذ إلى أعماق هذه

المجتمعات و نلاحظ الآلام الممضه التي تحطم روح هذه الشعوب و جسمها عن كذب،فسوف نسلّم أن أكثر تلك الشعوب هي من أشقى سكان الأرض.

هذا بغض النظر عن أنّ هذا التقدم النسبيّ إنّما هو نتيجة استخدامهم لأصول و مبادئ مثل السعى و الاجتهاد،و النظم و الشعور بالمسؤوليه التي هي جزء من تعاليم الأنبياء،و من صلب توجيهاتهم.

في هذه الأيام-التي نكتب فيها هذا القسم من التفسير-نشرت الجرائد و الصحف أنّه حدث في نيويورك-التي هي واحده من أكبر نقاط العالم المادى ثروه و أكثرها تقدما-حادث جدّ عجيب على أثر انقطاع فجائى للتيار الكهربائى،و ذلك الحادث هو أنّ كثيرا من الناس هاجموا المحلات و المخازن و سرقوا كل ما فيها بحيث أن ثلاثة آلاف من المغيرين على المحلات اعتقلوا بواسطه البوليس.

إنّ من المسلّم أن عدد المغيرين-فى الواقع-أكثر بأضعاف من هذا العدد، و هذا العدد هم الذين لم يمكنهم الفرار و الهرب و النجاه من قبضه البوليس، كما أنّه من المسلّم أن المغيرين لم يكونوا سراقا محترفين هينوا أنفسهم من قبل لمثل هذه الإغاره العموميه،لأنّ الحادثه المذكوره كانت حادثه فجائيه.

من هذا نستنتج أنّه مع حاله انقطاع عابر للتيار الكهربائى يتحول عشرات الآلاف من سكان مدينه ثريه و متقدمه-كما يشاءون تسميتها-إلى لصوص و سراق، إن هذا لا يدل على الانحطاط الخلقى لدى شعب من الشعوب فحسب، بل يدل على فقدان الأمن الاجتماعى الشديد أيضا.

و الخبر الآخر الذى نقلته الصحف،و يكمل-فى الحقيقه-هذا الخبر،و هو أن أحد الشخصيات المعروفه كان يقيم فى تلك الأيام فى نيويورك،فى أحد الفنادق الشهيره ذات العشرات من الطوابق،قال:إنّ انقطاع التيار الكهربائى تسبب فى أن يمسى التجول فى معابر وصالات ذلك الفندق عملا بالغ الخطوره،بحيث أنّ

مسئولى الفندق ما كانوا يسمحون لأحد بأن يغادر مكانه إلى غرفته منعا من أن يتعرض للمغيرين داخل صالات الفندق، و لهذا نظموا المسافرين و النزلاء فى جماعات مكونه من عشره أو أكثر، و تولى موظفون مسلحون إيصالهم إلى غرفهم تحت حراسه مشدده.

ثم يضيف ذلك الشخص المذكور: أنه ما لم يعان من الجوع الشديد لم يجرأ على الخروج من غرفته.

و لكن انقطاع التيار الكهربائى هذا يقع فى البلاد المتأخره الشرقيه كثيرا، و لكن لا تحدث مثل هذه المشاكل، و هذا يفيد أن سكان البلدان المتقدمه رغم كونهم يمتلكون ثروه عظيمه، و صنائع عظيمه، لا يملكون أدنى قدر من الأمن فى بيئتهم.

هذا مضافا إلى أن شهود عيان يقولون: إن القتل و الاغتياى فى تلك البيئات كشرب الماء من حيث السهوله و اليسر.

و نحن نعلم أننا أعطينا الدنيا كلها لأحد و كان يعيش فى مثل هذه الظروف، كان من أشقى أهل الأرض... على أن مشكله الأمن هى واحده من مشكلاتهم، و إلا فهناك مفاسد اجتماعيه أخرى كل واحد منها بدوره حاله مؤلمه جدا... و مع الالتفات إلى هذه الحقائق فلا معنى لتوهم أن الثروه سعادته.

٢- أميا ما يقال عن سبب تخلف المجتمعات المتحليه بالإيمان و التقوى، فإذا كان المقصود من الإيمان و التقوى هو مجرد ادعاء الإسلام و ادعاء أتباع مبادئ الأنبياء و تعاليمهم، فالاعتراض وجيه. و لكننا لا نعتبر حقيقه الإيمان و التقوى إلا نفوذهما فى جميع أعمال الإنسان، و جميع شؤون الحياه، و هذا أمر لا يتحقق بمجرد الادعاء و الزعم.

إن من المؤسف جدا أن نجد التعاليم الإسلاميه و مبادئ الأنبياء متروكه أو شبه متروكه فى كثير من المجتمعات الإسلاميه، فلامح هذه المجتمعات ليست

لقد دعا الإسلام إلى الطهاره و الاستقامه و الأمانه و الاجتهاد و الجده، فأين تلك الأمانه و الاجتهاد؟ إنَّ الإسلام يدعو إلى العلم و المعرفه و اليقظه و الوعى، فأين ذلك العلم و الوعى و اليقظه؟! و إن الإسلام يدعو إلى الاتحاد و التضامن و وحده الصفوف و التفانى، فهل سادت هذه الأصول و المبادئ فى المجتمعات الإسلاميه الحاضره بصورة كامله، و مع ذلك بقيت متخلفه؟! لهذا يجب أن نعترف بأنَّ الإسلام شىء، و المسلمون اليوم شىء آخر.

فى الآيات اللاحقه و المزيد من التأكيد على عموميه هذا الحكم، و أن القانون أعلاه ليس خاصا بالأقوام الغابره بل يشمل الحاضر و المستقبل أيضا-يقول: هل أنَّ المجرمين الذين يعيشون فى نقاط مختلفه من الأرض يرون أنفسهم فى أمن من أن تحل بهم العقوبات الإلهيه، فتنزّل بهم صاعقه أو يصبهم زلزال فى الليل و هم نائمون أفأمن أهل القرى أن يأتيتهم بأسنا بيّاتاً و هم نائمون . و هل هم فى أمان من ذلك العذاب فى النهار و هم غارقون فى أنواع اللهو و اللعب أ و أمن أهل القرى أن يأتيتهم بأسنا ضحى و هم يلعبون .

يعنى أنّهم فى قبضه القدره الإلهيه فى جميع الأحوال و الأوقات، ليلا- و نهارا، فى اليقظه و النوم، فى ساعات الفرح و الترح، و بإشاره واحده و أمر واحد يقضى عليهم جميعا، و يطوى صفحه حياتهم نهائيا، دون الحاجه الى مقدمات و أسباب قبله، أو لمرور الزمان لهذا العمل.

أجل فى لحظه واحده، و من دون أيه مقدمات يمكن أن تحل أنواع المصائب و النوائب بهذا الإنسان الغافل.

و العجيب أنّ البشريه الحاضره، رغم كل ما أحرزته من تقدم ورقى فى

الصنائع و فى التكنولوجيا، و مع أنّها سخرت طاقات الكون و الطبيعه المختلفه لخدمه نفسها، فإنّها ضعيفه و عاجزه تجاه هذه الحوادث، بنفس المقدار من العجز و الضعف الذى كان عليه إنسان العصور السابقه. يعنى أن الإنسان لم يتغير حاله تجاه الزلازل و الصواعق و ما شابهها، حتى بالنسبه إلى إنسان ما قبل التاريخ.

و هذه علامه قويه على نهايه عجز الإنسان و شده ضعفه رغم قدرته و قوته...

و هذه حقيقه يجب أن يجعلها الإنسان نصب عينيه دائما و أبدا.

و فى الآيه اللاحقه يعود القرآن الكريم إلى ذكر و تأكيد هذه الحقيقه بشكل آخر فيقول: فأمن المجرمون من المكر الإلهى، فى حين لا يأمن مكره إلا الخاسرون فأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

و«المكر»- كما قلنا فى ذيل الآيه ٩٤ من سوره آل عمران- يعنى فى اللغه العربيه كل حيله و وسيله لصرف الشخص عن الهدف الذى يمضى إليه، سواء كان حقا أو باطلا، و قد أخذ فى مفهوم هذه اللغه نوع من التدرج و النفوذ التدريجى.

و على هذا فالمراد من المكر الإلهى، هو أنّ الله تعالى يصرفهم بخطئه القويه التى لا تقهر عن حياه الرفاه و اللذّه دون اختيارهم و يقطعها عليهم. و هذه إشاره إلى العقوبات الإلهيه الفجائيه و المهلكه.

جواب على سؤال:

إنّ الجملة التى وردت فى ختام الآيه الحاضره تقول: لا يأمن أحد- إلا الخاسرون- من المكر الإلهى و العقوبه الإلهيه، و هنا يطرح هذا السؤال، و هو: هل تشمل هذه العبارة الأنبياء و الأئمه العظام و الصالحين؟ لقد تصوّر البعض أنّهم خارجون من هذا الحكم، و أنّ الآيه تختص بالمجرمين. و لكن الظاهر أن هذا الحكم عام يشمل الجميع، لأنّه حتى الأنبياء و الأئمه كانوا مراقبين لأعمالهم دائما كى لا تصدر منهم أدنى زله أو عثره، لأننا

نعلم أن مقام العصمه ليس مفهومه أن المعصيه مستحليه عليهم، بل يعنى أنهم مصونون عن الإثم و المعصيه بفعل إرادتهم و إيمانهم و حسن اختيارهم، إلى جانب العناية الربانيه.

إنهم كانوا يخافون من ترك الأولى و يتجنبونه، و يخشون أن لا- يتمكنوا من القيام بمسؤولياتهم الثقيله. و لهذا نقرأ فى الآيه (١٥) من سوره الأنعام حول الرسول الأعظم قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

و لقد رويت فى تفسير الآيه الحاضره- أيضا- أحاديث تؤيد ما قلناه:

«صليت خلف أبى عبد الله (الصادق) عليه السلام، فسمعتة يقول: «اللهم لا تؤمنى مكر ك.

ثم جهر فقال: فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ .

و نقرأ

فى نهج البلاغه أيضا: «لا تأمن على خير هذه الأمه عذاب الله، لقول الله سبحانه: فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (١) .

إنّ عدم الأمن من المكر الإلهي- فى الحقيقه- يعنى الخوف من المسؤوليات و الخوف من التقصير فيها، و من المعلوم أن الخوف يجب أن يكون فى قلوب المؤمنين دائما إلى جانب الأمل بالرحمه الإلهيه بشكل متساو، و أن التوازن بين هذين هو منشأ كلّ حركه و نشاط، و هو الذى يعبر عنه فى الروايات بالخوف و الرجاء.

و قد جاء التصريح فى هذه الروايات بوجوب أن يكون المؤمنون دائما بين الخوف و الرجاء، و لكن المجرمين الخاسرين نسوا العقوبات الإلهيه بحيث صاروا يرون أنفسهم فى منتهى الأمن المكر الإلهي.

و فى الآيه اللاحقه يقول القرآن الكريم- بهدف إيقاظ عقول الشعوب الغافيه و إلفات نظرهم إلى العبر التى كانت فى حياه الماضيين: ألا يتنبه الذين ورثوا

ص: ١٣٢

السياده على الأرض-من الأقسام الماضيه-إلى ما فى حياه الماضيين و قصصهم من عبر،فلو أننا أردنا أن نهلكهم بذنوبهم لفعلنا أ
وَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبِنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ .

و يمكننا أيضا أن نتركهم أحياء و نسلب منهم الشعور و حس التشخيص و التمييز بالمره بسبب توغلهم فى الذنوب، بحيث لا
يسمعون معها حقيقه، و لا يقبلون نصيحه، و يعيشون بقيه حياتهم حيرى وَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ .

أما كيف يسلب الله تعالى من هذا الفريق من المجرمين حس التمييز و التشخيص، فيمكنك الوقوف على مزيد التوضيح فى هذا
المجال فى تفسير الآيه (٧) من سوره البقره.

إشاره

تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَجْلِهَا وَ لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَ لَمَّا وَجَدْنَا لَأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢)

التفسير

فى هاتين الآيتين ركز القرآن الكريم على العبر المستفاده من بيان قصص الماضين، و الخطاب متوجه هنا إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم إلا- أن الهدف هو الجميع، يقول القرآن الكريم أولاً: هذه هى القرى و الأقوام التى نقص عليك قصصهم:

تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَجْلِهَا

(١)

ثم يقول: لم يكن إهلا- كهم قبل إتمام الحجه عليهم، بل لقد جاءهم الأنبياء أولاً بالبراهين الجليه و بذلوا قصارى جهدهم فى إيقاظهم و إرشادهم وَ لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ .

و لكنهم قاوموا الأنبياء و خالفوا دعوتهم، و أصروا و لجؤا فى عنادهم، و لم

ص: ١٣٤

يكونوا على استعداد لأن يؤمنوا بما كذبوا به من قبل، بل استمروا على تكذيبهم حتى مع مشاهدتهم البيّنات: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ .

من هذه الجملة يستفاد أنّ الأنبياء الإلهيين قاموا بدعوتهم وإرشادهم مرارا وتكرارا، ولكن المشركين لجوا في عنادهم، وبقوا متصلبين في مواقفهم المتعنته الراضيه، وأعرضوا عن قبول دعوه الأنبياء حتى بعد وضوح الكثير من الحقائق.

و في العبارة اللاحقه يبيّن تعالى علّه هذا التعنت و اللجاج: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ .

يعنى أنّ الذين يسيرون في درب خاطيء، ويستمرون في السير في ذلك الطريق، ينتقش الانحراف و الكفر على قلوبهم نتيجة تكرار العمل السيء.

و يتجذر الفساد في نفوسهم، كما يثبت النقش على السكه (و الطبع في اللغه نقش صورته على شيء كالسكه) و هذا في الحقيقه هو أثر العمل و خاصيته.

و قد نسب إلى الله هو تعالى مسبب الأسباب، و هو منشأ تأثير كل مؤثر، فهو يهب الفعل هذه الخاصيه عند تكراره، حيث يجعله «ملكه» في نفس الشخص.

و لكن من الواضح و البيّن أن مثل الضلال ليس له أى صفه جبريه و قهريه، بل إنّ موجد الأسباب هو الإنسان و إن كان التأثير بأمر الله تعالى (فتأمل).

و في الآيه اللاحقه بين تعالى قسمين آخرين من نقاط الضعف الأخلاقى لدى هذه الجماعات، و التى تسببت في ضلالها و هلاكها.

في البدايه يقول: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَحْتَرِمُونَ الْعَهْدَ وَالْمَوَاقِفَ بَلْ يَنْقُضُونَهَا وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ .

و هذا العهد يمكن أن يكون إشاره إلى «العهد الفطرى» الذى أخذه الله على جميع عباده بحكم الجبله و الفطره، لأنّه عند ما أعطاهم العقل و الذكاء و القابليه، كان مفهوم ذلك هو أخذ العهد الميثاق منهم بأن يفتحوا عيونهم و آذانهم، و يروا الحقائق و يسمعوها، و هذا هو ما أشارت إليه الآيات الأخيره من هذه السوره (أى

الآية ١٧٣) وهو المعروف بـ«عالم الدر» الذي سنشرحه بإذن الله في ذيل تلك الآيات.

كما أنه يمكن أن يكون إشاره إلى العهد الذي كان الأنبياء الإلهيون يأخذونه من الناس، و كان أكثر الناس يقبلونه، و لكنهم ينقضونه.

أو يكون إشاره إلى جميع المواثيق «الفطرية» و«التشريعية».

و على كل حال فإنّ روح نقض الميثاق كان من أسباب معارضة الأنبياء و الإصرار على سلوك طريق الكفر و النفاق، و الابتلاء بعواقبها المشؤومة.

ثم يشير القرآن الكريم إلى عامل آخر إذ يقول: وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ .

يعنى أن روح التمرد و التجاوز على القانون، و الخروج عن نظام الخلقه و القوانين الإلهيه، كان عاملا آخر من عوامل استمرارهم على الكفر، و إصرارهم على مخالفه الدعوه الإلهيه.

و يجب الانتباه إلى أن الضمير فى «أكثرهم» يرجع إلى جميع الأقسام و الجماعات السالفه.

و ما ورد فى الآيه من أن أكثرهم ينقضون العهد إنّما هو من باب رعايه حال الأقليات التى آمنت بالأنبياء السابقين، و بقيت و فيه لهم، و هذه الجماعات المؤمنه و إن كانت قليلة و ضئيله العدد جدّا بحيث أنّها ما كانت تتجاوز أحيانا أسره واحده. و لكن روح الواقعيه و تحرى الحق المتجلبّيه فى كل آيات القرآن أوجبت أن لا يتجاهل القرآن الكريم حق هذه الجماعات القليله أو الأفراد المعدودين، بل يراعيها فلا يصف جميع الأفراد فى المجتمعات السالفه بالانحراف و الضلال و نقض العهد و الفسق.

و هذا موضوع جميل جدّا، و جدير بالاهتمام، و هو ما نشاهده و نلحظه فى آيات القرآن كثيرا.

إشاره

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨)

التفسير

إشاره

المواجهه بين موسى و فرعون:

بعد ذكر قصص ثله من الأنبياء العظام باختصار في الآيات السابقه بين تعالى في هذه الآيات و الآيات الكثيره اللاحقه قصه موسى بن عمران، و ما جرى بينه و بين فرعون و ملئه و عاقبه أمره.

و علّه بيان هذه القصه بصوره أكثر تفصيلا من قصص الأنبياء الآخرين في هذه السوره قد تكون لأجل أنّ اليهود أتباع موسى بن عمران كانوا أكثر من

غيرهم فى بيئه نزول القرآن، و كان إرشادهم إلى الإسلام أوجب. (١)

و ثانياً: لأنّ قيام النّبى الأكرم كان أشبه بقيام موسى بن عمران من غيره من الأنبياء.

و على كل حال فإنّ هذه القصة الزاخره بالعبر قد أشير إلى فصول أخرى منها أيضاً فى سور أخرى، مثل: سوره البقره، طه، الشعراء، النمل، القصص، و سور أخرى، و لو أنّنا درسنا آيات كل سوره على حده، ثمّ وضعناها جنباً إلى جنب لم نلاحظ فيها جانب التكرار على خلاف ما يتصوره البعض، بل ذكر من هذه الملحمة التاريخيه فى كل سوره ما يناسبها من البحث للاستشهاد به. و حيث أنّ مصر كانت أوسع، و كان لشعبها حضاره أكثر تقدماً من قوم نوح و هود و شعيب و ما شابههم، و كانت مقاومه الجهاز الفرعونى - بنفس النسبه - أكثر و أكبر، و لهذا تمتع قيام موسى بن عمران بأهميه أكبر، و حوى عبراً و نكات أكثر، و قد ركّز القرآن الكريم على النقاط البارزه المختلفه من حياه موسى و بنى إسرائيل بمناسبات مختلفه.

و على العموم يمكن حصر و تلخيص حياه هذا النّبى الإلهى العظيم فى خمس دورات و مراحل:

١-مرحله الولاده، و ما جرى عليه من الحوادث حتى ترعرعه فى البلاط الفرعون.

٢-مرحله فراره من مصر، و حياته فى أرض «مدين» فى كنف النّبى شعيب عليه السلام.

٣-مرحله بعثته، ثمّ المواجهات الكثيره بينه و بين فرعون و جهازه.

٤-مرحله نجاته و نجاه بنى إسرائيل من مخالط فرعون، و الحوادث التى

ص: ١٣٨

١-١) صحيح أنّ هذه السوره نزلت فى مكّه، و لم تكن مكّه مركز تجمع اليهود، و لكن من دون شك كان لحضور فى المدينه و سائر نقاط الحجاز أثر واسع فى المجتمع المكيّ.

جرت عليه فى الطريق، و عند وروده إلى بيت المقدس.

٥-مرحلة مشاكله مع بنى إسرائيل.

و يجب الانتباه إلى أن القرآن الكرىم تناول فى كل سورة من سور قسما-أو عدّه أقسام-من هذه المراحل الخمس.

و من تلك الآيات التى تناولت جوانب من قصّه موسى عليه السلام هذه الآيات، و عشرات الآيات الأخر من هذه السوره، و هى تشير إلى مراحل ما بعد بعثه موسى بن عمران بالنبوه. و لهذا فإننا نوكل الأبحاث المتعلقة بالمراحل السابقه على هذه المرحله إلى حين تفسير الآيات المرتبطه بتلك الأقسام فى السور الأخرى، و بخاصّه سوره القصص.

فى الآيه الأولى من الآيات الحاضره يقول تعالى: **ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ أَيَّامًا مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَ هُودٍ وَ صَالِحٍ.**

و يجب الالتفات إلى أنّ «فرعون» اسم عام، و هو يطلق على كل ملوك مصر، كما يطلق على ملوك الروم «قيصر» و ملوك فارس «كسرى».

و لفظه «الملاء»- كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق- تعنى الأعيان و الأشراف الذين يملأون ببريقهم و ظواهرهم الباذخه العيون، و لهم حضور ملفت للنظر فى جميع ميادين المجتمع.

و السر فى إرسال موسى فى بدايه الدعوه إلى فرعون و ملاءه هو أنّه علاوه على أنّ إحدى برامج موسى كان هو نجاه بنى إسرائيل من براثن استعمار الفراعنه و تخليصهم من أرض مصر- وهذا لا- يمكن أن يتم من دون الحوار مع فرعون- إنّما هو لأجل أن المفاسد الاجتماعيه و انحراف البيئه لا تعالج بمجرّد الإصلاحات الفرديه و الموضوعيه فقط، بل يجب أن يبدأ بإصلاح رؤوس المجتمع و قاداته الذين يمسكون بأزمه السياسه و الإقتصاد و الثقافه، حتى تتهيأ الأرضيه لإصلاح البقيه، كما يقال عرفا: إنّ تصفيه الماء يجب أن تكون من المنبع.

و هذا هو الدرس الذى يعطيه القرآن الكريم لجميع المسلمين، لإصلاح المجتمعات الإسلاميه.

ثم يقول تعالى: فَظَلَمُوا بِهَا .

و نحن نعلم أنّ لفظ الظلم بالمعنى الواسع للكلمه هو: وضع الشىء فى غير محلّه، و لا شك فى أن الآيات الإلهيه توجب أن يسلم الجميع لها، و بقبولها يصلح الإنسان نفسه و مجتمعه، و لكن فرعون و ملاءه بإنكارهم لهذه الآيات ظلموا هذه الآيات.

ثم يقول تعالى فى ختام الآيه: فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ .

و هذه العبارة إشاره إجماليه إلى هلاك فرعون و قومه الطغاه المتمردين، الذى سيأتى شرحه فيما بعد.

و هذه الآيه تشير إشاره مقتضيه إلى مجموع برنامج رساله موسى، و ما وقع بينه و بين فرعون من المواجهه و عاقبه أمرهم.

أمّا الآيات اللاحقه فتسلط الاضواء بصوره أكثر على هذا الموضوع.

فيقول أولاً: وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

و هذه هى أوّل مواجهه بين موسى و بين فرعون، و هى صورته حيه و عمليه من الصراع بين «الحق» و «الباطل».

و الطريف أنّ فرعون كأنه كان ينادى لأوّل مرّه بـ «يا فرعون» و هو خطاب رغم كونه مقرونا برعايه الأدب، خال عن أى نوع من أنواع التملق و التزلف و إظهار العبوديه و الخضوع، لأنّ الآخريين كانوا يخاطبونه عادة بألفاظ فيها الكثير من التعظيم مثل: يا مالكننا، يا سيدنا، يا ربنا، و ما شابه ذلك.

و تعبير موسى هذا، كان يمثل بالنسبه إلى فرعون جرس إنذار و ناقوس خطر. هذا مضافا إلى أن عبارته موسى إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ كانت فى الحقيقه-نوعا من إعلان الحرب على جميع تشكيلات فرعون، لأنّ هذا التعبير

يثبت أن فرعون و نظراءه من أذعياء الربوبية يكذبون جميعا في ادعائهم، و أن رب العالمين هو الله فقط، لا فرعون و لا غيره من البشر.

و فى الآيه اللاحقه نقرأ أنّ موسى عقيب دعوى الرساله من جانب الله قال:

فآلآن إذ أنا رسول رب العالمين ينبغي ألا أقول عن الله إلا الحق، لأن المرسل من قبل الله المنزه عن جميع العيوب لا يمكن أن يكون كاذبا حقيقيا على أن لا أقول على الله إلا الحق .

ثم لأجل توثيق دعواه للتبوه، أضاف: أنا لا أدعى ما أدعيه من دون دليل، بل إن معى أدله واضحه من جانب الله قد جئتكم بينه من ربكم .

فإذا كان الأمر هكذا فأرسل معى بنى إسرائيل .

و كان هذا فى الحقيقه قسما من رساله موسى بن عمران الذى حرّر بنى إسرائيل من قبضه الاستعمار الفرعونى، و وضع عنهم إصرهم و أغلال العبوديه التى كانت تكيل أيديهم و أرجلهم، لأن بنى إسرائيل كانوا فى ذلك الزمان عبيدا أذلاء بأيدي القبطيين (أهالى مصر) فكانوا يستفيدون منهم فى القيام بالأعمال السافله و الصعبه و الثقليه.

و يستفاد من الآيات القادمه- و كذا الآيات القرآنيه الأخرى بوضوح و جلاء أنّ موسى كان مكلفا بدعوه فرعون و غيره من سكان أرض مصر إلى دينه، يعنى أن رسالته لم تكن منحصره فى بنى إسرائيل.

فقال فرعون بمجرّد سماع هذه العبارة-(أى قوله: قد جئتكم بينه)-هات الآيه التى معك من جانب الله إن كنت صادقا قال إن كنت جئت بآيه فأت بها إن كنت من الصادقين .

و بهذه العبارة اتّخذ فرعون-ضمن إظهار التشكيك فى صدق موسى-هيئه الطالب للحق المتحرى للحقيقه ظاهرا، كما يفعل أى متحرى للحقيقه باحث عن الحق.

و من دون تأخير أخرج موسى معجزتيه العظيمة التي كانت إحداهما مظهر «الخوف» و الأخرى مظهر «الأمل» و كانتا تكملان مقام إنذاره و مقام تبشيريه، و ألقى في البدايه عصاه: فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١).

و التعبير ب«المبين» إشارة إلى أن تلك العصا التي تبدلت إلى ثعبان حقاً، و لم يكن سحراً و شعبده و ما شاكل ذلك، على العكس من فعل السحرة لأنه يقول في شأنهم: إنهم مارسوا الشعبده و السحر، و عملوا ما تصوره الناس حيات تتحرك، و ما هي بحيات حقيقه و واقعا.

إن ذكر هذه النقطة أمر ضروري، و هي أننا نقرأ في الآية (١٠) من سورة النمل، و الآية (٣١) من سورة القصص، أن العصا تحركت كالجان، و «الجان» هي الحيات الصغيره السريعه السير، و إن هذا التعبير لا ينسجم مع عبارته «ثعبان» التي تعنى الحيه العظيمه ظاهراً.

و لكن مع الالتفات إلى أن تينك الآيتين ترتبطان ببدايه بعثه موسى، و الآية المبحوثه هنا ترتبط بحين مواجهته لفرعون، تنحل المشكله، و كأن الله أراد أن يوقف موسى على هذه المعجزه العظيمه تدريجاً فهي تظهر في البدايه أصغر، و في الموقف اللاحق تظهر أعظم.

هل يمكن قلب العصا إلى حيه عظيمه؟!

على كل حال لا شك في أن تبديل «العصا» إلى حيه عظيمه معجزه، و لا يمكن تفسيرها بالتحليلات الماديه المتعارفه، بل هي من وجهه نظر الإلهي الموحد-الذي يعتبر جميع قوانين الماده محكوميه للمشيئه الربانيه-ليس فيها ما يدعو للعجب فلا عجب أن تتبدل قطعه من الخشب إلى حيوان بقوه ما فوق

ص: ١٤٢

١-١) احتمال «الراغب» في «المفردات» أن تكون كلمه ثعبان متخذة من ماده «ثعب» بمعنى جريان الماء، لأن حركه هذا الحيوان تشبه الأنهر التي تجرى بصوره ملتويه.

و يجب أن لا ننسى أن جميع الحيوانات فى عالم الطبيعه توجد من التراب، و الأخشاب و النباتات هى الأخرى من التراب، غاية ما هنالك أن تبديل التراب إلى حيه عظيمه يحتاج عاده إلى ملايين السنين، و لكن فى ضوء الإعجاز تقصر هذه المدّه إلى درجه تتحقق كل تلك التحولات و التكاملات فى لحظه واحده و بسرعه، فتتخذ القطعه من الخشب-التي تستطيع وفق الموازين الطبيعيه أن تغير بهذه الصوره بعد مضى ملايين السنين-تتخذ مثل هذه الصوره فى عدّه لحظات.

و الذين يحاولون أن يجدوا المعجز الأنبياء تفسيرات طبيعيه و ماديه-و ينفوا طابعها الإعجازى، و يظهرها فى صوره سلسله من المسائل العاديه مهما كانت هذه التفاسير مخالفه لصريح الكتب السماويه. إنّ هؤلاء يجب أن يوضحوا موقفهم: هل يؤمنون بالله و قدرته و يعتبرونه حاكما على قوانين الطبيعه، أم لا؟ فإذا كانوا لا يؤمنون به و بقدرته، لم يكن كلام الأنبياء و معجزاتهم إلا لغوا لديهم.

و إذا كانوا مؤمنين بذلك، فما الداعى لنحت، مثل هذه التفسيرات و التبريرات المقرونه بالتكلف و المخالفه لصريح الآيات القرآنيه. (و إن لم نر أحدا من المفسرين-على ما بينهم من اختلاف السليقه-عمد إلى هذا التفسير المادى، و لكن ما قلناه قاعده كليه).

ثم إنّ الآيه اللاحقه تشير إلى المعجزه الثانيه للنبي موسى عليه السلام التى لها طابع الرجاء و البشاره، يقول تعالى: وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ .

«نزع» تعنى فى الأصل أخذ شىء من مكان، مثلا- أخذ العباءه من الكتف و اللباس عن البدن يعبر عنه فى اللغه العربيه بالنزع فيقال: نزع ثوبه و نزع عباءته، و هكذا أخذ الروح من البدن يطلق عليه النزع. و بهذه المناسبه قد يستعمل فى الاستخراج، و قد جاءت هذه اللفظه فى الآيه الحاضره بهذا المعنى.

و مع أنّ هذه الآيه لم يرد فيها أى حديث عن محل إخراج اليد، و لكن من

الآية (٣٢) من سورة القصص أُسِّلِكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بِيَضًا يستفاد أنّ موسى كان يدخل يده في جيبه ثم يخرجها و لها بياض خاص، ثم تعود إلى سيرتها و حالتها الأولى.

و نقرأ في بعض الأحاديث و الروايات و التفاسير أنّ يد موسى كانت مضافا إلى بياضها تشعّ بشدّه، و لكن الآيات القرآنيه ساكنه عن هذا الموضوع، مع عدم تناف بينهما.

إنّ هذه المعجزه و المعجزه السابقه حول العصا- كما قلنا سابقا- ليس لها جانب طبيعي و عادى، بل هي من صنف خوارق العاده التي كان يقوم بها الأنبياء، و هي غير ممكنه من دون تدخل قوه فوق طبيعیه في الأمر.

و هكذا أراد موسى بإظهار هذه المعجزه أن يوضح هذه الحقيقه، و هي أن برامجه ليس لها جانب الترهيب و التهديد، بل الترهيب و التهديد للمخالفين و المعارضين، و التشويق و الإصلاح و البناء و النورانيه للمؤمنين.

ص: ١٤٤

إشارة

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَا تَوَكُّبِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢)

التفسير

إشارة

بدء المواجهه:

في هذه الآيات جاء الحديث عن أول رد فعل لفرعون و جهازه في مقابل دعوه موسى عليه السلام و معجزاته.

الآيه الأولى تذكر عن ملا فرعون أنهم بمجرد مشاهدتهم لأعمال موسى الخارقة للعادة اتهموه بالسحر، وقالوا: هذا ساحر عليم ماهر في سحره: قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ .

و لكن يستفاد من آيات سوره الشعراء الآيه (٣٤) أن هذا الكلام قاله فرعون حول موسى: قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ .

و لكن لا منافاه بين هاتين الآيتين، لأنه لا يبعد أن يكون فرعون قال هذا

الكلام في البدايه، وحيث أن عيون الملاء كانت متوجهه إليه، و لم يكن لهذا الملاء المتملق المتزلف هدف إلا رضى رئيسه و سيده، و ما ينعكس على محياه، و ما توحى به إشارته، كزّر هو أيضا ما قاله الرئيس، فقالوا: أجل، إن هذا لساحر عليم.

و هذا السلوك لا يختص بفرعون و حواشيه، بل هو دأب جميع الجبارين فى العالم و حواشيهم.

ثم أضافوا: إن هدف هذا الرجل أن يخرجكم من وطنكم يُريد أن يُخرجكم من أرضكم .

يعنى أنه لا- يهدف إلا استعماركم و استثماركم، و إن الحكومه على الناس، و غضب أراضى الآخرين، و هذه الأعمال الخارقه للعادة و ادعاء التّبوه كلّها لأجل الوصول إلى هذا الهدف.

ثم قالوا بعد ذلك: مع ملاحظه هذه الأوضاع فما هو رأيكم: فَمَاذَا تَأْمُرُونَ؟ يعنى أنهم جلسوا يتشاورون فى أمر موسى، و يتبادلون الرأى فيما يجب عليهم اتّخاذه تجاهه، لأنّ ماده «أمر» لا تعنى دائما الإيجاب و الفرض، بل تأتي- أيضا- بمعنى التشاور.

و هنا لا- بدّ من الالتفات إلى أنّ هذه الجملة وردت فى سورة الشعراء الآيه (٣٥) أيضا، و ذلك عن لسان فرعون، حيث قال لملائته: فما ذا تأمرون. و قد قلنا:

إنّه لا منافاه بين هذين.

و قد احتمل بعض المفسّرين- أيضا- أن تكون جمله «فما ذا تأمرون» فى الآيه الحاضره خطابا وجهه ملاء فرعون و حاشيته إلى فرعون، و صيغه الجمع إنما هى لرعايه التعظيم، و لكن الاحتمال الأوّل- و هو كون هذا الخطاب موجها من ملاء فرعون إلى الناس- أقرب إلى النظر.

و على كل حال فقد قال الجميع لفرعون: لا تعجل فى أمر موسى و هارون، و أجلّ قرارك بشأنهما إلى ما بعد، و لكن ابعث من يجمع لك السحره من جميع

أنحاء البلاد قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ .

نعم ابعث من يجمع لك كل ساحر ماهر في حرفته عليم في سحره يَا تُوكُّ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ .

فهل هذا الاقتراح من جانب حاشيه فرعون كان لأجل أنهم كانوا يحتملون صدق ادعاء موسى للنبوه، و كانوا يريدون اختباره؟ أو أنهم على العكس كانوا يعتبرونه كاذبا في دعواه، و يريدون افتعال ذريعه سياسيه لأى موقف سيتخذونه ضد موسى كما كانوا يفعلون ذلك في بقيه مواقفهم و نشاطاتهم الشخصيه؟ و لهذا اقترحوا ارجاء أمر قتل موسى و أخيه نظرا لمعجزتيه اللتين أورثتا رغبه في مجموعته كبيره من الناس في دعوته و انحيازهم إليه، و مزجت صورته «نبوته» بصوره «المظلوميه و الشهاده» و أضفت بضم الثانيه إلى الأولى-مسحه من القداسه و الجاذبيه عليه و على دعوته.

و لهذا فكروا في بدايه الأمر في إجهاض عمله بأعمال خارقه للعاده مماثله، و يسقطوا اعتباره بهذه الطريقه، ثم يأمرن بقتله لتنسى قصه موسى و هارون و تمحى عن الأذهان إلى الأبد.

يبدو أن الاحتمال الثاني بالنظر إلى القرائن الموجوده في الآيات-أقرب إلى النظر.

إشاره

وَجَاءَ السَّحْرَهُ فَوَعُونَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْعَالِيِينَ (١١٣) قَال نَعَمْ وَ إِن كُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَن تُلْقَى وَ إِنَّمَا أَن نَكُونُ نَحْنُ الْمُتْلِقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقُوا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَن أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَ بَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغَلَبُوا هَنَاكَ وَ انْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَ أَلْقَى السَّحْرَهُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَ هَارُونَ (١٢٢)

التفسير

إشاره

كيف انتصر الحق في النهايه؟

في هذه الآيات جرى الحديث حول المواجهه بين النبي موسى عليه السلام، و بين السحره، و ما آل إليه أمرهم في هذه المواجهه، و في البدايه تقول الآيه: إِنَّ السحره

بادروا إلى فرعون بدعوته، و كان أول ما دار بينهم و بين فرعون هو: هل لنا من أجر إذا غلبنا العدو و جاء السحره فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين؟! و كلمه «الأجر» و إن كانت تعنى أى نوع من أنواع الثواب، و لكن نظراً إلى ورودها هنا فى صورته «النكره»، و «النكره» فى هذه الموارد إنما تكون لتعظيم الموضوع و إبراز أهميته بسبب إخفاء ماهيته و نوعيته، لهذا يكون الأجر هنا بمعنى الأجر المهم و العظيم و بخاصه أنه لم يكن ثمه نزاع فى أصل استحقاقهم للأجر و المثوبه، فالمطلوب من فرعون هو الوعد بإعطائهم أجراً عظيماً و عوضاً مهماً.

فوعدهم فرعون فوراً -وعدا جيداً و قال: إنكم لن تحصلوا على الأجر السخى فقط، بل ستكونون من المقربين عندى قال نعم و إنكم لمن المقربين .

و بهذه الطريقه أعطاهم وعداً بالمال و وعداً بمنصب كبير لديه، و يستفاد من هذه الآيه أن التقرب إلى فرعون فى ذلك المحيط، و تلك البيئه كان أعلى و أسمى و أهم من المال و الثروه، لأنه كان يعنى منزله معنويه كان من الممكن أن تصبح منشأ لأموال كثيره و ثروات كبيره.

و فى المال حدّد موعد معين لمواجهة السحره لموسى، و كما جاء فى سوره «طه» و «الشعراء» دعى جميع الناس لمشاهده هذا النزال، و هذا يدل على أن فرعون كان مؤمناً بانتصاره على موسى عليه السلام.

و حلّ اليوم الموعود، و هتياً السحره كل مقدمات العمل... حفنه من العصى و الحبال التى يبدو أنها كانت معبأه بمواد كيميائيه خاصه، تبعث على حركتها إذا سطعت عليها الشمس، لأنها تتحول إلى غازات خفيفه تحرك تلك العصى و الحبال المجوفه.

و كانت واقعه عجيبيه، فموسى وحده (ليس معه إلا أخوه) يواجه تلك

المجموعه الهائله من السحره، و ذلك الحشد الهائل من الناس المتفرجين الذين كانوا على الأغلّب من أنصار السحره و مؤيديهم.

فالتفت السحره فى غرور خاص و كبير إلى موسى عليه السلام و قالوا: إِمَّا أَنْ تَشْرَعَ فَتُلْقَى عَصَاكَ، و إِمَّا أَنْ نَشْرَعَ نَحْنُ فَتُلْقَى عَصَانَا؟ قَالَ يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلقِينَ .

فقال موسى عليه السلام بمنتهى الثقه و الاطمئنان: بل اشرعوا أنتم قالَ أَلْقُوا .

و عند ما ألقى السحره بحبالهم و عصيهم فى وسط الميدان سحروا أعين الناس، و أوجدوا بأعمالهم و أقاويلهم المهرجه و مبالغاتهم و هرطقاتهم خوفا فى قلوب المتفرجين، و أظهروا سحرا كبيرا رهيبا: فَلَمَّا أَلْقُوا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جَاءُ بِسِحْرِ عَظِيمٍ .

و كلمه «السحر»- كما مرّ فى المجلد الأول من هذه الموسوعه التفسيريه، عند تفسير الآيه (١٠٢) من سوره البقره- تعنى فى الأساس الخداع و الشعبذيه، و قد يطلق أيضا على كل عامل غامض، و دافع غير مرئى.

و على هذا الأساس، فإن هذه الجماعه كانت توجد أفعالا عجيبه بالاعتماد على سرعه حركه الأيدى، و المهاره الفائقه فى تحريك الأشياء لتبدو و كأنّها أمور خارقه للعادة و كذلك الأشخاص الذين يستفيدون من الخواص الكيماويه و الفيزياويه الغامضه الموجوده فى الأشياء و المواد، فيظهرون أعمالا مختلفه خارقه للعادة. كل هؤلاء يدخلون تحت عنوان «الساحر».

هذا علاوه على أن السحره يستفيدون-عاده-من سلسله من الإيحاءات المؤثره فى مستمعهم، و من العبارات و الجمل المبالغه، و ربّما الرهيبه المخوفه لتكميل عملهم، و التى تترك آثارا جدّ عجيبه فى مستمعهم و متفرجيهم و جمهورهم.

و استفاد من آيات مختلفه فى هذه السوره و من سور قرآنيه أخرى حول

قصه سحره فرعون، أنهم استخدموا كل هذه العوامل و الأدوات، و عباره «سحروا أعين الناس» و جملة «استرهبوهم» أو تعبيرات أخرى في سور «طه» و «الشعراء» جميعها شواهد على هذه الحقيقه

بحوث

إشارة

و هنا لا بدّ من الإشارة إلى نقطتين:

١- المشهد العجيب لسحر السّاحرين

لقد أشار القرآن الكريم إشارة إجمالية من خلال عباره وَ جَاءُ بِسَجَرٍ عَظِيمٍ إلى الحقيقه التاليه و هي: أنّ المشهد الذى أوجده السحره كان عظيما و مهما، و مدروسا و مهيبا، و إلاّ لما استعمل القرآن الكريم لفظه «عظيم» هنا.

و يستفاد من كتب التاريخ و من روايات و أحاديث المفسّرين فى ذيل هذه الآيه، و كذا من آيات مشابهه-بوضوح- سعه أبعاد ذلك المشهد.

فبناء على ما قاله بعض المفسّرين كان عدد السحره يبلغ عشرات الألوف، و كانت الأجهزه و الوسائل المستعمله كذلك تبلغ عشرات الآلاف، و نظرا إلى أن السحره المهرة و المحترفين لهذا الفن فى مصر كانوا فى ذلك العصر كثيرين جدّا، لهذا لا يكون هذا الكلام موضع استغراب و تعجب. خاصّه أنّ القرآن الكريم فى سوره «طه» الآية (٦٧) يقول: فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ أَي أنّ المشهد كان عظيما جدّا و رهيبا إلى درجه أن موسى شعر بالخوف قليلا، و إن كان ذلك الخوف-حسب تصريح نهج البلاغه- (١) لأجل أنّه خشى أن من الممكن أن

ص: ١٥١

يتأثر الناس بذلك المشهد العظيم، فيكون إرجاعهم إلى الحق صعباً، و على أى حال فإن ذلك يكشف عن عظمه ذلك المشهد و رهبته.

٢- الاستفادة من السلاح المشابه

من هذا البحث يستفاد-بجلاء- و وضوح- أن فرعون بالنظر إلى حكومته العريضة فى أرض مصر، كانت له سياسات شيطانية مدروسة، فهو لم يستخدم لمواجهه موسى و أخيه هارون من سلاح التهديد و الإرعاب، بل سعى للاستفاده من أسلحه مشابهاه- كما يظن- فى مواجهه موسى، و من المسلم أنه لو نجح فى خطته لما بقى من موسى و دينه أى أثر أو خبر، و لكان قتل موسى عليه السلام فى تلك الصورة أمرا سهلا جدا، بل و موافقا للرأى العام، جهلا- منه بأن موسى لا يعتمد على قوه إنسانيه يمكن معارضتها و مقاومتها، بل يعتمد على قوه أزليه إلهيه مطلقه، تحطم كل مقاومه، و تفضى على كل معارضه.

و على أى حال، فإن الاستفادة من السلاح المشابه أفضل طريق الإنتصار على العدو المتصلب، و تحطيم القوى الماديه.

فى هذه اللحظه التى اعترت الناس فيها حاله من النشاط و الفرح، و تعالت صيحات الابتهاج من كل صوب، و علت وجوه فرعون و ملائه ابتسامه الرضى، و لمع فى عيونهم بريق الفرح، أدرك الوحى الإلهى موسى عليه السلام و أمره بإلقاء العصى، و فجأه انقلب المشهد و تغير، و بدت الدهشه على الوجوه، و تزعزت مفاصل فرعون و أصحابه كما يقول القرآن الكريم: **وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ .**

و«تلقف» مشتقه من ماده«لقف»(على وزن سقف)بمعنى أخذ شىء بقوه و سرعه، سواء بواسطة الفم، و الأسنان، أو بواسطة الأيدى، و لكن تأتى فى بعض الموارد بمعنى البلع و الابتلاع أيضا، و الظاهر أنها جاءت فى الآيه الحاضره بهذا

و«يأفكون» مشقّه من مادّه «إفك» على وزن «مسك» وهى تعنى فى الأصل الانصراف: عن الشىء، و حيث أن الكذب يصرف الإنسان من الحق أطلق على الكذب لفظ «الإفك».

و هناك احتمال آخر فى معنى الآيه ذهب إليه بعض المفسّرين، و هو أن عصا موسى بعد أن تحولت إلى حيّه عظيمه لم تبتلع أدوات سحر السحره، بل عطّلتها عن العمل و الحركة و أعادها إلى حالتها الأولى. و بذلك أوصد هذا العمل طريق الخطأ على الناس، فى حين أن الابتلاع لا يمكنه أن يقنع الناس بأنّ موسى لم يكن ساحرا أقوى منهم.

و لكن هذا الاحتمال لا يناسب جملة «تلقف» كما لا يناسب مطالب الآيه، لأنّ «تلقف»- كما أسلفنا- تعنى أخذ شىء بدقه و سرعه لا قلب الشىء و تغييره.

هذا مضافا إلى أنّه لو كان المقرر أن يظهر إعجاز موسى عليه السلام عن طريق إبطال سحر السحره، لم تكن حاجه إلى أن تتحول العصى إلى حيّه عظيمه، كما قال القرآن الكريم فى بدايه هذه القصّه.

و بغض النظر عن كل هذا، لو كان المطلوب هو إيجاد الشك و الوسوسه فى نفوس المتفرجين، لكانت عوده وسائل السحره و أدواتهم إلى هيئتها الأولى- أيضا- قابله للشك و الترديد، لأنّه من الممكن أن يحتمل أن موسى بارع فى السحر براعه كبرى بحيث أنّه استطاع إبطال سحر الآخرين و إعادتها إلى هيئتها الأولى.

بل إن الذى تسبب فى أن يعلم الناس بأن عمل موسى أمر خارق للعادة، و أنّه عمل إلهى تحقق بالاعتماد على القدره و الإلهيه المطلقه، هو أنّه كان فى مصر آنذاك مجموعه كبيره من السحره الماهرين جدّا، و كان أساتذته هذا الفن وجوها معروفه فى تلك البيئه، فى حين أن موسى الذى لم يكن متصفا بأى واحده من

هذه الصفات، و كان- فى الظاهر- رجلا- مغمورا، نهض من بين بنى إسرائيل، و أقدم على مثل ذلك العمل الذى عجز أمامه الجميع. و من هنا علم أن هناك قوه غيبه تدخلت فى عمل موسى، و أن موسى ليس رجلا عاديا.

و فى هذا الوقت ظهر الحق، و بطلت أعمالهم المزيّفه فَوَقَعَ الْحَقُّ وَ بَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .لأنّ عمل موسى كان عملا واقعيًا، و كانت أعمالهم حفته من الحيل و من أعمال الشعبه، و لا شك أنّه لا يستطيع أى باطل أن يقاوم الحق دائما.

و هذه هى أوّل ضربه توجهت إلى أساس السلطان الفرعونى الجبار.

ثمّ يقول تعالى فى الآيه اللاحقه: و بهذه الطريقه ظهرت آثار الهزيمة فىهم، و صاروا جميعا أذلاء: فَعَلَبُوا هُنَالِكَ وَ انْقَلَبُوا صَاغِرِينَ .

و بالرغم من أنّ المؤرخين ذكروا فى كتب التاريخ قضايا كثيره حول هذه الواقعه، و لكن حتّى من دون نقل ما جاء فى التواريخ يمكن الحدس أيضا بما حدث فى هذه الساعه من اضطراب فى الجماهير المتفرجه...فجماعه خالفوا بشدّه بحيث أنّهم فرّوا و هربوا، و أخذ آخرون يصيحون من شدّه الفزع، و بعض أغمى عليه.

و أخذ فرعون و ملأه ينظرون إلى ذلك المشهد مبهوتين مستوحشين، و قد تحدّرت على وجوههم قطرات العرق من الخجل و الفشل، فأجمعوا يفكرون فى مستقبلهم الغامض المبهم، و لم يدر فى خلداهم أنّهم سيواجهون مثل هذا المشهد الرهيب الذى لا يجدون له حلاّ.

و الضربه الأقوى كانت عند ما تغير مشهد مواجهه السحره لموسى عليه السلام تغييرا كليًا، و ذلك عند ما وقع السحره فجأه على الأرض ساجدين لعظمه الله وَ أَلْقَى السَّحْرَهُ سَاجِدِينَ .

ثمّ نادوا بأعلى صوتهم وَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَ هَارُونَ .

و بذكر هذه الجملة بينوا-بصراحه-الحقيقه التاليه و هى: أنّنا آمنّا برّب هو

غير الربّ المختلق، المصطنع، إنّهُ الربّ الحقيقى.

بل لم يكتفوا بلفظه «ربّ العالمين» أيضا، لأنّ فرعون كان يدعى أنّه ربّ العالمين، لهذا أضافوا: «ربّ موسى و هارون» حتى يقطعوا الطريق على كل استغلال.

و لم يكن فرعون و الملاء يتوقعون هذا الأمر مطلقا، يعنى أنّ الجماعه التى كان يعلّق الجميع آمالهم عليها للقضاء على موسى و دعوته، أصبحت فى الطليعه من المؤمنين بموسى و دعوته، و وقعوا ساجدين لله أمام أعين الناس عامّه، و أعلنوا عن تسليمهم المطلق و غير المشروط لدعوه موسى عليه السلام.

على أنّ هذا الموضوع الذى غير أناسا بمثل هذه الصوره، يجب أن لا يكون موضوع استغراب و تعجب، لأنّ نور الإيمان و التوحيد موجود فى جميع القلوب، و يمكن أن تخفيه بعض الموانع و الحجب الاجتماعيه مدّه طويله أو قصيره، و لكن عند ما تهب بعض العواصف بين حين و آخر تنزاح تلك الحجب، و يتجلّى ذلك النور و يأخذ بالأبصار.

و بخاصّه أن السحره المذكورين كانوا أساتذته مهرة فى صناعتهم، و كانوا أعرف من غيرهم بفنون عملهم و رموز سحرهم، فكانوا يعرفون-جيدا-الفرق بين «المعجزه» و «السحر» فالأمر الذى يحتاج الآخرون لمعرفته إلى المطالعه الطويله و الدقه الكبيره، كان واضحا عند السحره و بينا، بل أوضح و أبين من الشمس فى رابعه النهار.

إنّهم مع معرفتهم بفنون و رموز السحر الذى تعلموه طوال سنوات، عرفوا و أدركوا أن عمل موسى لم يكن يشبه-أبدا-السحر، و أنّه لم يكن نابعا من قدره البشر، بل كان نابعا من قدره فوق الطبيعه و فوق البشر، و بذلك لا مجال للاستغراب و التعجب فى اعلانهم إيمانهم بموسى بمثل تلك السرعه و الصراحه و الشجاعه و عدم الخوف من المستقبل.

و جملة «ألقى السحرة» التي جاءت في صيغة الفعل المبني للمجهول، شاهد ناطق على الاستقبال البالغ لدعوه موسى و تسليم السحرة المطلق له عليه السلام. يعني أنّ جاذبيه موسى كان لها من الأثر القوي البالغ في قلوب و نفوس أولئك السحرة، بحيث أنّهم سقطوا على الأرض من دون اختيار، و دفعهم ذلك إلى الإقرار و الاعتراف.

ص: ١٥٦

إشاره

قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمْ بِهِ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأَقْطَعَنَّ
أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا نُنْفِئُ مِنْهَا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا
لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)

التفسير

إشاره

التهديدات الفرعونه الجوفاء:

عند ما توجهت ضربه جديده-بانتصار موسى على السحرة و إيمانهم به- إلى أركان السلطه الفرعونه،استوحش فرعون و اضطرب بشده و رأى أنه إذا لم يظهر أى ردّ فعل فى مقابل هذا المشهد،فسيو من بموسى كل الناس أو أكثرهم، و ستكون السيطره على الأوضاع غير ممكنه،لهذا عمد فورا إلى عملين مبتكرين:

فى البدايه وجه اتهامها(لعله مرغوب عند السواد من الناس)إلى السحرة،ثم

هددهم بأشدّ التهديدات، و لكن على العكس من توقعات فرعون أظهر السحره مقاومه عجيبه تجاه هذين الموقفين،مقاومه أغرقت فرعون و جهازه فى تعجب شديد،و أفشلت جميع خططه.و بهذه الطريقه وجهوا ضربه ثالثه إلى أركان السلطان الفرعونى المتزلزل،و قد رسمت الآيات اللاحقه هذا المشهد بصوره رائعه.

فى البدايه يقول:إنّ فرعوننا قال للسحره:هل آمنتم بموسى قبل أن آذن لكم [□]قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم؟! و كأنّ التغيير ب«به»الأجل تحقير موسى و الانزراء به،و كأنّه بجمله«قبل أن آذن لكم»أراد أن يظهر أنّه يتحرى الحقيقه و يطلب الحق،فلو كان عمل موسى عليه السلام يتسم بالحقيقه و الواقعيه لأذنت أنا للناس بأن يؤمنوا به،و لكن استعجالكم كشفت عن زيفكم،و أنّ هناك مؤامره مبيّنه ضد شعب مصر.

و على أيه حال،أفادت الجمله أعلامه أنّ فرعون الجبار الغارق فى جنون السلطه كان يدعى أن لا يحق للشعب أن يتصرف أو يعمل أو يقول شيئاً من دون إجازته و إذنه،بل لا يحق لهم أن يفكروا و يؤمنوا بدون أمره و إذنه أيضاً!! و هذه هى أعلى درجات الاستعباد و الاستحمار،أن يكون شعب من الشعوب أسيراً و عبدا بحيث لا يحق له حتى التفكير و الإيمان القلبى بأحد أو بعقيده.

و هذا هو البرنامج الذى يواصله«الاستعمار الجديد»،يعنى أنّ المستعمرين لا- يكتفون بالاستعمار الاقتصادى و السياسى و الاجتماعى،بل يسعون إلى تقويه جذورهم عن طريق الاستعمار الفكرى.

و تتجلى مظاهر هذا الاستعباد الفكرى فى البلاد الشيوعيه أكثر فأكثر، بالحدود المغلقه،و الأسوار الحديدية و الرقابه الشديده المفروضه على كل شىء، و بخاصّه على الأجهزة الثقافيه.

و لكن فى البلاد الرأسماليه الغربيه التى يظن البعض أنه لا يوجد استعباد فكرى و ثقافى على الأقل و أن لكل أحد أن يفكر و يختار بحريه، يمارس الاستعباد بنحو آخر، لأنّ الرأسماليين الكبار بتسلّطهم الكامل على الصحف المهمّه، و الإذاعات، و محطات التلفزيون، و جميع سبل الارتباط الجمعى و وسائل الإعلام، يفرضون على المجتمع أفكارهم و آراءهم فى لباس الحريه الفكرية، و يوجهون المجتمع - عن طريق عمليه غسيل دماغ واسع و مستمره - إلى الوجهه التى يريدون، و هذا بلاء عظيم يعانى منه عصرنا الحاضر.

ثم يضيف فرعون قائلاً إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرُتُمْؤُهُ فِي الْمَدِينَةِ لَتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا .

و نظراً إلى الآية (٧١) من سوره «طه» التى تقول إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ يَتَّضِحُ أَنَّ مراد فرعون هو أن هناك مؤامره مدروسه و تواطؤاً مبيّناً قد دبرتموه قبل مدّه للسيطره على أوضاع مصر و استلام زمام السلطه، لا أنكم دبرتموه للتو و قبل قليل فى لقاء محتمل بينكم و بين موسى.

و من هنا يتّضح أنّ المراد من «المدينه» هو مجموع القطر المصرى، و الألف و اللام ألف و لام الجنس، و المراد من «لتخرجوا منها أهلها» هو تسلط موسى عليه السلام و بنى إسرائيل على أوضاع مصر، و إقصاء حاشيه فرعون و أعوانه عن جميع المناصب الحساسه، أو إبعاد بعضهم إلى النقاط البعيده من البلاد، و الآية (١١٠) فى هذه السوره شاهده على ذلك أيضاً.

و على كل حال، فإنّ هذه التهمه كانت خاويه و مفضوحه، إلى درجه أنه لم يكن يقتنع بها إلاّ العوام و الجهله من الناس، لأنّ موسى عليه السلام لم يكن حاضراً فى مصر، و لم يلتق بأحد من السحره من قبل، و لو كان أستاذهم و كبيرهم الذى علمهم السحر، لوجب أن يكون معروفاً و مشهوراً فى جميع الأماكن، و أن يعرفه أكثر الناس، و هذه لم تكن أموراً يمكن إخفاؤها و كتمانها، لأنّ التواطؤ مع

أشخاص المنتشرين فى شتى مناطق مصر على أمر بهذا القدر من الأهميه غير ممكن عملا.

ثم إن فرعون هددهم بتهديد غامض و لكنه شديد و محكم، إذ قال: فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ !! و فى الآيه اللاحقه بين تفاصيل ذلك التهديد الذى هدد به السحره فاقسم بأن يقطع أيديهم و أرجلهم و يصلبهم، إذ قال: لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ .

و فى الحقيقه كان مراده أن يقتلهم بالتعذيب و التنكيل، و يجعل من هذا المشهد الرهيب درسا للآخرين، لأن قطع الأيدى و الأرجل، ثم الصلب على الشجر أمام الناس، و منظر تدفق الدم من أجسامهم و ما يرافق هذا من حالات النزاع فوق المشانق إلى أن يموتوا، سيكون عبره لمن يعتبر (و لا بد من ملاحظه أن الصلب فى ذلك الزمان لم يكن يتم على النحو الذى يتم به الآن، و هو تعليق المشنوق بوضع الحبل فى عنقه، بل كان الحبل يوضع تحت كتفيه حتى لا يموت بسرعه).

و لعل قطع اليد و الرجل من خلاف، كان لأجل أن هذا العمل يتسبب فى أن يموتوا بصوره أبطأ، و يتحملوا قدرا أكثر من الألم و العذاب.

و الجدير بالتأمل أن البرامج التى انتهجها فرعون لمكافحه السحره الذين آمنوا بموسى، كانت برامج عامه فى مكافحه الجبارين و تعاملهم الوحشى الرخيص مع أنصار الحق و المنادين به، فهم من جانب يستخدمون حربته التهمه حتى يززعوا مكانه أنصار الحق فى نفوس الجماهير، و من جانب آخر يتوسلون بسلاح القوه و القهر و التهديد لتحطيم إرادتهم، و لكن - كما نقرأ فى ذيل قصيه موسى - لم يستطع هذان السلاحان أن يفعلا شيئا فى نفوس أنصار الحق، و لن يفعلا.

لقد قاوم السحره كلتا حربتي فرعون، وأجابوه جواب رجل واحد: إننا نرجع إلى ربنا إذن قالوا إنا إلى ربنا مُقَلَّبُونَ .

يعنى إذا تحقق تهديدك الثانى (و هو القتل) فمعناه أننا سننال الشهاده فى سبيل الدفاع عن الحق، و هذا لا يوجب ضررا علينا، و لا ينقصنا شيئا، بل يعدّ سعادته و فخرا عظيما لنا.

ثم إنهم للردّ على تهمة فرعون، و لإيضاح الحقيقه لجماهير المتفرجين على هذا المشهد، و اثبات براءتهم من أى ذنب، قالوا: إن الإشكال الوحيد الذى تورده علينا هو أننا آمنّا بآيات الله و قد جاءتنا و ما تنقّم منا إلا أن آمنّا بآيات ربنا لما جاءتنا .

يعنى أننا لسنا مشاغبين، و لا متأمرين، و لا متواطئين ضدك، و ليس إيماننا بموسى يعنى أننا نريد استلام أزمه الحكم، و لا أن نخرج أهل هذه البلاد من ديارهم، و أنت نفسك تعلم أننا لسنا بهذا الصدد، بل نحن عند ما رأينا الحق و شاهدنا علائمه بوضوح أجبنا داعى الله و لبينا نداءه و آمنّا به، و هذا هو ذنبنا الوحيد فى نظرك ليس غير.

و هكذا أظهروا لفرعون بالجملة الأولى أنهم لا يخافون أى تهديد، و أنهم يستقبلون جميع الحوادث و التبعات حتى الشهاده بمنتهى الشهامه. و بالجملة الثانيه ردّوا بصراحه على الاتهامات التى وجهها فرعون إليهم.

إن جملة «تنقم» مشتقه من ماده «نقمه» على وزن «نعمه» و هى فى الأصل تعنى رفض شىء باللسان أو بالعمل و العقوبه. و على هذا فإن الآيه أعلاه يمكن أن تكون بمعنى إن العمل الوحيد الذى تنكره علينا هو أننا آمنّا، أو يعنى أن العقوبه التى تريد أن تعاقبنا بها إنما هو لأجل إيماننا.

ثم إنهم أشاحوا بوجههم عن فرعون و توجهوا إلى الله سبحانه، و طلبوا منه الصبر و الاستقامه، لأنهم كانوا يعلمون أنهم لا يستطيعون أن يقاوموا تلك

العقوبات الثقيله من دون نصره و تأييده و عونہ، لهذا قالوا: رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ .

و الملفت للنظر أَنَّهُم بعبارة أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا أَظهروا أَن الخطر المحقق بهم بلغ الدرجه القصوى، فأعطينا يا رَبُّ أَنْتَ-أيضا-آخر درجات الصبر و الاستقامه، لأنَّ «أفرغ» من مادہ «الإفراغ» بمعنى صبَّ السائل من وعاء حتى يفرغ.

الاستقامه الواعيه:

يمكن أن يتملك الإنسان عجب شديد عند أول اطلاعه على قصه السحره فى زمان موسى عليه السلام الذين صاروا من المؤمنين الصادقين، هل يمكن أن يحدث مثل هذا الانقلاب و التحول العميق فى الروح الإنسانيه فى مثل هذه المده القصيره، بحيث يقطع الشخص كل علاقاته مع الصف المخالف، و يصير فى صف الموافق، ثم يدافع عن عقيدته الجديده بإصرار و عناد عجيبين إلى درجه أنه يتجاهل مكانته و مصالحه و حياته جميعا، و يستقبل الشهاده بشجاعه منقطعه النظير، و بوجه مستبشر؟ و لكن هذا الاستغراب يتبدد إذا التفتنا إلى هذه النقطة، و هى أن هؤلاء-نظرا إلى سوابقهم الكثيره فى علم السحر-وقفوا جيدا على عظمه معجزه النبى موسى عليه السلام و حقانيته، و سلكوا هذا السبيل عن وعى كامل... و هذا الوعى صار منشأ لعشق ملتهب سر بل كل وجودهم و كيانهم، و هو عشق لا يعرف حدا و سدا، و فوق جميع النوازع و الرغبات البشريه.

إنهم كانوا يعلمون جيدا أى طريق يسلكونه؟ و لماذا يجاهدون؟ و من يكفحون؟ و أى مستقبل مشرق ينتظر هذا الجهاد العظيم؟ أجل، إذا كان الإيمان مقرونا بالوعى الكامل فإنه ينتهى إلى مثل هذا العشق

الملتهب الذى لا يكون هذا التفانى فى سبيله مثار للعجب.

و لهذا نرى كيف أن السحرة قالوا بصراحه و شجاعه (كما فى سورة طه الآيه (٧٢): قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلٰى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَ الَّذِى فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا .

و أخيرا-و كما جاء فى الروايات و كتب التأريخ-استقام أولئك الجماعه من السحرة الذين آمنوا بموسى حتى نفض فرعون تهديداته،و مثل بأجسامهم تمثيلا مروعا،و صلبهم على جذوع النخل على مقربه من نهر النيل.و هكذا كتبت أسماؤهم مع أحرار التاريخ بأحرف من نور،و كانوا كما وصفهم المفسر الكبير العلامة الطبرسى: كانوا أول النهار كفارا سحرة،و آخر النهار شهداء و برره.

و لكن مع الالتفات إلى أن مثل هذا الانقلاب و التحول و الاستقامه ليس ممكنا إلا فى ظل الإمدادات الإلهيه،و من المسلم أن كل من اختار سلوك طريق الحق،شملته هذه العناية الربانيه،و الإمدادات الإلهيه.

ص: ١٦٣

إشارة

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ قَالَ سَيَنْقُتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسِيَتَحِي نِسَاءَهُمْ وَإِذَا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُؤْذِنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عِبْدُكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)

التفسير

إشارة

في هذه الآيات يبين لنا القرآن الكريم مشهدا آخر من الحوار الذي دار بين فرعون و بين ملائه حول وضع موسى عليه السلام، و يستفاد من القرائن الموجودة في نفس الآية أنّ محتوى هذه الآيات يرتبط بفترة ما بعد المواجهه بين موسى و بين السحرة.

تقول الآية في البدايه: وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ .

يستفاد من هذا التعبير-جيذا-أن فرعون بعد هزيمته أمام موسى عليه السّلام ترك موسى و بنى إسرائيل أحرارا(طبعاً الحريه النسبيه)مدّه من الزمن،و لم يترك بنو إسرائيل بدورهم هذه الفرصه من دون أن يشتغلوا بالدعوه و التبليغ لصالح دين موسى عليه السّلام إلى درجه أن قوم فرعون قلقوا من انتشاره و نفوذ دعوتهم،فحضرُوا عند فرعون و حرضوه على اتّخاذ موقف مشدد تجاه موسى و بنى إسرائيل.

فهل فتره الحريه النسبيه هذه كانت لأجل الخوف و الرعب الذى أصاب فرعون بسبب ما رأى من معجزه موسى عليه السّلام القويه،أو للاختلاف الذى برز فى شعب مصر(و حتى القبطيين منهم)حول موسى و دينه،حيث أنّ جماعه رغبوا فى دينه،و كان فرعون شاهدا لهذه الحاله فلم يمكنه أن يتخذ فى مثل هذه الأجواء و الظروف موقفا متشددا من موسى و دينه.

كلا الاحتمالين قريبان إلى ذهن فرعون،و يمكن أن يكون كلاهما معا قد تركا أثرا فى نفسه و فكره.

و على كل حال فإنّ فرعون-بسبب تحذيرات أعوانه و حاشيته-صمم على اتّخاذ موقف متشدد من بنى إسرائيل،فقال لحاشيته فى معرض الجواب على تحريضهم و تحذيرهم:سأقتل أبناءهم و استخدم نساءهم و نحن متفوقون عليهم على كل حال: قَالَ سَنُقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ .

و قد وقع كلام بين المفسّرين حول المراد من لفظه«آلهتك»و الظاهر من الآيه هو أنّ فرعون كانت له معبودات و أصنام،و إن كان يفهم من الآيه(٤)من سوره النازعات أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى و من الآيه(٣٨)من سوره القصص مَّا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي إِنَّ فرعون كان أعظم إله لشعب مصر،أو على الأقل كان فرعون يعتبر نفسه أعظم معبود لشعب مصر و لكن مع ذلك كان قد اختار آلهه لنفسه و كان يعبدها.

و النقطه الأخرى أن فرعون عمد هنا إلى مكافحه جذريه و عميقه،و قرر

تحطيم قوه بنى إسرائيل تحطيمًا كاملاً، وذلك بالقضاء على المقاتلين ورجال الحرب بقتل أبناء بنى إسرائيل و استئصالهم، و يستبقى نساءهم و بناتهم لاسترقاقهن و استخدامهن، و هذا هو نهج كل مستعمر قديم و جديد، فهو يقضى على الرجال العالمين و القوى المؤثرة فى مواجهه، أو يقتل فيهم روح الرجوله و الشهامه و الغيره و الحميه بالوسائل المختلفه، و يستبقى غير المؤثرين فى هذا المجال.

على أنه يحتمل-أيضا-أن فرعون كان يريد أن يبلغ هذا الكلام إلى مسامع بنى إسرائيل، ففتحطم معنوياتهم من جهتين: أولاهما من جهه قتل أبنائهم و رجال مستقبلهم، و الأخرى: من جهه وقوع نساءهم و أعراضهم فى أيدي العدو.

و على كل حال أراد بعبارته **إِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ** أن يزيل الخوف و القلق من قلوب حاشيته و أعوانه، و يخبرهم بأنه مسيطر على الأوضاع سيطره كامله.

سؤال:

و هنا يطرح سؤال، و هو: لماذا لم يقرر فرعون قتل موسى، و إنما قرر-فقط-القضاء على أبناء بنى إسرائيل؟

جواب:

يستفاد من آيات سوره المؤمن-جيدا-أن فرعون كان عازما فى البدايه على قتل موسى، و لكن نصائح مؤمن آل فرعون المقترنه بالتهديد، فى أن قتل موسى يمكن أن يقترن بالخطر فيحتمل أن يكون مرسلا من الله حقيقه و واقعا، و أن كل ما يقوله من العقوبات الإلهيه يتحقق بمقتله، أثرت فى روح فرعون و فكره.

هذا مضافا إلى أن خبر انتصار موسى على السحره انتشر فى كل مكان،

و وقع بسببه خلاف بين شعب مصر فى مخالفه أو تأييد موسى. و لعل فرعون خاف إن هو اتَّخذ من موسى عليه السَّلام موقفا حادا واجه ردَّ فعل قوى من جانب الناس الذين تأثروا بهذه المسأله، و لهذا انصرف عن فكره قتل موسى عليه السَّلام.

و الآيه اللاحقه بيّنت- فى الحقيقه- خطّه موسى التى اقترحها على بنى إسرائيل لمواجهه تهديدات فرعون، و شرح فيها شروط الغلبه على العدو، و ذكرهم بأنهم إذا عملوا بثلاث مبادئ انتصروا على العدو حتما:

أُولَئِكَ: الاتكال على الله فقط قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ .

و الآخر: أن يثبتوا و لا يخافوا من تهديدات العدو: وَ اصْبِرُوا .

و للتأكيد على هذا المطلب، و من باب ذكر الدليل، ذكرهم بأنَّ الأرض كلها ملك الله، و هو الحاكم عليها و المالك المطلق لها، فهو يعطيها لمن يشاء إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ .

و آخر هذه المبادئ هو أن يعتمدوا التقوى لأنَّ العاقبه لمن اتقى وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ .

هذه المبادئ و الشروط الثلاثه- أحدها فى العقيدته (الاستعانه بالله) و الثانى فى الأخلاق (الصبر و الثبات) و الأخير فى العمل (التقوى)- ليست شرائط انتصار قوم بنى إسرائيل و حدهم على العدو، بل كل شعب أراد الغلبه على أعدائه لا بدَّ له من تحقيق هذه البرامج الثلاثه فالأشخاص غير المؤمنين و الجبناء الضعفاء الإراده، و الشعوب الفاسقه الغارقه فى الفساد، إذا ما انتصرت فإنَّ انتصارها يكون لا محاله مؤقتا غير باق.

و الملفت للنظر أنَّ هذه الشروط الثلاثه كل واحد منها متفرع على الآخر، فالتقوى لا تتوفر من دون الثبات و الصبر فى مواجهه الشهوات، و أمام بهارج العالم المادى، كما أنَّ الصبر و الثبات لا يكون لهما أى بقاء و دوام من دون الإيمان

بِاللَّهِ.

و فى آخر آيه من الآيات الحاضره يعكس القرآن الكريم شكايات بنى إسرائيل و عتابهم من المشكلات التى ابتلوا بها بعد قيام موسى عليه السلام فيقول: قَالُوا أَوْذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَ مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا فَإِذَا مَتَى يَحْصِلُ الْفَرْجُ؟! و كأن بنى إسرائيل مثل كثير منّا كانوا يتوقعون أن تصلح جميع الأمور بقيام موسى عليه السلام فى ليله واحده... أن يزول فرعون و يسقط، و يهلك الجهاز الفرعونى برمته، و تصبح مصر بجميع ثرواتها تحت تصرف بنى إسرائيل، و يتحقق كل ذلك عن طريق الإعجاز، من دون أن يتحمل بنو إسرائيل أىّ عناء.

و لكن موسى عليهم السلام أفهمهم بأنهم سينتصرون فى المآل، و لكن أمامهم طريقا طويلا، و إن هذا الانتصار طبقا للسنه الإلهيه- يتحقق فى ظل الاستقامه و الثبات و السعى و الاجتهاد، كما جاء ذلك فى الآيه الحاضره قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ .

و ذكر كلمه «عسى» مثل كلمه «لعل» التى وردت فى كثير من الآيات القرآنيه إشاره- فى الحقيقه- إلى أن لهذا التوفيق و الانتصار شرائط، من دونها لا يصلون إليه، (للقوف على المزيد فى هذا المجال راجع ما كتبناه فى تفسير الآيه ٨٤ من سوره النساء).

ثم يقول فى ختام الآيه: إِنَّ اللَّهَ أَعْطَاكُمْ هَذِهِ النِّعْمَةَ، وَ أَعَادَ إِلَيْكُمْ حُرِّيَّتَكُمْ الْمَسْلُوبَةَ كَيْ يَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؟ يعنى ستبدأ- بعد الانتصار- مرحله امتحانكم و اختباركم، اختبار شعب كان فاقدا لكل شىء ثم حصل على كل شىء فى ضوء الهدايه الإلهيه.

إنّ هذا التعبير- هو ضمنا- إشعار بأنكم سوف لا تخرجون من هذا الاختبار- فى المستقبل- بنجاح، و ستفسدون و تظلمون كما فعل من كان قبلكم.

ص: ١٦٨

و نقرأ

فـى روابه وردت فى كتاب الكافى مرويه عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«وجدنا فى كتاب على صلوات الله عليه: إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده و العاقبه للمتقين، أنا و أهل بيتى الذين أورثنا الله الأرض و نحن المتقون» (1) و هذه إشاره إلى أن الحكم المذكور فى هذه الآيه حكم شامل، و قانون عام، و الأرض هى الآن-فى الحقيقه-للمتقين.

ص: ١٦٩

(١ - ١) التفسير نور الثقلين، المجلد الثانى، الصفحه ٥٦.

اشاره

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١)

التفسير

اشاره

العقوبات التنبيهية:

لقد كان القانون الإلهي العام في دعوه الأنبياء- كما قلنا في تفسير الآيه (٩٤) من نفس هذه السوره- هو أنهم كلما واجهوا معارضة كان الله تعالى يبتلى الأقسام المعاندين بأنواع المشاكل و البلايا، حتى يحسوا بالحاجه في ضمائرهم و أعماق نفوسهم، و تستيقظ فيهم فطره التوحيد المتكسب له تحت حجاب الغفله عند الرفاه و الرخاء، فيعودوا إلى الإحساس بضعفهم و عجزهم، و يتوجهوا إلى المبدأ القادر مصدر جميع النعم.

و في أول آيه من الآيتين الحاضرتين إشاره إلى نفس هذا المطلب في قصه فرعون، إذ يقول تعالى: **وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ**

و«السنين» جمع «سنه» بمعنى العام، و لكنها إذا قرنت بلفظه «أخذ» أعطت معنى الابتلاء بالقحط و الجذب، و على هذا يكون معنى أخذته السنه هو: أصيب بالقحط و الجذب، و لعلّ علّه ذلك هي أن أعوام القحط و الجذب قليله بالقياس إلى أعوام الخصب و الخير، و على هذا إذا كان المراد من السنه السنين العاديه لم يكن ذلك موضوعا جديدا، و يتبين من ذلك أنّ المراد من السنين هي السنين الاستثنائيه، أى سنوات القحط و أعوام الجذب.

و كلمه «آل» كانت فى الأصل «أهل» ثمّ قلبت فصارت هكذا، و الأهل بمعنى أقرباء الإنسان و خاصته، سواء أقرباؤه أو زملاؤه و نظراؤه فى المسلك و التفكير و أعوانه.

و مع أنّ القحط و الجذب أصابا حاشيه فرعون و مؤيديه أجمع، و لكن الخطاب فى الآيه موجه إلى خصوص أقربائه و خاصته، و هو إشاره إلى أن المهم هو أن يستيقظ هؤلاء، لأنّ بيدهم أزمه الناس... أن يضلوا الناس، أو يهدونهم، و لهذا توجه الخطاب إليهم فقط، و إن كان البلاء قد أصاب الآخرين أيضا.

و يجب أن لا نستبعد هذه النقطه، و هي أن الجذب كان يعدّ بلاء عظيما لمصر، لأنّ مصر كانت بلدا زراعيا، فكان الجذب مؤذيا لجميع الطبقات، و لكن من المسلم أنّ آل فرعون - و هم الأصحاب الأصليين للأراضى الزراعيه و إنتاجها - كانوا أكثر تضررا بهذا البلاء.

ثمّ إنّه يعلم من الآيه الحاضره أنّ الجذب استمر عدّه سنوات، لأنّ كلمه «سنين» صيغه جمع، و خاصّه أنّه أضيف إليها عبارته نَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لأنّ الجذب المؤقت و العابر يمكن أن يترك شيئا من الأثر فى الأشجار و لكن عند ما يكون الجذب طويلا فإنّه يبيد الأشجار أيضا. و يحتمل أيضا أنّه علاوه على الجذب فإنّ الفواكه و الثمار أصيبت بآفات قاتله كذلك.

و كأنَّ جملة لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ إشاره إلى هذه النقطة، و هي: أنَّ التوجه إلى حقيقه التوحيد موجوده من البدايه فى الروح الأدميه، و لكنّه على أثر التريبه غير الصحيحه أو بطر النعمه ينساها الإنسان، و عند حلول البلايا و الأزمات يتذكر ذلك مجدداً، و ماده «تذكر» تناسب هذا المعنى.

هذا و الجدير بالانتباه أنَّ جملة لَعَلَّهُمْ يَضْرَعُونَ جاءت فى ذيل الآيه (٩٤) و هي مقدمه أخرى فى الحقيقه—لأنَّ الإنسان يتذكر أولاً، ثمَّ يخضع و يسلم، أو يطلب من الله الصّبح و المغفره.

و لكن بدل أن يستوعب «آل فرعون» هذه الدروس الإلهيه، و يستيقظوا من غفلتهم و غفوتهم العميقه، أساءوا استخدام هذا الظرف و الحاله، و فسّروها حسب مزاجهم، فإذا كانت الأحوال مؤاتيه و مطابقه لرغبتهم، و كانوا يعيشون فى راحه و استقرار قالوا: إنَّ الوضع الحسن هو بسبب جدارتنا، و صلاحنا فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه .

و لكن عند ما تنزل بهم النوائب فإنهم ينسبون ذلك إلى موسى عليه السّلام و جماعته فوراً و يقولون هذا من شومهم: و إنَّ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ .

و «يطيرون» مشتقه من ماده «تطير» بمعنى التشاؤم، و أصلها من الطير، فقد كان العرب غالباً ما يتشاءمون بواسطه الطيور. و ربّما تشاءموا بصوت الغراب، أو بطيران الطير، فإذا طار من ناحيه اليسار اعتبروا ذلك علامه الشقاء و الفشل، و كلمه التطير تعنى مطلق التشاؤم.

و لكن القرآن الكريم قال فى معرض الردّ عليهم: اعلموا أنَّ منشأ كل شؤم و بلاء أصابكم أنّما هو من قبل الله، و أنّ الله تعالى أراد أن تصيبكم نتيجة أعمالكم المشؤومه، و لكن أكثرهم لا يعلمون إلاَّ إنّما طائرهم عند الله و لكن أكثرهم لا يعلمون .

و الجدير بالتأمل أن هذا النمط من التفكير لم يكن خاصاً بالفرعونيين، بل

هو أمر نلاحظه بوضوح الآن بين الشعوب المصابه بالأنانية و الضلال، فهى -بغية قلب الحقائق، و خداع ضميرها أو ضمائر الآخرين- كلما أصابها نجاح و تقدم اعتبرت ذلك ناشئا من جدارتها و كفاءتها، و إن لم يكن فى ذلك النجاح و التقدم أدنى شىء من تلك الكفاءة و الجداره، و بالعكس إذا أصابها أى إخفاق و شقاء نسبت ذلك فورا إلى الأجنب و إلى أيادى العدو الخفيّه أو المكشوفه، و إن كانوا هم بأنفسهم سبب ذلك الشقاء و الإخفاق.

يقول القرآن الكريم: إنَّ أعداء الرسول الأعظم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كانوا يتوسلون بمثل هذا المنطق أيضا في مقابل رسول الله (كما نقرأ في الآية ٧٨ من سورة النساء).

و فى مكان آخر يقول: إنَّ المنحرفين هم هكذا (كما فى سورة فصلت الآية ٥٠) و هذا فى الحقيقه هو أحد مظاهر الأنانيه و اللجاج البارز. (١)

التفاؤل و التشاؤم (الفأل و الطيره):

مسأله التطير و التفاؤل و التشاؤم قد تكون منتشره فى مختلف المجتمعات البشريه، فيتفاءلون بأمر و أشياء و يعتبرونها دليل النجاح، و يتشاءمون بأمر و أشياء و يعتبرونها آيه الهزيمة و الفشل. فى حين لا توجد أيه علاقه منطقيه بين النجاح و الإخفاق و بين هذه الأمور، و بخاصه فى مجال التشاؤم حيث كان له غالبا جانب خرافى غير معقول.

إنَّ هذين الأمرين و إن لم يكن لهما أى أثر طبيعى إلاّ -أنه يمكن أن يكون لهما أثر نفسى لا- ينكر، و إنَّ التفاؤل غالبا يوجب الأمل و التحرك، و التشاؤم يوجب اليأس و الوهن و التراجع.

و لعله لأجل هذا لم ينه فى الروايات و الأحاديث الإسلاميه عن التفاؤل،

ص: ١٧٣

١ - ١ ذكر «حسنه» محلا به بالألف و اللام و «إذا» و ذكر «سيئه» مع (إن) بصوره النكره إشاره إلى النعم كانت تنزل عليهم بصوره متتابعه، بينما كانت البلايا تنزل أحيانا.

بينما نهى عن التشاؤم بشده،

ففى حديث معروف مروى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«تفاءلوا بالخير تجدوه» وقد شوهد فى أحوال النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم الهداه عليهم السلام- أنفسهم- أنهم ربّما تفاءلوا بأشياء، مثلا عند ما كان المسلمون فى «الحديبيه» وقد منعهم الكفار من الدخول إلى مكّه جاءهم «سهيل بن عمرو» مندوب من قريش، فلما علم النبى صلى الله عليه وآله وسلم باسمه قال متفائلا باسمه:

«قد سهل عليكم أمركم» (١) وقد أشار العالم المعروف «الدميرى» وهو من كتاب القرن الثامن الهجرى، فى إحدى كتاباته إلى نفس هذا الموضوع، وقال: إنما أحب النبى صلى الله عليه وآله وسلم الفأل لأنّ الإنسان إذا أمل فضل الله كان على خير، وإن قطع رجاءه من الله كان على شر، والطيره فيها سوء ظن و توقع للبلاء (٢) ولكن فى مجال التشاؤم الذى يسميه العرب «التطير» و«الطيره» ورد فى الأحاديث الإسلاميه- كما أسلفنا- ذم شديد، كما أشير إليه فى القرآن الكريم مرارا و تكرارا أيضا، و شجب بشده (٣).

و من جمله ذلك ما

روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «الطيره شرك» (٤) و ذلك لأن من يعتقد بالطيره كأنه يشركها فى مصير الإنسان و تشير بعض الأحاديث أنه إذا كان للطيره أثر سىء فهو الأثر النفسى،

قال الإمام الصادق عليه السلام: «الطيره على ما تجعلها، إن هونتها تهونت، و إن شددتها تشدّدت، و إن لم تجعلها شيئا لم تكن شيئا» (٥) و ورد أنّ طريقه مكافحه الطيره تتمثل فى عدم الاعتناء بها،

فقد روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ثلاث لا يسلم منها أحد: الطيره و الحسد و الظن. قيل: فما

ص: ١٧٤

١-١) الميزان، المجلد ١٩، الصفحه ٨٦.

٢-٢) سفينه البحار، المجلد الثانى، الصفحه ١٠٢.

٣-٣) مثل سوره «يس» الآيه (١٩)، و سوره النمل الآيه (٤٧)، و الآيه المطروحه على بساط البحث هنا.

٤-٤) الميزان فى ذيل الآيه المبحوثة هنا.

٥-٥) الميزان، فى ذيل الآيه المبحوثة هنا.

نصنع؟ قال: إذا تطيرت فامض (أى لا تعتن بها) وإذا حسدت فلا تبغ (أى لا تعمل بوحى منه شيئاً) وإذا ظننت فلا تحقق».

و العجيب أنّ مسأله الفأل و الطيره كانت و لا- تزال موجوده حتى فى البلاد الصناعيه المتقدمه، و فى أوساط من يسمون بالمتقفين، بل و حتى النوابغ المعروفين، و من جملتها: يعتبر المرور من تحت السلم عند الغربيين- و سقوط المملحه، و إهداء سكين، أمورا يتشاءم بها بشده.

على أنّ وجود الفأل الجيد- كما قلنا- ليس مسأله مهمه، بل لها غالباً آثار حسنه طيبه، و لكن يجب مكافحه عوامل التشاؤم و فكره الطيره، و نبذها من الأذهان، و أفضل و سيله لمكافحتها هى تقويه روح التوكل، و الثقه بالله و الاعتماد عليه كما أشير إلى ذلك فى الأحاديث الإسلاميه.

ص: ١٧٥

إشاره

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَ
آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣)

التفسير

إشاره

النوائب المتنوعه:

في هاتين الآيتين أشير إلى مرحله أخرى من الدروس المنبهه التي لَقَّنها الله لقوم فرعون، فعند ما لم تنفع المرحله الأولى، يعنى أخذهم بالجدب و السنين و ما ترتب عليه من الأضرار المالىه فى إيقاظهم و تنبيههم، جاء دور المرحله الثانيه و تمثلت فى عقوبات أشد، فأنزل الله عليهم نواب متتابعه مدمره، و لكنهم - و للأسف - لم ينتبهوا مع ذلك.

و فى الآيه الأولى من الآيات المبحوثة يقول القرآن الكريم من باب المقدمه لنزول النوايب: إنهم بقوا يلجون فى إنكار دعوه موسى، و قالوا: مهما تأتنا من آيه و تريد أن تسحرنا بها فإننا لن نؤمن بك: وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا

إنّ التعبير بـ«الآية» لعله من باب الاستهزاء والسخرية، لأنّ موسى عليه السلام وصف معاجزه بأنّها آيات الله، ولكنهم كانوا يفسرونها بالسحر.

إنّ لحن الآيات و القرائن يفيد أنّ الجهاز الإعلامى الفرعونى الذى كان-تبعا لذلك العصر- أقوى جهاز إعلامى، و كان النظام الحاكم فى مصر يستخدمه كامل الاستخدام... إنّ هذا الجهاز الإعلامى قد عبأ قواه فى توكيد تهمة السحر فى كل مكان، وجعلها شعارا عاما ضد موسى عليه السلام، لأنّه لم يكن هناك تهمة منها أنسب بالنسبة إلى معجزات موسى عليه السلام للحيلولة دون انتشار الدعوه الموسويه و نفوذها المتزايد فى الأوساط المصرية.

و لكن حيث أن الله سبحانه لا يعاقب أمه أو قوما من دون أن يتمّ عليهم الحجه قال فى الآيه اللاحقه: نحن أنزلنا عليهم بلايا كثيره و متعدده لعلهم يتنبهون... فقال أولا: فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ .

و كلمه «الطوفان» مشتقه من ماده «الطوف» على وزن «خوف» و تعنى الشىء الذى يطوف و يدور، ثمّ أطلقت هذه اللفظه على الحادثه التى تحيط بالإنسان، و لكنّها أطلقت فى اللغه-على السيول و الأمواج المدمره التى تاتى على كل شىء فى الأغلب، و بالتالى تدمر البيوت، و تقتلع الأشجار من جذورها.

ثمّ سلط الجراد على زروعهم و أشجارهم (و الجراد).

و قد جاء فى الأحاديث أن هجوم أسراب الجراد كان عظيما جدّا إلى درجه أنّها وقعت فى أشجارهم و زروعهم أكلا و قضمًا و إتلافا، حتى أنّها أفرغتها من جميع الغصون و الأوراق، و حتى أنّها أخذت تؤذى أبدانهم، بحيث تعالت صيحاتهم و استغاثاتهم.

و كلّما كان يصيبهم بلاء كانوا يلجأون إلى موسى عليه السلام و يسألونه أن يطلب من الله أن يرفع عنهم ذلك البلاء، فقد فعلوا هذا بعد الطوفان و الجراد أيضا، و قبل

موسى عليه السلام، وارتفع عنهم البلاء و لكنهم مع ذلك لم يكفوا عن لجاجهم و تعنتهم.

و فى المره الثالثه سلط عليهم القمل و القمل .

و أميا ما هو المراد من «القمل» فقد وقع فيه كلام بين المفسرين، و لكن الظاهر أنه نوع من الآفات الزراعيه التى تصيب الغلات، و تفسدها و تلتفها.

و عند ما خفت أمواج هذا البلاء، و استمرّوا فى عنادهم سلط الله عليهم فى المرحله الرابعه، الضفادع، فقد تزايد نسل الضفادع تزيادا شديدا حتى أنه تحول إلى بلاء عظيم عكّر عليهم صفو حياتهم: [\(١\)](#) .

ففى كل مكان كانت الضفادع الصغيره و الكبيره تراحمهم، حتى فى البيوت و الغرف و الموائد و أوانى الطعام، بحيث ضاقت عليهم الحياه بما رحبت، و لكنهم مع ذلك لم يخضعوا للحق، و لم يسلموا.

و فى هذا الوقت بالذات سلط الله عليهم الدم.

قال البعض: إنّ داء الرعاف (و هو نزيف الدم من الأنف) شاع بينهم كداء عام، و أصيب الجميع بذلك. و لكن أكثر الزواه و المفسرين ذهبوا إلى أن نهر النيل العظيم تغير و صار لونه كلون الدم، بحيث صار تعافه الطباع، و لم يعد قابلا للانتفاع.

و قال تعالى فى ختام ذلك: إنّ هذه الآيات و المعاجز الباهره-رغم أنها أظهرت لهم حقانيه موسى- و لكنهم استكبروا عن قبول الحق و كانوا مجرمين.

آيَاتٍ مُّفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ

و فى بعض الروايات نقرأ أن كل واحده من هذه البلايا كانت تقع فى سنه واحده، يعنى أنه أصابهم الطوفان فى سنه، و الجراد فى سنه أخرى، و الآفات الزراعيه فى سنه ثالثه، و هكذا. و لكن نقرأ فى بعض الروايات أنه كان يفصل بين كل بلاء و آخر شهر واحد لا أكثر و على أى حال، لا شك أنها كانت تقع بصوره

ص: ١٧٨

(١-١) الضفادع جمع ضفدعه و قد جاء ذكر هذا البلاء فى الآيه بصوره الجمع، و لكن البلايا السابقه جاءت فى صوره المفرد. و لعل هذا يفيد أن الله سلط عليهم أنواعا مختلفه من الضفادع.

منفصله، و فى فواصل زمنيه مختلفه (كما يقول القرآن: مفصلات) كى تكون هناك فرصه للتفكر و التنبه و اليقظه.

هذا و الجدير بالانتباه أننا نقرأ فى الروايات أن هذه البلايا كانت تصيب آل فرعون و قومه خاصه، و كان بنو إسرائيل فى معزل عن ذلك، و لا شك أنّ هذا نوع من الإعجاز، و لكن يمكن أن نبرر قسما من ذلك بتبرير علمى معقول، لأننا نعلم أنّ أجمل نقطه فى بلد مثل مصر هى شاطئ النيل و ضفتاه، و كانت هذه الشواطئ و الضفاف برمتها تحت تصرف الفرعونيين و القبطيين و محل سكناهم، فقصورهم الجميله الشامخه، و مزارعهم الخضراء و بساتينهم العامره، كانت فى هذه الضفاف.

و بطبيعته الحال كان نصيب بنى إسرائيل الذين كانوا عبيدا للفرعونيين و القبطيين هى النقاط النائية و الصحارى البعيده الشحيحة الماء.

و من الطبيعى أنّ الطوفان عند ما يحدث يكون الأقرب إلى الخطر ضفتا النيل و شاطئاه و من يسكنها، و كذا عند ما كانت الضفاف تخرج من الماء، و كذا انقلاب الماء إلى هيئه الدم كان يظهر فى مياه الفرعونيين الذين كانوا يسكنون إلى جانب النيل دون بنى إسرائيل، و أمّا الجراد و الآفات النباتيه فقد كانت تتعرض لها المناطق الزراعيه و البساتين الخضراء الوفيره المحصول فى الدرجه الأولى.

كل ما قيل فى الآيات السابقه جاء فى التوراه أيضا، و لكن ثمّة فروق واضححه بين محتويات القرآن الكريم و ما جاء فى التوراه راجع سفر الخروج الفصل السابع إلى العاشر من التوراه).

إشاره

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُورَةِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦)

التفسير

إشاره

نقض العهد المتكرر:

في هذه الآيات نلاحظ رد فعل الفرعونيين في مقابل النوائب و البلايا المتبته الإلهيه، و يستفاد من مجموعها أنهم عند ما كانوا يقعون في مخالف البلاء يتنبهون من غفوتهم بصورة مؤقتة شأنهم شأن جميع العصاه، و كانوا يبحثون عن حيله للتخلص منها، و يطلبون من موسى عليه السلام أن يدعو لهم، و يسأل الله في خلاصهم، و لكن بمجرد أن يزول عنهم طوفان البلاء و تهدأ أمواج الحوادث، ينسون كل شيء و يعودون إلى سيرتهم الأولى.

و في الآيه الأولى نقرأ: وَ لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ

إِنَّهُمْ عِنْدَ نَزُولِ الْبَلَاءِ يَلْجَأُونَ إِلَى مُوسَى وَيَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ يَدْعُوَ لِرَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ، وَأَنْ يَفِيَّ اللَّهُ بِمَا وَعَدَهُ لَهُ مِنْ اسْتِجَابِهِ دَعَائِهِ: بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ .

ثُمَّ يَقُولُونَ: إِذَا دَعَوْتَ فَرَفَعْنَا الْبَلَاءَ فَإِنَّا نَحْلِفُ لَكَ بِأَنْ نُؤْمِنَ بِكَ، وَنَرْفَعُ طُوقَ الْعِبَادِيَّةِ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: لِيُنْ كَشَفَتْ عَنَّا الرَّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَنَلْزِمَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ .

و لفظه «الرجز» استعملت في معاني كثيرة: البلايا الصعبة، الطاعون، الوثن و الوثنيه، وسوسه الشيطان، و الثلج أو البرد الصلب.

و لكن جميع ذلك مصاديق مختلفه لمفهوم يشكّل الجذر الأصلي لتلك المعاني، لأن أصل هذه اللفظه كما قال «الراغب» في «المفردات» هو الاضطراب.

و حسب ما قال «الطبرسي» في «مجمع البيان» مفهومه الأصلي هو الانحراف عن الحق.

و على هذا الأساس إطلاق لفظ «الرجز» على العقوبه و البلاء، لأنها تصيب الإنسان لانحرافه عن الحق، و ارتكاب الذنب، و كذا يكون الرجز نوعاً من الانحراف عن الحق، و الاضطراب في العقيدة، و لهذا أيضا يطلق العرب هذا اللفظ على داء يصيب الإبل، و يسبب اضطراب أرجلها حتى أنها تلجأ للمشى بخطوات قصيره، أو تمشى تاره و تتوقف تاره أخرى، فيقال لهذا الداء «الرجز» على وزن «المرض».

و السبب في إطلاق الرجز على الأشعار الحرييه، لأنها ذات مقاطع قصيره و متقاربه.

و على كل حال، فإن المقصود من «الرجز» في الآيات الحاضره هو العقوبات المنبهه الخمسه التي أشير إليها في الآيات السابقه، و إن احتمل بعض المفسرين أن يكون إشاره إلى البلايا الأخرى التي أنزلها الله عليهم و لم يرد ذكرها

فى الآيات السابقة، و منها الطاعون أو الثلج و البرد القاتل، الذى وردت الإشارة إليها فى التوراه.

هذا، و قد وقع كلام بين المفسرين فى المراد من عباره بِمَا عَهَدَ عِنْدَكَ و أنه ما هو المقصود من ذلك العهد الإلهى الذى أعطاه سبحانه لموسى؟ إن ما هو الأقرب إلى النظر هو أن المقصود من ذلك الوعد الإلهى هو أن يستجيب دعاءه إذا دعاه، و لكن يحتمل أيضا أن يكون المقصود هو عهد «النبوه» و تكون «الباء» باء القسم، يعنى نقسم عليك بحق مقام نبوتك إلا ما دعوت الله ليرفع عنا هذا البلاء.

و فى الآيه اللاحقه يشير إلى نقضهم للعهد و يقول: فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ (١).

إن جملة إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوهِ إشاره إلى أن موسى حدّد لهم وقتا و عيّن أمدا، فكان يقول لهم: فى الوقت الفلانى سيرفع هذا البلاء عنكم، حتى يتضح لهم أن ارتفاع ذلك البلاء عنهم ليس أمرا اتفاقيا و صدقه، بل هو بفضل دعائه و طلبه من الله تعالى.

إن جملة إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ و بالنظر إلى أن «ينكثون» فعل مضارع يدلّ على الاستمراريه يفيد أنه قد تكرر تعهدهم لموسى عليه السلام ثم نقضهم للعهد، حتى أصبح نقض العهد جزءا من برنامجهم و سلوكهم الدائم.

و آخر هذه الآيات تبين -من خلال جملتين قصيرتين- عاقبه كل هذا التعنت، و نقض العهد، فتقول بصوره مجمله فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ .

ثم تشرح هذا الانتقام و تذكر تفصيله فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (٢).

ص: ١٨٢

١-١) النكث على وزن مكث، يعنى فل الجبل المفتول، ثم أطلق على نقض الميثاق و العهد.

٢-٢) يستفاد من مصادر اللغه، و كتب الأحاديث أن المراد من اليم هو «البحر»، و هو يطلق على نهر النيل أيضا، أما أن لفظه اليم

إنهم لم يكونوا غافلين واقعا، لأن موسى عليه السلام ذكرهم مرارا و بالوسائل المختلفه المتعدده و نبيهم، بل أنهم تصرّفوا عمليا كما يفعل الغافلون، فلم يعتنوا بآيات الله أبدا.

ولا شك أن المقصود من الانتقام الإلهي ليس هو أن الله كان يقوم بردّ الفعل في مقابل أعمالهم، كما يفعل الأشخاص الحاقدون الذين ينطلقون في ردود أفعالهم من مواقع الحق و الانتقام، بل المقصود من الانتقام الإلهي هو أن الجماعه الفاسده و غير القابله للإصلاح لا يحق لها الحياه في نظام الخلق، و لا بدّ أن تمحى من صفحه الوجود.

و الانتقام في اللغه العربيه - كما أسلفنا - يعنى العقوبه و المجازاه، لا ما هو شائع في عرف الناس اليوم.

(٢)

هل هي عربيه أو سريانيه أو هيرغلوفيه، فقد وقع في ذلك كلام بين العلماء، يقول صاحب تفسير المنار و هو أحد علماء مصر المعروفين و الذى جمع وجوه اشتراك اللغات الهيروغلوفيه و العربيه و ألف كتاب المعجم الكبير في هذا المجال نقل: أنه وجد بعد التحقيق أن لفظه اليم كانت في اللغه المصريه تعنى البحر، و على هذا الأساس حيث أن هذه القصبه تتعلق بمصر لهذا استفاد القرآن من لغات المصريين في بيان هذه الحادثه.

ص: ١٨٣

اشاره

وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِيْنَ كَانُوْا يُسْتَضْعَفُوْنَ مَشَارِقَ الْاَرْضِ وَ مَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيْهَا وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسَيْنِ عَلٰى بَنِي إِسْرَائِيْلَ
بِمَا صَبَرُوْا وَ دَمَرْنَا مَا كَانْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ مَا كَانُوْا يَعْرِشُوْنَ (١٣٧)

التفسير

اشاره

قوم فرعون و المصير المؤلم:

بعد هلاك قوم فرعون، و تحطم قدرتهم، و زوال شوكتهم، و رث بنو إسرائيل الذين طال رزوحهم في أغلال الأسر و العبودية
أراضي الفراعنه الشاسعه و الآيه الحاضره تشير إلى هذا الأمر و أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِيْنَ كَانُوْا يُسْتَضْعَفُوْنَ مَشَارِقَ الْاَرْضِ وَ مَغَارِبَهَا الَّتِي
بَارَكْنَا فِيْهَا .

و«الإرث» كما أسلفنا يعنى فى اللغه المال الذى ينتقل من شخص إلى آخر من دون تجاره و معامله، سواء كان المنتقل منه حيا أو
ميتا.

و«يستضعفون» مشتقّه من ماده «الاستضعاف» و تطابق كلمه «الاستعمار» التى تستعمل اليوم فى عصرنا الحاضر، و مفهومها هو أن
يقوم جماعه بإضعاف

جماعه أخرى حتى يمكن للجماعه الأولى أن تستغل الجماعه الضعيفه فى سبيل مآربها و مصالحها، غايه ما هنالك أن هناك تفاوتاً بين هذه اللفظه و لفظه الاستعمار، و هو: أن الاستعمار ظاهره تعمير الأرض، و باطنه الإباده و التدمير، و لكن الاستضعاف ظاهره و باطنه واحد.

و التعبير بـ **كَانُوا يُسْتَضَعُونَ** إشاره إلى الفرعونيين كانوا يستبقون بنى إسرائيل فى حاله ضعف دائميه: ضعف فكرى، و ضعف أخلاقى، و ضعف اقتصادى، و من جميع الجهات و فى جميع النواحي.

و التعبير بـ **مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغَارِبَهَا** إشاره إلى الأراضى الواسعه العريضه التى كانت تحت تصرف الفرعونيين، لأن الأراضى الصغيره ليس لها مشارق و مغارب مختلفه، و بعبارة أخرى «ليس لها آفاق متعدده» و لكن الأراضى الواسعه جدا من الطبيعى أن يكون مشارق و مغارب بسبب كرويه الأرض فيكون التعبير بمشارق الأرض و مغاربها كناية عن أراضى الفرعونيين الواسعه العريضه جداً.

و جمله **بَارَكْنَا فِيهَا** إشاره إلى الخصب العظيم الذى كانت تتمتع به هذه المنطقه-يعنى مصر و الشام- التى كانت تعدّ آنذاك، و فى هذا الزمان أيضاً، من مناطق العالم الخصبه الكثيره الخيرات. حتى أن بعض المفسّرين كتب: إن بلاد الفراعنه فى ذلك العصر كانت واسعه جداً بحيث كانت تشمل بلاد الشام أيضاً.

و على هذا الأساس لم يكن المقصود من العبارة هو الحكومه على كل الكره الأرضيه، لأنّ هذا يخالف التاريخ حتماً. بل المقصود هو حكومه بنى إسرائيل على كل أراضى الفراعنه و بلادهم.

ثمّ يقول: **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسَيْنِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا** أى تحقق الوعد الإلهى لبنى إسرائيل بانتصارهم على الفرعونيين، بسبب صبرهم و ثباتهم.

و هذا هو الوعد الذى أشير إليه فى الآيات السابقه (الآيه ١٢٨ و ١٢٩ من نفس هذه السوره).

صحيح أن هذه الآيه تحدّثت عن بنى إسرائيل و نتيجة ثباتهم فى وجه الفرعونيين فقط، إلا أنه يستفاد من الآيات القرآنيه الأخرى أن هذا الموضوع لا يختص بقوم أو شعب خاص، بل إن كان شعب مستضعف نهض و حاول تخليص نفسه من مخالف الأسر و الاستعمار، استعان فى هذا السبيل بالثبات و الاستقامه، سوف ينتصر آخر المطاف و يحرر الأراضى التى احتلها الظلمه الجائرون.

ثم يضيف فى آخر الآيه: نحن الذين دمرنا قصور فرعون و قومه العظيمه، و أبنيتهم الجميله الشامخه، و كذا بساتينهم و مزارعهم العظيمه و دَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ مَا كَانُوا يَعْرِشُونَ .

و«صنع» كما يقول «الراغب» فى «المفردات» يعنى الأعمال الجميله، و قد وردت هذه اللفظه فى الآيه الحاضره بمعنى الهندسه الجمليه الرائعه التى كان يستخدمها الفرعونيين فى أبنيتهم.

و«ما يعرشون» فى الأصل تعنى الأشجار و البساتين التى تنصب بواسطه العروش و السقف، و لها جمال عظيم و روعه باهره.

و«دمرنا» من ماده «التدمير» بمعنى الإهلاك و الإباده.

و هنا يطرح السؤال التالى و هو: كيف أيدت هذه القصور و البساتين، و لماذا؟ و نقول فى الجواب: لا يبعد أن ذلك حدث بسبب زلازل و طوفانات جديده و أمّا الضروره التى قضت بهذا الفعل فهى أن جميع الفرعونيين لم يغرقوا فى النيل، بل غرق فرعون و جماعه من خواصه و عسكريه الذين كانوا يلاحقون موسى عليه السلام، و من المسلم أنه لو بقيت تلك الثروات العظيمه، و الإمكانيات الاقتصاديه الهائله بيد من بقى من الفراعنه الذين كان عدد نفوسهم فى شتى نواحي مصر كثيرا جدا لاستعادوا بها شوكتهم، و لقدروا على تحطيم بنى إسرائيل، أو الحاق الأذى بهم على الأقل. أمّا الإمكانيات و الوسائل فإن من شأنه أن يجردهم من أسباب الطغيان إلى الأبد.

إشاره

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَبٌ مِّمَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)

التفسير

إشاره

الاقتراح على موسى بصنع الوثن:

في هذه الآيات إشارة إلى جانب حساس آخر من قصه بني إسرائيل التي بدأت في أعقاب الإنتصار على الفرعونيين، و ذلك هو مسأله توجه بني إسرائيل إلى الوثنيه التي بحثت بداياتها في هذه الآيات، و جاءت نتيجهتها النهائيه بصوره مفضله في سوره طه من الآيه (٨٦) إلى (٩٧)، و بصوره مختصره في الآيه (١٤٨) فما بعد من هذه السوره.

و فى الحقيقه فإنه مع انتهاء قصه فرعون بدأت مشكله موسى الداخليه الكبرى، يعنى مشكلته مع جهله بنى إسرائيل، و الأشخاص المتعنتين و المعاندين.

و كانت هذه المشكله أشدّ على موسى عليه السلام و أنقل بمراتب كثيره- كما سيّضح من قضيه مواجهته لفرعون و الملاء و هذه هى خاصيه المشاكل و المجابهات الداخليه.

فى الآيه الأولى: وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ أَى النّيل العظيم.

و لكن فى مسيرهم مرّوا على قوم يخضعون للأصنام فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ .

و«عاكف» مشتقّه من ماده «العكوف» بمعنى التوجه إلى شىء و ملازمته المقارنه لاحترامه و تبجيله.

فتأثر الجهله الغافلون بهذا المشهد بشدّه إلى درجه قالوا لموسى من دون إبطاء: يا موسى اتّخذ لنا معبودا على غرار معبودات هؤلاء قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ .

فانزعج موسى عليه السلام من هذا الافتراح الأحقق بشدّه، و قال لهم: قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ .

بحوث

إشارة

و هنا لا بدّ من الانتباه إلى نقاط:

١- الجهل منشأ الوثنيه

يستفاد من هذه الآيه بوضوح أنّ منشأ الوثنيه هو جهل البشر بالله تعالى من جانب، و عدم معرفته بذاته المقدسه و أنّه لا يتصور له شبيه أو نظير أو مثيل.

و من جانب آخر جهل الإنسان بالعلل الأصلية لحوادث العالم الذى يتسبب

ص: ١٨٨

أحيانا فى أن ينسب الحوادث إلى سلسله من العلل الخرافيه و الخياليه و منها الأصنام.

و من جانب ثالث جهل الإنسان بما وراء الطبيعه، و قصور فكره إلى درجه أنه لا يرى و لا يؤمن إلا بالقضايا الحسيه.

إن هذه الجهالات تضافرت و تعاضدت، و صارت على مدار التاريخ منشأ للوثنيه و عباده الأصنام، و إلا فكيف يمكن أن يأخذ إنسان واع فاهم عارف بالله و صفاته، عارف بعلل الحوادث، عارف بعالم الطبيعه و عالم بما بعد الطبيعه. قطعه من الصخر منفصله من الجبل مثلا، فيستعمل قسما منها فى بناء بيته، أو صنع سلالم منزله، و يتخذ قسما آخر معبودا يسجد أمامه، و يسلم مقدراته بيده.

و الجدير بالذكر أننا نقرأ فى كلام موسى عليه السلام فى الآيه الحاضره كيف يقول لهم: أنتم غارقون فى الجهل دائما، (لأنّ تجهلون فعل مضارع و يدل غالبا على الاستمراريه) و بخاصه أن متعلق الجهل لم يبين فى الآيه، و هذا يدل على عموميه المجهول و شموليته.

و الاغرب من كل ذلك أنّ بنى إسرائيل بقولهم **اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا** أظهروا أن من الممكن أن يصير الشىء التافه ثمينا - بمجرّد اختيارهم و جعلهم و وضع اسم الصنم و المعبود عليه - و توجب عبادته التقرب إلى الله، و عدم عبادته البعد عنه تعالى، و تكون عبادته منشأ للخير و البركه، و احتقاره منشأ للضرر و الخساره، و هذه هى نهايه الجهل و الغفله.

صحيح أنّ مقصود بنى إسرائيل لم يكن إيجاد معبود يكون خالق العالم، بل كان مقصودهم هو: اجعل لنا معبودا نتقرب بعبادته إلى الله، و يكون مصدرا للخير و البركه، و لكن هل يمكن أن يصير شىء فاقدا للروح و التأثير مصدرا للخيرات و التأثيرات بمجرّد تسميته معبودا و إليها؟ هل الدافع لذلك العمل شىء سوى

٢- أرضيه الوثنيه عند بنى إسرائيل

لا شك أنه كانت لدى بنى إسرائيل قبل مشاهدته هذا الفريق من الوثنيين -أرضيه فكرية مساعده لهذا الموضوع، بسبب معاشرتهم الدائمة للمصريين الوثنيين، و لكن مشاهدته هذا المشهد الجديد كان بمثابة شراره كشفت عن دفائن جبلتهم، و على كل حال فإن هذه القضية تكشف لنا أن الإنسان إلى أى مدى يتأثر بعامل البيئه، فإن البيئه هى التى تستطيع أن تسوق الإنسان إلى الله، كما أن البيئه هى التى تسوقه إلى الوثنيه، و أن البيئه يمكن أن تصير سببا لأنواع المفسد و الشقاء، أو منشأ للصالح و الطهر. (و إن كان انتخاب الإنسان نفسه هو العامل النهائى) و لهذا اهتم الإسلام بإصلاح البيئه اهتماما بالغاً.

٣- الكفره بالنعمة فى بنى إسرائيل

الموضوع الآخر الذى يستفاد من الآيه بوضوح، أنه كان بين بنى إسرائيل أشخاص كثيرون ممن يكفرون النعمة و لا يشكرونها، فمع أنهم رأوا كل تلك المعجزات التى أتى بها موسى عليه السلام، و مع أنهم تمتعوا بكل تلك المواهب الإلهيه التى خصّهم الله بها، فإنّه لم ينقص عن هلاك عدوهم فرعون و نجاتهم من الغرق برهه من الزمن حتى نسوا كل هذه الأمور دفعه واحده، و طلبوا من موسى أن يصنع لهم أصناما ليعبدوها!! و نقرأ فى نهج البلاغه أن أحد اليهود اعترض على المسلمين عند أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: ما دفتتم نبيكم حتى اختلفتم فيه. فردّ عليه الإمام صلوات الله

ص: ١٩٠

عليه قائلًا:

«إِنَّمَا اختلفنا عنه لا-فيه، ولكنكم ما جفت أرجلكم من البحر حتى قلتُم لنبئكم اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهه، فقال إنكم قوم تجهلون».

أى أننا اختلفنا فى الأحاديث والأوامر التى وصلت إلينا عن نبينا، لا أننا اختلفنا حول النبى و نبوته، (فكيف بألوهيه الله) ولكنكم ما إن خرجتم من مياه البحر إلا واقترحتم على نبئكم أن اجعل لنا آلهه كما للوثنيين آلهه، وقال موسى: إنكم قوم تجهلون.

وفى الآيه اللاحقه نقرأ أن موسى عليه السلام-لتكميل حديثه لبنى إسرائيل-قال: إن هذه الجماعه الوثنيه التى ترونها سينتهى أمرها إلى الهلاك، وإن عملهم هذا باطل لا أساس له إن هؤلاء مُتَّبِرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

فعمل هذه الجماعه باطل، وجهودهم غير منتجه، كما أن مصير مثل هؤلاء القوم و كل قوم وثنيين و مشركين هو الهلاك و الدمار. (لأن «متبر» مشتق من التبار أى الهلاك).

ثم تضيف الآيه التوكيد: إن موسى عليه السلام قال أ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ .

يعنى إذا كان الدافع إلى عباده الله هو حسّ الشكر، فجميع النعم التى ترفلون فيها هى من الله، وإذا كان الدافع للعباده و العبوديه كون هذه العباده منشأ لأثر ما، فإن ذلك أيضا يرتبط بالله سبحانه، وعلى هذا الأساس مهما يكن الدافع، فليس سوى الله القادر المَنَّان يصلح للعباده و مستحقا لها.

وفى الآيه اللاحقه يذكر القرآن الكريم إحدى النعم الإلهيه الكبرى التى وهبها الله سبحانه لبنى إسرائيل، لبيعت بالالتفات إلى هذه النعمه الكبرى حسّ الشكر فيهم، وليعلموا أن اللائق بالخضوع و العباده هو الذات الإلهيه المقدسه فحسب، و ليس هناك أى دليل يسوّغ لهم الخضوع أمام أصنام لا تضر و لا تنفع شيئا أبدا.

ص: ١٩١

يقول في البدايه: تذكروا يوم أنجيناكم من مخالبا آل فرعون الذين كانوا يعذبونكم دائما وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ .

و«يسومون» مشتقّه من ماده «سوم» و تعنى فى الأصل - كما قال «الراغب» فى «المفردات» - الذهاب فى طلب شىء، كما يستفاد من القاموس تضمنه لمعنى الاستمرار و المضى أيضا، و على هذا يكون معنى يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ أَنَّهُمْ كانوا يعذبونكم بتعذيبات قاسيه باستمرار.

ثمّ تمشيا مع أسلوب القرآن فى بيان الأمور بتفصيل بعد إجمال شرح هذا العذاب المستمر، و هو: قتل الأبناء، و استبقاء النساء للخدمة و الاسترقاق يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ، وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ .

و قد كان فى هذا اختبار عظيم من الله لكم وَ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ .

و سياق الآيه يكشف عن أن هذه العبارة قالها موسى عليه السلام عن الله لنبى إسرائيل عند ما رغبوا بعد عبورهم بحر النيل فى الوثنيه و عباده الأصنام.

صحيح أن بعض المفسرين احتمل أن يكون المخاطبون فى هذه الآيه هم يهود عصر الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم، لأنّ التفسير الأوّل يحتاج إلى تقدير شىء بأن يقال: إن الآيه كانت فى الأصل هكذا: قال موسى: قال ربكم... و هذا خلاف الظاهر.

و لكن مع الالتفات إلى أنّه لو كان المخاطبون فى هذه الآيه هم يهود عصر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم لانقطع ارتباط الآيه بما يسبقها و ما يلحقها بصورة كامله، و كانت هذه الآيه كالجمله المعترضه، يبدو للنظر أن التفسير الأوّل أصح.

هذا و لا بدّ - ضمنا - من الالتفات إلى أن نظير هذه الآيه مرّ فى سورة البقره الآيه (٤٩) مع فارق جدا بسيط، و لمزيد التوضيح راجع تفسير الآيه (٤٩) من سورة البقره.

اشاره

وَإِعْدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)

التفسير

اشاره

الميعاد الكبير:

في هذا الآيه اشاره إلى مشهد من مشاهد حياه بنى إسرائيل، و مشكله موسى عليه السلام معهم، و ذلك هو قصه ذهاب موسى إلى ميقات ربه، و تلقى أحكام التوراه عن طريق الوحي و كلامه مع الله، و اصطحاب جماعه من كبار بنى إسرائيل و شخصياتهم إلى الميقات لمشاهده هذه الحادته و إثبات أن الله لا يمكن أن يدرك بالأبصار، و التي ذكرت بعد قصه عباده بنى إسرائيل للعجل و انحرافهم عن مسير التوحيد، و ضجه السامري العجيبه.

يقول تعالى أولاً: وَإِعْدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .

و كلمه «الميقات» مشتقه من ماده «الوقت» بمعنى الموعد المضروب للقيام

بعمل ما، و يطلق عاده على الزمان، و لكنّه قد يطلق على المكان الذى الذى يجب أن يتمّ العمل فيه، مثل «مِقات الحج» يعنى المكان الذى لا يجوز أن يجتازه أحد إلا محرما.

ثمّ ذكرت الآيه أنّ موسى استخلف هارون و أمره بالإصلاح فى قومه، و أن لا يتبع سبيل المفسدين: **وَ قَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ .**

بحوث

اشاره

و هنا عدّه نقاط ينبغى التوقف عندها و الالتفات إليها:

١- لماذا التفكيك بين الثلاثين و العشر؟

إنّ أوّل سؤال يطرح نفسه فى مجال الآيه الحاضره، هو: لماذا لم يبيّن مقدار الميقات بلفظ واحد هو الأربعين، بل ذكر أنّه واعدّه ثلاثين ليله ثمّ أتمّه بعشر، فى حين أنّه تعالى ذكر ذلك الموعد فى لفظ واحد هو أربعين فى الآيه (١٥١) من سوره البقره.

ذكر المفسّرون تفسيرات عديده لهذا التفكيك، و الذى يبدو أقرب إلى النظر و أكثر انسجاما مع أحاديث أهل البيت عليهم السلام هو أنّه و إن كان الواقع هو أربعين يوما، إلاّ أنّه فى الحقيقه وعد الله موسى فى البدايه ثلاثين يوما ثمّ مدّده عشره أيام أخرى، اختبارا لبنى إسرائيل كى يعرف المنافقون فى صفوف بنى إسرائيل.

فقد روى عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام أنّه قال: إنّ موسى عليه السلام لما خرج وافدا إلى ربّه واعدهم ثلاثين يوما، فلما زاده الله على الثلاثين عشرا قال قومه، قد أخلفنا

موسى فصنعوا ما صنعوا (من عباده العجل) (١).

و أما أن هذه الأيام الأربعين صادفت أيام أى شهر من الشهور الإسلاميه، فيستفاد من بعض الروايات أنها بدأت من أول شهر ذى القعدة و ختمت باليوم العاشر من شهر ذى الحجه (عيد الأضحى). و قد جاء التعبير بلفظ أربعين ليله فى القرآن الكريم لا أربعين يوما، فالظاهر أنه لأجل أن مناجاه موسى لربه كانت تتم غالبا فى الليالى.

٢- كيف نصب موسى عليه السلام هارون قائدا و إماما؟

السؤال الثانى الذى يطرح نفسه هنا، هو: إن هارون كان نبيا، فكيف نصبه موسى عليه السلام خليفه له و إماما و قائد لبنى إسرائيل؟ و الجواب على هذا السؤال يتضح بعد الالتفات إلى أن مقام النبوه شىء و مقام الإمام شىء آخر، و لقد كان هارون نبيا، و لكن لم يكن قد أنيط به مقام الإمامه العامه لبنى إسرائيل، بل كان مقام الإمامه و منصب القيادة العامه خاصا بموسى عليه السلام، و لكنّه عند ما قصد أن يفارق قومه إلى ميقات ربه اختار هارون إماما و قائدا.

٣- لماذا طلب موسى عليه السلام من أخيه الإصلاح و عدم أتباع المفسدين؟

السؤال الثالث الذى يطرح نفسه هنا، هو: لماذا قال موسى عليه السلام لأخيه: أصلح و لا تتبع سبيل المفسدين، مع أن هارون نبى معصوم من المستحيل أن يتبع طريق المفسدين و ينهج نهجهم الفاسد؟ نقول فى الجواب: إن هذا- فى الحقيقه- نوع من التوكيد للإلتفات نظر أخيه

ص: ١٩٥

إلى أهميه مكانته فى بنى إسرائيل. و لعله أراد بهذا الموضوع أن يوضح لبنى إسرائيل و يفهمهم أن عليهم أن يمثلوا لتعاليم هارون و نصائحه و مواعظه الحكيمه، و لا يستثقلوا أوامرهم و نواهيهم، و لا يعتبروا تلك الأوامر و النواهي و كذلك قياده هارون لهم دليلا- على قصرهم و صغرهم... بل يفعلون كما يفعل هارون حيث كان رغم منزلته البارزه و مقام نبوته تابعا و مطيعا لنصائح موسى عليه السلام.

٤- ميقات واحد أو مواقيت متعدده؟

السؤال الزايع الذى يطرح نفسه هنا، هو: هل ذهب موسى إلى ميقات ربّه مرّه واحده، و هى هذه الأربعون يوما، و تلقى أحكام التوراه و شريعته السماويه عن طريق الوحي فى هذه الأربعين يوما، كما اصطحب معه جماعه من شخصيات بنى إسرائيل معه كممثلين عن قومه، ليشهدوا نزول أحكام التوراه عليه، و ليفهمهم أن الله لا يدرك بالأبصار أبدا، فى هذه الأربعين يوما نفسها؟ أم أنّه كانت له مع الله أربعينات متعدده، أحدها لأخذ الأحكام، و فى الأخرى اصطحب كبار قومه، و له -احتمالا- أربعون ثالثه لمقاصد و مآرب أخرى غير هذه، (كما يستفاد من سفر الخروج من التوراه الفعلية الفصل ١٩ إلى ٢٤).

و هنا أيضا وقع كلام بين المفسرين، و لكن الذى يبدو أنّه أقرب إلى الذهن - بملاحظه الآيه المبحوثة و الآيات السابقه عليها و اللاحقه لها- أن جميع هذه الأمور ترتبط بحادثه واحده لا متعدده، لأنّه بغض النظر عن أن عبارته الآيه اللاحقه و لَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا تناسب تماما وحده هاتين القصتين، فإنّ الآيه (١٤٥) من نفس هذه السوره تفيد- بجلاء- أن قصه ألواح التوراه، و استلام أحكام هذه الشريعه قد تمّت جميعها فى نفس هذا السفر أيضا.

أشار كثير من المفسرين الشيعة و السنه- فى ذيل الآيه المبحوثه- إلى حديث «المنزله» المعروف، بفارق واحد هو: أنّ الشيعة اعتبروا هذا الحديث من الأدله الحثيه و الصريحه على خلافه على عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم مباشره و بلا فصل. و لكى يتضح هذا البحث ندرج هنا أولاً أسانيد و نص هذا الحديث باختصار، ثم نبحت فى دلالتة، ثم نتكلم حول الحملات التى وجهها بعض المفسرين إلى الشيعة.

أسانيد حديث المنزله:

-١

روى جمع كبير من صحابه النبى صلى الله عليه و آله و سلم حول غزوه تبوك: أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم خرج إلى تبوك و استخلف علياً فقال: أ تخلفنى فى الصبيان و النساء؟ قال: «ألا ترضى أن تكون منى بمنزله هارون من موسى إلا أنه ليس نبى بعدى».

و هذا النص ورد فى أوثق الكتب الحديثيه لدى أهل السنّه، يعنى صحيح البخارى و عن سعد بن أبى وقاص. (١)

و

قد روى هذا الحديث- أيضاً- فى صحيح مسلم الذى يعدّ من المصادر الرئيسيه عن أهل السنّه، فى باب «فضائل الصحابه» عن سعد أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم قال لعلى عليه السلام: «أنت منى بمنزله هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى» (٢).

فى هذا الحديث الذى نقله صحيح مسلم أعلن عن الموضوع بصوره كليته، و لم يرد فيه ذكر عن غزوه تبوك.

و هكذا نقل حديث رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم هذا فى سياق ذكر غزوه تبوك بعد ذكر الحديث بصوره كليته، بصوره مستقلة كما جاء فى صحيح البخارى.

ص: ١٩٧

١- ١) صحيح البخارى، الجزء السادس، الصفحه ٣، طبعه دار إحياء التراث العربى.

٢- ٢) صحيح مسلم، المجلد الرابع، الصفحه ١٨٧، طبعه دار إحياء التراث العربى.

و قد ورد عين هذا الموضوع في سنن ابن ماجه أيضا (١).

و قد أضيف في سنن الترمذى مطلب آخر، و هو أنّ معاويه قال لسعد ذات يوم: ما يمنعك أن تسبّ أبا تراب؟! قال: أمّا ما ذكرت ثلاثا قالهنّ رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم فلن أسبّه، لئن تكون لى واحده منهن أحبّ إلّى من حمر النعم. ثمّ عدد الأمور الثلاثه فكان أحدها ما قاله رسول الله لعلّى فى تبوك و هو

قوله: «أمّا ترضى أن تكون منى بمنزله هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبوه بعدى» (٢).

و قد أشير إلى هذا الحديث فى عشره موارد من مسند أحمد بن حنبل، تاره ذكرت فيه غزوه تبوك، و تاره من دون ذكر غزوه تبوك بل بصورة كليّه (٣).

و قد روى فى أحد هذه المواضع أنّه أتى ابن عباس-بينما هو جالس-تسعه رهط، فقالوا: يا ابن عباس، إمّا أن تقوم معنا، و إمّا أن تخلونا هؤلاء، فقال ابن عباس: بل أقوم معكم (إلى أن قال) و خرج بالناس (أى النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم) فى غزوه تبوك ثمّ نقل كلام رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم لعلّى عليه السلام و أضاف:

«إنّه لا ينبغي أن أذهب إلاّ و أنت خليفتى» (٤).

و جاء نفس هذا الحديث فى «خصائص النسائى» (٥) و هكذا فى مستدرک الحاكم (٦)، و فى تاريخ الخلفاء للسيوطى (٧) و فى الصواعق المحرقة لابن حجر (٨)

ص: ١٩٨

١- (١) المجلد الأوّل، الصفحة ٤٣، طبعه دار إحياء الكتب العربيه.

٢- (٢) المجلد الخامس، الصفحة ٦٣٨، طبعه المكتبه الإسلاميه لصاحبها الحاج رياض الشيخ.

٣- (٣) مسند أحمد بن حنبل، المجلد الأوّل، الصفحة ١٧٣ و ١٧٥ و ١٧٧ و ١٧٩ و ١٨٣ و ١٨٥ و ٢٣١، و المجلد السّادس، الصفحة ٣٦٩ و ٤٣٨.

٤- (٤) مسند أحمد، المجلد الأوّل، الصفحة ٢٣١.

٥- (٥) خصائص النسائى، ص ٤ و ١٤.

٦- (٦) المجلد الثالث، الصفحة ١٠٨ و ١٠٩.

٧- (٧) المجلد الأوّل، الصفحة ٦٥.

٨- (٨) الصفحة ١٧٧.

و سيره ابن هشام (١) و السيره الحلبيه (٢) و كتب كثيره اخرى.

و نحن نعلم أن هذه الكتب من الكتب المعروفه، و المصادر الأولى لأهل السنه.

و الجدير بالذكر أن هذا الحديث لم يروه «سعد بن أبي وقاص» عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم وحده، بل رواه -أيضا- مجموعه كبيره من الصحابه الذين يتجاوز عددهم عشرين شخصا منهم: «جابر بن عبد الله» و «أبو سعيد الخدرى» و «أسماء بنت عميس» و «ابن عباس» و «أم سلمه» و «عبد الله بن مسعود» و «أنس بن مالك» و «زيد بن أرقم» و «أبو أيوب» و «الأجدر بالذكر أن هذا الحديث رواه عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم «معاويه بن أبي سفيان» و «عمر بن الخطاب» أيضا.

و

ينقل «محب الدين الطبرى» فى «ذخائر العقبى» أنه جاء رجل إلى معاويه فسأله عن مسأله فقال: سل عنها على بن أبى طالب فهو أعلم. قال: يا أمير المؤمنين (و يقصد به معاويه) جوابك فيها أحب إلى من جواب على.

قال: بشما قلت، لقد كرهت رجلا كان رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يغرّه بالعلم غرا، و قد قال له: أنت منى بمنزله هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدى، و كان عمر إذا أشكل عليه أخذ منه (٣).

و

روى أبو بكر البغدادي فى «تاريخ بغداد» بسنده عن عمر بن الخطاب أنه رأى رجلا -يسب عليا عليه السلام فقال: إننى أظنك منافقا، سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يقول:

«إنما على منى بمنزله هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدى» (٤).

ص: ١٩٩

١- ١) السيره النبويه، المجلد الثالث، الصفحه ١٦٣ طبعه مصر.

٢- ٢) السيره الحلبيه، المجلد الثالث، الصفحه ١٥١ طبعه مصر.

٣- ٣) ذخائر العقبى، الصفحه ٧٩، طبعه مكتبه القدس، الصواعق المحرقة، ص ١٧٧، طبعه مكتبه القاهره.

٤- ٤) تاريخ بغداد، المجلد السابع، الصفحه ٤٥٢ طبعه السعاده.

النقطه الأخرى، إنَّ النَّبىَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -و خلافا لما يتصوّره البعض- لم يقل هذا البحث فى على عليه السلام فى غروره تبوك فقط، بل قال هذه العبارة فى عدّه مواضع منها:

١- فى المؤاخاه الأولى: يعنى فى المرحه الأولى التى آخى فيها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بين المهاجرين و اختار عليا عليه السلام فى هذه المؤاخاه لنفسه و

قال: «أنت منى بمنزله هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدى» (١).

٢- فى يوم المؤاخاه الثانيه: و كانت فى المدينه بعد الهجره بخمسه أشهر، حيث آخى بين المهاجرين و الأنصار، و اصطفى لنفسه منهم عليا و اتخذه من دونهم أخاه، و

قال له: «أنت منى بمنزله هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدى و أنت أخى و وارثى» (٢).

٣- أم سليم- التى كانت على جانب من الفضل و العقل، و كانت تعدّ من أهل السوابق، و هى من الدعاه إلى الإسلام، و استشهد أبوها و أخوها بين يدي النَّبىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و فارقت زوجها لأنّه أبى أن يعتنق الإسلام، و كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يزورها فى بيتها بين الحين و الآخر و يسليها- تروى أم سليم هذه

أنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال لها ذات يوم: «إنَّ عليا لحمه من لحمى و دمه من دمى، و هو منى بمنزله هارون من موسى» (٣).

-٤-

قال ابن عباس: سمعت عمر بن الخطاب يقول: كَفَّوْا عَنْ ذِكْرِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَدْ رَأَيْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِيهِ خِصَالًا لَنْ تَكُونَ لِي وَاحِدَةً مِنْهُمْ فِي آلِ الْخَطَّابِ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، كُنْتُ أَنَا وَ أَبُو بَكْرٍ وَ أَبُو عُبَيْدَةَ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَانْتَهَيْنَا إِلَى بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ وَ عَلِيٍّ

ص: ٢٠٠

١- (١) كنز العمال، الحديث ٩١٨، المجلد الخامس، الصفحة ٤٠، و المجلد السادس، الصفحة ٣٩٠.

٢- (٢) منتخب كنز العمال، (فى حاشيه مسند أحمد)، المجلد الخامس، من مسند أحمد، الصفحة ٣١.

٣- (٣) كنز العمال، المجلد السادس، الصفحة ١٦٤.

قائم على الباب، فقلنا: أردنا رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم فقال: يخرج إليكم، فخرج رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم فسرنا إليه، فاتكأ على بن أبي طالب ثم ضرب بيده منكبه ثم قال:

«أنت (يا علي) أول المؤمنين إيماناً، وأولهم إسلاماً، وأنت منّي بمنزلة هارون من موسى» (١).

٥-

روى النسائي في كتاب «الخصائص» أن علياً وزيدا وجعفر اختصموا في من يكفل ابنه حمزه، وكان كل واحد منهم يريد أن يكفلها هو دون غيره فقال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم لعلي: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى» (٢).

٦-

روى جابر بن عبد الله أنه عند ما أمر رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم بسد جميع أبواب المنازل التي كانت مشرعه إلى المسجد إلا باب بيت علي عليه السلام، قال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم: «إنه يحل لك في المسجد ما يحل لي، وإنك بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» (٣).

هذه الموارد السنّة النبويّة هي غير غزوه تبوك، أخذناها برمتها من المصادر المعروفة لأهل السنّة، وإلا فإن هناك في الروايات المرويّة عن طريق الشيعة موارد أخرى قال فيها رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم هذه العبارة في شأن علي عليه السلام أيضاً. من مجموع ذلك يستفاد -بوضوح و جلاء- أنّ حديث المنزلة لم يكن مختصاً بغزوه تبوك، بل هو أمر عام و دائم في شأن علي عليه السلام.

و من هنا يتّضح أيضاً -أنّ ما تصوره بعض علماء السنّة مثل «الأمدي» من أن هذا الحديث يتكفل حكماً خاصاً في مجال خلافه علي عليه السلام و أنّه يرتبط بظرف غزوه تبوك خاصّه، و لا يرتبط بغيره من الظروف و الأوقات، تصوّر باطل أساساً، لأنّ النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم كثر هذه العبارة في مناسبات متنوّعة ممّا يفيد أنّه كان حكماً عاماً.

ص: ٢٠١

١-١) كنز العمال، المجلد السادس، الصفحة ٣٩٥.

٢-٢) خصائص النسائي، الصفحة ١٩.

٣-٣) ينابيع المودة، آخر باب ١٧، الصفحة ٨٨ الطبعة الثانيه دار الكتب العراقيه.

محتوى حديث المنزله:

لو درسنا-بموضوعيه و تجرّد-هذا الحديث،و تجنّبنا الأحكام المسبّقه و التحججات الناشئه من العصبيه،لاستفدنا من هذا الحديث أنّ عليّا عليه السلام كان له-بموجب هذا الحديث-جميع المنازل التي كانت لهارون في بنى إسرائيل-إلاّ-النبوه-لأنّ لفظ الحديث عام،والاستثناء(إلاّ أنّه لا نبى بعدى)يؤكد هو الآخر هذه العموميّه،و لا يوجد أى قيد أو شرط فى هذا الحديث يخصصه و يقيدّه.

و على هذا الأساس يمكن أن يستفاد من هذا الحديث الأمور التاليه:

- ١-إنّ الإمام عليا عليه السلام أفضل الأئمّه بعد النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم كما كان لهارون مثل هذا المقام.
- ٢-إنّ عليا وزير النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم و معاونه الخاص و عضده،و شريكه فى قيادته، لأنّ القرآن أثبت جميع هذه المناصب لهارون عند ما يقول حاكيا عن موسى قوله: **وَ اجْعَلْ لى وَ زيراً مِنْ أَهْلِى هَارُونَ أَخى، اشْدُدْ بِهِ أَزْرى وَ أَشْرِكْهُ فى أَمْرِى (١)**.
- ٣-إنّه كان لعلى عليه السلام-مضافا إلى الأخوه الإسلاميه العامه مقام الأخوه الخاصه و المعنويه للنّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم.
- ٤-إنّ عليّا عليه السلام كان خليفه رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم،و مع وجوده لم يكن أى شخص آخر يصلح لهذا المنصب.

أسئله حول حديث المنزله:

لقد أورد بعض المتعصبين إشكالات و اعتراضات على هذا الحديث و التمسك به لإثبات خلافه على لرسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم بلا فصل.

ص: ٢٠٢

بعض الإشكالات و الاعتراضات واهيه جدا إلى درجة لا تصلح للطرح على بساط المناقشه، بل لا يملك المرء عند السماع بها إلا إن يتأسف على حال البعض كيف صدّتهم الأحكام المسبقه غير المدروسه عن قبول الحقائق الواضحه؟ أمّا البعض الآخر من الإشكالات القابله للمناقشه و الدراسه فنطرحها على بساط البحث تكميلا لهذه الدراسه:

الإشكال الأول: إن هذا الحديث يبين فقط-حكما خاصا محدودا، لأنه ورد في غزوه تبوك، و ذلك عند ما انزعج على عليه السلام من استبقائه في المدينه بين النساء و الصبيان، فسأله رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بهذه العبارة:

و على هذا الأساس كان المقصود هو: إنك وحدك الحاكم و القائد لهذه النسوه و الصبيان دون غيرك.

و قد اتضح الجواب على هذا الإشكال من الأبحاث السابقه-بجلاء-و تبين أنه-على خلاف تصور المعترضين-لم يرد هذا الحديث في واقعه واحده، و لم يصدر في واقعه تبوك فقط، بل صدر في موارد عديده على أساس كونه يتكفل حكما كليًا، و قد أشرنا إلى سبعة موارد و مواضع منها مع ذكر أسانيدها من مؤلفات علماء أهل السنه.

هذا مضافا إلى أنّ بقاء عليّ عليه السلام في المدينه لم يكن أمرا بسيطا يهدف المحافظه على النساء و الصبيان فقط، بل لو كان الهدف هو هذا، لتيسر للآخرين القيام به، و إنّ النبي لم يكن ليترك بطل جيشه البارز في المدينه لهدف صغير، و هو يتوجه إلى قتال امبراطوريه كبرى (هي امبراطوريه الروم الشرقيه).

إنّ من الواضح أنّ الهدف كان هو منع أعداء الرساله الكثيرين الساكنين في أطراف المدينه و المنافقين القاطنين في نفس المدينه، الذين كانوا يفكرون في استغلال غيبه النبي الطويله لاجتياح المدينه قاعده الإسلام، و لهذا عمد رسول

اللّٰهُ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَنْ يَخْلَفَ فِي غَيْبَتِهِ شَخْصِيَّةً قَوِيَّةً يُمْكِنُهُ أَنْ يَحْفَظَ هَذَا الْمَرْكَزَ الْحَسَّاسَ، وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةُ سِوَى عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الإشكال الثّاني: نحن نعلم- كما اشتهر في كتب التاريخ أيضا- أنّ هارون توفي في عصر موسى عليه السلام نفسه، ولهذا لا يثبت التشبيه بهارون أن عليّا عليه السلام خليفه رسول اللّٰهُ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بعد وفاته صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

و لعل هذا هو أهم إشكال أورد على هذا البحث و التمسك به، و لكن جملة

«إلاّ أنّه لا نبي بعدى» تجيب على هذا الإشكال بوضوح، لأنّه إذا كان كلام

النّبي صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الذي يقول: أنت منّي بمنزله هارون من موسى، خاصا بزمان حياه النّبي صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لما كانت هناك ضروره إلى جملة

«إلاّ أنّه لا نبي بعدى» لأنّه إذا اقتص هذا الكلام بزمان حياه النّبي صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لكان التحدث حول من يأتي بعده غير مناسب أبدا (إذ يكون لهذا الاستثناء- كما اصطلح في العربية- طابع الاستثناء المنقطع الذي هو خلاف الظاهر).

و على هذا الأساس يكشف وجود هذا الاستثناء- بجلاء- أنّ كلام النّبي صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ناظر إلى مرحله ما بعد وفاته، غايه ما هنالك و لكى لا يلتبس الأمر، و لا يعتبر أحد عليّا عليه السلام نبيا بعد رسول اللّٰهُ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال: إنّ لك جميع هذه المنازل و لكنك لن تكون نبيا بعدى.

فيكون مفهوم كلام النّبي صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هو أن لك جميع ما لهارون من المناصب و المنازل، لا في حياتي فقط، بل أنّ هذه المنازل تظلّ مستمره و باقيه لك إلاّ مقام النّبوه.

و بهذه الطريقه يتّضح أن تشبيه علي عليه السلام بهارون، إنّما هو من حيث المنازل و المناصب، لا من حيث مدّه استمرار هذه المنازل و المناصب، و لو أنّ هارون كان يبقى حيا لكان يتمتع بمقام الخلفه لموسى و مقام النّبوه معا.

و مع ملاحظه أنّ هارون كان له- حسب صريح القرآن- مقام الوزاره

والمعاونه لموسى، وكذا مقام الشركه فى أمر القياده (تحت إشراف موسى) كما أنه كان نبيا، تثبت جميع هذه المنازل لعلى عليه السلام إلا النبوه، حتى بعد وفاه النبى صلى الله عليه وآله وسلم بشهادته عبارته

(إلا أنه لا نبى بعدى).

الإشكال الثالث: إن الاستدلال بهذا الحديث يستلزم أنه كان لعلى عليه السلام منصب الولاية و القياده حتى فى زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى حين لا يمكن أن يكون هناك إمامان وقائدان فى عصر واحد.

ولكن مع الالتفات إلى النقطه التاليه يتضح الجواب على هذا الإشكال أيضا، وهى أن هارون كان له -من دون شك- مقام قياده بنى إسرائيل حتى فى عصر موسى عليه السلام، ولكن لا -بقياده مستقله، بل كان قائدا يقوم بممارسه وظائفه تحت إشراف موسى. وقد كان على عليه السلام فى زمان النبى صلى الله عليه وآله وسلم معاونا للنبى فى قياده الأُمّه أيضا، وعلى هذا الأساس يصير قائدا مستقلا بعد وفاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وعلى كل حال، فإنّ حديث المنزله الذى هو من حيث الأسانيد من أقوى الأحاديث و الروايات الإسلاميه التى وردت فى مؤلفات جميع الفرق الإسلاميه بلا استثناء، إنّ هذا الحديث يوضح لأهل الإنصاف من حيث الدلاله أفضليه على عليه السلام على الأُمّه جمعاء، و أيضا خلافته المباشره (و بلا فصل) بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولكن مع العجب العجاب أنّ البعض لم يكتف برفض دلاله الحديث على الخلافه، بل قال: إنه لا يتضمّن ولا يثبت أدنى فضيله لعلى عليه السلام... وهذا حقّا أمر محيّر.

اشاره

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَكَانَ فَسُوفَ نَرَاكَ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)

التفسير

اشاره

المطالبه برؤيه الله:

في هذه الآيات والآيات اللاحقه يشير سبحانه إلى مشهد مثير آخر من مشاهد حياه بنى إسرائيل، و ذلك عند ما طلب جماعه من بنى إسرائيل من موسى عليه السلام-بالحاح و إصرار- أن يروا الله سبحانه، و أنهم لن يؤمنوا به إذا لم يشاهدوه، فاختار موسى سبعين رجلا من قومه و اصطحبهم معه إلى ميقات ربّه، و هناك رفع طلبهم إلى الله سبحانه، فسمع جوابا أوضح لبنى إسرائيل كل شىء في هذا الصعيد.

و قد جاء قسم من هذه القصّه فى سوره البقره الآيه (٥٥) و(٥٦)، و قسم آخر

منه فى سورة النساء الآيه (١٥٣)، وقسم ثالث فى الآيات المبحوثة هنا فى الآيه (١٥٥) من هذه السوره.

فى الآيات الحاضره يقول أولًا: **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ .**

و لكن سرعان ما سمع الجواب من جانب المقام الربوبى: **كَلَّا، لَنْ تَرَانِي أَبَدًا قَالَ لَنْ تَرَانِي وَ لَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا . (١)**

فلما رأى موسى هذا المشهد الرهيب تملكه الرعب إلى درجه أنه سقط على الأرض مغمى عليه و خزر موسى صعقاً .

و عند ما أفاق قال: رباه سبحانك، أنبت إليك، و أنا أول من آمن بك فلما أفاق قال سبحانك ثبت إليك و أنا أول المؤمنين .

بحوث

إشاره

و فى هذه الآيه نقاط ينبغى التوقف عندها و الالتفات إليها:

١- لماذا طلب موسى رؤيه الله؟

إن أول سؤال يطرح نفسه هنا هو: كيف طلب موسى عليه السلام- هو النبى العظيم و من أولى العزم- رؤيه الله و هو يعلم جيداً أن الله ليس بجسم، و ليس له مكان، و لا هو قابل للمشاهده و الرؤيه، و الحال أن مثل هذا الطلب لا يلىق حتى بالأفراد العاديين من الناس؟

ص: ٢٠٧

١- ١) «دك» فى الأصل بمعنى سوى الأرض، و على هذا فالمقصود من عبارته «جعلته دكاً» هو أنه حطم الجبال و سواها كالأرض و جاء فى بعض الروايات أن الجبل تناثر أقساماً، سقط كل قسم منه فى جانب أو غار فى الأرض نهائياً.

صحيح أنّ المفسّرين ذكروا أجوبه مختلفه على هذا السؤال، ولكن أوضح الأ-جوبه هو أنّ موسى عليه السلام طرح مطلب قومه، لأنّ جماعه من جهله بنى إسرائيل أصرّوا على أنّ يروا الله حتى يؤمنوا(و الآية ١٥٣ من سوره النساء خير شاهد على هذا الأمر)وقد أمر موسى عليه السلام من جانب الله أنّ يطرح مطلب قومه هذا على الله سبحانه حتى يسمع الجميع الجواب الكافي، وقد صرّح بهذا فى روايه مرويه عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام فى كتاب عيون أخبار الرضا أيضا (١).

و من القرائن الواضحه التى تؤيد هذا التفسير ما نقرأه فى الآية(١٥٥)من نفس هذه السوره،من أنّ موسى عليه السلام قال بعد ما حدث ما حدث: **أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا**.

فيتّضح من هذه الجملة أنّ موسى عليه السلام لم يطلب لنفسه مثل هذا الطلب إطلاقاً، بل لعلّ الرجال السبعين الذين صعدوا معه إلى الميقات هم أيضا لم يطلبوا مثل هذا الطلب غير المعقول و غير المنطقى،إنّهم كانوا مجرد علماء،و مندوبين من جانب بنى إسرائيل خرجوا مع موسى عليه السلام لينقلوا فيما بعد مشاهداتهم لجماعات الجهله و الغافلين الذين طلبوا رؤيه الله سبحانه و تعالى و مشاهدته.

٢- هل يمكن رؤيه الله أساسا؟

نقرأ فى الآية الحاضره أنّ الله سبحانه قال لموسى عليه السلام: **أُنظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نُرَآئِي** فهل مفهوم هذا الكلام هو أنّ الله قابل للرؤيه أساسا؟ الجواب هو أنّ هذا التعبير هو كناية عن استحاله مثل هذا الموضوع،مثل جمله(حتى يلج الجمل فى سمّ الخياط)و حيث أنّه كان من المعلوم أنّ الجبل يستحيل أن يستقر فى مكانه عند تجلّى الله له،لهذا ذكر هذا التعبير.

ص: ٢٠٨

لقد وقع كلام كثير بين المفسّرين فى هذا الصعيد، و لكن ما يبدو للنظر من مجموع الآيات أنّ الله أظهر إشعاعه من أحد مخلوقاته على الجبل (و تجلّى آثاره بمنزله تجليه نفسه) و لكن ماذا كان ذلك المخلوق؟ هل كان إحدى الآيات الإلهيه العظيمه التى بقيت مجهوله لنا إلى الآن، أو أنّه نموذج من قوه الذرّه العظيمه، أو الأمواج الغامضه العظيمه التأثير و الدفع، أو الصاعقه العظيمه الموحشه التى ضربت الجبل و أوجدت برقًا خاطفا للأبصار و صوتا مهيبا رهيبا و قوّه عظيمه جدا، بحيث حطمت الجبل و دكّته دكّا (١)؟! و كأنّ الله تعالى أراد أن يرى- بهذا العمل- شيئين لموسى عليه السلام و بنى إسرائيل:

الأول: أنّهم غير قادرين على رؤيه ظاهره جد صغيره من الظواهر الكونيه العظيمه، و مع ذلك كيف يطلبون رؤيه الله الخالق.

الثانى: كما أن هذه الآيه الإلهيه العظيمه مع أنّها مخلوق من المخلوقات لا أكثر، ليست قابله للرؤيه بذاتها، بل المرئى هو آثارها، أى الرجه العظيمه، و المسموع هو صوتها المهيب. أمّا أصل هذه الأشياء أى تلك الأمواج الغامضه أو القوه العظيمه فلا هى ترى بالعين، و لا هى قابله للإدراك بواسطه الحواس الأخرى، و مع ذلك هل يستطيع أحد أن يشك فى وجود مثل هذه الآيه، و يقول:

حيث أننا لا نرى ذاتها، بل ندرك فقط آثارها فلا يمكن أن نؤمن بها.

فإذا يصح الحكم هذا حول مخلوق من المخلوقات، فكيف يصح أن يقال عن الله تعالى: بما أنّه غير قابل للرؤيه، إذن لا يمكننا الإيمان به، مع أنّه ملأ

ص: ٢٠٩

١- ١) الصاعقه عباره عن التبادل الكهربائى بين قطع الغيوم و الكره الأرضيه، فالسحب ذات الكهريه الموجبه عند ما تقترب إلى الأرض ذات الكهريه السلبيه تندلع شراره من بينهما يعنى السطح المجاور من الكره الأرضيه، و هى خطره مدمره فى الغالب، و لكن البرق و الرعد ينشآن من التبادل الكهربائى بين قطعتين من السحاب أحدهما موجب، و الآخر سلبى، و حيث أنّهما يحدثان فى السماء لذلك لا يشكّان خطرا فى العاده إلا للطائرات. و السفن الفضائيه.

آثاره كل مكان؟ و هناك احتمال آخر فى تفسير هذه الآيه و هو أنّ موسى عليه السلام طلب لنفسه هذا المطلب حقيقه، و لكن لم يكن مقصوده مشاهدته بالعين التى تستلزم جسمانيته تعالى، و تنافى نبوه موسى عليه السلام، بل المقصود هو نوع من الإدراك الباطنى و المشاهده الباطنيه، نوع من الشهود الكامل الروحى و الفكرى، لأنّه كثيرا ما تستعمل الرؤيه فى هذا المعنى مثلما نقول: «أنا أرى فى نفسى قدره على القيام بهذا العمل» فى حين أنّ القدره ليست شيئا قابلا للرؤيه، بل المقصود هو أنّى أجد هذه الحاله فى نفسى بوضوح.

كان موسى عليه السلام يريد أن يصل إلى هذه المرحله من الشهود و المعرفة، فى حين أن الوصول إلى هذه المرحله لم يكن ممكنا فى الدنيا، و إن كان ممكنا فى عالم الآخره الذى هو عالم الشهود.

و لكن الله تعالى أجاب موسى عليه السلام قائلا: إنّ مثل هذه الرؤيه غير ممكنه لك، و لإثبات هذا المطلب تجلّى للجبل، فتحطّم الجبل و تلاشى، و بالتالى تاب موسى من هذا الطلب (١).

و لكن هذا التفسير مخالف لظاهر الآيه المبحوثه هنا، و يتطلب ارتكاب التجوّز من جهات عديده (٢) هذا مضافا إلى أنّه ينافى بعض الروايات الواردة فى تفسير الآيه أيضا، فالحق هو التفسير الأول.

ص: ٢١٠

١- ١) ملخص من تفسير الميزان، المجلد الثامن، الصفحه ٢٤٩ إلى ٢٥٤.

٢- ٢) فهو مخالف لمفهوم الرؤيه، و لإطلاق جمله «لن ترانى» و جمله «أ تهلكتنا بما فعل السفهاء منا» هذا بغض النظر عن أن طلب الشهود الباطنى ليس أمرا سيئا ليتوب منه موسى، فقد طلب إبراهيم من الله مثل هذا المطلب فى مجال المعاد أيضا و لبي الله طلبه. و لو أن الجواب فى مجال الشهود الباطنى لله بالنفى لما كان دليلا على المؤاخذه و العقاب.

٤- مم تاب موسى عليه السلام؟

إن آخر سؤال يطرح نفسه هنا هو: أن موسى عليه السلام بعد أن أفاق قال: تَبَّتْ إِلَيْكَ فِي حِينِ أَنَّهُ لَمْ يَرْتَكِبْ إِثْمًا أَوْ مَعْصِيَهُ، لِأَنَّ هَذَا الطَّلَبَ كَانَ مِنْ جَانِبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَانَ طَرَحَهُ بِتَكْلِيفٍ مِنَ اللَّهِ، فَهُوَ أَدَى وَاجِبِهِ إِذْنٌ، ثُمَّ إِذَا كَانَ هَذَا الطَّلَبُ لِنَفْسِهِ وَكَانَ مَرَادُهُ الشُّهُودَ الْبَاطِنِيَّ لَمْ يَحْسَبْ هَذَا الْعَمَلُ إِثْمًا؟؟ وَ لَكِنْ يُمْكِنُ الْجَوَابُ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ مِنْ جَانِبَيْنِ:

الأول: أن موسى طلب مثل هذا الطلب بالنيابة عن بني إسرائيل، ومع ذلك طلب من الله أن يتوب عليه، وأظهر الإيمان.

الآخر: أن موسى عليه السلام وإن كان مكلفًا بأن يطرح طلب بني إسرائيل، ولكنّه عند ما تجلّى ربّه للجبل و اتّضحت حقيقة الأمر، انتهت مدّة هذا التكليف، وفي هذا الوقت لا بدّ من العوده إلى الحاله الأولى يعنى الرجوع إلى ما قبل التكليف، وإظهار إيمانه حتى لا تبقى شبهه لأحد، وقد بيّن ذلك بجمله، إني تَبَّتْ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ .

٥- الله غير قابل للرؤية مطلقا

إنّ هذه الآيه من الآيات التي تشهد بقوه و جلاء أنّ الله غير قابل للرؤية و المشاهده مطلقا، لأنّ كلمه «لن» حسب ما هو مشهور بين اللغويين للنفي الأبدى، و على هذا الأساس يكون مفهوم جمله لَنْ تَرَانِي إِنَّكَ لَا تَرَانِي لَا فِي هَذَا الْعَالَمِ وَلَا فِي الْعَالَمِ الْآخِرِ.

و لو أنّ أحدا شكّك -افتراضا- في أن يكون «لن» للنفي التأيدي يدل إطلاق الآيه، و كون نفي الرؤية ذكر من دون قيد أو شرط على أن الله غير قابل للرؤية في مطلق الزمان و جميع الظروف.

إنّ الأدله العقليه هي الأخرى تهدينا إلى هذه الحقيقه، لأنّ الرؤية تختص

بالأجسام.

و على هذا الأساس، إذا جاء فى الأحاديث و الأخبار الإسلاميه أو الآيات القرآنيه عبارته «لقاء الله» فإن المقصود هو المشاهده بعين القلب و العقل، لأنّ القرينه العقليه و النقليه أفضل شاهد على هذا الموضوع و قد كان لنا أبحاث أخرى فى ذيل الآيه (١٠٢) من سوره الأنعام فى هذا الصعيد.

ص: ٢١٢

اشاره

قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَىٰ النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَ بَكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَ كَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥)

التفسير

اشاره

ألواح التوراه:

و فى النهايه أنزل الله شرائع و قوانين دينه على موسى عليه السلام.

ففى البدايه: قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَىٰ النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَ بَكَلامِي .

فإذا كان الأمر كذلك فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ .

فهل يستفاد من هذه الآيه أن التكلم مع الله كان من امتيازات موسى الخاصه به دون بقية الأنبياء، يعنى اصطفتيتك لمثل هذا الأمر من بين الأنبياء؟ الحق أن هذه الآيه ليست بصدد إثبات مثل هذا الأمر، بل إن هدف الآيه-بقرينه ذكر الرسالات التى كانت لجميع الأنبياء- هو بيان امتيازين كبيرين

لموسى على الناس: أحدهما تلقى رسالات الله و تحمّلها، و الآخر التكلّم مع الله، و كلا هذين الأمرين من شأنهما تقويه مقام قيادته بين أمته.

ثم أضاف تعالى واصفا محتويات الألواح التى أنزلها على موسى عليه السلام بقوله:

وَ كَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ

ثم أمره بأن يأخذ هذه التعاليم و الأوامر مأخذ الجد، و يحرص عليها بقوه فخذها بقوه .

و أن يأمر قومه أيضا بأن يختاروا من هذه التعاليم أحسنها و أمر قومك يأخذوا بأحسنها .

كما يحذرهم بأن مخالفه هذه الأوامر و التعاليم و الفرار من المسؤوليات و الوظائف تستتبع نتائج مؤلمه، و أن عاقبتها هى جهنم و سوف يرى الفاسقون مكانهم سارىكم دار الفاسقين .

بحوث

إشارة

ثم إن هاهنا نقاط عديدة ينبغى التوقف عندها و الالتفات إليها:

١- نزول الألواح على موسى

إن ظاهر الآيه الحاضره يفيد أن الله تعالى أنزل ألواحا على موسى عليه السلام قد كتب فيها شرائع التوراه و قوانينها، لا أنه كانت فى يدى موسى عليه السلام ألواح ثم انتقشت فيها هذه التعاليم بأمر الله.

و لكن ماذا كانت تلك الألواح، و من أى ماده؟ إن القرآن لم يتعرض لذكر هذا الأمر، و إنما أشار إليها بصوره الإجمال و بلفظه «الألواح» فقط، و هذه الكلمه جمع «لوح»، و هى مشتقه من ماده «لاح يلوح» بمعنى الظهور و السطوع، و حيث

أن المواضيع تتضح و تظهر بكتابتها على صفحته، تسمى الصفحة لوحا (١).

و لكن ثمة احتمالات مختلفه فى الزوايات و أقوال المفسرين حول كيفية و جنس هذه الألواح، و حيث إنها ليست قطعيه أعرضنا عن ذكرها و التعرض لها.

٢- كيف كلم الله موسى؟

يستفاد من الآيات القرآنيه المتنوعه أن الله تعالى كلم موسى عليه السلام، و كان تكليم الله لموسى عن طريق خلق أمواج صوتيه فى الفضاء أو فى الأجسام، و ربما انبعثت هذه الأمواج الصوتيه من خلال «شجره الوادى الأيمن» و ربما من «جبل طور» و تبلغ مسمع موسى فما ذهب اليه البعض من أن هذه الآيات تدل على جسمانيه الله تعالى جمودا على الألفاظ تصوّر خاطئ بعيد عن الصواب.

على أنه لا شك فى أن ذلك التكلم كان من جانب الله تعالى بحيث أن موسى عليه السلام كان لا يشك عند سماعه له فى أنه من جانب الله، و كان هذا العلم حاصلًا لموسى، إما عن طريق الوحي و الإلهام أو من قرائن أخرى.

٣- عدم وجوب جميع تعاليم الألواح

يستفاد من عبارته من كل شئ مؤعظه أنه لم تكن جميع المواعظ و المسائل موجوده فى ألواح موسى عليه السلام لأن الله يقول: وَ كَتَبْنَا لَهُ فِي الْمَلَأَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً و هذا لأجل أن دين موسى عليه السلام لم يكن آخر دين، و لم يكن موسى عليه السلام خاتم الأنبياء، و من المسلم أن الأحكام الإلهيه التى نزلت كانت فى حدود ما يحتاجه الناس فى ذلك الزمان، و لكن عند ما وصلت البشريه إلى آخر مرحله حضاريه للشرايع السماويه نزل آخر دستور إلهى يشمل جميع حاجات

ص: ٢١٥

و تتضح من هذا أيضا عله تفضيل مقام على عليه السلام على مقام موسى عليه السلام فى بعض الروايات (١)، و هى أن عليا عليه السلام كان عارفا بجميع القرآن، الذى فيه تبيان كل شىء نزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء فى حين أن التوراه لم يرد فيها إلا بعض المسائل.

٤- هل فى الألواح تعاليم حسنه و أخرى غير حسنه؟

إن ما نقرؤه فى الآيه وَ أُمِرَ قَوْمَكَ بِأَخْذُوا بِأَحْسَنِهَا لا يعنى أنه كانت فى الألواح موسى تعاليم «حسنة» و أخرى «سيئه» و أنهم كانوا مكلفين بأن يأخذوا بالحسنة و يتركوا السيئه، أو كان فيها الحسن و الأحسن، و كانوا مكلفين بالأخذ بالأحسن فقط، بل ربما تأتى كلمه «أفعل التفضيل» بمعنى الصفه المشبهه، و الآيه المبحوثه من هذا القبيل ظاهرا، يعنى أن «الأحسن» هنا بمعنى «الحسن» و هذا إشاره إلى أن جميع تلك التعاليم كانت حسنه و جيده.

ثم إن هناك احتمالا آخر فى الآيه الحاضره- أيضا- و هو أن الأحسن بمعنى أفعل التفضيل، و هو إشاره إلى أنه كان بين تلك التعاليم أمور مباحه (مثل القصاص) و أمور أخرى و صفت بأنها أحسن منها (مثل العفو) يعنى: قل لقومك و من اتبعك ليختاروا ما هو أحسن ما استطاعوا، و للمثال يرجحوا العفو على القصاص (إلا فى موارد خاصه) (٢).

٥- فى مجال قوله: سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ الظاهر أن المقصود منها هو جهنم، و هى مستقر كل أولئك الذين يخرجون من طاعه الله، و لا يقومون

ص: ٢١٦

١- (١) للوقوف على هذه الروايات يراجع تفسير نور الثقلين، المجلد الثانى، الصفحه ٦٨.

٢- (٢) و يحتمل أيضا أن الضمير فى «أحسنها» يرجع إلى «القوه» أو «الأخذ بقوه» و هو إشاره إلى أن عليهم أن يأخذوا بها بأفضل أنواع الجديه و القوه و الحرص.

بوظائفهم الإلهية.

ثم إنَّ بعض المفسِّرين احتمل أيضا أن يكون المقصود هو أنكم إذا خالفتم هذه التعاليم فإنكم سوف تصابون بنفس المصير الذي أصيب به قوم فرعون و الفسقه الآخرون، و تتبدل أرضكم إلى دار الفاسقين (١).

ص: ٢١٧

١-١) تفسير المنار المجلد التاسع الصفحة ١٩٣.

إشاره

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا
وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا - ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ
حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧)

التفسير

إشاره

مصير المتكبرين:

البحث في هاتين الآيتين هو في الحقيقة نوع من عملية استنتاج من الآيات الماضية عن مصير فرعون و ملئه و العصاه من بنى إسرائيل، فقد بين الله في هذه الآيات الحقيقة التاليه و هي: إذا كان الفراعنه أو متمردو بنى إسرائيل لم يخضعوا للحق مع مشاهدته كل تلك المعاجز و البيئات، و سماع كل تلك الحجج و الآيات الإلهيه، فذلك بسبب أننا نصرّف المتكبرين و المعاندين للحق - بسبب أعمالهم - عن قبول الحق.

و بعبارة أخرى: إنَّ الإصرار على تكذيب الآيات الإلهية قد ترك في نفوسهم و أرواحهم أثرا عجيبا، بحيث خلق منهم أفرادا متصلين مغلقين دون الحق، لا يستطيع نور الهدى من النفوذ إلى قلوبهم.

و لهذا يقول أولًا: سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .

و من هنا يتضح أنَّ الآيه الحاضره لا تنافى أبدا الأدله العقلية حتى يقال بتأويلها كما فعل كثير من المفسرين-إنَّها سنه إلهيه أن يسلب الله من المعاندين الألداء توفيق الهدايه بكل أشكاله و أنواعه فهذه هي خاصيه أعمالهم القبيحه أنفسهم، و نظرا لانتساب جميع الأسباب إلى الله الذي هو علّه العلل و مسبب الأسباب في المآل نسبت إليه.

و هذا الموضوع لا هو موجب للجبر، و لا مستلزم لأي محذور آخر، حتى نعمد إلى توجيه الآيه بشكل من الأشكال.

هذا، و لا بدّ من الالتفات-ضمنيا-إلى أنَّ ذكر عبارة بِغَيْرِ الْحَقِّ بعد لفظه:

التكبر إنّما هو لأجل التأكيد، لأنَّ التكبر و الشعور بالاستعلاء على الآخرين و احتقار عباد الله يكون دائما بغير حق، و هذا التعبير يشبه الآيه (٦١) من سوره البقره، عند ما يقول سبحانه: وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ فَقِيد بغير الحق هنا قيد توضيحي، و توكيدي لأنَّ قتل الأنبياء هو دائما بغير حق.

خاصّه أنّها أردفت بكلمه «في الأرض» الذي يأتي بمعنى التكبر و الطغيان فوق الأرض، و لا شك أنّ مثل هذا العمل يكون دائما بغير حق.

ثمّ أشار تعالى إلى ثلاثه أقسام من صفات هذا الفريق «المتكبر المتعنت» و كيفية سلب توفيق قبول الحق عنهم.

الأولى قوله تعالى: وَ إِنَّ يَرَوْا كَلِمَآءَ آيِهِ لَآ يُؤْمِنُوا بِهَا ۗ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ وَ لَوْ رَأَوْا جَمِيعَ الْمَعَاجِزِ وَ الْآيَاتِ وَ الثَّانِيهِ، وَ إِنَّ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ

و الثالته إَنهم على العكس وَ إِن يَرَوْا سَبِيلَ الْعَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا .

بعد ذكر هذه الصفات الثلاث الحاكيه برمتها عن تصلب هذا الفريق تجاه الحق، أشار إلى عللها و أسبابها، فقال: ذَلِك بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ .

و لا- شك أَن التّكذيب لآيات الله مرّه-أو بضع مرات-لا- يستوجب مثل هذه العاقبه، فباب التوبه مفتوح فى وجه مثل هذا الإنسان، و إنما الإصرار فى هذا الطريق هو الذى يوصل الإنسان إلى نقطه لا يعود معها يميّز بين الحسن و القبيح، و المستقيم و المعوج، أى يسلب القدره على التمييز بين «الرشد» و «الغى».

ثم تبين الآيه اللاحقه عقوبه مثل هؤلاء الأشخاص و تقول: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ لِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ .

و «الحبط» يعنى بطلان العمل و فقدانه للأثر و الخاصيه، يعنى أَن مثل هؤلاء الأفراد حتى إذا عملوا خيرا فَإِنَّ عملهم لن يعود عليهم بنتيجه (و للمزيد من التوضيح حول هذا الموضوع راجع ما كتبناه عند تفسير الآيه ٢١٧ من سوره البقره).

و فى ختام الآيه أضاف بأن هذا المصير ليس من باب الانتقام منهم، إنما هو نتيجه أعمالهم هم، بل هو عين أعمالهم ذاتها و قد تجسّمت أمامهم هل يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ؟! إِنَّ هذه الآيه نموذج آخر من الآيات القرآنيه الداله على تجسّم الأعمال، و حضور أعمال الإنسان خيرها و شرها يوم القيامه.

إشارة

وَإِتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَ لَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَ يَعْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)

التفسير

إشارة

اليهود و عبادتهم للعجل:

في هذه الآيات يقصّ القرآن الكريم إحدى الحوادث المؤسفة، و في نفس الوقت العجيبه التي وقعت في بنى إسرائيل بعد ذهاب موسى عليه السلام إلى ميقات ربّه، و هي قصّه عبادتهم للعجل التي تمّت على يد شخص يدعى «السامري» مستعينا بحلى بنى إسرائيل و ما كان عندهم من آلات الزينه.

إنّ هذه القصّه مهمّه جدّا بحيث إنّ الله تعالى أشار إليها في أربع سور، في سوره البقره الآيه (٥١) و (٥٤) و (٩٢) و (٩٣)، و في سوره النساء الآيه (١٥٣)، و الأعراف الآيات المبحوثة هنا، و في سوره طه الآيه (٨٨) فما بعد.

على أنّ هذه الحادّته مثل بقيه الظواهر الاجتماعيه لم تكن لتحدث من دون مقدمه و أرضيّه، فبنوا إسرائيل من جهه قضاوا سنين مديده فى مصر و شاهدوا كيف يعبد المصريون الأبقار أو العجول. و من جانب آخر عند ما عبروا النيل شاهدوا فى الضفه الأخرى مشهدا من الوثنيه، حيث وجدوا قوما يعبدون البقر، و كما مرّ عليك فى الآيات السابقه طلبوا من موسى عليه السلام صنما كتلك الأصنام، و لكن موسى عليه السلام وبّخهم و ردّهم، و لا مهم بشدّه.

و ثالث، تمديد مدّه ميقات موسى عليه السلام من ثلاثين إلى أربعين، الذى تسبب فى أن تشيع فى بنى إسرائيل شائعه وفاه موسى عليه السلام بواسطه بعض المنافقين، كما جاء فى بعض التفاسير.

و الأمر الرابع، جهل كثير من بنى إسرائيل بمهاره السامريّ فى تنفيذ خطته المشؤمه، كل هذه الأمور ساعدت على أن تقبل أكثرية بنى إسرائيل فى مدّه قصيره على الوثنيه، و يلتفوا حول العجل الذى أوجده لهم السامريّ للعباده.

و فى الآيه الحاضره يقول القرآن الكريم أولا: إنّ قوم موسى عليه السلام بعد ذهابه إلى ميقات ربّه صنعوا من حلّيتهم عجلا، و كان مجرد تمثال لا روح فيه، و لكنّه كان له صوت كصوت البقر، و اختاروه معبودا لهم: وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوَارٌ وَ مع أنّ هذا العمل (أى صنع العجل من الحلّي) صدر من السامريّ (كما تشهد بذلك آيات سوره طه) إلاّ أنّه مع ذلك نسب هذا العمل إلى بنى إسرائيل لأنّ كثيرا منهم ساعد السامريّ فى هذا العمل و عاضده، و بذلك كانوا شركاء فى جريمته، فى حين رضى بفعله جماعه أكبر منهم.

و ظاهر هذه الآيه و إن كان يفيد فى بدء النظر - أنّ جميع قوم موسى شاركوا فى هذا العمل، إلاّ أنّه بالتوجه إلى الآيه (١٥٩) من هذه السوره، التى تقول: وَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعدُّونَ يستفاد أنّ المراد من الآيه المبحوثة

هنا ليس كلهم، بل أكثره عظيمه منهم سلكوا هذا السبيل، و ذلك بشهادة الآيات القادمه التي تعكس عجز هارون عن مواجهتها و صرفها عن ذلك.

كيف كان للعجل الذهبى خوار؟

و«الخوار» هو الصوت الخاص الذى يصدر من البقر أو العجل، و قد ذهب بعض المفسرين إلى أنّ السامرى بسبب ما كان عنده من معلومات وضع أنابيب خاصه فى باطن صدر العجل الذهبى، كان يخرج منها هواء مضغوط فيصدر صوت من فم ذلك العجل الذهبى شبيه بصوت البقر.

و يقول آخرون: كان العجل قد وضع فى مسير الريح بحيث كان يسمع منه صوت على أثر مرور الريح على فمه الذى كان مصنوعا بهيئه هندسيه خاصه.

أما ما ذهب إليه جماعه من المفسرين من أن السامرى أخذ شيئا من تراب من موضع قدم جبرئيل و صبّه فى العجل فصار كائنا حيا، و أخذ يخور خوارا طبيعيا فلا شاهد عليه فى آيات القرآن الكريم، كما سيأتى بإذن الله فى تفسير آيات سوره طه.

و كلمه «جسدا» شاهد على أن ذلك العجل لم يكن حيوانا حيا، لأنّ القرآن يستعمل هذه اللفظه فى جميع الموارد فى القرآن الكريم بمعنى الجسم المجرد من الحياه و الروح (١) و بغض النظر عن جميع هذه الأمور يبعد أن يكون الله سبحانه قد أعطى الرجل المنافق (مثل السامرى) مثل تلك القدره التى يستطيع بها أن يأتى بشيء يشبه معجزه النبى موسى عليه السلام، و يحيى جسما ميتا، و يأتى بعمل يوجب ضلال الناس حتما و لا يعرفون وجه بطلانه و فساده.

ص: ٢٢٣

١-١) راجع الآيات (٨) من سوره الأنبياء، و (٣٤) من سوره ص.

أما لو كان العجل بصورة تمثال ذهبي كانت أدله بطلانه واضحه عندهم، و كان من الممكن أن يكون وسيله لاختبار الأشخاص لا شيء آخر.

و النقطة الأخرى التى يجب الانتباه إليها، هى أنّ السامرى كان يعرف أن قوم موسى عليه السلام قد عانوا سنين عديده من الحرمان، مضافا إلى أنّهم كانت تغلب عليهم روح الماديه- كما هو الحال فى أجيالهم فى العصر الحاضر- و يولون الحلّى و الذهب احتراماً خاصاً، لهذا صنع عجلا من ذهب حتى يستقطب إليه اهتمام بنى إسرائيل من عبيد الشروه.

أما أن هذا الشعب الفقير المحروم من أين كان له كل ذلك الذهب و الفضة؟ فقد جاء فى الروايات أن نساء بنى إسرائيل كنّ قد استعرن من الفرعونيين كميه كبيره من الحلّى و الذهب و الفضة لإقامه أحد أعيادهن، ثم حدثت مسأله الغرق و هلاك آل فرعون، فبقيت تلك الحلّى عند بنى إسرائيل (١).

ثم يقول القرآن الكريم معاقبا و موبّخا: ألم ير بنو إسرائيل أن هذا العجل لا يتكلم معهم و لا يهديهم لشيء، فكيف يعبدونه؟ ألم يروا أنّه لا يكلمهم و لا يهديهم سبيلاً.

يعنى أن المعبود الحقيقى هو من يعرف-على الأقل-الحسن و القبيح، و تكون له القدره على هدايه أتباعه، و يتحدث إلى عبده و يهديهم سواء السبيل، و يعرفهم على طريقه العباده.

و أساسا كيف يسمح العقل البشرى بأن يعبد الإنسان شيئا ميتا صنعه و سواه بيده، حتى لو استطاع-افتراضا-أن يبدل الحلّى إلى عجل واقعى فإنّه لا يلقى به أن يعبده، لأنّه عجل يضرب ببلادته المثل.

إنّهم فى الحقيقه ظلموا بهذا العمل أنفسهم، لهذا يقول فى ختام الآيه:

ص: ٢٢٤

١-١) راجع تفسير مجمع البيان، ذيل الآيه المبحوثه هنا.

بيد أنه برجوع موسى عليه السلام إليهم، و اتضح الأمر عرف بنو إسرائيل خطاهم، و ندموا على فعلهم، و طلبوا من الله أن يغفر لهم، و قالوا: إذا لم يرحمنا الله و لم يغفر لنا فإننا لا شك خاسرون و لَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَ يُغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

و جملة سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ أى عند ما عثروا على الحقيقه، أو عند ما وقعت نتيجة عملهم المشؤومه بأيديهم، أو عند ما سقطت كل الحيل من أيديهم و لم يبق بأيديهم شىء فى الأذب العربى كناية عن الندامه، لأنه عند ما يقف الإنسان على الحقائق، و يطلع عليها، أو يصل إلى نتائج غير مرغوب فيها، أو تغلق فى وجهه أبواب الحيله، فإنه يندم بطبيعته الحال، و لهذا يكون الندم من لوازم مفهوم هذه الجملة.

و على كل حال، فقد ندم بنو إسرائيل من عملهم، و لكن الأمر لم ينته إلى هذا الحد، كما نقرأ فى الآيات اللاحقه.

إشارة

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَوْا عَفْوَني وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تَشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ أَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)

التفسير

إشارة

رده فعل شديدته تجاه عباده العجل:

في هاتين الآيتين بين تعالى بالتفصيل ما جرى بين موسى عليه السلام و بين عبده العجل عند عودته من ميقاته المشار اليه في الآيه السابقه. فهاتان الآيتان تعكسان رده فعل موسى عليه السلام الشديده التي أدت إلى يقظه هذه الجماعه.

يقول في البدء: و لما عاد موسى عليه السلام إلى قومه غضبان مّا صنع قومه من عباده العجل، قال لهم: ضيعتم ديني و أسأتم الخلافه و لَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ

إن هذه الآية تفيد بوضوح أن موسى عند رجوعه إلى قومه من الميقات و قبل أن يلتقى بنى إسرائيل كان غضبان أسفا، وهذا لأجل أن الله تعالى كان قد أخبر موسى عليه السلام بأنه اختبر قومه من بعده و قد أضلهم السامري قال فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٢).

ثم إن موسى عليه السلام قال لهم: أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ .

للمفسرين كلام كثير في تفسير هذه الجملة، و قد ذكروا احتمالات عديدة مختلفه، إلا أن ظاهر الآيات يفيد أن المراد هو أنكم تعجلتم في الحكم بالنسبه إلى أمر الله تعالى في قضيه تمديد مدّة الميقات من ثلاثين إلى أربعين، فاعتبرت عدم مجيئى فى المده المقرره-أولا-دليلا على موتى، فى حين كان يتعين عليكم أن تترثوا و تنتظروا قليلا ريثما تمرّ أيام ثم تتضح الحقيقه.

و فى هذا الوقت بالذات، أى عند ما واجه موسى عليه السلام هذه الأزمه الخطيره من حياه بنى إسرائيل، و كان الغضب الشديد يسر بل كل كيانه، و يثقل روحه حزن عميق، و قلق شديد على مستقبل بنى إسرائيل، لأنّ التخریب و الإفساد أمر سهل، و ربّما استطاع شخص واحد تخریب كيان عظيم و لكن الإصلاح و التعمير أمر صعب و عسير جدّا. خاصّه أنه إذا سرت فى شعب جاهل متعنت نغمه مخالفه شاذه، وافقت هوى و رغبه، فإنّ محوها لا شك لن يكون أمرا ممكنا و سهلا.

فهنا لا بدّ أن يظهر موسى عليه السلام غضبه الشديد و يقوم بالحدّ الأعلى من ردّ الفعل و السخط، كى يوقظ الأفكار المخدّره لدى بنى إسرائيل، و يوجد انقلابا فى

ص: ٢٢٧

١ - ١) «الأسف» كما يقول الراغب فى «المفردات» بمعنى الحزن المقرون بالغضب، و هذه الكلمه قد تستعمل فى أحد المعنيين أيضا. و تعنى فى الأصل أن ينزعج الإنسان من شىء بشده، و من الطبيعى أن هذا الانزعاج إذا كان بسبب من هو دونه ظهر مقرونا بالغضب، و برده فعل غاضبه، و إذا كان ممن هو فوقه ممن لا يستطيع مقاومه ظهر من صورته الحزن المجرد، و قد نقل عن ابن عباس أيضا أن للحزن و الغضب أصل واحد و إن اختلفا لفظا.

٢ - ٢) سورة طه، ٨٥.

ذلك المجتمع الذي انحرف عن الحق، إذ العوده إلى الحق و الصواب عسيره فى غير هذه الصوره.

إنّ القرآن يستعرض ردّه فعل موسى الشديده فى قبال ذلك المشهد و فى تلك الأزمه، إذ يقول: إنّ موسى ألقى ألواح التوراه التى كانت بيده، و عمد إلى أخيه هارون و أخذ برأسه و لحيته و جرهما إلى ناحيته ساخطا غاضبا.

و كما يستفاد من آيات قرآنيه أخرى، و بخاصّه فى سورہ طه، أنّه علاوه على ذلك لام هارون بشدّه، و صاح به، لماذا قصّيرت فى المحافظه على عقائد بنى إسرائيل و خالفت أمرى (١).

و فى الحقيقه كان هذا الموقف يعكس -من جانب- حاله موسى عليه السلام النفسيه، و انزعاجه الشديد تجاه و ثنيه بنى إسرائيل و انحرافهم، و من جانب آخر كان ذلك وسيله مؤثره لهزّ عقول بنى إسرائيل الغافيه، و الفاتهم إلى بشاعه عملهم.

و بناء على هذا إذا كان إلقاء ألواح التوراه فى هذا الموقف قبيحا -فرضا- و كان الهجوم على أخيه لا يبدو كونه عملا صحيحا، و لكن مع ملاحظه الحقيقه التاليه، و هى أنّه من دون إظهار هذا الموقف الانزعاجى الشديد لم يكن من الممكن إلفات نظر بنى إسرائيل إلى بشاعه خطئهم... و لكان من الممكن أن تبقى رواسب الوثنيه فى أعماق نفوسهم و أفكارهم... إنّ هذا العمل لم يكن فقط غير مذموم فحسب، بل كان يعد عملا واجبا و ضروريا.

و من هنا يتّضح أنّنا نحتاج أبدا إلى التبريرات و التوجيهات التى ذهب إليها بعض المفسّرين، للتوفيق بين عمل موسى عليه السلام هذا و بين مقام العصمه التى يتحلّى بها الأنبياء، لأنّه يمكن أن يقال هنا: إنّ موسى عليه السلام انزعج فى هذه اللحظه من تأريخ بنى إسرائيل انزعاجا شديدا لم يسبق له مثيل، لأنّه وجد نفسه أمام أسوأ

ص: ٢٢٨

(١ - ١) سورہ طه: ٩٢-٩٣.

المشاهد ألا و هو الانحراف عن التوحيد إلى عباده العجل، و كان يرى جميع آثارها و أخطارها المتوقعة.

و على هذا فإن إلقاء الألواح و مؤاخذه أخيه بشده في مثل هذه اللحظه مسأله طبيعیه تماما.

إن رده الفعل الشديده هذه و إظهار الغضب هذا، كان له أثر تربوي بالغ في بنى إسرائيل، فقد قلب المشهد رأسا على عقب في حين أن موسى لو كان يريد أن ينصحهم بالكلمات اللينه و المواعظ الهادئه، لكان قبولهم لكلامه و نصحه أقل بكثير.

ثم إن القرآن الكريم ذكر أن هارون قال -و هو يحاول استعطف موسى و إثبات برائته في هذه المسأله-: يا ابن أم هذه الجماعه الجاهله جعلوني ضعيفا إلى درجه أنهم كادوا يقتلونى، فإذا أنا برىء، فلا تفعل بى ما سيكون موجبا لشماته الأعداء بى و لا تجعلنى فى صف هؤلاء الظالمين قال ابن أم إن القوم استنص عفونى و كادوا يقتلونى فلا تسمت بى الأعداء و لا تجعلنى مع القوم الظالمين .

إن التعبير ب: «ابن أم» فى الآيه الحاضره أو «يا ابن أم» (كما فى الآيه ٩٤ من سوره طه) مع أن موسى و هارون كانا من أب و أم واحده، إنما هو لأجل تحريك مشاعر الرحمه و العطف لدى موسى عليه السلام فى هذه الحاله الساخنه.

و فى المآل تركت هذه القصه أثرها، و سرعان ما التفت بنو إسرائيل إلى قبح أعمالهم، فاستغفروا الله و طلبوا العفو منه.

لقد هدأ غضب موسى عليه السلام بعض الشىء، و توجه إلى الله قال رب اغفر لى و لأخى و أدخلنا فى رحمتك و أنت أرحم الراحمين .

إن طلب موسى عليه السلام العفو و المغفره من الله تعالى لنفسه و لأخيه، لم يكن لذنب اقترفاه، بل كان نوعا من الخضوع لله، و العوده إليه، و إظهار النفره من أعمال

الوثنيين القبيحه، و كذا لإعطاء درس عملي للجميع حتى يفكروا و يروا إذا كان موسى و أخوه-و هما لم يقترفا انحرافا-يطلبان من الله العفو و المغفره هكذا، فالأجدر بالآخرين أن ينتبهوا و يحاسبوا أنفسهم، و يتوجهوا إلى الله و يسألوه العفو و المغفره لذنوبهم. و قد فعل بنو إسرائيل هذا فعلا- كما تفيد الآيتان السابقتان.

مقاربه بين تواريخ القرآن و التوراه الحاضره:

يستفاد من الآيات الحاضره، و آيات سوره طه أن بنى إسرائيل هم الذين صنعوا العجل لا هارون، و أنّ شخصا خاصا فى بنى إسرائيل يدعى السامرىّ هو الذى أقدم على مثل هذا العمل، و لكن هارون-أخا موسى و وزيره و مساعده-لم يكن يتفرج على هذا الأمر بل عارضه، و لم يأل جهدا فى هذا السبيل، حتى أنّهم كادوا أن يقتلوه لمعارضته لهم.

و لكن العجيب أنّ التوراه الفعلية تنسب صنع العجل و الدعوه إلى عبادته إلى هارون خليفه موسى عليه السلام و وزيره و أخيه، إذ نقرأ فى الفصل ٣٢ من سفر الخروج من التوراه، ما يلى:

«لما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى التزول من الجبل، اجتمع الشعب على هارون و قالوا له: قم اصنع لنا آلهه تسير أمامنا. لأنّ هذا موسى الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم و بنيكم و بناتكم و أتونى بها، فتزج كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم و أتوا بها إلى هارون، فأخذ ذلك من أيديهم و صوّره بالإزميل و صنعه عجلا مسبوكا، فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر.

فلما نظر هارون بنى مذبحا أمامه و نادى هارون و قال: غدا عيد للربّ (ثمّ بين مراسيم تقديم القرابين لهذا العمل).

ثمّ تشرح التوراه قصّه رجوع موسى عليه السلام غاضبا إلى بنى إسرائيل و إلقاء التوراه، ثمّ تقول:

«و قال موسى لهارون: ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبت عليه خطيئه عظيمه؟! فقال هارون: لا يحم غضب سيدى. أنت تعرف الشعب إنّه فى شرّ».

إنّ ما ذكر هو قسم من قصه عباده بنى إسرائيل للعجل بروايه التوراه الحاضره بالنص، فى حين أنّ التوراه نفسها تشير فى فصول أخرى إلى سمّو مقام هارون و علو منزلته، و من ذلك التصريح بأنّ بعض معاجز موسى قد ظهرت و تحققت على يدى هارون (الإصحاح الثامن من سفر الخروج من التوراه).

كما أنّها تصف هارون بأنّه نبيّ قد أعلن عن نبوته موسى (الإصحاح الثامن من سفر الخروج أيضا).

و على كل حال، تعترف التوراه لهارون-الذى كان خليفه لموسى عليه السلام و عارفا بتعاليم شريعته-بمنزله ساميه...و لكن انظروا إلى الخرافه التى تصف بأنّه كان صانع العجل، و من عوامل حصول الوثنيه فى بنى إسرائيل، و حتى أنّه اعتذر لموسى عليه السلام عليه بما هو أقبح من الذنب حيث قال: إنهم كانوا يميلون إلى الشرّ أساسا و قد شجعتهم عليه.

فى حين أنّ القرآن الكريم ينزه هذين القائدين من كل ألوان التلوّث بأدران الشرك و الوثنيه.

على أنّه ليس هذا المورد هو المورد الوحيد الذى يتّزه فيه القرآن الكريم ساحه الأنبياء و الرسل، و تنسب التوراه الحاضره أنواع الإهانات و الخرافات إلى الأنبياء المطهرين. و فى اعتقادنا أنّ أحد الطرق لمعرفة أصاله القرآن و تحريف التوراه و الإنجيل الفعلين، هو هذه المقارنه بين القضايا التاريخيه التى وردت فى هذه الكتب حول الأنبياء و الرسل.

إشاره

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَّهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذُلٌّ فِي الْخَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ (١٥٤)

التفسير

إشاره

لقد فعلت رده فعل موسى عليه السلام الشديده فعلتها في المآل فقد ندم عبده العجل الإسرائيليون-و هم أكثره القوم-على فعلهم، وقد طرح هذا الندم في عدّه آيات قبل هذه الآيه أيضا(الآيه ١٤٩) و من أجل أن لا يتصور أن مجرد الندم من مثل هذه المعصيه العظيمه يكفى للتوبه، يضيف القرآن الكريم قائلا: إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَّهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذُلٌّ فِي الْخَيَاةِ الدُّنْيَا .

و هكذا لأجل أن لا يتصور أن هذا القانون يختص بهم أضاف قائلا: وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ .

إن التعبير ب«أخذوا» إشاره إلى أنّ الوثن ليس له أيه واقعيه، و لكن انتخاب عبده الأوثان هو الذى أعطاه تلك الشخصيه و القيمه الوهميه، و لهذا أتى بكلمه «العجل» وراء هذه الجملة فورا، يعنى أنّ ذلك العجل هو نفس ذلك العجل حتّى بعد انتخابه للعباده.

أمّا أنّ هذا الغضب ما هو؟ و هذه الدّله ما هي؟ فالقرآن لم يصرح بشيء عنهما فى هذه الآيه، و إنّما اكتفى بإشاره مجمله، و لكن يمكن أن تكون إشاره إلى الشقاء و المصائب و المشكلات التى ابتلوا بها بعد هذه الحادثه و قبل دخولهم الأرض المقدسه.

أو أنّه إشاره إلى مهمّه قتل بعضهم بعضا العجيبه التى كلفوا بها كجزاء و عقوبه لمثل ذلك الذنب العظيم.

و هنا قد يطرح هذا السؤال، و هو أنّ من المرتكزات الفكرية هو أنّ حقيقه التوبه تتحقق بالندامه، فكيف لم يشمل العفو الإلهى بنى إسرائيل مع أنّهم ندموا على فعلهم؟ و الجواب هو أنّه ليس لدينا أى دليل على أنّ مجرّد الندامه لوحدها تنفع فى جميع الأحوال و المواضع. صحيح أنّ الندامه هي أحد أركان التوبه، و لكنّها ليست كل شيء.

إنّ معصيه عباده الأوثان السجود للعجل فى ذلك النطاق الواسع و فى تلك المده القصيره، و بالنسبه إلى ذلك الشعب الذى شاهد بأمر عينيه كل تلك المعاجز و الآيات، لم تكن معصيه يمكن التغاضى عنها بمثل هذه السهوله، و كفايه يقول مرتكبها: «أستغفر الله» و ينتهى كلّ شيء.

بل لا بدّ أن يرى هذا الشعب غضب الله و يذوق طعم المذله فى هذه الحياه، و يساط الذين افتروا على الله الكذب بسوط البلاء حتى لا يفكروا مرّه أخرى فى ارتكاب مثل هذا الذنب العظيم.

و فى الآيه اللاحقه يكمل القرآن الكريم هذا الموضوع و يقول فى صورته قانون عام: وَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ فالذين يتوبون من بعد السيئه و تتوفر كل شروط التوبه لديهم يغفر الله لهم و يعفو عنهم.

جواب على سؤالين:

١- هل الآيتان الحاضرتان جمله معترضه وقعت وسط قصه بنى إسرائيل كتذكير لرسول الله و المسلمين؟ أو أنه خطاب الله لموسى عليه السلام بعد قصه عباده بنى إسرائيل للعجل؟ ذهب بعض المفسرين إلى الاحتمال الأول، و ارتضى بعض آخر الاحتمال الثانى.

و الذين ارتضوا الاحتمال الأول استدلووا بجمله إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ لأنَّ الجمله فى صورته خطاب إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم.

و الذين ارتضوا الاحتمال الثانى استدلووا بجمله سَيِّئَاتُهُمْ غَضَبٌ الَّذِى جَاءَ فِي صُورِهِ الْفِعْلُ الْمَضَارِعُ.

و لكن ظاهر الآيات يفيد أن هذه الجمله قسم من خطاب الله إلى موسى عليه السلام فى تعقيب قصته العجل، و فعل المضارع (سينالهم) شاهد جيد على هذا الموضوع، و ليس هناك ما يمنع أن يكون «إِنَّ رَبَّكَ» خطاب موجه إلى موسى عليه السلام (١).

٢- لماذا جاء الإيمان فى الآيه الحاضره بعد ذكر التوبه و الحال أنه ما لم يكن هناك إيمان لا تتحقق توبه؟ إنَّ الجواب على هذا السؤال يتضح من أن قواعد الإيمان تنزل عند

ص: ٢٣٤

١- (١) فىكون التقدير فى الآيه الحقيقه هكذا: «قال الله لموسى أن الذين...».

ارتكاب المعصيه، و يصيبها نوع من الوهن، إلى درجه أننا نقرأ فى الأحاديث الإسلاميه:

«لا يشرب الخمر و هو مؤمن، و لا يزنى و هو مؤمن» أى أن الإيمان يتضاءل ضوؤه، و يفقد أثره.

و لكن عند ما تتحقق التوبه يعود الإيمان إلى ضوئه و أثره الأول، و كأنّ الإيمان تجدد مرّه أخرى.

ثم إنّ الآيات الحاضره ركزت-فقط-على الذله فى الحياه الدنيا، و يستفاد من ذلك أن توبه بنى إسرائيل من هذه المعصيه بعد الندامه من قضيه الوثنيه و تذوق العقوبه فى هذه الدنيا، قد قبلت بحيث أنّها أزالّت عقوبتهم فى الآخره، و إن بقيت أعباء الذنوب الأخرى التى لم يتوبوا منها فى أعناقهم.

الآيه الأخيره من الآيات المبحوثه تقول: و لما سكن غضب موسى عليه السلام، و حصل على النتيجة التى كان يتوخاها، أخذ الألواح من الأرض، تلك الألواح التى كانت تحتوى-من أولها إلى آخرها-على الرحمه و الهدايه، رحمه و هدايه للذين يشعرون بالمسؤوليه، و الذين يخافون الله، و يخضعون لأوامره و تعاليمه و لَمَّا سَكَتَ عَن مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابِحَ وَ فِي نُشْخَتِهَا هُدًى وَ رَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ .

ص: ٢٣٥

اشاره

وَإِخْرَاجَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّاي أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
السُّفَهَاءُ مِذَا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَ
أَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)

التفسير

اشاره

مندوبو بنى إسرائيل فى الميقات:

فى الآيتين الحاضرتين يعود القرآن الكريم مره أخرى إلى قصه ذهاب موسى إلى الميقات «الطور» فى صحبه جماعه، و يقص قسما
آخر من تلك الحادثه.

هذا وقد وقع بين المفسرين كلام فى أنه هل كان لموسى عليه السلام ميقات واحد مع ربه، أو أكثر من ميقات واحد؟ وقد أقام كل واحد منهم شواهد لإثبات مقصوده من القرآن الكريم، و لكنّه كما قلنا سابقا- فى ذيل الآيه (١٤٢) من هذه السوره- أنه يظهر من مجموع القرائن فى القرآن الكريم و الروايات أن موسى عليه السلام كان له ميقات واحد، و ذلك برفقه جماعه من بنى إسرائيل.

و فى هذا الميقات بالذات أنزل الله الألواح على موسى و كلمه عليه السلام، و فى نفس هذا الميقات اقترح بنو إسرائيل على موسى عليه السلام أن يطلب من الله أن يريهم نفسه جهره. فى هذا الوقت نفسه نزلت الصاعقه أو حدث الزلزال و غشى على موسى عليه السلام و سقط بنو إسرائيل على الأرض مغشيا عليهم، و قد ورد هذا الموضوع فى حديث مروى عن على بن إبراهيم فى تفسيره.

إنّ كفيّه وضع آيات هذه السوره و إن كان يحدث- فى بادئ النظر- إشكالا، و هو: كيف أشار الله تعالى أولا إلى ميقات موسى عليه السلام ثم ذكر قصه عباده العجل، ثم عاد مرّه أخرى إلى مسأله الميقات؟ هل هذا النظم و هذا الطراز من الكلام يناسب الفصاحه و البلاغه التى يتسم بها القرآن الكريم؟ و لكن مع الالتفات إلى أنّ القرآن ليس كتاب تأريخ يسجل الحوادث حسب تسلسلها، بل هو كتاب هدايه و تربيّه و بناء إنسانى، و فى مثل هذا الكتاب توجب أهميه الموضوع أن يترك متابعه حادثه مؤقتا، و يعتمد إلى بحث ضرورى آخر، ثم يعود مرّه أخرى لنفس الحادثه الأولى.

بناء على هذا لا- توجد أيه ضروره إلى أن نعتبر الآيه المذكوره هنا إشاره إلى بقيه قصه عباده العجل، و نقول: إنّ موسى عليه السلام ذهب مرّه أخرى بصحبه بنى إسرائيل إلى جبل الطور بعد قضيه عباده العجل للاعتذار إلى الله و التوبه، كما قال بعض المفسرين، لأنّ هذا الاحتمال بغض النظر عن جهات أخرى يبدو بعيدا فى

النظر من جهه أنه آل إلى هلاك جماعه ذهبت إلى الميقات للاعتذار و التوبه، فهل من الممكن أن يهلك الله تعالى جماعه أتوا إلى الميقات للاعتذار إلى الله بالنيابه عن قومهم؟! و على كل حال، فقد قال القرآن الكريم فى الآيتين الحاضرتين أولاً:

وَ اخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۗ

و لكن بنى إسرائيل حيث إنهم سمعوا كلام الله طلبوا من موسى عليه السلام أن يطلب من الله تعالى أن يريهم نفسه-لبنى إسرائيل-جهره، و فى هذا الوقت بالذات أخذهم زلزال عظيم و هلك الجماعه، و وقع موسى عليه السلام على الأرض مغشياً عليه، و عند ما أفاق قال: ربّاه لو شئت لأهلكتنا جميعاً، يعنى بماذا أجيب قومى لو هلك هؤلاء فلما أخذتهم الرجفه قال ربّ لو شئت لأهلكتهم من قبل و إياى .

ثم قال: ربّاه إنّ هذا المطلب التافه إنّما هو فعل جماعه من السفهاء، فلا تؤاخذنا بفعلهم: أَ تَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ؟ و لقد اعتبر بعض المفسّرين-وجود كلمه «الرجفه» فى هذه الآيه، و كلمه «الصاعقه» فى الآيه (٥٥) من سوره البقره المتعلقه بطلب رؤيه الله جهره-دليلاً على التفاوت بين الميقاتين. و لكن-كما قلنا سابقاً-إن الصاعقه فى كثير من الأوقات ترافق الرجفه الشديده، لأنّه على أثر التصادم بين الشحنات الكهربائيه الموجبه فى السحب و السالبه فى الأرض تبرز شراره عظيمه تهزّ الجبال و الأراضى بشدّه، و ربّما تحطمها و تبعثرها كما جاء فى قصّه البلاء الذى نزل على قوم صالح العصاه، حيث يعبر فيه عنه بالصاعقه تاره (سوره فصلت الآيه ١٧) و تاره بالرجفه (سوره الأعراف الآيه ٧٨).

و قد استدل بعض المفسّرين بعبارته بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا عَلَى أَنَّ الْعُقُوبَةَ هُنَا كَانَتْ لِأَجْلِ الْفِعْلِ الَّذِي صَدَرَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ (مثل عباده العجل) لا لأجل الكلام الذى قالوه فى مجال طلب رؤيه الله جهره.

و الجواب على هذا الكلام واضح أيضا، لأنّ الكلام فعل من أفعال الإنسان أيضا، و إطلاق «الفعل» على «الكلام» ليس أمرا جديدا و غير متعارف، مثلا عند ما نقول: إنّ الله يثينا يوم القيامة على أعمالنا، فإنّ من المسلم أنّ لفظه أعمالنا تشمل كلماتنا أيضا.

ثمّ إنّ موسى عليه السّلام قال في عقيب هذا التضرع و الطلب من الله: ربّاه إنّى أعلم أنّ هذا كان اختبارك و امتحانك، فأنت تضلّ من تشاء (و كان مستحقا لذلك) و تهدي من تشاء (و كان لائقا لذلك) إنّ هـى إلاّ فتنتك و اختبارك.

و هنا أيضا تكلم المفسّرون فى معنى «الفتنه» كثيرا و ذهبوا مذاهب شتى، و لكن بالنظر إلى أنّ لفظه «الفتنه» جاءت فى القرآن الكريم بمعنى الاختبار و الامتحان مرارا كما فى الآية (٢٨) من سورة الأنفال: **أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ** و كذا فى الآية (٢) من سورة العنكبوت، و الآية (١٢٦) من سورة التوبة) لا يكون مفهوم الآية الحاضره غامضا. لأنّه لا شك فى أنّ بنى إسرائيل واجهوا فى هذا المشهد اختبارا شديدا، فأراهم الله تعالى أنّ هذا الطلب (طلب رؤيه الله) طلب تافه و مستحيل الوقوع.

و فى ختام الآية يقول موسى عليه السّلام: رباه: **أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ** .

من مجموع الآيات و الزوايات يستفاد أنّ الهالكين قد استعادوا حياتهم فى المآل و عادوا برفقه موسى عليه السّلام إلى بنى إسرائيل، و قصبوا عليهم كلّ ما سمعوه و شاهدوه، و أخذوا فى إرشاد الغافلين الجاهلين و هدايتهم.

و فى الآية اللاحقه يشير إلى طلب موسى عليه السّلام من ربّه و تكميل مسأله التوبه التى ذكرت فى الآيات السابقه، يقول موسى: **وَ اكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ** .

و«الحسنه» تعنى كل خير و جمال، و على هذا الأساس تشمل جميع النعم، و كذا التوفيق للعمل الصالح، و المغفره، و الجنه، و كل نوع من أنواع السعاده، و لا دليل على حصرها بنوع خاص من هذه المواهب، كما ذهب إليه بعض المفسرين.

ثم بيّن القرآن الكريم دليل هذا الطلب هكذا: **إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ** أى عدنا إليك و اعتذرنا عمّا فعله سفهاؤنا، حيث طلبوا ما لا يليق بمقام عظمتك.

و«هدنا» مشتقه من ماده «هود» بمعنى العوده المقترنه بالرفق و الهدوء، و كما قال بعض اللغويين: تشمل العوده من الخير إلى الشر أيضا، و كذا من الشر إلى الخير (١)، و لكن جاءت فى كثير من الموارد بمعنى التوبه و العوده إلى طاعه الله.

يقول الراغب فى «المفردات» نقلا عن بعض: «يهود فى الأصل من قولهم:

هدنا إليك، و كان اسم مدح، ثم صار بعد نسخ شريعتهم لازما لهم، و إن لم يكن فيه معنى المدح».

و لكن بما أن بعض اللغويين ذكر أن معنى هذه اللفظه هو الرجوع من الشر إلى الخير، أو من الخير إلى الشر، يمكن القول بأن هذه الكلمه ليست متضمنه للمدح بحال، بل هى حاكيه عن الاضطراب الروحى و القلق الأخلاقى الذى كانت تعانى منه تلك الجماعه.

و قال بعض آخر من المفسرين أن عله تسميه هؤلاء القوم ب«اليهود» لا يرتبط مطلقا بهذه اللفظه، بل لفظه يهود متخذه أصلا من ماده «يهودا» الذى هو اسم لأحد أبناء يعقوب عليه السلام ثم تبدلت الذال إلى الدال، و صارت يهودا، فيطلق على المنسوب إليه يهودى (٢).

و لقد أجاب الله فى النهايه -دعاء موسى عليه السلام و قبل توبته، و لكن لا بصوره

ص: ٢٤٠

١- ١) تفسير المنار، المجلد التاسع، الصفحه ٢٢١، و قد نقل هذا المعنى عن ابن الأعرابى.

٢- ٢) تفسير أبو الفتوح، المجلد الخامس، الصفحه ٣٠٠، فى تفسير الآيه الحاضره.

مطلقه، بل جاء ذلك فى ختام الآيه مشروطا بشروط، إذ يقول: قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَكَانَ مُسْتَحَقًّا.

و قد قلنا مرارا، إنَّ «المشيئه» فى هذه الموارد، بل فى جميع الموارد، ليس بمعنى الإراده المطلقه و من غير قيد أو شرط، بل هى إرادته مقترنه بالحكمه و الصلاحيات و اللياقات، و بهذا يتضح الجواب على كل إشكال فى هذا الصعيد.

ثُمَّ يَضِيفُ تَعَالَى قَائِلًا وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ .

إنَّ هذه الرحمه الواسعه يمكن أن تكون إشاره إلى النعم و المواهب الدنيويه التى تشمل الجميع و يستفيد منها الكل، برا و فاجرا، صالحا و طالحا.

كما يمكن أن تكون إشاره إلى أنواع الرحمه الماديه و المعنويه، لأنَّ النعم المعنويه لا تختص بقوم دون قوم، و إن كان لها شرائط تتوفر لدى الجميع.

و بعباره أخرى: إنَّ أبواب الرحمه الإلهيه مفتوحه للجميع، و إنَّ الناس هم الذين عليهم أن يقرروا دخول هذه الأبواب فلو لم تتوفر شرائط الورد فى بعض الناس فإنَّ ذلك دليل على تقصيرهم هم، لا محدوديه الرحمه الإلهيه (و التفسير الثانى أنسب مع مفهوم الآيه و الجملة التى ستأتى).

و لكن حتى لا- يظن أحد أنَّ قبول التوبه، أو سعه الرحمه الإلهيه و شموليتها، غير مقيده و غير مشروطه، و من دون حساب أو كتاب، يضيف فى ختام الآيه:

سرعان ما أكتب رحمتى للذين تتوفر فيهم ثلاثه أمور: اتقوا، و آتوا الزكاه، و آمنوا بآياتى فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ وَ «التقوى» إشاره إلى اجتناب كل معصيه و إثم.

و «الزكاه» مراده هنا بمعناها الواسع، و حسب الحديث المعروف «لكل شىء زكاه» يشمل جميع الأعمال الصالحه و الطيبه.

و جمله وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ تشمل الإيمان بالمقدسات.

و بهذه الطريفة تتضمّن الآفة برنامفا كاملا و فامعا.

و إذا فسرنا الزكاه بمعنى فاص (أى المعنى المتعارف و المصطلح للزكاه) كان ذكرها من بفن سائر الوظائف الإلهفة، لأجل أهمفئها فى صعفد العداله الاجئماعفة.

و

قد روى فى ففءف عن النبى صلى الله علفه و آله و سلم أنه قام فى الصلاه فقال أعرابى و هو فى الصلاه: اللهم ارءمنى و مءمدا و لا ءرءم معنا أحدا، فلما سلم رسول الله صلى الله علفه و آله و سلم قال للأعرابى: لقد ءءجرت واسعا، أى جعلت شفئا واسعا، أمرا ضفقا مءءودا فالرءمه الإلهفة لا ءءصر فى أحد من الناس (١).

ص: ٢٤٢

١- (١) مءمع البفان فى ءفسفر هذه الآفة.

اشاره

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْجَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)

التفسير

اشاره

اتبعوا هذا النبي:

هذه الآيه في الحقيقه تكمل الآيه السابقه التي تحدثت عن صفات الذين تشملهم الرحمه الإلهيه الواسعه، أى من تتوفر فيهم الصفات الثلاث: التقوى، و أداء الزكاه، و الإيمان بآيات الله. و فى هذه الآيه يذكر صفات أخرى لهم من باب التوضيح، و هى اتباع الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم، لأنّ الإيمان بالله غير قابل للفصل عن الإيمان بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم و اتباع دينه، و هكذا التقوى و الزكاه لا يتمان و لا يكملان من دون اتباع القياده.

لهذا يقول تعالى: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ .

ثم يبين ست صفات لهذا الرسول مضافا إلى مقام رساله:

١- أنه نبي الله النبي .

و النبي يطلق على كل من يبين رساله الله إلى الناس، و يوحى إليه و إن لم يكن مكلفا بالدعوه و التبليغ، و لكن الرسول مضافا إلى كونه نبيا-مكلف بالدعوه إلى دين الله، و تبليغه و الاستقامه في هذا السبيل.

و على هذا يكون مقام رساله أعلى من مقام النبوه، و بناء على هذا يكون معنى النبوه مأخوذا في مفهوم رساله أيضا، و لكن حيث أن الآيه بصدد توضيح و تفصيل خصوصيات النبي صلى الله عليه و آله و سلم لهذا ذكرهما على نحو الاستقلال، و في الحقيقه إن ما أخذ في مفهوم الرسول مجملا، ذكر في الآيه بصورة مستقلة من باب توضيح و تحليل صفاته.

٢- أنه نبي أمي لم يتعلم القراءة و الكتابه، و قد نهض من بين جماهير الناس من أرض مكه أم القرى قاعده التوحيد الأصلية: (الأمي).

و حول مفهوم «الأمي» المشتقه من ماده «أم» بمعنى الوالده، أو من «الأمه» بمعنى الجماعه، دار كلام كثير بين المفسرين، فبعض فسره بأنه لم يتعلم و لم يدرس، يعنى أنه باق على حاله التي ولد بها من أمه أول يوم، و لم يتلمذ على أحد، و بعض فسره بمن نهض من بين جماهير الأمه، لا- من بين طبقه الأعيان و المترفين و الجبارين، و فسره جماعه ثالثه بأنه ظهر من مكه «أم القرى» لأن هذه الكلمه مرادفه ل«المكي».

و الأحاديث الإسلاميه الوارده في مصادر مختلفه هي أيضا تفسر هذه الكلمه تاره بأنه: لم يدرس و أخرى: بأنه مكي (١).

ص: ٢٤٤

١ - (١) للاطلاع على هذه الروايات راجع تفسير نور الثقلين، المجلد الثاني، الصفحه ٧٨ و ٧٩، و تفسير روح المعاني، المجلد التاسع، الصفحه ٧٠، في تفسير الآيه الحاضره.

و لكن لا- مانع أبدا من أن تكون كلمه «الأمى» إشاره إلى كل المفاهيم و المعانى الثلاثه، و قد قلنا مرارا: إنه لا مانع من استعمال لفظه واحده فى عده معان، و لهذا الموضوع شواهد كثيره فى الأدب العربى. (و سنبحث بتفصيل حول أميه النبى صلى الله عليه و آله و سلم بعد الفراغ من تفسير هذه الآيه).

٣- ثم إن هذا النبى هو الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراه و الإنجيل .

و فى صعيد وجود البشارات المختلفه فى كتب العهدين (التوراه و الإنجيل) حتى التوراه و الإنجيل المحرفين الحاضرين أيضا، سيكون لنا بحث تفصيلى بعد الفراغ من تفسير هذه الآيه.

٤- و من سمات هذا النبى أن دعوته تتطابق لنداء العقل مطابقه كامله، فهو يدعو إلى كل الخيرات و ينهى عن كل الشرور و الممنوعات العقلية: يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ .

٥- كما أن محتوى دعوته منسجم مع الفطره الإنسانيه السليمه، فهو يحل ما ترغب فيه الطباع السليمه و يحرم ما تنفر منه و يحلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْجَبَائِثَ .

٦- أنه ليس كأدعياء النبوه و الرساله الذين يهدفون إلى توثيق الناس بأغلال الاستعمار و الاستثمار و الاستغلال، بل هو على العكس من ذلك، إنه يرفع عنهم إصرهم و الأغلال التى تكبيل عقولهم و أفكارهم و تثقل كاهلهم و يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ (١).

و حيث أن هذه الصفات الست بالإضافة إلى الصفه السابعه و هى مقام رساله تشكّل من حيث المجموع علامه واضحه و دليل قاطع على صدق دعواه،

ص: ٢٤٥

١- (١) «الإصر» يعنى فى الأصل عقد الشىء و حبسه، و يطلق على كل عمل يمنع الإنسان من الفعاليه و الحرکه، و يطلق على العهد و الميثاق أو العقوبات، لفظ الإصر، لأن هذه الأمور تحدّ من حرکه الإنسان.

فيضيف القرآن الكريم: فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّوهُ، وَ نَصَرُوهُ، وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

و«عزروه» المشتق من ماده «تعزير» تعنى الحماية و النصره المقترنه بالاحترام و التبجيل، و يقول البعض إن هذه اللفظه تعنى -فى الأصل- المنع، فإذا كان المنع من العدو، كان مفهومه النصره، و إذا كان المنع من الذنب كان مفهومه العقوبه و التنبيه، و لهذا يقال للعقوبات الخفيفه «تعزير».

و الجدير بالانتباه استعمال كلمه «أُنزِلَ مَعَهُ بدل «أُنزِلَ إِلَيْهِ» فى حين أننا نعلم أنه لم يكن لشخص النبى صلى الله عليه و آله و سلم نزول من السماء، و لكن حيث أن النبوه و الرساله نزلا مع القرآن من جانب الله، لهذا عبر ب«أُنزِلَ مَعَهُ».

بحوث

اشاره

و هنا لا بد من الوقوف عند نقاط هامه هى:

١- خمسة أدله على النبوه فى آيه واحده

لم ترد فى آيه من آيات القرآن أدله عديده على حقانيه دعوه الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم كما جاء فى هذه الآيه... فلو أننا أمعنا النظر بدقه فى الصفات السبع التى ذكرها الله تعالى فى هذه الآيه لنبهنا محمداً صلى الله عليه و آله و سلم لوجدنا أنها تحتوى على سبعة أدله واضحة لإثبات نبوته:

الأول: أنه «أمى» لم يدرس، و لكنّه مع ذلك أتى بكتاب لم يغيّر مصير أهل الحجاز فقط، بل كان نقطه تحول هام فى التاريخ البشرى، حتى أنّ الذين لم يقبلوا بنبوته لم يشكوا فى عظمه كتابه و تعاليمه.

فهل يتفق و الحسابات الطبيعه أن يقوم بهذا العمل شخص نشأ فى بيئه

جاهليه و لم يتلمذ على أحد؟ الثاني: أن دلائل نبوته قد وردت بتعابير مختلفه فى الكتب السماويه السابقه على نحو توجد علما لدى المرء بحقانيته... فإنّ البشارات التى جاءت فى تلك الكتب لا تنطبق إلاّ عليه صلّى الله عليه و آله و سلّم فقط.

الثالث: أن محتويات دعوته تنسجم انسجاما كاملا- مع العقل، لأنّه يدعو إلى المعروف، و النهى عن المنكر و القبائح، و هذا الموضوع يتّضح بجلاء بمطالعه تعاليمه.

الرابع: أن محتويات دعوته منسجمه مع الطبع السليم و الفطره السويّه.

الخامس: لو لم يكن من جانب الله لكان عليه أن يقوم بما يضمن مصالحه الخاصّه، و فى هذه الصوره كان يتعين عليه أن لا يرفع الأغلال و السلاسل عن الناس، بل عليه أن يقيهم فى حاله الجهل و الغفله لاستغلالهم بنحو أفضل، فى حين أنّنا نجده يحرر الناس من الأغلال الثقيله.

أغلال الجهل و الغفله عن طريق الدعوه المستمره إلى العلم و المعرفه.

أغلال الوثنيه و الخلافه عن طريق الدعوه إلى التوحيد.

أغلال التمييز بكل أنواعه، و الحياه الطبقيه بجميع أصنافها، عن طريق الدعوه إلى الأخوه الدينيه و الإسلاميه، و المساواه أمام القانون.

و هكذا سائر الأغلال الأخرى.

إنّ كل واحد من هذه الدلائل لوحده دليل على حقانيه دعوته، كما أنّ مجموعها دليل أوضح و أقوى.

٢- كيف كان النّبي أميا؟

هناك احتمالات ثلاثه معروفه حول مفهوم «الأمي» كما قلنا سابقا:

أولها: أن معناه: الذى لم يدرس.

الثاني: أن معناه: المولود في أرض مكة، و الناهض منها.

الثالث: أن معناه الذي قام من بين صفوف الجماهير.

و لكن الرأي الأشهر هو التفسير الأول، و هو أكثر انسجاما مع موارد استعمال هذه اللفظه، و يمكن أن تكون المعاني الثلاثه مراده برمتها أيضا، كما قلنا.

ثم إنه لا- نقاش بين المؤرخين بأن الرسول الأ-كرم صلى الله عليه و آله و سلم لم يدرس، و لم يكتب شيئا، و قد قال القرآن الكريم- أيضا- في الآية (٤٨) من سورة العنكبوت حول وضع النبي قبل البعثة: **وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ .**

و أساسا كان عدد العارفين بالكتابه و القراءه فى المحيط الحجازى قليلا جدا، حيث كان الجهل هو الحاله السائده على الناس بحيث أن هؤلاء العارفين بالكتابه و القراءه كانوا معروفين بأعيانهم و أشخاصهم، فقد كان عددهم فى مكة من الرجال لا يتجاوز (١٧) شخصا، و من النساء امرأه واحده (١).^(١)

من المسلم أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم لو كان قد تعلم القراءه و الكتابه- فى مثل هذه البيئه -لدى أستاذ لشاع ذلك و صار أمرا معروفا للجميع، و على فرض أننا لم نقبل بنبوته، و لكن كيف يمكنه صلى الله عليه و آله و سلم أن ينفى- فى كتابه- بصراحه هذا الموضوع؟ ألا- يعترض عليه الناس و يقولون: إن دراستك و تعلمك للقراءه و الكتابه أمر مسلم معروف لنا، فكيف تنفى ذلك؟ إن هذه قرينه واضحة على أمية النبي.

و على كل حال، فإن وجود هذه الصفه فى النبي صلى الله عليه و آله و سلم كان تأكيدا على نبوته حتى ينتفى أى احتمال فى ارتباطه إلا بالله و بعالم ما وراء الطبيعه فى صعيد دعوته.

ص: ٢٤٨

هذا بالنسبه إلى فتره ما قبل النبوه، و أما بعد البعثه فلم ينقل أحد المورّخين أنه تلقى القراءه أو الكتابه من أحد، و على هذا بقى صلّى الله عليه و آله و سلّم على أمّيته حتى نهايه عمره.

و لكن من الخطأ الكبير أن تصوّر أنّ عدم التعلّم عند أحد يعنى عدم المعرفه بالكتابه و القراءه، و الذين فسّروا «الأمّيه» بعدم المعرفه بالكتابه و القراءه كأنهم لم يلتفتوا إلى هذا التفاوت.

و لا مانع أبدا من أنّ النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم كان عارفا بالقراءه و الكتابه بتعليم الله، و من دون أن يتلمذ على يد أحد من البشر، لأنّ مثل هذه المعرفه هي بلا شك من الكمالات الإنسانيه، و مكمله لمقام النبوه.

و يشهد بذلك ما ورد فى الأحاديث المرويّه عن أهل البيت عليهم السلام (1) أن نص الروايه و لكنّه لأجل أن لا يبقى أى مجال لأدنى تشكيك فى دعوته لم يكن صلّى الله عليه و آله و سلّم يستفيد من هذه المقدره.

و قول البعض: إنّ القدره على الكتابه و القراءه لا- تعدّ كمالا، فهما وسيله للوصول إلى الكمالات العلميه، و ليسا بحدّ ذاتها علما حقيقيا و لا كمالا واقعا فإن جوابه كامن فى نفسه، لأنّ العلم بطريق الكمال كمال أيضا.

قد يقال: إنّ نفي فى روايتين عن أئمّه أهل البيت عليهم السلام بصراحه تفسير «الأمّيه» بعدم القراءه و الكتابه، بل بالمنسوب إلى «أم القرى» (مكّه).

و نقول فى الردّ: إنّ إحدى هاتين الروائتين «مرفوعه» حسب اصطلاح علم الحديث فلا قيمه لها من حيث السند، و الروايه الأخرى منقوله عن «جعفر بن محمّد الصوفى» و هو مجهول.

ص: ٢٤٩

١- ١) تفسير البرهان المجلد الخامس، الصفحه ٣٧٣ ذيل آيات سوره الجمعه.

و أمّا ما تصوّره البعض من أن الآيه الثانيه من سوره الجمعه يَتْلُوا عَلَيْهِم آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَ آيات أخرى دليل على أن النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم كان يتلو القرآن على الناس من شيء مكتوب، فهو خطأ بالغ، لأن التلاوه تطلق على التلاوه من مكتوب على شيء، كما تطلق على القراءه حفظاً و من ظهر القلب، و استعمال لفظه التلاوه في حق الذين يقرءون الأشعار أو الأدعيه حفظاً و من على ظهر القلب كثير.

من مجموع ما قلناه نستنتج:

١- أن النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم لم يتلق القراءه و الكتابه من أحد حتماً، و بهذا تكون إحدى صفاته أنه لم يدرس عند أستاذ.

٢- أننا لا نملك أى دليل معتبر على أن النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم قرأ أو كتب شيئاً قبل النبوه، أو بعدها.

٣- إن هذا الموضوع لا يتنافى مع تعليم الله تعالى القراءه أو الكتابه لنبية صَلَّى الله عليه و آله و سلم.

٣- البشارات بظهور النبي في العهدين:

إن الشواهد التاريخيه القطعيه، و كذا محتويات كتب اليهود و النصراني المقدسه (التوراه و الإنجيل) تفيد أن هذه الكتب ليست هي الكتب السماويه التي نزلت على موسى و عيسى عليهما السلام و أن يد التحريف قد طالتهما، بل إن بعضها اندرس و اندثر، و أن ما هو موجود الآن باسم الكتب المقدسه بينهم ما هي إلا خليط من نسائج الأفكار و الأدمغه البشريه و شيء من التعاليم التي نزلت على موسى و عيسى عليهما السلام ممّا بقى في أيدي تلامذتهم.

و على هذا الأساس لا غرور و لا عجب إذا لم نقف على عبارات صريحه حول البشاره بظهور النبي الأكرم صَلَّى الله عليه و آله و سلم.

ص: ٢٥٠

و لكن مع هذا فإنه يلحظ في ثانيا هذه الكتب المحرفه عبارات تتضمن إشارات معتدّ بها حول ظهور هذا النبي العظيم، وقد جمعها لله من علمائنا في كتب و مؤلفات مستقله، أو مقالات تتحدث في هذا المجال. و حيث أن ذكر كل تلك البشائر و ما حولها من حديث و كلام ممّا يطول به المقام، فإننا نكتفى بذكر بعض منها على سبيل المثال لا الحصر.

١- جاء في سفر التكوين الاصطلاح ١٧ العبارة ١٧ إلى ٢٠: «و قال إبراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك، فقال الله... و أمّا إسماعيل فقد سمعت لك فيه (أى دعاءك في حقه) ها أنا أباركه و أثمره و أكثره كثيرا جيدا. اثني عشر رئيسا يلد و أجعله أمّه كبيره».

٢- «لا يزول قضيب من يهوذا و مشرع من بين رجيله حتى يأتي شيلون و له يكون خضوع شعوب».

و الجدير بالانتباه أن أحد معانى شيلون-حسب تصريح المستر هاكس في كتاب قاموس الكتاب المقدس-هو الإرسال، و هو يوافق كلمه «رسول» أو «رسول الله».

٣- و في إنجيل يوحنا الباب ١٥ العبارة رقم ١٦ جاء ما يلي: «و أمّا المعزى الروح القدس الذى سيرسله الأب باسمى فهو يعلمكم كل شىء و يذكركم بكل ما قلته لكم».

٤- و كذا جاء في إنجيل يوحنا ذاته الاصطلاح ١٦ العبارة رقم ٧: «لكننى أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أنطلق. لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى. و لكن إن ذهبت أرسله إليكم، و متى جاء ذاك هو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم

من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به و يخبركم بأمر آتية». (١)

و النقطة الجديده بالاهتمام أنه جاءت الكلمه فى إنجيل يوحنا باللغه الفارسىه «المسلّى» و لكنّها فى الإنجيل العربى طبعه لندن (مطبعه وليام وطس عام ١٨٥٧) جاء مكانها: «فارقليطا».

ص: ٢٥٢

١- ١) كل النصوص المنقوله هنا مقتبسه من كتاب العهد القديم و الجديد طباعه و إصدار دار الكتاب المقدس فى العالم العربى عام ١٩٧٩.

اشاره

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)

التفسير

اشاره

دعوه النبي العالميه:

جاء في حديث عن الإمام الحسن المجتبي عليه السلام قال: جاء نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: يا محمد، أنت الذي تزعم أنك رسول الله، وأنك الذي يوحى إليك كما يوحى إلى موسى بن عمران؟ فسكت النبي ساعه ثم قال: «نعم أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا خاتم النبيين، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين.» قالوا: إلى من، إلى العرب أم إلى العجم، أم إلينا؟ فنزل الله هذه الآية التي صرحت بأن رساله النبي صلى الله عليه وآله وسلم رساله عالميه (١).

و لكن مع ذلك لا يمكن إنكار ارتباط هذه الآية بالآيه السابقه المتعلقه

ص: ٢٥٣

١- ١) عن المجالس حسب نقل تفسير الصافي، ج ١، في ذيل هذه الآية.

بصفات النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالدَّعْوَةَ إِلَى اتِّبَاعِ دِينِهِ وَشَرِيعَتِهِ.

و فِي الْبَدَايَةِ يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَ اللَّهِ قَائِلًا: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا .

إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مِثْلَ آيَاتٍ كَثِيرَةٍ أُخْرَى مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى عَالَمِيهِ دَعْوَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

و فِي الْآيَةِ (٢٨) مِنْ سُورَةِ «سَبَأٍ» أَيْضًا نَقَرْنَا: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ .

و فِي الْآيَةِ (١٩) مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ أَيْضًا نَقَرْنَا: وَ أَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ أَى بَلَغَهُ الْقُرْآنَ.

و فِي مَطْلَعِ سُورَةِ الْفُرْقَانِ نَقَرْنَا: لِيُبَارِكَ الَّذِي نَزَلَ الْفُرْقَانَ عَلَيْنَا عَيْدِهِ لِيُكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا فَهُوَ أَرْسَلَ إِلَى النَّاسِ كَافَةً لِيَحْذَرَهُمْ مِنَ الْمَسْئُولِيَّاتِ.

هَذِهِ نَمَازِجٌ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَشْهَدُ بِعَالَمِيهِ دَعْوَةَ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَ سَوْفَ نَبْحَثُ حَوْلَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَيْضًا فِي ذَيْلِ الْآيَةِ (٧) مِنْ سُورَةِ الشُّورَى، وَ قَدْ مَرَّرْنَا فِي ذَيْلِ الْآيَةِ (٩٢) مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ -أَيْضًا- بَحْثَ مَبْسُوطٍ نَوْعًا مَا فِي هَذَا الصَّعِيدِ.

ثُمَّ إِنَّهُ وَصَفَ الْإِلَهَ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِثَلَاثِ صِفَاتٍ:

١- الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَلَهُ الْحَاكِمِيَّةُ الْمَطْلُوقَةُ.

٢- لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَلَا مَعْبُودَ يَلِيقُ لِلْعِبَادَةِ سِوَاهُ.

٣- يُحْيِي وَيُمِيتُ بِيَدِهِ نِظَامَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ.

و بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ تَنْفَى هَذِهِ الْآيَةُ أُلُوْهِيَّةَ غَيْرِ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَ أُلُوْهِيَّةَ كُلِّ صَنَمٍ، وَ كَذَا تَنْفَى التَّثْلِيثَ الْمَسِيحِيَّ، كَمَا وَ تَوَكَّدَ عَلَى رِسَالَةِ النَّبِيِّ الْعَالَمِيَّةِ وَ قَدْرِهِ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَمْرِ الْمَعَادِ.

و فِي الْخَتَامِ تَدْعُو جَمِيعَ أَهْلِ الْعَالَمِ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ الَّذِي لَمْ يَتَعَلَّمْ

القراءه و الكتابه و القائم من بين الناس فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ .

النَّبِيِّ الَّذِي لَا يُكْتَفَى بِدَعْوِهِ الْآخِرِينَ إِلَى هَذِهِ الْحَقَائِقِ فَحَسَبَ، بل يؤمن هو في الدرجه الأولى-بما يقول،يعنى الإيمان بالله و كلماته الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ .

إنه لا يؤمن فقط بالآيات التي نزلت عليه،بل يؤمن بجميع الكتب الحقيقه للأنبياء السابقين.

إنَّ إيمانه بدينه و الذي يتجلى من خلال أعماله و تصرفاته دليل واضح على حقانيته،لأن عمل الأمر بشيء يعكس مدى إيمانه بما يأمر به و يدعو إليه.و إيمانه بقوله أحد الأدله على صدقه.إنَّ تأريخ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ برمته يشهد بهذه الحقيقه و هى أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ كان أكثر من غيره التزاما بالتعاليم التي جاء بها.

أجل،لا بدَّ لكم من اتِّباع مثل هذا النَّبِيِّ حتى تسطع أنوار الهدايه على قلوبكم،لتهتدوا إلى طريق السعاده وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .
و هذا إشاره إلى أنه لا يكفى مجرد الإيمان،و إنما يفيد الإيمان إذا اقترن بالاتباع العملي.

و الجدير بالالتفات إلى أن الآيه الحاضره نزلت في مكه يوم كان المسلمون يشكلون أقلية صغيره جدًا بحيث إنه قلما كان هناك من يحتمل أن يسيطر النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ على مكه فضلًا عن جزيره العرب،أو قسم كبير من العالم.

و على هذا الأساس،فإنَّ الذين يتصورون أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ ادعى في البدايه تبليغ الرساله لأهل مكه فقط،و عند ما انتشر دينه و علا- أمره فكر في السيطرة على الحجاز،ثم فكر في البلاد الأخرى،و راسل ملوك العالم و أمراءه و قاداته،و أعلن عن رسالته العالميه.تجيب الآيه الحاضره التي نزلت في مكه على كل تصوراتهم هذه،فهى تصرح في غير إبهام و لا غموض بأنَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ أعلن عن دعوته العالميه منذ البدايه.

إشاره

وَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٍ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعدِلُونَ (١٥٩) وَ قَطَعْنَا لَهُمْ عَشْرَةَ أَسْبَابًا أُمَمًا وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَمَا تَبَجَّسَتْ مِنْهُ إِتْنَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَ ظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ مَا ظَلَمُونَا وَ لَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠)

التفسير

إشاره

جانب من نعم الله على بنى إسرائيل:

فى الآيات الحاضره إشاره إلى حقيقه رأينا نظيرها فى القرآن الكريم، و هذه الحقيقه هى تحرى القرآن للحق، و احترامه لمكانه الأقليات الدينيه الصالحه، يعنى أنه لم يكن ليصف جميع بنى إسرائيل بأسرهم بالفساد و الإفساد، و بأنّ هذا العزق القومى برمته ضالّ متمرّد من دون استثناء، بل اعترف بأنّ منهم أقلية صالحه غير موافقه على أعمال الأكثرية، و قد أولى القرآن الكريم اهتماما خاصا بهؤلاء فيقول: وَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٍ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعدِلُونَ .

إنّ هذه الآية قد تشير إلى فريق صغير لم يسلموا للسامريّ و دعوته، و كانوا يدافعون عن دين موسى دائماً و أبداً، أو إلى الفرق و الطوائف الصالحة الأخرى التي جاءت بعد موسى عليه السّلام.

و لكن هذا المعنى يبدو غير منسجم مع ظاهر الآية، لأنّ «يهدون» و «يعدلون» فعل مضارع، و هو على الأقل يحكى عن زمان الحال، يعنى عصر نزول القرآن، و يثبت وجود مثل هذا الفريق فى ذلك الزمان، إلا أن نقدّر فعل «كان» فتكون الآية إشاره إلى الزمان الماضى، و نعلم أن التقدير من دون قرينه خلاف الظاهر.

و كذلك يمكن أن يكون ناظراً إلى الأقلية اليهوديه الذين كانوا يعيشون فى عصر رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم و الذين اعتنقوا الإسلام تدريجاً و بعد مطالعه دعوه النّبى و محتوى رسالته، و انضموا إلى صفوف المسلمين الصادقين. و هذا التفسير ينسجم أكثر مع ظاهر الفعلين المضارعين المستعملين فيها.

و ما جاء فى بعض روايات الشيعة و السنه من أنّ هذه الآية إشاره إلى فريق صغير من بنى إسرائيل يعيشون فيما وراء الصين، عيشه عدل و تقوى و توحيد و عبوديه الله تعالى فغير مقبول، لأنّه مضافاً إلى عدم موافقته لما نعلمه من جغرافيا العالم اليوم، و مضافاً إلى أن التواريخ الحاضره الموجوده لا تؤيد هذا الموضوع، فإنّ الأحاديث المذكوره غير معتبره من حيث السند، و لا يمكن أن يعتمد عليها كأحاديث صحيحه حسب قواعد علم الرجال.

و فى الآية اللاحقه يشير القرآن الكريم إلى عدّه أقسام من نعم الله على بنى إسرائيل.

فيقول أولاً: وَقَطَّعُوا لَهُمْ عَشْرَةَ أَسْجِاطًا أُمَمًا و هذا التقطيع و التقسيم إنّما هو لأجل أن يسودهم نظام عادل، بعيد عن المصادمات الخشنه.

و واضح أنّه عند ما يكون فى شعب من الشعوب تقسيمات إداريه صحيحه

و منظّمه، و يخضع كل قسم من تلك الأقسام لقياده قائد قدير، فإنّ إدارتهم و رعايه العداله بينهم تكون أسهل، و لنفس هذا السبب عمدت جميع الدول إلى مثل هذا العمل و أخذت بهذه القاعده.

و «أسباط» جمع سبط (بفتح السين و بكسرهما) تعنى فى الأصل الانبساط فى سهوله، ثمّ يطلق السبط و الأسباط على الأولاد و بخاصّه الأحفاد لأنهم امتداد العائله.

و المراد من الأسباط-هنا- هو قبائل بنى إسرائيل و فروعها، الذين كان كل واحد منها منشعبا و منحدرًا من أحد أولاد يعقوب عليه السّلام.

و النّعمه الأخرى هى: أنّه عند ما كان بنو إسرائيل متوجهين إلى بيت المقدس و أصابهم العطش الشديد الخطير فى الصحراء، و طلبوا من موسى عليه السّلام الماء، أوحى إليه أن اضرب بعصاك الحجر... ففعل فنبع الماء فشربوا و نجوا من الهلاك و أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا .

و قد كانت الينابيع هذه مقسمه بين أسباط بنى إسرائيل بحيث عرف كل سبط منهم نبعه الذى يشرب منه قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ .

و يستفاد من هذه الجملة أنّ هذه الينابيع الاثنى عشر التى نبعت من تلك الصخره العظيمه كانت معلّمه بعلامات و متميز بعضها عن بعض بفوارق، بحيث كان يعرف كل فريق من فرق بنى إسرائيل نبعه المختص به و المقرّر له، لا يقع بينهم أى خلاف و يسود النظم و الانضباط فى جماعتهم، و يتمّ الشرب بصوره أسهل و أفضل.

و النّعمه الثالثه هى: أن الله تعالى أرسل لهم- فى تلك الصحارى الملتهبه حيث لا سقف و لا ضلال- سحبا ظللتهم و ظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْعَمَامَ .

و النّعمه الرّابعه إنزال المنّ و السلوى عليهم كغذائين لذيين و مقويين

ثمَّ إنّ المفسرين أعطوا تفسيرات متنوعه لهذين الغداءين «المنّ» و«السلوى» اللذين أنزلهما الله على بنى إسرائيل فى تلك الصحراء القاحله (و قد ذكرنا هذه التفاسير عند دراسه الآيه ٥٧ من سوره البقره) و قلنا بأنه لا يبعد أنّ «المنّ» كان نوعا من العسل الطبيعى الذى كان فى بطون الجبال المجاوره، أو عصارات و إفرازات نباتيه كانت تظهر على أشجار كانت نابته هنا و هناك فى تلك الصحراء، و«السلوى» نوع من الطير الحلال اللحم شبيه بالحمام.

ثمَّ يقول الله تعالى: وَ قَلْنَا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .

وَ لَكَنَّهُمْ أَكَلُوا وَ كَفَرُوا النعمه وَ لم يشكروها وَ بذلك ظلموا فى الحقيقه أنفسهم وَ مَا ظَلَمُونَا وَ لَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

و يجب الانتباه إلى أن مضمون هذه الآيه جاء فى الآيات (٥٧) و(٦٠) من سوره البقره مع فارق بسيط، غايه ما فى الأمر أنه عبر عن نبوع الماء من الصخر هنا ب«انبجست» و هناك ب«انفجرت»، و حسب اعتقاد جماعه من المفسرين أنّ التفاوت بين هاتين العبارتين هو أن «انفجرت» تعنى «خروج الماء بدفع، و كثره» و«انبجست» تعنى «خروج الماء بقله» و لعل هذا التفاوت لأجل الإشاره إلى أنّ عيون الماء المذكوره لم تنبع من الصخره العظيمه دفعه حتى يصير ذلك سببا لاستيحاشهم و خوفهم و قلقهم، و لا تكون لهم قدره على تنظيم المياه المندفقه و حصرها، بل خرجت ابتداء بهدوء و قله، ثمّ توسعت المجارى و كثرت المياه النابعه.

و ذهب بعض المفسرين إلى أنّ هاتين الكلمتين ترجعان إلى مفهوم واحد.

اشاره

وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ
(١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢)

التفسير

اشاره

فى تعقيب الآيات السابقة تشير هاتان الآيتان إلى قسم آخر من المواهب الإلهية لبنى إسرائيل و طغيانهم تجاه تلك النعم، و كفرانهم بها.

يقول تعالى: (و)اذكروا إِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ .

و قلنا لهم اطلبوا من الله حطّ الذنوب عنكم و عفوه عن خطاياكم، و ادخلوا من باب بيت المقدس بخضوع و قولوا حِطَّةً وَ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا .

فإذا قمتم بهذه الأمور غفرنا لكم خطاياكم، و أعطينا للمحسنين ثوابا أكبر و نَغْفِرُ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ .

و بالرغم من أن الله فتح أمامهم أبواب الرحمة، و لو أردوا اغتنام الفرصه لاستطاعوا حتما إصلاح ماضيهم و حاضرهم، و لكن لم يغتتم الظالمين من بنى إسرائيل هذه الفرصه فحسب، بل بدلوا أمر الله، و قالوا خلاف ما أمروا أن يقولوه:

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ

و فى المآل نزل عليهم بسبب هذا الطغيان و الظلم للنفس و للآخرين عذاب من السماء فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ .

و يجب الانتباه إلى أنّ مضمون هاتين الآيتين جاء أيضا- مع فارق بسيط- فى سورة البقره الآيه (٥٨) و (٥٩) و قد أوردنا تفسيراً أكثر تفصيلاً هناك.

و الفرق الوحيد بين هذه الآيات المبحوثه هنا، و آيات سورة البقره هو أنه يقول هنا: بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ، و قال هناك: بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ، و لعل الفارق بين هذين إنما هو لأجل أن الذنوب لها جانبان: أحدهما الجانب المرتبط بالله، و الجانب الآخر مرتبط بنفس الإنسان. و قد أشار القرآن إلى الجانب الأول فى آيه سورة البقره بعبارة «الفسق» الذى مفهومه الخروج عن طاعه الله، و إلى الثانى فى الآيه الحاضره بعبارة «الظلم».

ما هي «حطه» و ماذا تعنى؟

الجدير بالذكر أن بنى إسرائيل كانوا مكلفين بأن يطهروا قلوبهم و ارواحهم عند دخولهم بيت المقدس من أدران الذنوب بتوبه خالصه و واقعيه تتلخص فى كلمه «حطه» و أن يطلبوا من الله المغفره لكل تلك الجرائم التى ارتكبوها، و بخاصه ما آذوا به نبيهم العظيم موسى بن عمران قبل ورودهم بيت المقدس.

و كلمه «حطه» التى كانت- فى الحقيقه- شعارهم عند دخولهم بيت المقدس، هى صوره اختصاريه لعباره «مسألتنا حطه» يعنى نطلب منك يا رب أن تحطّ عنّا ذنوبنا يا نزال شآبيب الرحمة و العفو علينا، لأنّ «حطه» معناها إنزال

الشيء من علو و هذا الشعار شأنه شأن جميع الشعارات الأخرى لا- يكفى فيه أن يكون مجرد لقلقه لسان، بل يجب أن يكون اللسان ترجمان الروح و مرآه الوجدان، و لكنهم- كما سيأتى فى الآيه اللاحقه- مسخوا كثيرا من تلك الشعارات حتى هذا الشعار التربوى، و جعلوه وسيله للهو و الاستهزاء و السخرية.

ص: ٢٤٢

إشاره

وَ شِئْلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَابُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَ يَوْمَ لَا يَسْتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ
كَذَلِكَ نَبَلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَ إِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ
إِلَى رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِقَابٍ يَبِيسٍ بِمَا كَانُوا
يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)

التفسير

إشاره

قصه فيها عبره:

في هذه الآيات يستعرض مشهدا آخر من تاريخ بنى إسرائيل الزاخر بالحوادث، و هو مشهد يرتبط بجماعه منهم كانوا يعيشون عند ساحل بحر. غايه ما في الأمر أن الخطاب موجه فيها إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم، فيقول له: أسأل يهود

عصر ك حول تلك الجماعه، يعنى جدّ هذه الخاطره فى أذهانهم عن طريق السؤال ليعتبروا بها، و يجتنبوا المصير و العقاب الذى ينتظرهم بسبب طغيانهم و تعنتهم.

إنّ هذه القصّه - كما أشير إليها فى الأحاديث الإسلاميه - ترتبط بجماعه من بنى إسرائيل كانوا يعيشون عند ساحل أحد البحار (و الظاهر أنّه ساحل البحر الأحمر المجاور لفلسطين) فى ميناء يسمى بميناء «أيله» (و الذى يسمى الآن بميناء ايلات) و قد أمرهم الله تعالى على سبيل الاختبار و الامتحان أن يعطّلوا صيد الأسماك فى يوم السبت، و لكنّهم خالفوا هذا التعليم، فأصيبوا بعقوبه موجعه مؤلمه نقرأ شرحها فى هذه الآيات.

فى البدايه تقول الآيه: وَ شِئْنُ لَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ. أى أسأل يهود عصر ك عن قضيه القرية التى كانت تعيش على ساحل البحر.

ثمّ تقول: و ذكرهم كيف أنّهم تجاوزوا - فى يوم السبت - القانون الإلهى إذ يَعُدُونَ فى السَّبْتِ لأنّ يوم السبت كان يوم عطلتهم، و كان عليهم أن يكفوا فيه عن الكسب، و عن صيد السمك و يشتغلوا بالعباده، و لكنّهم تجاهلوا هذا الأمر.

ثمّ يشرح القرآن العدوان المذكور بالعباده التاليه: إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيَتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا فَالْأَسْمَاكُ كَانَتْ تَظْهَرُ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ فى يوم السبت، بينما كانت تختفى فى غيره من الأيام.

و«السبت» فى اللغة تعنى تعطيل العمل للاستراحه، و ما نقرؤه فى سوره النبأ وَ جَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُباتًا أشاره - كذلك - إلى هذا الموضوع، و سمى «يوم السبت» بهذا الاسم لأنّ الأعمال العاديه و المشاغل كانت تتعطل فى هذا اليوم، ثمّ بقى هذا الاسم لهذا اليوم علما له.

و من البديهى أنّ صيد الأسماك يشكّل لدى سكنه ساحل البحر مورد كسبهم و تغذيتهم، و كأنّ الأسماك بسبب تعطيل عمليه الصيد فى يوم السبت صارت

تحس بنوع من الأمن من ناحيه الصيادين، فكانت تظهر على سطح الماء أفواجا أفواجا، بينما كانت تتوغل بعيدا فى البحر فى الأيام الأخرى التى كان الصيادون فيها يخرجون للصيد.

إنّ هذا الموضوع سواء كان له جانب طبيعى عادى أم كان له جانب استثنائى و إلهى، كان وسيله لامتحان و اختبار هذه الجماعة، لهذا يقول القرآن الكريم:

و هكذا اختبرناهم بشيء يخالفونه و يعصون الأمر فيه كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ .

و جمله بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ إشاره إلى أنّ اختبارهم كان بما من شأنه أن يجذبهم و يدعوهم إلى نفسه، و إلى المعصيه و المخالفه، و جميع الاختبارات كذلك، لأن الاختبار يجب أن يبين مدى مقاومه الأشخاص أمام جاذبيه المعاصى و الذنوب.

عند ما واجهت هذه الجماعة من بنى إسرائيل هذا الامتحان الكبير الذى كان متداخلا مع حياتهم تداخلا كاملا، انقسموا إلى ثلاث فرق:

«الفريق الأول» و كانوا يشكّلون الأكتريه، و هم الذين خالفوا هذا الأمر الإلهى.

«الفريق الثانى» و كانوا على القاعده يشكّلون الأقلية، و هم الذين قاموا- تجاه الفريق الأول بوظيفه الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر.

«الفريق الثالث» و هم الساكتون المحايدون الذين لم يوافقوا العصاه، و لا قاموا بوظيفه الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر.

و فى الآيه الثانیه من الآيات المبحوثه هنا يشرح الحوار الذى دار بين العصاه، و بين الذين نهوهم عن ارتكاب هذه المخالفه فيقول: وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ

فأجابهم الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر: بأننا ننهي عن المنكر لأننا نؤدى واجبنا تجاه الله تعالى، و حتى لا نكون مسئولين تجاهه، هذا مضافا إلى أننا نأمل أن يؤثر كلامنا في قلوبهم، و يكفوا عن طغيانهم و تعنتهم [□] قالوا مَعذِرَةٌ [□] إِلَى رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

و يستفاد من الجملة الحاضره أن هؤلاء الواعظين كانوا يفعلون ذلك بهدفين:

الأول: أنهم كانوا يعظون العصاه حتى يكونوا معذورين عند الله.

و الآخر: عسى أن يؤثر في نفوس العصاه، و يفهم من هذا الكلام أنهم حتى مع عدم احتمال التأثير، فإنهم كانوا لا يحجمون عن الوعظ و النصيحة في حين أن المعروف هو أن وجوب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر مشروطين باحتمال التأثير.

و لكن لا بد من الانتباه إلى أنه ربما يجب بيان الحقائق و الوظائف الإلهيه حتى مع عدم احتمال التأثير، و ذلك عند ما يكون عدم بيان الأحكام الإلهيه، و عدم إنكار المنكر سببا لتناسي و تنامي البدع، و حينما يعدّ السكوت دليلا على الرضا و الموافقه. ففي هذه الموارد يجب إظهار الحكم الإلهي في مكان حتى مع عدم تأثيره في العصاه و المذنبين.

إن هذه النقطة جديره بالالتفات، و هي أن الناهين عن المنكر كانوا يقولون:

نحن نريد أن نكون معذورين عند (ربكم) و كأنّ هذا إشاره إلى أنّكم أيضا مسئولون أمام الله، و إنّ هذه الوظيفه ليست وظيفتنا فقط، بل هي وظيفتكم تجاه ربكم في الوقت ذاته.

ص: ٢٦٦

١- ١) التعبير ب«أمه منهم» يكشف عن أن الفريق الثاني كانوا أقل من العصاه، لأنه عبر عنهم بلفظه «قوما» بدون كلمه منهم) و تقرأ في بعض الآيات أنّ عدد نفوس هذه المدينه كان ثمانين ألف و بضعه آلاف، و قد ارتكب ٧٠ ألفا منهم هذه المعصيه (راجع تفسير البرهان، المجلد الثاني، الصفحه ٤٢).

ثم إن الآيه اللاحقه تقول: وفي المآل غلبت عباده الدنيا عليهم، و تناسوا الأمر الإلهي، و في هذا الوقت نجينا الذين كانوا ينهاون عن المنكر، و عاقبنا الظالمين بعقاب أليم منهم بسبب فسقهم و عصيانهم فلما نسوا ما ذكروا به أنجيننا الذين ينهون عن السوء و أخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون (١).

و لا شك أن هذا النسيان ليس نسيانا حقيقيا غير موجب للعدر، بل هو نوع من عدم الاكتراث و الاعتناء بأمر الله، و كأنه قد نسي بالمره.

ثم يشرح العقوبات هكذا: فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين (٢).

و واضح أن أمر «كونوا» هنا أمر تكويني مثل: إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون (٣).

بحوث

اشاره

و هنا نقاط عديده يجب الالتفات إليها:

١- كيف ارتكبوا هذه المعصيه؟

و أما كيف بدأت هذه الجماعه عمليه التجاوز على هذا القانون الإلهي؟ فقد وقع فيه كلام بين المفسرين.

ص: ٢٦٧

١- ١) بئيس مشتقه من ماده «بأس» يعنى الشديد.

٢- ٢) «عتوا» من ماده عتو على وزن «غلو» بمعنى الامتناع عن طاعه أمر، و ما ذكره بعض المفسرين من تفسيره بمعنى الامتناع فقط يخالف ما قاله أرباب اللغه.

٣- ٣) سوره يس، ٢٨.

و يستفاد من بعض الروايات أنهم عمدوا في البدايه إلى ما يسمى بالحيله الشرعيه، فقد أحدثوا أحواضا إلى جانب البحر، وفتحوا لها أبوابا إلى البحر، فكانوا يفتحون هذه الأبواب في يوم السبت فتقع فيها أسماك كثيره مع ورود الماء إليها، و عند الغروب حينما كانت الأسماك تريد العوده إلى البحر يوصدون تلك فتحبس الأسماك في تلك الأحواض، ثم يعمدون في يوم الأحد إلى صيدها، و أخذها من الأحواض، و كانوا يقولون: إنَّ الله أمرنا أن لا نصيد السمك، و نحن لم نصد الأسماك إنَّما حاصرناها فقط (١).

و يقول بعض المفسرين: إنَّهم كانوا يرسلون كلالبيهم و صناراتهم و شباكهم في البحر يوم السبت، ثم يسحبونها يوم الأحد و قد علقت بها الأسماك، و هكذا كانوا يصيدون السمك حتى في يوم السبت و لكن بصوره ما كره.

و يظهر من بعض الروايات الأخرى أنَّهم كانوا يصيدون السمك يوم السبت من دون مبالاه بالنهي الإلهي، و ليس بواسطه أيه حيله.

و لكن من الممكن أن تكون هذه الروايات صحيحه بأجمعها و ذلك أنَّهم في البدايه استخدموا ما يسمى بالحيله الشرعيه، و ذلك بواسطه حفر أحواض إلى جانب البحر، أو إلقاء الكلاليب و الصنارات، ثم لما صغرت هذه المعصيه في نظرهم، جرَّأهم ذلك على كسر احترام يوم السب و حرمة، فأخذوا يصيدون السمك في يوم السبت تدريجا و علنا، و اكتسبوا من هذا الطريق ثروه كبيره جدا.

٢- من هم الذين نجوا؟

الظاهر من الآيات الحاضره أنَّ فريقا واحدا من الفرق الثلاثه (العصاه، المتفرجون، الناصحون) هو الذي نجى من العذاب الإلهي و هم افراد الفريق

ص: ٢٤٨

١- (١) تفسير البرهان، المجلد ٢، الصفحه ٢٢، و قد روى هذا الكلام عن ابن عباس في تفسير مجمع البيان في ذيل الآيه.

الثالث.

و كما جاء فى الروايات، فإنه عند ما رأى هذا الفريق أن عظامه و نصائحه لا تجدى مع العصاه انزعجوا و قالوا: سنخرج من المدينة، فخرجوا إلى الصحراء ليلا، و اتفق أن أصاب العذاب الإلهى كلا الفريقين الآخرين.

و أمّا ما احتمله بعض المفسرين من أن العصاه هم الذين أصيبوا بالعذاب فقط، و نجى الساكتون أيضا، فهو لا يتناسب مع ظاهر الآيات الحاضره.

٣- هل أن كلا الفريقين عوقبوا بعقاب واحد

يظهر من الآيات الحاضره أن عقوبه المسخ كانت مقتصره على العصاه، لأنه تعالى يقول: **فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ... و لكن من جانب آخر يستفاد من الآيات الحاضره- أيضا- أن الناصحين الواعظين فقط هم الذين نجوا من العقاب، لأنه تعالى يقول: أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ .**

من مجموع هاتين الآيتين يتبين أن العقوبه نالت كلا الفريقين، و لكن عقوبه المسخ اختصت بالعصاه فقط، و أمّا عقوبه الآخرين فمن المحتمل أنها كانت الهلاك و الفناء، بالرغم من أن العصاه أيضا هلكوا بعد مدّه من المسخ حسب ما جاء فى هذا الصدد من الروايات. (١)

٤- هل المسخ كان جسمانيا أو روحانيا؟

«المسخ» أو بتعبير آخر «تغيير الشكل الإنسانى إلى الصورة الحيوانيه» و من المسلم أنه حدث على خلاف العاده و الطبيعه.

على أنه قد شوهدت حالات جزئيه من (موتاسيون) و القفزه، و تغيير الشكل

ص: ٢٦٩

١- ١) و إذا كان يستفاد من بعض الروايات خلاف هذا الموضوع، فإنه مضافا إلى أنه لا يمكن الاعتماد عليه فى مقابل ظاهر الآيات فإنما ضعيفه من حيث السند أيضا، و يحتمل أن يكون الراوى قد أخطأ فى نقل الروايه.

و الصورة فى الحيوانات إلى أشكال و صور أخرى، و قد شكّلت أسس فرضيه التكامل فى العلوم الطبيعیه الحاضره.

و لكنّ الموارد التى شوهدت فيها ال«موتاسيون» و القفزه إنّما هى فى صفات الحيوانات الجزئيه، لا الصفات الكلئيه، يعنى أنّه لم يشاهد إلى الآن نوعا من أنواع الحيوان تغيّر على أثر ال«موتاسيون» إلى نوع آخر، بل يمكن أن تتغير خصوصيات معينه من الحيوان، ناهيك عن أنّ هذه التغيرات إنّما تظهر فى الأجيال التى توجد فى المستقبل، لا أن يحصل هذا التغير فى الحيوان يتولد من أمّه.

و على هذا الأساس، يكون تغير صورته إنسان أو حيوان إلى صورته نوع آخر أمرا خارقا للعادة.

و لكن تقدم أنّ هناك أمورا تحدث على خلاف العاده و الطبيعیه، و هذه الأمور ربّما تقع فى صورته المعاجز التى يأتى بها الأنبياء، و أحيانا تكون فى صورته الأعمال الخارقه للعادة التى تصدر من بعض الأشخاص، و إن لم يكونوا أنبياء (و هى تختلف عن معاجز الأنبياء طبعاً).

و بناء على هذا، و بعد القبول بإمكان وقوع المعاجز و خوارق العاده، لا مانع من مسخ صورته إنسان إلى إنسان آخر. و لا يكون ذلك مستحيلا تاباه العقول.

و وجود مثل هذه الخوارق للعادة- كما قلنا فى مبحث إعجاز الأنبياء- لا هو استثناء و خرق لقانون العليه، و لا هو خلاف العقل، بل هو مجرد كسر قضيه «عاديّه طبيعئيه» فى مثل هذه الموارد، و لها نظائر رأيناها فى الأشخاص غير العاديين (1).

ص: ٢٧٠

١- ١) لقد جمع أحد الكتّاب المعاصرين نماذج كثيره- من مصادر موثوقه- لأشخاص من البشر أو حيوانات استثنائئيه، ملفته للنظر و مثيره للعجب، و من جمله ذلك: إنسان يستطيع قراءه السطور بأصابعه، أو امرأه وضعت مرتين فى خلال شهرين، و فى كل مره ولدت ولدا، أو طفلا كان قلبه خارج صدره، أو امرأه لم تكن تعرف أنّها حامل حتى لحظه وضعها لوليدها، و ما شابه ذلك.

بناءً على هذا لا- مانع من قبول «المسخ» على ما هو عليه في معناه الظاهري الوارد في الآيه الحاضره و بعض الآيات القرآنيه الأخرى، و أكثر المفسرين قبلوا هذا التفسير أيضا.

و لكن بعض المفسرين -و هم الأقلية- قالوا: إنَّ المسخ هو «المسخ الروحاني» و الانقلاب في الصفات الأخلاقيه، بمعنى ظهور صفات مثل صفات القرد أو الخنازير في الطغاه و المتعنتين، مثل الإقبال على التقليد الأعمى و التوجه الشديد إلى البطنه و الشهوه، التي هي صفات بارزه لهذين الحيوانين.

و هذا الاحتمال نقل عن أحد المفسرين القدامى و هو مجاهد.

و ما أخذه البعض على مسأله المسخ، و أنه خلاف التكامل، و أنه يوجب العوده و الرجوع و التقهقر في الخلقه غير صحيح، لأنَّ قانون التكامل يرتبط بالذين يسرون في طريق التكامل، لا أولئك الذين انحرفوا عن مسيره التكامل، و خرجوا عن دائره هذا القانون.

فعلى سبيل المثال: الإنسان السليم ينمو نموا منتظما في أعوام الطفوله، و لكنّه إذا حصلت في وجوده بعض النقائص، فيمكن أن لا يتوقف الرشد و النمو فحسب، بل يتقهقر و يفقد نموه الفكري و الجسماني تدريجا.

و لكن يجب الانتباه على كل حال إلى أنَّ المسخ و التبدل و التحول الجسماني يتناسب مع الأعمال التي قام بها الشخص، يعنى أنَّ بعض العصاه يسلكون سبيل الطغيان تحت ضغط من دوافع الهوى و الشهوه، و جماعه أخرى تتلوث حياتهم بأدران الذنوب أثر التقليد الأعمى، و لهذا يظهر المسخ في كل فريق من هذه الفرق بصوره متناسبه مع كيفيه أعمالهم.

على أنه قد جرى الحديث في الآيات الحاضره فقط عن «القرد» و لم يجر أى حديث عن «الخنازير» و لكن في الآيه (٦٠) من سوره المائده يدور الحديث حول جماعه مسخ بعضهم في صورتين (بعض قرده و بعض خنازير) و هذه الآيه

حسبما قال بعض المفسرين: نزلت حول أصحاب السبت، فالكبار منهم الذين أطاعوا أمر الشهوه و البطن مسخوا خنازير، والشباب المقلد لهم تقليداً أعمى و كانوا يشكلون الأكرهيه مسخوا قرده.

و لكن على كل حال يجب الالتفات إلى أنّ الممسوخين -حسب الروايات- بقوا على هذه الحاله عده أيام ثم هلكوا، و لم يتولد منهم نسل أبداً.

٥- المخالفه تحت غطاء الحيله الشرعيه

إنّ الآيات الحاضره و إن كانت لا تتضمن الإشاره إلى تحايل أصحاب السبت في صعيد المعصيه، و لكن -كما أسلفنا- أشار كثير من المفسرين في شرح هذه الآيات إلى قصه حفر الأحواض، أو نصب الصنارات في البحر في يوم السبت، و يشاهد هذا الموضوع نفسه في الروايات الإسلاميه، و بناء على هذا تكون العقوبه الإلهيه التي جرت على هذا الفريق -بشده- تكشف عن أن الوجه الحقيقي للذنب لا يتغير أبداً بانقلاب ظاهره، و باستخدام ما يسمى بالحيله الشرعيه، فالحرام حرام سواء أتى به صريحاً، أو تحت لفافات كاذبه، و معاذير واهيه.

إنّ الذين تصوروا أنه يمكن بالتغيير الصوري تبديل عمل حرام إلى حلال يخدعون أنفسهم في الحقيقه، و من سوء الحظ أن هذا العمل رائج بين بعض الغفله الذين ينسبون أنفسهم إلى الدين و هذا هو الذى يشوّه وجه الدين في نظر الغرباء عن الدين، و يكرّزه إليهم بشده.

إن العيب الأكبر الذى يتسم به هذا العمل -مضافاً إلى تشويه صورته الدين- هو أن هذا العمل التحايلي يصغر الذنب في الأنظار و يقلل من أهميته و خطورته و قبحه، و يجزئ الإنسان في مجال الذنب إلى درجه أنه يتهاى شيئاً فشيئاً لارتكاب الذنوب و المعاصي بصوره صريحه و علينه. فنحن

نقرأ في نهج البلاغه

ص: ٢٧٢

أن الإمام علياً عليه السلام قال: «إن القوم سيفتنون بأموالهم، و يمنون بدينهم على ربهم، و يتمنون رحمته، و يأمنون سطوته، و يستحلون حرامه بالشبهات الكاذبه و الأهواء الساهيه، فيستحلون الخمر بالنبيذ (1) و السحت بالهديه، و الربا بالبيع» (الخطبه ١٥٦).

و يجب الانتباه إلى الدافع وراء أمثال هذه الحيل، إما لباس الباطن القبيح بلباس قشيب و إظهاره بمظهر حسن أمام الناس، و إما خداع الضمير، و اكتساب طمأنينه نفسه كاذبه.

٦- أنواع الابتلاء الإلهي المختلفه

صحيح أن صيد السمك من البحر لسكان السواحل لم يكن مخالفه، و لكن قد ينهى الله جماعه من الناس و بصوره مؤقتة، و بهدف الاختبار و الامتحان عن مثل هذا العمل، ليرى مدى تفانيهم، و يختبر مدى إخلاصهم، و هذا هو أحد أشكال الامتحان الإلهي.

هذا مضافا إلى أن يوم السبت كان عند اليهود يوما مقدسا، و كانوا قد كلفوا-احتراما لهذا اليوم بالتفرغ للعباده و ممارسه البرامج الدينيه- و الكف-عن الكسب و الإشتغال بالأعمال اليوميه، و لكن سكان ميناء «أيله» تجاهلوا كل هذه الاعتبارات و المسائل، فعوقبوا معاقبه شديده جعلت منهم و من حياتهم المأساويه و مصيرهم المشؤوم درس و عبره للأجيال اللاحقه.

ص: ٢٧٣

١-١) كان النبيذ عباره عن وضع مقدار من التمر أو الشعير أو الزبيب في الماء، عدّه أيام، ثم شربه و هذا و إن لم يكن حراما شرعا، و لكنّه على أثر سخونه الهواء تتبدل المواد السكريه فيه إلى مواد كحوليه خفيفه.

اشاره

وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبَعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧) وَ قَطَعْنَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَ بَلَوْنَا لَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَ السَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨)

التفسير

اشاره

تفرق اليهود و تشتتهم:

هذه الآيات إشاره إلى قسم من العقوبات الدنيويه التي أصابت جماعه من اليهود خالفت أمر الله تعالى، و سحقت الحق و العدل و الصدق.

فيقول في البدايه: و اذكروا يوم أخبركم الله بأنه سيسلط على هذه الجماعه العاصيه المتمرده فريقا يجعلها حليفه العذاب و الأذى إلى يوم القيامة و إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبَعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ .

و«تأذن» و«أذن» كلاهما بمعنى الإخبار و الإعلام، و كذا جاء بمعنى الحلف و القسم، و في هذه الصوره يكون معنى الآية أنّ الله تعالى أقسم بأن يكون مثل

هؤلاء الأشخاص فى العذاب إلى يوم القيامة.

و يستفاد من هذه الآية أنّ هذه الجماعة المتمردة الطاغية لن ترى وجه الاستقرار و الطمأنينه أبداً، و إن أسّست لنفسها حكومه و شيدت دوله، فإنها مع ذلك ستعيش حاله اضطراب دائم و قلق مستمر، إلا أن تغير-بصدق-سلوكها، و تكفّ عن الظلم و الفساد.

و فى ختام الآية يضيف تعالى قائلا: **إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ** وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ فبالنسبه إلى الكفار سريع العقاب، و بالنسبه للمذنبين التائبين التائبين غفور رحيم.

و هذه الجملة تكشف عن أنّ الله قد ترك الباب مفتوحاً أمامهم حتى لا يظن أحد أنه قد كتب عليهم المصير المحتوم و الشقاء الابدى الذى لا خلاص منه.

و فى الآية اللاحقه يشير تعالى إلى تفرق اليهود فى العالم فيقول: **وَ قَطَعْنَا هُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ** فهم متفرقون منقسمون على أنفسهم بعضهم صالحون، و لهذا عند ما سمعوا ببناء الإسلام و عرفوا دعوه النبي محمد صلى الله عليه و آله و سلم آمنوا به، و بعضهم لم يكونوا كذلك بل ألقوا الحق وراءهم ظهرياً، و لم يرتدعوا عن معصيه فى سبيل ضمان مصالحهم و حياتهم الماديه.

و مرّه أخرى تتجلى هذه الحقيقه فى هذه الآية و هى أنّ الإسلام لا يعادى العنصر اليهودى، و لا يشجبهم لكونهم أتباع دين معين، أو منتمين إلى عنصر و عرق معين، بل يجعل أعمالهم هى مقياس تقييمهم.

ثم يضيف تعالى قائلا: **وَ بَلَّوْنَا هُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَ السَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** .

أى ربّما نكرمهم و نجعلهم فى رفاه و نعمه حتى نثير فيهم روح الشكر، و يعودوا إلى طريق الحق. و ربّما نغرقهم فى الشدائد و المصاعب و المصائب حتى ينزلوا عن مركب الغرور و الأنانيه و التكبر، و يقفوا على عجزهم، لعلهم يستيقظون

و يعودون إلى الله، و الهدف في كلتا الحالتين هو التربيه و الهدايه و العوده إلى الحق.

و على هذا الأساس تشمل «الحسنات» كل نعمه و رفاه و استقرار، كما تشمل «السيئات» كل نقمه و شدة، و حصر هذين المفهومين في دائر ضيقه معينه لا دليل عليه

ص: ٢٧٤

اشاره

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذْنَىٰ وَ يَقُولُونَ سَيُعَذِّبُنَا وَإِن يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَ دَرَسُوا مَا فِيهِ وَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)

التفسير

فى الآيات الماضيه دار الحديث حول أسلاف اليهود، و لكن فى الآيه الحاضره دار الكلام حول أبنائهم و أخلافهم.

و فى البدايه يقول تعالى: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذْنَىٰ إِنَّهُمْ وَرِثُوا التوراه عن أسلافهم، و كان عليهم أن ينتفعوا بها و يهتدوا، و لكنهم رغم ذلك فتنوا بمتاع هذه الدنيا و حطامها الرخيص التافه، و استبدلوا الحق و الهدى بمنافعهم الماديه.

و«خلف» على وزن«حرف» يأتى غالبا فى الأولاد غير الصالحين- كما

ذهب إلى ذلك بعض المفسرين، في حين أن «الخلف» على وزن «شرف» يأتي بمعنى الولد الصالح (١).

ثم يضيف قائلا: وعند ما وقعوا بين مفترق طريقين: بين ضغط الوجدان من جهة، والرغبات و المنافع المادية من جهة أخرى عمدوا إلى الأمانى و الآمال الكاذبه و قالوا: لنأخذ المنافع الدنيويه فعلا- سواء من حلال أو حرام، و الله سيرحمنا و يغفر لنا و يَقُولُونَ سَيَغْفِرُ لَنَا .

إن هذه الجملة تكشف عن أنهم كانوا بعد القيام بمثل هذا العمل يتخذون حاله من الندم العابر و التوبه الظاهريه، و لكن هذه الندامه- كما يقول القرآن الكريم- لم تكن لها أيه جذور في أعماق نفوسهم، و لهذا يقول تعالى: وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلَهُ يَأْخُذُوهُ .

و«عرض» على وزن «غرض» يعنى الشىء الذى لا ثبات له و لا- دوام، و من هذا المنطق يطلق على متاع العالم المادى اسم العرض، لكونه زائلا- غير ثابت فى الغالب، فهو يقصد الإنسان يوما و يقبل عليه بوفره بحيث يضع الإنسان حسابه و لا يعود قادرا على عده و إحصائه و يتعد عنه و جمعه و حصره، يوما آخر بالكلية بحيث لا يملك منه إلا الحسره و التذكر المؤلم، هذا مضافا إلى أن جميع نعم هذه الدنيا هى أساسا غير دائمه، و غير ثابتة (٢).

و على كل حال، فإن هذه الجملة إشاره إلى عمليات الارتشاء التى كان يقوم بها بعض اليهود لتحريف الآيات السماويه، و نسيان أحكام الله لمضادتها لمصالحهم و منافعهم الماديه.

و لهذا قال تعالى فى عقيب ذلك:

ص: ٢٧٨

١- ١) مجمع البيان، و تفسير ابن الفتوح الرازى، فى ذيل الآيه الحاضره.

٢- ٢) يجب الانتباه، إلى أن «عرض» على وزن «غرض» يختلف عن «عرض» على وزن (فرض) فالأول بمعنى كل رأس مال دنيوى، و الثانى بمعنى المال النقدى.

أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، وَلَا يَحْرَفُوا كَلِمَاتِهِ، وَلَا يَقُولُوا إِلَّا الْحَقَّ

أى أنهم أخذ عليهم الميثاق-بواسطة كتابهم السماوى التوراه-أن لا-يفتروا على الله كذبا،و لا- يحرفوا كلماته،و لا يقولوا إلا الحق.

ثم يقول: لو كان هؤلاء الذين يرتكبون هذه المخالفات جاهلون بالآيات الإلهيه،لكان من الممكن أن ينحتوا لأنفسهم أعذارا،و لكن المشكله هى أنهم رأوا التوراه مرارا و فهموا محتواها و مع ذلك ضيعوا أحكامها،و نبذوا أمرها وراء ظهورهم وَ دَرَسُوا مَا فِيهِ و«الدرس»فى اللغه يعنى تكرار شىء،و حيث أن الإنسان عند المطالعه، و تلقى العلم من الأستاذ و المعلم يكرّر المواضيع،لهذا أطلق عليه لفظ«الدرس» و إذا ما رأينا أنهم يستعملون لفظه«درس و الاندراس»على انمحاء أثر الشىء فإنما هو لهذا السبب و بهذه العناية،و لأن الأمطار و الرياح و الحوادث الأخرى تتوالى على الأبنيه القديمه و تبليها.

و فى ختام الآيه يقول:إِنَّ هَؤُلَاءِ يَخْطُونَ فى تقديرهم للأمر،و إن هذه الأعمال لن تجديهم نفعاً وَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

ألا- تفهمون هذه الحقائق الواضحه أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟؟ و فى مقابل الفريق المشار إليه سابقا يشير تعالى إلى فريق آخر لم يكتفوا بعدم اقرار جريمه تحريف الآيات الإلهيه و كتمانها فحسب،بل تمسكوا بحذافيرها و طبقوها فى حياتهم حرفا بحرف،و القرآن يصف هذه الجماعه بأنهم مصلحو العالم،و يعترف لهم بأجر جزيل و ثواب عظيم،و يقول عنهم: وَ الَّذِينَ يَمْسُكُونَ بِالْكِتَابِ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُنْضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ .

و قد وقع كلام بين المفسرين حول المراد من«الكتاب»و هل أنه التوراه أو القرآن الكريم؟بعض ذهب إلى الأول،و بعض إلى الثانى.و الظاهر أنه إشاره إلى فريق من بنى إسرائيل الذين انفصلوا عن الضالين الظالمين،و عاكسوهم فى سلوكهم و موقفهم.و لا شك أن التمسك بالتوراه و الإنجيل و ما فيهما من بشائر

بظهور نبيّ الإسلام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، لا ينفصل عن الإيمان بهذا النبيّ.

إنّ في التعبير بـ«يمسّ كون» الذي هو بمعنى الاعتصام و التمسك بشيء نكته ملفته للنظر، لأنّ التمسك بمعنى الأخذ و الالتصاق بشيء لحفظه و صيانتها، و هذه هي الصورة الحسيّة للكلمة، و أمّا الصورة المعنوية لها فهي أن يلتزم الإنسان بالعقيدة بمنتهى الجديه و الحرص، و يسعى في حفظها و حراستها.

إنّ التمسك بالكتاب الإلهي ليس هو أن يمسك الإنسان بيده أوراقا من القرآن أو التوراه أو الإنجيل أو أى كتاب آخر و يشدّها عليه بقوه، و يجتهد في حفظ غلافه و ورقه من التلف، بل التمسك الواقعي هو أن لا يسمح لنفسه بأن يرتكب أدنى مخالفه لتعاليم ذلك الكتاب، و أن يجتهد في تحقيق و تطبيق مفاهيمه من الصميم.

إنّ الآيات الحاضره تكشف لنا بوضوح عن أنّ الإصلاح الواقعي في الأرض لا يمكن من دون التمسك بالكتب السماويه، و من دون تطبيق الأوامر و التعاليم الإلهيه، و هذا التعبير يؤكّد-مرّه أخرى- هذه الحقيقه، و هي أنّ الدين ليس مجرد برنامج يرتبط بعالم ما وراء الطبيعه، و مدار الآخره، بل هو برنامج للحياه البشريه، و يهدف إلى حفظ مصالح جميع أفراد البشر، و إجراء مبادئ العدل و السلام و الرفاه و الاستقرار، و بالتالي كل مفهوم تشمله كلمه «الإصلاح» الواسعه المعنى.

و ما نراه من التركيز على خصوص «الصلاه» من بين الأوامر و التعاليم الإلهيه، فإنّما هو لأجل أن الصلاه الواقعيه تقوى علاقته الإنسان بالله الذي يراه حاضرا و ناظرا لجميع أعماله و برامجها، و مراقبا لجميع أفعاله و أقواله، و هذا هو الذي عبر عنه في آيات أخرى بتأثير الصلاه في الدعوه إلى الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر.

و ارتباط هذا الموضوع بإصلاح المجتمع الإنساني أوضح من أن يحتاج إلى بيان.

من كل ما قيل يتّضح أنّ هذا المبدأ و المرتكز الفكرى لا يختص باليهود، بل هو أصل فى حياه الأمم و الشعوب. و على هذا الأساس فإنّ الذين يجمعون متاعا زائلا بواسطه كتمان الحقائق و تحريفها، ثم يرون نتائج المشؤومه يتّخذون لأنفسهم حاله من التوبه الكاذبه، توبه سرعان ما تزول و تذوب أمام ابتسامه من منفعه ماديّه متجدّده، كما يذوب الثلج فى حرّ القيط فهؤلاء هم المخالفون لإصلاح المجتمعات البشريه، و هم الذين يضحون بمصالح الجماعه فى سبيل مصالح الفرد، سواء صدر هذا الفعل من يهودىّ أو مسيحيّ أو مسلم.

اشاره

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)

التفسير

اشاره

آخر كلام حول اليهود:

«نتقنا» من ماده «نتق» على وزن «قلع» تعنى فى الأصل قلع و انتزاع شىء من مكانه، و إلقاءه فى جانب آخر، و يطلق على النساء اللواتى يلدن كثيرا أيضا «ناتق» لأنهن يفصلن الأولاد من أرحامهن و يخرجنهم بسهولة.

و هذه الآيه آخر آيه فى هذه السوره تتحدث حول حياه بنى إسرائيل، و هى تتضمن تذكير قصه أخرى ليهود عصر النبى صلى الله عليه و آله و سلم، قصه فيها عبره، كما أنها دليل على إعطاء ميثاق و عهد، إذ يقول: و اذكروا إذ قلعنا الجبل من مكانه و جعلناه فوق رؤوسهم كأنه مظلّه و إذ نتقنا الجبل فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ .

و قد ظنوا أنه سيسقط على رؤوسهم، فإنتابهم اضطراب شديد و فرع:

وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ

و فى تلك الحاله قلنا لهم: خذوا ما أعطيناكم من الأحكام بقوه و جديّه

خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ

و اذكروا ما جاء فيه حتى تتقوا، و خافوا من العقاب الإلهي و اعملوا بما أخذناه فيه منكم من الموثيق و اذكروا ما فيه لعلكم تتقون .

إنّ هذه الآية نفسها جاءت-بفارق بسيط في الآية(٦٣)من سورة البقره، و كما قلنا هناك فإنّ هذه القصة وقعت-حسب ما قال المفسّر المعروف العلامة الطبرسي في مجمع البيان عن ابن زيد-عند ما عاد موسى عليه السلام من جبل الطور، و اصطحب معه أحكام التوراه...فعند ما عرض على قومه الواجبات و الوظائف و أحكام الحلال و الحرام تصوروا أنّ العمل بكل هذه الوظائف أمر مشكل، و لهذا بنوا على المخالفه و العصيان...في هذا الوقت نفسه،رفعت قطعه عظيمه من الجبل فوق رؤوسهم،بحيث وقعوا في اضطراب عظيم،فالتجأوا إلى موسى عليه السلام و طلبوا منه رفع هذا الخطر و الخوف عنهم،فقال لهم موسى عليه السلام في تلك الحاله:

لو تعهدتم بأن تكونوا أوفياء لهذه الأحكام لزال عنكم هذا الخطر...فسلموا و تعهدوا و سجدوا لله تعالى فزال عنهم الخطر،و أزيحت الصخره من فوق رؤوسهم.

أسئله و أجوبه:

و هنا سؤالان أشرنا إليهما في سورة البقره و إلى جوابيهما،و ندكر مختصرا عنهما هنا بالمناسبه.

السؤال الأول: ألم يكن لأخذ الميثاق في هذه الحاله صفه الإيجاب؟ و الجواب:لا شك أنّه كانت تحكم في ذلك الظرف حاله من الإيجاب و الاضطرار،و لكن من المسلم أنّه لمّا ارتفع و زال الخطر فيما بعد كان بإمكانهم مواصله هذا السلوك باختيارهم.

ص: ٢٨٣

هذا مضافا إلى أنه لا- معنى للإجبار في مجال الاعتقاد، أما في مجال العمل فلا مانع من أن يجبر الناس على أمور تربويه تضمن خيرهم و سعادتهم و صلاحهم. فهل من العيب لو أننا أجبرنا شخصا على ترك عادة شريره، أو سلوك طريق آمن من الخطر، و عدم سلوك طريق محفوف بالأخطار؟ السؤال الثاني: كيف رفع الجبل فوق رؤوسهم:

الجواب: ذهب بعض المفسرين إلى أن الجبل قلع من مكانه بأمر الله، و استقر فوق رؤوسهم كمظله.

و ذهب آخرون إلى أنه اهتز الجبل اهتزازا شديدا بفعل زلزال شديد بحيث شاهد الناس الذين كانوا يسكنون في سفح الجبل ظل قسم منه فوق رؤوسهم.

و يحتمل أيضا أن قطعه من الجبل انتزعت من مكانها و استقرت فوق رؤوسهم لحظه واحده، ثم مرّت و سقطت في جانب آخر.

و لا شك في أنّ هذا الأمر كان أمرا خارقا للعاده و ليس حدثا طبيعيا عاديا.

و الموضوع الآخر الذى يجب الانتباه إليه هو أنّ القرآن لا يقول: إنّ الجبل صار مظله فوق رؤوسهم بل قال: (كأنه ظلّه).

و هذا التعبير إنّما هو لأجل أنّ المظله تنصب على رؤوس الأشخاص لإظهار الحب، و الحال أنّ هذه العمليه-المذكوره فى الآيه الحاضره- كانت من باب التهديد، أو لأجل أنّ المظله شىء مستقر و ثابت، و لكن رفع الجبل فوق رؤوسهم كان يتسم بعدم الثبات و الدوام.

قلنا: مع هذه الآيه تختم الآيات المتعلقة بقصه بنى إسرائيل و الحوادث المختلفه، و الذكريات الحلوه و المرّه التى وقعت فى حياتهم.

و هذه القصه هى آخر قصص الأنبياء التى جاءت فى هذه السوره. و ذكر هذه القصه فى نهايه قصصهم-مع أنّها ليست آخر حدث من الحوادث المرتبطه بهذه

الجماعه-لعله لأجل أنّ الهدف من جميع هذه القصص هو التمسك بآيات الله و العمل بالمواثيق،و لأجل الوصول إلى التقوى الذى جاء بيانه فى هذه الآيه و الآيه السابقه.

يعنى أنّ رساله موسى عليه السلام و سائر الأنبياء و أعمالهم مواجهاتهم المستمره و الصعبه و ما لقوا من صعاب و متاعب و شدائد مضمينه كانت لأجل تطبيق أوامر الله،و تنفيذ مبادئ الحق و العداله و الطهر و التقوى فى المجتمعات البشريه بشكل كامل.

ص: ٢٨٥

إشاره

وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٧٤)

التفسير

إشاره

العهد الأول و عالم الذر:

الآيات المذكوره أعلاه، تشير إلى «التوحيد الفطرى» و وجود الإيمان فى أعماق روح الإنسان... و لذلك فإن هذه الآيات تكمل الأبحاث الواردة فى الآيات المتقدمه من هذه السوره فى شأن «التوحيد الاستدلالي»! و بالرغم من كثره الأقوال و الكلام بين المفسرين فى شأن عالم الذر، إلا- أننا نحاول أن نبين التفسير الإجمالى لهذه الآيات الكريمة، ثم نختار الأهم من أبحاث المفسرين، و نبين وجهه نظرنا بصوره استدلاليه موجزه! يقول الله سبحانه مخاطبا نبيه فى هذه الآيه وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ

ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا!...

«الذريّه» كما يقول أهل اللغة و علماؤها، معناها فى الأصل الأبناء الصغار اليافعون، إلاّ أنّها تطلق فى الغالب على عموم الأبناء، و قد تستعمل هذه الكلمه فى معنى المفرد، كما قد تستعمل فى معنى الجمع، إلاّ أنّها فى الأصل تحمل معنى الجمع! و الجذر اللغوى لهذه الكلمه مختلف فيه، إذ احتملوا له أوجه متعدده.

فقال بعضهم: إنّ جذر هذه الكلمه مأخوذ من «ذراً» على زنه «زرع» و معناه الخلق، فعلى هذا الوجه يكون معنى الذريه مساويا «للمخلوق».

و قال بعضهم: بل الجذر مأخوذ من «ذرّ» على وزن «شرّ» و يعنى الموجودات الصغيره جداً كذرات الغبار مثلاً و النمل الصغير، و من هنا فإنّ أبناء الإنسان تبدأ حياتهم من نطفه صغيره جداً.

و الاحتمال الثالث أنّه مأخوذ من ماده ذرو و معناه النثر و التفريق و التنقيه [و منه ذرو الحنطه (١)]

و إنما سمى أبناء الإنسان بالذريه لأنهم يتفرون فى أنحاء الأرض بعد التكاثر! ثمّ يشير الله سبحانه إلى الهدف النهائى من هذا السؤال و الجواب، و أخذ العهد من ذريه آدم فى مسأله التوحيد، فيقول: أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ .

الآيه التاليه تشير إلى هدف آخر من أخذ هذا العهد، و هو أنّه إنّما أخذ ربك هذا العهد من ذريه بنى آدم لثلاث اعتذروا أو تقولوا
إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ .

أجل... وَ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

ص: ٢٨٧

١- (١) يقال ذراً فلان الحنطه ذرواً أو ذراها تدرية، أى نقأها من الشوائب.

إيضاح لما ورد عن عالم الذر.

رأينا أنّ الآيات محل البحث تتحدث عن أخذ العهد من ذريّه آدم، لكن كيف أخذ هذا العهد؟! لم يرد في النص إيضاح في جزئيات هذا الموضوع، إلا أنّ للمفسّرين آراء متعدده تعويلا منهم على الروايات الإسلاميه «الوارده عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم و أهل بيته عليهم السلام» و من أهم هذه الآراء رأيان.

١- حين خلق آدم ظهر أبناؤه على صورته الذرّ إلى آخر نسل له من البشر «و طبقا لبعض الروايات ظهر هذا الذرّ أو الذرّات من طينه آدم نفسه» و كان لهذا الذرّ عقل و شعور كاف للاستماع و الخطاب و الجواب، فخاطب الله سبحانه الذرّ قائلا أ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ ...!؟

فأجاب الذرّ جميعا: بلى شَهِدْنَا ثم عاد هذا الذرّ «أو هذه الذرات» جميعا إلى صلب آدم «أو إلى طينته» و من هنا فقد سمي بهذا العالم بعالم الذرّ... و هذا العهد بعهد «أ لست»؟ فبناء على ذلك، فإنّ هذا العهد المشار إليه آنفا هو عهد تشريعي، و يقوم على أساس «الوعي الذاتى» بين الله و الناس.

٢- إنّ المراد من هذا العالم و هذا العهد هو عالم الاستعداد «و الكفاءات»، و «عهد الفطره» و التكوين و الخلق. فعند خروج أبناء آدم من أصلاب آبائهم إلى أرحام الأمهات، و هم نطف لا تعدو الذرات الصغار، و هبهم الله الاستعداد لتقبل الحقيقه التوحيديه، و أودع ذلك السرّ الإلهي في ذاتهم و فطرتهم بصوره إحساس داخلي... كما أودعه في عقولهم و أفكارهم بشكل حقيقه واعيه بنفسها.

فبناء على هذا، فإنّ جميع أبناء البشر يحملون روح التوحيد، و ما أخذه الله من عهد منهم أو سؤاله إياهم: أ لست بربكم؟ كان بلسان التكوين و الخلق، و ما أجابوه كان باللسان ذاته!

و مثل هذه التعابير غير قليلة في أحاديثنا اليوميه، إذ نقول مثلاً: لون الوجه يخبر عن سره الباطني «سيمانهم في وجوهم»، أو نقول: إن عيني فلان المجهدتين تنبئان أنه لم ينم الليله الماضيه.

و قد روى عن بعض أدباء العرب و خطبائهم أنه قال في بعض كلامه: سل الأرض من شق أنهارك و غرس أشجارك و أئنع ثمارك؟ فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً!...

كما ورد في القرآن الكريم التعبير على لسان الحال، كآيئه (١١) من سوره فصلت، إذ جاء فيها فقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ انبِئَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالتا أَتينا طائِعِينَ .

هذا باختصار هو خلاصه الرأيين أو النظرتين المعروفتين في تفسير الآيات آنفه الذكر...

إلا أن التفسير الأول فيه بعض الإشكالات، و نعرضها في ما يلي:

١- ورد التعبير في نص الآيات المتقدمه عن خروج الذريه من بنى آدم من ظهورهم، إذ قال تعالى... مِنْ بَنى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ دُرِّيَّتُهُمْ مع أن التفسير الأول يتكلم عن آدم نفسه أو عن طينه آدم.

٢- إذا كان هذا العهد قد أخذ عن وعى ذاتى و عن عقل و شعور، فكيف نسيه الجميع؟! أو لا يتذكر أحد مع أن الفاصله الزمانيه بين زماننا ليست بأبعد مدى من الفاصله بين هذا العالم و العالم الآخر «أو القيامه»؟ و نحن نقرأ في آيات عديده من القرآن الكريم أن الناس سواء كانوا من أهل الجنه أو من أهل النار لا ينسون أعمالهم الدنيويه فى يوم القيامه، و يتذكرون ما اكتسبوه بصوره جيده، فلا يمكن أن يوجه هذا النسيان العمومى فى شأن عالم الذر أبداً «و لا مجال لتأويله!».

٣- أى هدف كان من وراء مثل هذا العهد؟ إذا كان الهدف أن يسير المعاهدون، فى طريق الحق عند تذكرهم مثل هذا العهد، و ألا يسلكوا إلا طريق معرفه الله، فينبغى القول بأن مثل هذا الهدف لا يتحقق أبداً و بأى وجه كان، لأن

الجميع نسوه!!...

و بدون هذا الهدف يعدّ هذا العهد لغوا و لا فائده فيه.

٤- إنَّ الإعتقاد بمثل هذا العالم يستلزم- فى الواقع- القبول بنوع من التناسخ، لأنّه ينبغي- طبقا لهذا التفسير- أن تكون روح الإنسان قد خلقت فى هذا العالم قبل ولادته الفعلية، و بعد فتره طويله أو قصيره جاء إلى هذا العالم ثانيه، و على هذا فسوف تحوم حوله كثيرا من الإشكالات فى شأن التناسخ! غير أنّنا إذا أخذنا بالتفسير الثّانى، فلا- يرد عليه أىّ إشكال ممّا سبق، لأنّ السؤال و الجواب، أو العهد المذكور- عهد فطرى، و ما يزال كلّ ممّا يحس بأثاره فى أعماق روحه، و كما يعبر عنه علماء النفس ب«الشعور الدينى» الذى هو من الإحساسات الأصيلة فى العقل الباطنى للإنسان. و هذا الإحساس يقود الإنسان على امتداد التأريخ البشرى إلى «طريق» معرفه الله... و مع وجود هذا الإحساس أو الفطره لا يمكن التذرّع بأنّ أباءنا كانوا عبده للأصنام و نحن على آثارهم مقتدون!!...

فَطَرَتِ اللّٰهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا

(١)

و الإشكال الوحيد الذى يرد على التفسير الثّانى هو أنّ هذا السؤال و الجواب يتخذ شكلا «كنائيا» و يتسم بلغه الحوار. إلّا أنّه مع الالتفات إلى ما بيناه آنفا بأن مثل هذه التعابير كثير فى لغه العرب و جميع اللغات، فلا يبقى أىّ إشكال فى هذا المجال.

و يبدو أن هذا التفسير أقرب من سواه!

ص: ٢٩٠

(١-١) الروم، ٣٠.

وردت روايات كثيره في مختلف المصادر الإسلاميه من كتب الشيعه و أهل السنه حول عالم الدر... بحيث تتصور لأول وهله و كأنها روايه متواتره... فمثلا في تفسير البرهان وردت ٣٧ روايه، و في تفسير نور الثقلين وردت ذيل الآيات الآنفه ٣٠ روايه بعضها مشترك و الآخر مختلف، و بملاحظه الاختلاف فيها فقد يصل مجموع ما ورد من الروايات إلى أربعين روايه...

إلا أننا سنجد-بعد التدقيق في مضامينها و محتواها و تقسيمها إلى مجاميع، و فحصها-أنه لا يمكن أن نعتز روايه واحده معتبره منها، فكيف يمكن الاعتقاد بتواترها؟! إن أكثر تلك الروايات منقول عن زراره، و بعضها عن صالح بن سهل، و بعضها عن أبي بصير، و بعضها عن جابر، و بعضها عن عبد الله بن سنان، و من ذلك يظهر لنا أنه لو روى شخص واحد روايات كثيره لكنّها متحداه المضمون فهي تعد بحكم الروايه الواحده، و بناء على ذلك فسيقل عدد تلك الروايات الكثيره و تتضاءل نسبتها و تبلغ ما بين ١٠ إلى ٢٠ روايه، هذا من ناحيه السند.

أمّا من ناحيه المضمون و الدليل فإنّ مضامينها تختلف بعضها عن بعض، فمنها ما يوافق التفسير الأول، و منها ما يوافق التفسير الثاني، و بعضها لا يوافق التفسيرين...

فالروايات المرقمه (٣) و (٤) و (٨) و (١١) و (٢٨) و (٢٩) و المرويّه عن زراره في تفسير البرهان-ذيل الآيات محل البحث-تتفق و التفسير الأول. و ما روى عن عبد الله بن سنان في الروايتين (٧) و (١٢) في تفسير البرهان نفسه، يتفق و التفسير الثاني...

أى أنّ بعض هذه الروايات مبهم، و بعضها يمثّل رموزا و عبارات مجازيه، كما في الروايتين (١٨) و (٢٣) المرويتين عن أبي سعيد الخدرى و عبد الله الكلبى،

الواردين في التفسير آنف الذكر.

و بعض الروايات يذكر «أرواح بني آدم» كما في الرواية (٢٠) المرويّه عن المفضل!...

ثم إن الروايات-المذكوره آنفا-بعضها ذو سند معتبر، و بعضها فاقد للسند أو مرسل.

فبناء على ذلك-و بملا-حظه التعارض بين الروايات-لا يمكننا التعويل عليها على أنّها وثيقه معتبره...و كما عبّر أكابر علمائنا في مثل هذه الموارد فإنّه ينبغي أن نتجنّب الحكم على مثل هذه الروايات، و أن نكلها إلى أصحابها و روايتها.

و في هذه الصوره نبقي متمسكين بالنص القرآني، و كما ذكرنا آنفا فإن التفسير الثاني أكثر انسجاما مع الآيات.

و لو كان أسلوبنا في البحث التفسيري يسمح لنا أن نذكر جميع طوائف الروايات، و التحقيق فيها-كنا أشرنا آنفا-لفعلنا ذلك ليكون البحث أكثر وضوحا.

إلا- أنّ الراغبين يمكنهم الرجوع إلى التفسير «نور الثقلين، و تفسير البرهان، و بحار الأنوار»، و ليبحثوا في مجاميعها و يصنفوها، و ينظروا في أسانيدها و مضامينها.

إشارة

وَأُنزِلُ عَلَيْهِمْ نَبِيًّا الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسِلَخْ مِنْهَا فَأَتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْمَآرِضِ وَاتَّبَعَ هِيَاةَ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكَهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْآيَاتِنَا فَأَقْصِصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْآيَاتِنَا وَانفُسِهِمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)

التفسير

إشارة

في هذه الآيات إشارة لقصته أخرى من قصص بني إسرائيل، وهي تعد مثلاً و أنموذجاً لجميع أولئك الذين يتصفون بمثل هذه الصفات.

و كما سنلاحظ خلال تفسير الآيات-محل البحث- فإنّ للمفسرين احتمالات متعددة في الذي تتحدث عنه أو (عليه) الآيات... إلّا أنّه ممّا لا ريب

فيه أن مفهوم الآيات-كسائر الآيات النازله فى ظروف خاصه-عام و شامل.

و الآيه الأولى من هذه الآيات يخاطب بها النبى صلى الله عليه و آله و سلم حيث يقول القرآن الكريم وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ .

فهذه الآيه واضحة أنها تحكى قصه رجل كان فى البدايه فى صف المؤمنين، و حاملا للعلوم الإلهيه و الآيات، إلا أنه انحراف عن هذا النهج، فوسوس له الشيطان، فكانت عاقبه أمره أن انجرّ إلى الضلال و الشقاء!...

و التعبير ب«انسلخ» و هو من ماده «الانسلاخ» معناه فى الأصل الخروج من الجلد... يدلّ على أن الآيات و العلوم الإلهيه كانت تحيط به إحاطه الجلد بالبدن، إلا أنه خرج منها على حين غره و استدار إلى الوراء و غير مسيره بسرعه! كما أنّ التعبير القرآنى «فاتبعه الشيطان» يستفاد منه أنّ الشيطان كان أول الأمر آيسا منه تقريبا، لأنه كان يسلك سبيل الحق تماما، و بعد أن انحراف لحقه الشيطان و تربص له و أخذ يوسوس له حتى انتهى أمره إلى أن يكون من الضالين المنحرفين الأشقياء (1).

و الآيه التاليه تكمل هذا الموضوع على النحو التالى وَ لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا .

إلا- أن من المسلم أنّ إكراه الناس و إجبارهم على أن يسلكوا سبيل الحق لا ينسجم و السنن الإلهيه و حريه الإدارة، و لا يكون ذلك دليلا- على عظمه الشخص، لهذا فإنّ الآيه تضيف مباشره. إنّنا تركناه و هواه، و بدلا من أن ينتفع من معارفه فإنه هوى و انحطّ وَ لَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ .

و كلمه (أخلد) من (الإخلاد) و هى تعنى السكن الدائم فى مكان واحد مع

ص: ٢٩٤

(١-١) تبع و اتبع بمعنى لحق أو أدرك.

حريه الإراده، فجمله (أخلد إلى الأرض) تعنى اللصوق الدائم بالأرض، و هى كناية عن عالم المادة و بهارجها، و اللذائذ غير المشروعه للحياه الماديه.

ثم تشبّه الآيه هذا الفرد بالكلب الذى يخرج لسانه لاهتا دائما كالحيوانات العطاشى فتقول فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ .

فهو لفرط اتّباعه الهوى و تعلقه بعالم المادة انتابته حاله من التعطش الشديد غير المحدود وراء لذائذ الدنيا، و كل ذلك لم يكن لحاجه، بل لحاله مرضيّه، فهو كالكلب المسعور الذى يظهر بحاله عطش كاذب لا يمكن ارواؤها و هى حاله عبيد الذين لا يهتمهم غير جمع المال و اكتناز الثروه فلا يحسون معه بشبع أبدا.

ثم تضيف الآيه: إِنَّ هَذَا الْمَثَالَ الْخَاصَّ لَا يَتَعَلَّقُ بِفَرْدٍ مَعِينٍ، بل: ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَّةَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

العالم المنحرف «بعلم بن باعوراء»:

كما لاحظنا أنّ الآيات السالفه لم تذكر اسم أحد بعينه، بل تحدثت عن عالم كان يسير فى طريق الحق ابتداء و بشكل لا يفكر معه أحد بأنّه سينحرف يوما، إلاّ أنّه نتيجة لاتباعه لهوى النفس و بهارج الدنيا انتهى إلى السقوط فى جماعه الضالين و أتباع الشياطين.

غير أنّنا نستفيد من أغلب الروايات و أحاديث المفسّرين أنّ هذا الشخص يسمّى (بعلم بن باعوراء) الذى عاصر النّبى موسى عليه السلام و كان من مشاهير علماء بنى إسرائيل، حتى أنّ موسى عليه السلام كان يعوّل عليه على أنّه داعيه مقتدر، و بلغ أمره أن دعاه كان مستجابا لدى البارى جل و علا، لكنّه مال نحو فرعون و إغراءاته فانحرف عن الصواب، و فقد مناصبه المعنويه تلك حتى صار بعدئذ فى جبهه

أعداء موسى عليه السلام (١).

إلا أننا نستبعد ما يحتمله بعضهم من أن المقصود هو (أميه بن الصلت) الشاعر المعروف في زمان الجاهلية، الذي كان بادئ أمره و نتيجته لاطلاعه على الكتب السماوية ينتظر نبي آخر الزمان، ثم حصل له هاجس أن النبي قد يكون هو نفسه، ولذلك بعد أن بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصابه الحسد له و عاداه.

و بعيد كذلك ما احتمله بعضهم من أنه كان (أبا عامر) الراهب المعروف في الجاهلية، الذي كان يبشر الناس بظهور رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم لكنه بعد ظهوره صار من أعدائه. لأن جملة (و اتل) و كلمه (نبأ) و جملة (فاقصص القصص) تدل على أن تلك الأمور لا تتعلق بأشخاص عاصروا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بل بأقوام سابقين، مضافا إلى تلك فإن سوره الأعراف من السور المكيه و قضيتا [أبي عامر الراهب]

[و أميه بن الصلت]

تعلقان بحوادث المدينة.

و لكن بما أن أشخاصا على غرار «بلعم» كانوا موجودين في عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ك (أبي عامر) و (أميه بن الصلت) فإن الآيات محل البحث تنطبق على هذه الموارد في كل عصر و زمان، و إلا فإن مورد القصه هو «بلعم بن باعوراء» لا غير.

و قد نقل تفسير (المنار) عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن مثل بلعم بن باعوراء في بنى إسرائيل كأبيه بن أبي الصلت في هذه الأمة.

و

ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «الأصل من ذلك بلعم، ثم ضربه الله مثلا لكل مؤثر هو اه على هوى الله من أهل القبله».

و من هذا يتبين أن الخطر الأكيد الذي يهدد المجتمعات الإنسانية هو خطر المثقفين و العلماء الذين يسخرون معارفهم للفراعنه و الجبارين لأجل أهوائهم

ص: ٢٩٦

١ - ١) في التوراه الحاليه نجد ورود قضيه «بلعم بن باعوراء» أيضا، إلا أن التوراه تبرئه في النهايه من الانحراف، يراجع بذلك سفر الأعداد الباب ٢٢.

و ميولهم الدنيويه(و الإخلاق إلى الأرض)و يضعون كل طاقاتهم الفكرية في سبيل الطاغوت الذي يعمل ما في وسعه لاستغلال مثل هذه الشخصيات لإغفال و إضلال عامه الناس.

و لا يختص الأمر بزم من النبي موسى عليه السلام أو غيره من الأنبياء، بل حتى بعد عصر النبي الكريم صلى الله عليه و آله و سلم إلى يومنا هذا نجد أمثال بلعم بن باعوراء و أبي عامر الراهب و أميه بن الصلت، يضعون علومهم و معارفهم و نفوذهم الاجتماعي من أجل الدرهم و الدينار، أو المقام، أو لأجل الحسد، تحت إختيار المنافقين و أعداء الحق و الفراعنه أمثال بنى أميه و بنى العباس و سائر الطواغيت.

و يمكن معرفه أولئك العلماء من خلال أوصاف أشارت إليها الآيات محل البحث، فإنهم ممن نسي ربّه و اتبع هواه، و هم ذوو نزوات سخروها للرديله بدل التوجه نحو الله و خدمه خلقه، و بسبب هذا التسافل فقدوا كل شيء و وقعوا تحت سلطه الشيطان و ساوسه، فسهل بيعهم و شراؤهم، و هم كالكلاب المسعوره التي لا ترتوى أبداً، و لهذه الأمور ترك هؤلاء سبيل الحقيقه و ضلوا عن الطريق حتى غدوا أئمه الضلال.

و يجب على المؤمنين معرفه مثل هؤلاء الأشخاص و الحذر منهم و اجتنابهم.

و الآيتان التاليتان- كنتيجة عامه و شامله لقضيه-(بلعم) و العلماء الدنيويين فتقول أولاهما سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ أَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ .

فما أفحش ظلم الإنسان لنفسه و هو يسخر ملكاته المعنويه و علومه النافعه التي بإمكانها أن تعود عليه و على مجتمعه بالخير- و يضعها تحت إختيار المستكبرين و أصحاب القدره الدنيويه و يبيعها بثمن بخس فيؤدى ذلك إلى سقوطه و سقوط المجتمع و الآيه الاخيره تحذر الإنسان و تؤكد له أن الخلاص من مثل هذا الانحراف و ما يكيدّه الشياطين لا يمكن إلا بتوفيق و تسديد من الله

عز و جل مَنْ يَهْدِي اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

و تقدم كرات بأن (الهداية) و (الإضلال) الإلهيين لا يعدان إجبارا و لا بدون حساب أو دليل، و يقصد بهما إعداد الأرضيه للهدايه و فتح سبلها أو إيصادها، و ذلك بسبب الأعمال الصالحه أو الطالحه التي صدرت من الإنسان من قبل، و على أيه حال فالتصميم النهائي بيد الإنسان نفسه...

فبناء على هذا فإن الآيه محل البحث تنسجم مع الآيات المتقدمه التي تذهب إلى أصل حريه الإراده... و لا منافاه بين هذه الآيه و تلكم الآيات بتاتا...

ص: ٢٩٨

إشاره

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْإِنعَامِ بَلَّغْنَا لَهُمُ الْعِلْمَ فَهَسَبُوا أَنَّهُمْ مُّغْنَىٰ عَنَّا وَاللَّهِ الْبَاطِلُ يُضِلُّهُم مَّا يَشَاءُونَ وَيَهْدِيهِمْ لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١)

التفسير

إشاره

علائم أهل النار:

هذه الآيات تكمل الموضوع الذى تناولته الآيات المتقدمه حول العلماء الذين ركنوا إلى الدنيا، و عوامل الهدايه و الضلال. و الآيات-محل البحث- تقسم الناس إلى مجموعتين... و تحكى عن صفاتهما و هما أهل النار، و أهل الجنة.

فتحدث عن المجموعه الأولى-أهل النار أولاً، فتأتى بالقسم و التوكيد فتقول وَ لَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ .

و كلمه «ذرأنا» مشتقه من «ذراً»، و تعنى هنا الإيجاد و الخلق، غير أنها فى

أصل اللغة تعنى نشر الشيء و تفريقه، وقد وردت بهذا المعنى «الثانى» فى القرآن أيضا، كما فى عبارته تَذْرُوهُ الرِّيحُ (١).

و لأنّ خلق الكائنات يستلزم تفريقها و توزيعها و انتشارها على وجه الأرض، فقد جاءت هذه الكلمه بمعنى خلق «المخلوق» أيضا:

و على كل حال، فإنّ الإشكال المهم فى هذا التعبير هو كيف قال الله سبحانه وَ لَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَ الْإِنْسِ؟ فى حين قال فى مكان آخر وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٢). و طبقا لمعنى هذه الآيه فإنّ الجن و الإنس لم يخلقوا لغير عباده الله و الرقى و التكامل و السعاده، أضف إلى ذلك أنّ هذا التعبير تشم منه رائحه الجبر فى الخلق، و من هنا فقد استدل بعض مؤيدى مدرسه الجبر من أمثال الفخر الرازى بهذه الآيه لإثبات مذهبه.

لكننا لو ضمنا آيات القرآن بعضها إلى بعض و بحثناها موضوعيا دون أن نبتلى بالسطحيه، لوجدنا الجواب على هذا السؤال كامنا فى الآيه محل البحث ذاتها، كما هو بين فى آيات أخرى من القرآن الكريم أيضا... بحيث لا يدع مجالا لأنّ تستغل الآيه ليسا فهمها لدى بعض الأفراد. مثل هذا التعبير كمثل قول النجار إذ يقول مثلا: إنّ قسما كبيرا من هذا الخشب و قد هيأته لكى أصنع منه أبوابا جميله، و القسم الآخر هو للإحراق و الإضرار... فالخشب الرائق الجيد المناسب ساستعمله للقسم الأول، و أما الخشب الردىء غير المناسب فسأدعه للقسم الثانى.

ففى الحقيقه أنّ للنجار هدفين: هدفا «أصيلا» و هدفا «تبعيا».

فالهدف الأصيل هو صنع الأبواب و الأطر الخشبيّه الجيده و ما إلى ذلك، و هو يبذل قصارى جهده و سعيه فى هذا المضمار...

ص: ٣٠٠

١-١) الكهف، ٤٥.

٢-٢) سوره الذاريات: ٥٦.

إلا أنه حين يجد أن بعض الخشب لا ينفعه شيئا، فسيكون مضطرا إلى نبذه ليكون حطباً للحرق و الإشعال، فهذا الهدف «تبعي» لا أصلي.

و الفرق الوحيد بين هذا المثال و ما نحن فيه، أن الاختلاف بين أجزاء الخشب ليس اختيارا، و اختلاف الناس له صلة وثيقة بأعمالهم أنفسهم، و هم مختارون و إرادتهم حرّة بإزاء أعمالهم.

و خير شاهد على هذا الكلام ما جاء من صفات لأهل النار و صفات لأهل الجنّة في الآيات محل البحث، التي تدل على أن الأعمال هي نفسها أساس هذا التقسيم، إذ كان فريق منهم في الجنّة، و فريق في السعير.

و تعبير آخر فإنّ الله سبحانه - و وفقا لصريح آيات القرآن المختلفه - خلق الناس جميعهم على نسق واحد طاهرين، و وفرّ لهم أسباب السعادة و التكامل، إلا أنّ قسما منهم اختاروا بأعمالهم جهنم فكانوا من أهلها فكان عاقبه أمرهم خسرا... و أن قسما منهم اختاروا بأعمالهم الجنّة و كان عاقبه أمرهم السعادة...

ثم يُلخّص القرآن صفات أهل النار في ثلاث جمل، إذ تقول الآية: لَّهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ...

و قد قلنا مرارا: إنّ التعبير «القلب» في مصطلح القرآن يعنى الفكر و الروح و قوّه العقل، أى أنّهم بالرغم ممّا لديهم من استعداد للتفكير، و أنّهم ليسوا كالبهائم فاقدى الشعور و الإدراك، إلا أنّهم فى الوقت ذاته لا يفكرون فى عاقبتهم و لا يستغلون تفكيرهم ليبلغوا السعادة.

و الصفه الثانيه التى ذكرتها الآية لأهل النار و لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا و الصفه الثالثه الوارده فى حقهم و لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ .

لأنّ البهائم و الأنعام لا تملك هذه الاستعدادات و الإمكانيات، إلا أنّهم بما لديهم من عقل سالم و عين باصره و أذن سامعه، بإمكانهم أن يبلغوا كل مراتب

الرقى و التكامل، إلاّ- أنّهم نتيجة لاتباعهم هواهم و رغبتهم- بكل هذه التوافه من الأمور تركوا هذه الاستعدادات جانباً... و كان شقاؤهم كبيراً لهذا السبب:

أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ

فالمعين الذى يحييهم و يروى ظمأهم موجود إلى جانبهم و هم على مقربة منه، إلاّ أنّهم يتصارخون من الظمأ. و أبواب السعادة مفتحة أمامهم لكنهم لا يلتفتون إليها.

و يتّضح ممّا ذكرناه أنّهم اختاروا بأنفسهم سبيل شقائهم و هدروا النعم الكبرى «العقل و العين و الأذن...» لا أنّ الله أجبرهم على أن يكونوا من أهل النار.

لماذا هم كالأنعام؟

لقد شبّه القرآن الكريم الجاهلين الغافلين عديمى الشعور بالأنعام و البهائم مراراً، إلاّ أن تشبيه القرآن هؤلاء بالأنعام لعلّه بسبب انهماكهم باللذائذ و الشهوات الجنسيه و النوم فحسب، فهم كالأمم التى تحلم فى الوصول إلى حياه ماديه مرفهه تحت شعارات برّاقه تخدع الإنسان بأنّ آخر هدف للعداله الاجتماعيه و القوانين البشرىه هو الحصول على الخبز و الماء...

و كما يشبهها

الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغه قائلاً: «كالبهيمه المربوطه همّها علفها، أو المرسله شغلها تقمّمها» (١).

و بتعبير آخر: إنّ جماعه منهم تنعم بالرفاه كالأغنام المربوطه التى تدجن لتسمن، و جماعه آخرين كالغنم السائمه الباحثه عن العلف و الماء فى الصحراء، إلاّ أن هدف كل منهما هو ما يشبع البطن ليس إلاّ!

و هذا الذى ذكرناه أنّفا قد يصدق على شخص معين كما قد يصدق أمّه كامله

ص: ٣٠٢

برمتها، فالأمم التي لا تفكر بنفسها و تتلهى بالأمور التافهه غير الصائبه، و لا تعالج جذور شقائها و لا تطمح لأسباب الرقى، ليس لها آذان سامعه و لا أعين باصره، فهي من أهل النار أيضا، لا نار القيامة فحسب، بل هي مبتلاه بنار الدنيا و شقائها كذلك.

و فى الآيه التاليه إشاره إلى حال أهل الجنه و بيان لصفاتهم، فتبدأ الآيه بدعوه الناس إلى التدبر و التوجه إلى أسماء الله الحسنی كمقدمه للخروج من صف أهل النار، فتقول: وَ لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا .

و المراد من «أسماء الله الحسنی» هي صفات الله المختلفه التي هي حسنی جميعا، فنحن نعرف أن الله عالم قادر رازق عادل جواد كريم رحيم، كما أن له صفات أخرى حسنی من هذا القبيل أيضا.

فالمراد من دعاء الله بأسمائه الحسنی، ليس هو ذكر هذه الألفاظ و جريانها على اللسان فحسب، كأن نقول مثلا: يا عالم يا قادر يا أرحم الراحمين. بل ينبغى أن تتمثل هذه الصفات فى وجودنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، و أن يشع إشراق من علمه و شعاع من قدرته و جانب من رحمته الواسعه فينا و فى مجتمعنا.

و بتعبير آخر: ينبغى أن نتصف بصفاته و نتخلق بأخلاقه، لنستطيع بهذا الشعاع، شعاع العلم و القدره و الرحمه و العدل أن نخرج أنفسنا و مجتمعنا الذى نعيش فيه من سلك أهل النار...

ثم تحذر الآيه من هذا الأمر، و هو أن لا تحرف أسماءه فتقول: وَ ذُرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

و الإلحاد- فى الأصل- مأخوذ من ماده «اللحد» على زنه «المهد» التي تعنى الحفره التي تقع فى طرف واحد، و على هذا الأساس فقد سميت الحفره التي تكون فى جانب القبر «لحدا».

ثم أطلق هذا الاستعمال «الإلحاد» على كل عمل ينحرف عن الحد الوسط

نحو الإفراط أو التفريط، و لذلك فقد سُمى الشرك و عباده الأوثان إلحادا أيضا.

و المقصود من الإلحاد فى أسماء الله هو أن نحرف ألفاظها أو مفاهيمها.

بحيث نصفه بصفات لا تليق بساحته المقدسه، كما يصفه المسيحيون بالتثليث «الله و الابن و روح القدس» أو أن نطبق صفاته على المخلوقين كما فعل ذلك المشركون و عبده الأوثان إذ اشتقوا لأصنامهم أسماء من أسماء الله فسموها...

اللوات و العزى و مناه... (و غيرها) فهذه الأسماء مشتقة من الله و العزيز و المنان «على التوالى».

أو أنهم حرفوا صفاته حتى شَبَّهوه بالمخلوقات، أو عطلوا صفاته، و ما إلى ذلك.

أو أنهم اكتفوا بذكر الاسم فحسب دون أن يتمثلوه و يعرفوا آثاره فى أنفسهم و فى مجتمعاتهم.

و فى آخر آيه من الآيات محل البحث إشاره إلى صفتين من أبرز صفات أهل الجنة، إذ تقول الآيه: **وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ .**

و فى الواقع، إن لأهل الجنة منهجين ممتازين فأفكارهم و أهدافهم و دعواتهم و ثقافتهم حقه، و هى فى اتجاه الحق أيضا، كما أن أعمالهم و خططهم و حكوماتهم قائمه على أساس الحق و الحقيقة.

بحوث

إشاره

١- ما هى الأسماء الحسنى؟

فى كتب الأحاديث «الأهل السنه و الشيعه» أبحاث كثيره عن أسماء الله الحسنى، نورد خلاصتها فى هذا المجال مضافا إليها ما نعتقده نحن فى هذا الصدد.

لا- شك أنّ الأسماء الحسنی تعنی الأسماء الکریمه، و نحن نعرف أنّ أسماء الله کلها تحمل مفاهیم حسنی، و لذلك فجميع أسمائه أسماء حسنی، سواء كانت صفات لذاته المقدّسه الثبوتیه كالعلم و القادر، أم كانت صفات سلبیه كالقدّوس مثلا، أو صفات تحکی فعلا من أفعاله كالخالق أو الغفور أو الرحمان أو الرحیم إلخ...

و من ناحیه أخرى، لا شك أنّ صفات الله لا يمكن إحصاؤها، لأنّ کمالاته غیر متناهیه، و يمكن أن يذكر لكل صفة من صفاته أو کمال من کمالاته اسم...

إلا أن ما نستفیده من الأحاديث أنّ لبعض صفاته أهمیه أكثر من سواها، و لعل «الأسماء الحسنی» الواردة من الآیه فی الآیه محل البحث إشاره إلى هذه الطائفة من الأسماء المتمیزه، إذ ورد عن النبی صلی الله علیه و آله و سلّم و الأئمّه علیهم السّلام من أهل بيته روايات كثيره بهذا المعنى كالروایه الوارده فی كتاب التوحيد «للصدوق»

عن أبي عبد الله جعفر بن محمّد الصادق، عن آبائه علیهم السّلام، عن أمير المؤمنين علی علیه السّلام أنّه قال: «قال رسول الله صلی الله علیه و آله و سلّم: «إنّ لله تبارک و تعالی تسعه و تسعين اسما- مائه إلا واحده- من أحصاها دخل الجنّه» (١).

كما

ورد فی كتاب التوحيد عن الإمام علی بن موسى الرضا علیه السّلام عن آبائه عن علی علیه السّلام أنّه قال: «إنّ لله عز و جل تسعه و تسعين اسما من دعا الله بها استجاب له و من أحصاها دخل الجنّه» (٢).

و قد جاء فی كتب أحاديث (أهل السنّه)

«كما فی كتاب صحيح البخاری و صحيح مسلم... و الترمذی و كتب أخرى» هذا المضمون ذاته: إنّ لله تسعه و تسعين اسما فمن دعا بها استجاب دعاءه، و من أحصاها فهو من أهل الجنّه (٣).

ص: ٣٠٥

١-١) تفسير الميزان، و مجمع البيان، و نور الثقلين، ذیل الآیه.

٢-٢) تفسير الميزان، و مجمع البيان، و نور الثقلين.

٣-٣) المصدر السابق.

و يستفاد من بعض الأحاديث أن هذه الأسماء التسعة و التسعين كلها فى القرآن، كالروايه الوارده

عن ابن عباس أنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم قال: «لله تسعه و تسعون اسما من أحصاها دخل الجنة، و هى فى القرآن» (1).

و لذلك فقد سعى جماعه من العلماء إلى أن يستخرجوا أسماء الله الحسنى من القرآن، إلا أن ما جاء فى القرآن من أسماء و صفات لله سبحانه تزيد على تسعه و تسعين اسما، فبناء على ذلك لعل الأسماء الحسنى من بين تلك الأسماء، لا أنه لا يوجد فى القرآن غير تسعه و تسعين اسما لله المشار إليها آنفا (فى بعض الأحاديث)...

و قد صرّحت بعض هذه الروايات بالأسماء الحسنى «التسعه و التسعين»...

و نحن نوردها هنا، إلا أنه ينبغى الالتفات إلى أن بعض هذه الأسماء الوارده فى هذه الروايه لم ترد فى القرآن بالصيغه الوارده فى الروايه ذاتها و إنما ورد مضمونها أو مفهومها فى القرآن.

فقد جاء فى الروايه المنقوله فى كتاب «التوحيد» للصدوق

عن الإمام الصادق عن آبائه عن على عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم، فبعد أن أشار عليه السلام إلى أنّ لله تسعه و تسعين اسما قال و هى: «الله، الإله، الواحد، الأحد، الصمد، الأول، الآخر، السميع، البصير، القدير، القادر، العلى، الأعلى، الباقي، البديع، البارى، الأكرم، الباطن، الحى، الحكيم، العليم، الحليم، الحفيظ، الحق، الحسيب، الحميد، الحفى، الرب، الرحمن، الرحيم، الذارئ، الرازق، الرقيب، الرؤوف، الرئى، السلام، المؤمن، المهيم، العزيز، الجبار، المتكبر، السيد، السبوح، الشهيد، الصادق، الصانع، الظاهر، العدل، العفو، الغفور، الغنى، الغياث، الفاطر، الفرد، الفتاح، الفائق، القديم، الملك، القدوس، القوى، القريب، القيوم، القابض، الباسط، قاضى الحاجات،

ص: ٣٠٦

المجيد، المولى، المنان، المحيط، المبين، المغيث، المصور، الكريم، الكبير، الكافي، كاشف
الضر، الوتر، النور، الوهّاب، الناصر، الواسع، الودود، الهادي، الوفي، الوكيل، الوارث، البرّ، الباعث، التواب، الجليل، الجواد، الخبير، الخالق،
خير الناصرين، الديان، الشكور، العظيم، اللطيف، الشافي» (١).

لكن الأهم-هنا-وينبغي ملاحظته و الالتفات إليه، هو أنّ المراد من دعاء الله بأسمائه الحسنی هل يعنى أن نعدّ هذه الأسماء أو أن
نجريها على الألسنة فحسب، بحيث أن من ذكر هذه التسعة و التسعين اسما دون أن يتمثل محتواها و يفهمها كان من السعداء، أو
أنّه ستجاب دعوته. بل الهدف هو أن يؤمن الإنسان بهذه الأسماء و الصفات، ثم يسعى-ما استطاع إلى ذلك سبيلا-لأنّ يعكس
فى وجوده إشراقا من مفاهيم تلك الأسماء، أى للعالم، القادر، الرحمان، الرحيم، الغفور، القوى، الغنى، الرازق، و أمثالها. فإنّ كان
كذلك كان من أهل الجنّة، و كان دعاؤه مستجابا و نال كل خير قطعا.

و يستفاد ضمنا ممّا ذكرناه آنفا أنّه لو وردت فى بعض الروايات الأخرى و الأدعية أسماء غير هذه الأسماء لله سبحانه، حتى لو
وصلت إلى الألف-مثلا- فلا منافاه بينها و بين ما نقلناه هنا أبدا، لأنّ أسماء الله لا حد لها و لا حصر، و هى - كذاته و كمالاته-لا
نهايه لها. و إن كان لبعض هذه الأسماء أو الصفات ميزات خاصّه.

من ذلك الروايه الوارده

فى أصول الكافى عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآيه، إذ يقول: «نحن و الله الأسماء الحسنی» (٢) فهى إشار إلى
أن إشعاعا من صفاته قد انعكس فىنا، فمن عرفنا فقد عرف ذاته المقدسه...

أو أنّه لو ورد مثلا فى بعض الأحاديث أنّ جميع الأسماء الحسنی تتلخص فى

ص: ٣٠٧

١- ١) الميزان، ج ٨، ص ٣٧٦، نقلا عن التوحيد للصدوق.

٢- ٢) نور الثقلين، ج ٢، ص ١٠٣.

التوحيد الخالص، فإنما هو لأن جميع صفاته ترجع إلى ذاته المقدسه.

و يشير الفخر الرازى فى تفسيره إلى أمر قابل للملاحظه، و هو أنّ جميع صفات الله تعالى يعود إلى إحدى حقيقتين «استغناء ذاته عن كل شيء» أو «احتياج الآخرين إلى ذاته المقدسه...» (١).

٢- الأّمه الهداه!

قرأنا فى الآيات محل البحث أنّ طائفه من عباد الله يدعون نحو الحق و يحكمون به و مِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ

هناك تعبيرات مختلفه فى الروايات الوارده فى كتب الأحاديث الإسلاميه، فى المراد من هذه الأّمه. و من جمله هذه الروايات ما ورد عن أمير المؤمنين أنّه قال عليه السلام. المراد من الآيه هو «أّمه محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم» (٢).

و يعنى الإمام بهم أتباع النبى الصادقين المنزهين عن كل بدعه و انحراف و تغيير أو حياذ من تعاليمه الكريمه...

و لهذا

فقد ورد فى حديث آخر عنه صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: «و الذى نفسى بيده لتفرقن هذه الأّمه على ثلاث و سبعين فرقه كلّها فى النار إلا فرقه و مِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ، و هذه التى تنجو من هذه الأّمه».

و لعل العدد-٧٣- للكثيره، و هو إشاره إلى الطوائف المختلفه التى ظهرت فى طول تاريخ الإسلام فى عقائد عجيبه غريبه، و لحسن الحظ قد انقرض أغلبها فلم يبق منها إلا أسماؤها فى كتب «تاريخ العقائد».

و

فى حديث آخر ورد فى كتب أهل السنه عن الإمام على عليه السلام ضمن إشارته لاختلاف الأمم التى تظهر بعدئذ فى الأّمه الإسلاميه، أن قال عليه السلام «الفرقه الناجيه

ص: ٣٠٨

١- (١) تفسير الفخر الرازى، ج ١٥، ص ٦٦.

٢- (٢) نور الثقلين، ج ٢، ص ١٠٥.

أنا و شيعتى و أتباع مذهبى» (١) و جاء فى بعض الروايات الأخرى أن المراد من قول تعالى: وَ مِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ، هم الأئمة من أهل البيت عليهم السلام» (٢).

و واضح أن الروايات المذكوره أنفا كلها تعالج حقيقه واحده، و هى بيان للمصاديق المختلفه لهذه الحقيقه، و هى أن الآيه تشير إلى أمه تدعو إلى الحق و تعمل بالحق و تحكم به، و تسير فى مسير الإسلام الصحيح. غايه ما فى الأمر أن بعضهم فى قمه هذه الأئمة و رأسها و بعضهم فى مراحل أخر...

و مِمَّا يَسْتَرْعى النظر أن هؤلاء الذين عبّرت عنهم الآيه بقولها وَ مِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ على اختلاف لغاتهم و قومياتهم و مراحلهم العلميه و أمثالها، هم أمه واحده لا غير، و لذلك فإن القرآن قال عنهم: أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ و لم يعبر عنهم ب«أمم يهدون إلخ...».

٣- اسم الله الأعظم

جاء فى بعض الروايات عن قصه بلعم بن باعورا الذى ورد ذكره-أنفا- أنه كان يعرف الاسم الأعظم، و لا بأس أن نشير إلى هذا الموضوع لمناسبه ورود الأسماء الحسنى فى الآيات محل البحث...

فقد وردت روايات مختلفه فى شأن الاسم الأعظم، و يستفاد منها أن من يعرف الاسم الأعظم لا- يكون مستجاب الدعاء فحسب، بل تكون له القدره على أن يتصرف فى عالم الطبيعه و أن يقوم بأعمال مهمه...

و الاسم الأعظم، أى اسم هو من أسماء الله؟! بحث علماء الإسلام كثيرا فى هذا الشأن، و أغلب أبحاثهم تدور فى أن

ص: ٣٠٩

١- (١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٥٣.

٢- (٢) نور الثقلين، ج ٢، ص ١٠٤-١٠٥.

يعثروا على اسم من بين أسماء الله له هذه الخصوصيّه العجيبه و الأثر الكبير.

إلا أن الأهم في البحث أن نعثر على اسم أو صفة من صفاته تعالى بتطبيقها على وجودنا نحصل على تكامل روى تترتب عليه تلك الآثار.

و بتعبير آخر: إن المسأله المهمه هي التخلق بصفات الله و الاتصاف بها و وجودها في الإنسان، و إلا- كيف يمكن أن يكون الشخص الردىء الوضيع مستجاب الدعوه بمجرّد معرفته الاسم الأعظم؟! و إذا ما سمعنا أنّ بلعم بن باعوراء كان لديه هذا الاسم الأعظم إلا أنه فقده، فمفهوم هذا الكلام أنه كان قد بلغ-بسبب بناء شخصيته و إيمانه و علمه و تقواه- إلى مثل هذه المرحله من التكامل المعنوى، بحيث كان مستجاب الدعوه عند الله، إلا أنه سقط أخيرا في الوحل، فقد تلك الروحيه بسبب اتباعه لهوى النفس و انقياده لفراعنه زمانه، و لعل المراد من نسيان الاسم الأعظم هو هذه الحاله أو هذا المعنى.

كما أنّنا لو قرأنا-أيضا- أن الأنبياء و الأئمّه الكرام كانوا يعرفون الاسم الأعظم، فمفهوم هذا الكلام هو أنّهم جيّدوا اسم الله الأعظم في وجودهم، و استضاءوا بشعاعه، فأولاهم الله-بهذه الحاله-مثل هذه المقام العظيم.

اشاره

وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)

التفسير

اشاره

الاستدراج!...

تعقيبا على البحث السابق الذى عالجه الآيات المتقدمه -و الذى يبين حال أهل النار، تبين هاتان الآيتان واحده من سنن الله فى شأن كثير من عباده المجرمين المعاندين، و هى ما عبر عنها القرآن «بعذاب الاستدراج».

و الاستدراج جاء فى موطنين من القرآن: أحدهما فى الآيتين محل البحث، و الآخر فى الآيه (٤٤) من سوره القلم، و كلا الموطنين يتعلقان بمكذّبي آيات الله و منكر بها.

و كما يقول أهل اللغه، فإنّ للاستدراج معنيين:

أحدهما: أخذ الشىء تدريجا، لأنّ أصل الاستدراج مشتق من (الدرجه) فكما أنّ الإنسان ينزل من أعلى العماره إلى أسفلها بالسلالم درجه درجه، أو يصعد من الأسفل إلى الأعلى درجه درجه و مرحله مرحله، فقد سمي هذا الأمر

و المعنى الثانى للاستدراج هو، اللّف و الطّى، كطّى السّجل أو «الطومار» و لّفه. و هذان المعنيان أوردهما الراغب فى مفرداته، إلا أنّ التأمل بدقّه فى المعنيين يكشف أنّهما يرجعان إلى مفهوم كلى جامع واحد: و هو العمل التدريجى.

و بعد أن عرفنا معنى الاستدراج نعود إلى تفسير الآيه محل البحث.

يقول سبحانه فى الآيه الأولى: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ .

أى سنعدّبهم بالاستدراج شيئا فشيئا، و نطوى حياتهم.

و الآيه الثانيه تؤكّد الموضوع ذاته، و تشير بأنّ الله لا يتعجل بالعذاب عليهم، بل يمهلهم لعلهم يحذرون و يتعظون، فإذا لم ينتبهوا من نومتهم ابتلوا بعذاب الله، فتقول الآيه وَ أُمْلِي لَهُمْ .

لأنّ الاستعجال يتذرع به من يخاف الفوت، و الله قوى و لا يفلت من قبضته أحدٍ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ .

و«المتين» معناه القوى المحكم الشديد، و أصله مأخوذ من المتن، و هو العضله المحكمه التى تقع فى جانب الكتف (فى الظهر).

و«الكيد» و المكر متساويان فى المعنى، و كما ذكرنا فى ذيل الآيه (٥٤) من سوره آل عمران، أنّ المكر يعنى فى أصل اللغه الاحتيال و منع الآخر من الوصول إلى قصده.

و يستفاد من الآيه-آنفه الذكر و آيات أخرى و بعض الأحاديث الشريفه الوارده- فى شأن الاستدراج، أو العذاب الاستدراجى، أنّ الله لا- يتعجل بالعذاب على الطغاه و العاصين المتجرئين وفقا لسنته فى عباده، بل يفتح عليهم أبواب النعم. فكلّما ازدادوا طغيانا زادهم نعمًا.

و هذا الأمر لا- يخلو من إحدى حالتين، فإما أن تكون هذه النعم مدعاه للتنبية و الإيقاظ فتكون الهدايه الإلهيه فى هذه الحال عمليه.

أو أنّ هذه النعم تزيدهم غرورا و جهلا- فعندئذ يكون عقاب الله لهم فى آخر مرحله أوجع، لأنهم حين يغرقون فى نعم الله و ملذاتهم و يبطرون، فإنّ الله سبحانه يسلب عندئذ هذه النعم منهم، و يطوى سجل حياتهم، فيكون هذا العقاب صارما و شديدا جدا...

و هذا المعنى بجميع خصوصياته لا يحمله لفظ الاستدراج وحده، بل يستفاد هذا المعنى يفيد من حيث لا يعلمون أيضا.

و على كل حال، فهذه الآيه تنذر جميع المجرمين و المذنبين بأنّ تأخير الجزاء من قبل الله لا يعنى صحه أعمالهم أو طهارتهم، و لا عجزا و ضعفا من الله، و أن لا يحسبوا أنّ النعم التى غرقوا فيها هى دليل على قربهم من الله، فما أقرب من أن تكون هذه النعم و الانتصارات مقدمه لعقاب الاستدراج. فالله سبحانه يغشّيهم بالنعم و يمهلهم و يرفعهم عاليا، إلاّ أنّه يكبسهم على الأرض فجأه حتى لا يبقى منهم أثر، و يطوى بذلك وجودهم و تأريخ حياتهم كله.

يقول الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغه أنّه «من وسّع عليه فى ذات يده فلم ير ذلك استدراجا فقد أمن مخوفا» (١).

كما

جاء عنه عليه السلام فى روضه الكافى أنّه قال: «ثمّ إنّ سيأتى عليكم من بعدى زمان ليس فى ذلك الزمان شىء أخفى من الحق، و لا أظهر من الباطل، و لا أكثر من الكذب على الله و رسوله صلّى الله عليه و آله و سلّم- إلى أن قال- يدخل الداخل لما يسمع من حكم القرآن فلا- يطمئن جالسا حتى يخرج من الدين، ينتقل من دين ملكك إلى دين ملكك، و من ولايه إلى ولايه ملكك، و من طاعه ملكك إلى طاعه ملكك، و من عهود ملكك إلى

ص: ٣١٣

عهود ملك، فاستدرجهم الله تعالى من حيث لا يعلمون» (١).

و

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «كم من مغرور بما قد أنعم الله عليه، وكم من مستدرج يستر الله عليه، وكم من مفتون بثناء الناس عليه» (٢).

و

جاء عنه عليه السلام في تفسير الآية المشار إليها آنفا أنه قال: «هو العبد يذنب الذنب فتجدد له النعمة معه، تلهيه تلك النعمة عن الاستغفار عن ذلك الذنب» (٣).

و

ورد عنه عليه السلام في كتاب الكافي أيضا: «إنَّ الله إذا أراد بعبد خيرا فأذنب ذنبا أتبعه بنقمه و يذكره الاستغفار، وإذا أراد بعبد شرا فأذنب ذنبا أتبعه بنعمه لينسيه الاستغفار، و يتمادى بها، وهو قوله عزَّ و جل: سَنَسِيحٌ تَدْرِيحُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ بالنعمة عند المعاصي» (٤).

ص: ٣١٤

١-١) المصدر السابق.

٢-٢) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ١٠٦.

٣-٣) المصدر السابق.

٤-٤) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٥٣.

إشاره

أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤) أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوٰتِ وَ الْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦)

سبب النزول

روى المفسرون أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين كان بمكة، صعد ذات ليلة على جبل الصفا ودعا الناس إلى توحيد الله، وخاصه قبائل قريش، وحذرهم من عذاب الله، و

قال: «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، قولوا، لا إله إلا الله تفلحوا» فقال المشركون: إن صاحبهم قد جنّ، بات ليلا يصوت حتى الصباح، فنزلت الآيات وأجمتهم وردت قولهم.

ورغم أنّ الآيه لها شأن خاص، إلا أنّها في الوقت ذاته لما كانت تدعو إلى معرفه النبي وهدف الخلق وتهيؤ للعالم الآخر، ففيها ارتباط وثيق بالمواضيع التي سبق بيانها في شأن أهل الجنه وأهل النار.

التهمة والأباطيل:

فى الآيه الأولى من الآيات-محل البحث-يردّ الله سبحانه على كلام المشركين الذى لا أساس له بزعمهم أنّ النبى صلى الله عليه وآله وسلم قد جنّ، فيقول سبحانه: أَو لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ (١).

و هذا التعبير يشير إلى أنّ النبى صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن شخصا مجهولا بينهم، و تعبيرهم ب«الصاحب» يعنى المحب و المسامر و الصديق و ما إلى ذلك. و كان النبى معهم أكثر من أربعين عاما يرون ذهابه و إياه و تفكيره و تدبيره دائما و آثار النبوغ كانت بادية عليه، فمثل هذا الإنسان الذى كان يعدّ من أبرز الوجوه و العقلاء قبل الدعوه إلى الله، كيف تلصق به مثل هذه التهمة بهذه السرعة؟! أمّا كان الأفضل أن يتفكروا-بدلا من إصاق التهمة به-أن يكون صادقا فى دعواه و هو مرسل من قبل الله سبحانه؟! كما عقب القرآن الكريم و بين ذلك بعد قوله أو لم يتفكروا؟ فقال: إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ...

و فى الآيه التّالية-استكمالا للموضوع آنف الذكر-دعاهم القرآن إلى النظر فى عالم الملكوت، عالم السموات و الأرض، إذ تقول الآيه: أَو لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ .

ليعلموا أنّ هذا العالم الواسع، عالم الخلق، عالم السموات و الأرض، بنظامه الدقيق المحيّر المذهل لم يخلق عبثا، و إنّما هناك هدف وراء خلقه. و دعوه النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى الحقيقة، هى من أجل ذلك الهدف، و هو تكامل الإنسان و تربيته و ارتقاؤه.

و«الملكوت» فى الأصل مأخوذ من«الملك» و يعنى الحكومه و المالكيه،

ص: ٣١٦

١-١) «الجنّة» كما يذهب إليه أصحاب اللغه معناها الجنون، و معناها فى الأصل: الحائل و المانع فكأنما يلقي على العقل حائل عند الجنون.

و الواو و التاء المزيدتان المرذفتان به هما للتأكيد و المبالغه. و يطلق هذا الاستعمال على حكومه الله المطلقه التي لا حد لها و لا نهايه...

فالنظر إلى عالم الملكوت و نظامه الكبير الواسع المملوك لله سبحانه يقوى الإيمان بالله و الإيمان بالحق، كما أنه يكشف عن وجود هدف مهم فى هذا العالم الكبير المنتظم أيضا. و فى الحالين يدعو الإنسان إلى البحث عن ممثل الله و رسول رحمته الذى يستطيع أن يطبق الهدف من الخلق فى الأرض.

ثم تقول الآيه معقبه... لتتبههم من نومه الغافلين و أن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون .

أى: أولاً: ليس الأمر كما يتصورون، فأعمارهم لا تخلد و الفرص تمر مر السحاب، و لا يدرى أحد أهو باق إلى غد أم لا؟! فمع هذه الحال ليس من العقل التسويف و تأجيل عمل اليوم إلى غد.

ثانياً: إذ لم يكونوا ليؤمنوا بهذا القرآن العظيم الذى فيه ما فيه من الدلائل الواضحه و البراهين اللاتحه الهاديه إلى الإيمان بالله، فأى كتاب ينتظرونه خير من القرآن ليؤمنوا به؟ و هل يمكن أن يؤمنوا بكلام آخر و دعوه أخرى غير هذه؟! و كما نلاحظ فإن الآيات محل البحث توصل جميع سبل الفرار بوجه المشركين، فمن ناحيه تدعوهم إلى أن يتفكروا فى شخصيه النبى و عقله و سابق أعماله فيهم لثلاثا يتملصوا من دعوته باتهامهم إياه بالجنون.

و من ناحيه أخرى تدعوهم إلى أن ينظروا فى ملكوت السماوات و الأرض، و الهدف من خلقهما، و أنّهما لم يخلقا عبثا.

و من ناحيه ثلثه تقول: و أن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم لثلاثا يسوفوا قائلين اليوم و غدا و بعد غد إلخ...

و من ناحيه رابعه تقول: إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فإنهم لن يؤمنوا بأى حديث آخر و أى كتاب آخر، إذ ليس فوق القرآن كتاب أبدا...

و أخيرا فإن الآيه التاليه، و هي آخر آيه من الآيات محل البحث، تختتم الكلام بالقول مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ .

و كما ذكرنا مرارا فإن مثل هذه التعابير لا- تشمل جميع الكفار و المجرمين، بل تختص بأولئك الذين يقفون بوجه الحقائق معاندين الداء، حتى كأنما على أبصارهم غشاوه و في سمعهم صمم و على قلوبهم طبع، فلا يجدون إلا أسدالا من الظلمات تحجب طريقهم. و كل ذلك هو نتيجة أعمالهم أنفسهم، و هو المقصود بالإضلال الإلهي مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ .

ص: ٣١٨

اشاره

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً
يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَلَيْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧)

سبب النزول

اشاره

أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ!؟

وفقا لما ورد في بعض الروايات (١) فإن قريشا أرسلت عدده أنفار إلى نجران ليسألوا اليهود الساكنين فيها-إضافه إلى المسيحيين هناك-مسائل ملتويه ثم يلقوها على النبي عند رجوعهم إليه، طنا منهم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سيعجز عن إجابتهم، و من جمله هذه الأسئلة كان هذا السؤال: متى تقوم الساعة؟! فلما سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك السؤال نزلت الآيه محل البحث و أفحمتهم! (٢)

ص: ٣١٩

- ١-١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٥٤.
- ٢-٢) يرى بعض المفسرين كالمرحوم الطبرسي أن سبب النزول هو في جماعه من اليهود الذين جاءوا النبي و سألوه عن يوم القيامة، إلا أنه لما كانت السوره نازله في مكه، و لم يكن بين النبي و اليهود فيها خصام و جدال، فهذا الموضوع مستبعد جدا.

مع أنّ هذه الآيه ذات سبب خاص في النزول- كما ذكروا- إلا أنّها في الوقت ذاته لها علاقه وثيقه بالآيات المتقدمه أيضا، لأنه قد وردت الإشارة إلى يوم القيامة و لزوم الاستعداد لمثل ذلك اليوم في الآيات السابقه. و بالطبع فإنّ موضوعا كهذا يستدعى السؤال عن مواعده و قيامه، و يستثير كثيرا من الناس أن يسألوه: أيّان يوم القيامة؟ لهذا فإنّ القرآن يقول: يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ؟! و بالرغم من أنّ «الساعه» تعنى زمان نهايه الدنيا، إلا أنّها في الغالب- أو دائما كما ذهب البعض- تأتي بمعنى القيامة في القرآن الكريم، و خاصّه من بعض القرائن التي تكتنف الآيه- محل البحث- إذ تؤكّد هذا الموضوع كجمله: متى تقوم الساعه؟ الوارده في شأن نزول الآيه:

و كلمه «أيّان» تساوى «متى» و هما للسؤال عن الزمان، و المرسى مصدر ميمي من الإرساء، و هما بمعنى واحد، و هو ثبات الشىء أو وقوعه، لذلك يطلق على الجبل وصف «الراسى» فيقال: جبال راسيات، فبناء على ذلك فإنّ «أيّان مرساها» تعنى: في أي وقت تقع القيامة و تكون ثابتة؟! ثمّ تضيف الآيه مخاطبه النبي أن يردهم بصراحه قائله: قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّئُهَا لَوْفٌهَا إِلَّا هُوَ .

إلا أنّ الآيه تذكر علامتين مجملتين، فتقول أولا: ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ .

أيه حادثه يمكن أن تكون أثقل من هذه، إذ تضطرب لهولها جميع الأجرام السماويه «قبيل القيامة» فتخمد الشمس و يظلم القمر و تندثر النجوم، و يتكون

من بقاياها عالم جديد بثوب آخر! (١) ثم إن قيام الساعة يكون على حين غرّه، وبدون مقدمات تدريجيّه، بل على شكل مفاجئ و انقلاب سريع.

ثم تقول الآيه مرّه أخرى: يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا (٢).

و تضيف الآيه مخاطبه النبي الكريم: قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

و ربّما يسأل-أو يتساءل-بعض الناس: لم كان علم الساعه خاصًا بالله و ذاته المقدسه، و لا يعلم بها حتى الأنبياء؟! و الجواب على ذلك: إن عدم معرفه الناس بوقوع يوم القيامة و زمانها «بضميمه كون القيامة لا تأتي إلا بغته» و مع الالتفات إلى هول يوم القيامة و عظمتها، هذا الأمر يبعث على أن يتوقع الناس وقوع يوم القيامة في أى وقت و يترقبوها باستمرار، و يكونوا على أهبه الاستعداد و التهيؤ، لكي ينجوا من أهوالها. فعدم المعرفه هذا له أثر مثبت جلي في تربيّه النفوس و الالتفات إلى المسؤوليّه و اتقاء الذنوب.

ص: ٣٢١

١- ١) قال بعض المفسّرين أنّ المراد من هذه الجملة هو أن معرفه القيامة أو علمها ثقيل على أهل الأرض و السماوات، إلا أنّ الحقّ هو التفسير المذكور آنفاً «في المتن» لأنّ القول بحذف كلمتي العلم و الأهل خلاف ظاهر الآيه.

٢- ٢) الحفي في الأصل هو من يسأل عن الشئ بتتابع و إصرار، و لما كان الإصرار في السؤال باعثا على زياده العلم، فقد تستعمل هذه اللفظه على العالم كما هي هنا أيضا.

اشاره

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَ
بَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)

سبب النزول

روى بعض المفسرين «كالعلامة الطبرسي في مجمع البيان» أن أهل مكة قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إذا كان لك ارتباط بالله، أفلا يطلعك الله على غلاء السلع أو زهادتها في المستقبل، لتهدى عن هذا الطريق ما فيه النفع والخير و تدفع عنك ما فيه الضرر و السوء، أو يطلعك الله على السدنة المحمله «القحط» أو العام المخصب العشب، فينتقل إلى الأرض الخصيبه؟ فنزلت عندئذ الآية-محل البحث-و كانت جواب سؤالهم.

التفسير

اشاره

لا يعلم الغيب إلا الله:

بالرغم من أن هذه الآية لها شأن خاص في نزولها، إلا أن ارتباطها بالآيه

السابقه واضح، لأنّ الكلام كان فى الآيه السابقه على عدم علم أحد بقيام الساعه إلاّ الله، والكلام فى هذه الآيه على نفي علم الغيب عن العباد بصوره كليّه.

ففى الجمله الأولى من هذه الآيه خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ

و لا شك أنّ كل إنسان يستطيع أن ينفذ نفسه، أو يدفع عنها الشر، ولكن على الرغم من هذه الحال فإنّ الآيه-محل البحث، كما نلاحظ-تنفى هذه القدره عن البشر نفيا مطلقا. وذلك لأنّ الإنسان فى أعماله ليس له قوه من نفسه، بل القوه و القدره و الاستطاعه كلّها من الله، و هو سبحانه الذى أودع فيه كل تلك القوه و القدره و ما شاكلهما.

و بتعبير آخر: إنّ مالك جميع القوى و القدرات و ذو الإختيار المستقل-و بالذات-فى عالم الوجود هو الله عزّ و جلّ فحسب، و الآخرون حتى الأنبياء و الملائكه يكتسبون منه القدره و يستمدون منه القوه، و ملكهم و قدرتهم هى بالغير لا بالذات...

و جملته «إلاّ ما يشاء الله» شاهد على هذا الموضوع أيضا.

و فى كثير من آيات القرآن الأخرى نرى نفي المالكيه و النفع و الضرر عن غير الله، و لذلك فقد نهت الآيات عن عباده الأصنام و ما سوى الله سبحانه...

و نقرأ فى الآيتين (٣) و (٤) من سوره الفرقان و اتّخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا و هم يخلقون و لا يملكون لأنفسهم ضرا و لا نفعاً فكيف يملكون غيرهم؟! و هذه هى عقيدته المسلم، إذ لا يرى أحدا «بالذات» رازقا و مالكا و خالقا و ذا نفع أو ضرر إلاّ الله، و لذا فحين يتوجه المسلم إلى أحد طالبا منه شيئا فهو يطلبه مع التفاته إلى هذه الحقيقه، و هى أنّ ما عند ذلك الشخص فهو من الله (فتأمل بدقه).

و يتضح من هذا إنَّ الذين يتذرعون بمثل هذه الآيات لنفى كل توسل بالأنبياء و الأئمة، و يعدون ذلك شركا، فى خطأ فاضح، حيث تصوروا بأنَّ التوسل بالنبي أو الإمام مفهومه أن نعدَّ النبي أو الإمام مستقلا بنفسه فى قبال الله - و العياذ بالله - و أنه يملك النفع و الضرر أيضا.

و لكن من يتوسل بالنبي أو الإمام مع الاعتقاد بأنه لا يملك شيئا من نفسه، بل يطلبه من الله، أو أنه يستشفع به إلى الله، فهذا الاعتقاد هو التوحيد عينه و الإخلاص ذاته. و هو ما أشار إليه القرآن فى الآية محل البحث بقوله: **إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ** أو بقوله: **إِلَّا بِإِذْنِهِ** فى الآية مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ .

فبناء على ذلك فإنَّ فريقين من الناس على خطأ فى مسأله التوسل بالنبي و الأئمة الطاهرين...

الفريق الأول: من يزعم أنَّ النبي أو الإمام له قدره و قوه مستقلة بالذات فى قبال الله، فهذا الاعتقاد شرك بالله.

و الفريق الآخر: من ينفى القدره - بالغير - عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم و الأئمة الطاهرين عليهم السلام، فهذا الاعتقاد انحراف عن مفاد آيات القرآن الصريحه.

إذن: الحق هو أنَّ النبي و الأئمة يشفعون للمتوسل بهم بإذن الله و أمره، و يطلبون حل معضلته من الله.

و بعد بيان هذا الموضوع تشير الآية إلى مسأله مهمه أخرى ردًا على سؤال جماعه منهم فتقول: **وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمَ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ (١)**.

لأنَّ الذى يعرف أسرار الغيب يستطيع أن يختار ما هو فى صالحه، و أن يجتنب عمَّا يضره.

ص: ٣٢٤

١- ١) فى الحقيقه أن هناك حذفًا فى الآية تقديره «لا أعلم الغيب» و الجملة التى بعدها شاهده على ذلك.

ثم تحكى الآيه عن مقام النبى الواقعى و رسالته، فى جملة موجزه صريحه، فتقول على لسانه: **إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .**

ملاحظه

اشاره

ألم يكن النبى صلى الله عليه و آله و سلم يعلم الغيب؟!!

يحكم بعض السطحيين لدى قراءتهم لهذه الآيه-و بدون الأخذ بنظر الإعتبار الآيات القرآنيه الأخرى، بل حتى القرائن الموجوده فى هذه الآيه أيضا- أن الآيه آنفه الذكر دليل على نفى علم الغيب عن الأنبياء نفيا مطلقا...

مع أن الآيه-محل البحث-تنفى علم الغيب المستقل و بالذات عن النبى، كما أنها تنفى القدره على كل نفع و ضرر بصوره مستقله. و نعرف أن كل إنسان يملك لنفسه و للآخرين النفع أو الضرر.

فبناء على ذلك فإن هذه الجملة المتقدمه شاهد واضح على أن الهدف ليس هو نفى مالكيه النفع و الضرر أو نفى علم الغيب بصوره مطلقه، بل الهدف نفى الاستقلال، و بتعبير آخر: إن النبى لا يعرف شيئا من نفسه، بل يعرف ما أطلعه الله عليه من أسرار غيبه، كما تقول الآيتان (٢٤) و (٢٧) من سوره الجن **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ الْكَلِمَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا .**

و أساسا، فإن كمال مقام القياده لا سيما إذا كان الهدف قياده العالم بأسره، و فى جميع المجالات الماديّه و المعنويه، هو الاحاطه الواسعه بالكثير من المسائل الخفيه عن سائر الناس، لا المعرفه بأحكام الله و قوانينه فحسب، بل المعرفه بأسرار عالم الوجود، و البناء البشرى، و قسم من حوادث المستقبل و الماضى، فهذا القسم من العلم يطلعه الله على رسله، و إذا لم يطلعهم عليه لم

ص: ٣٢٥

تكمّل قيادتهم!...

و بتعبير آخر: إنّ أحاديث الأنبياء و الرسل و سيرتهم ستكون محدوده بظروف عصرهم و محيطهم، لكن عند ما يكونون عارفين بهذا القسم من أسرار الغيب فسيقومون ببناء حضاره على مستوى الأجيال القادمه، فتكون مناهجهم صالحه لمختلف الظروف و المتغيرات...

ص: ٣٢٤

إشاره

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمْ لَأُنزِلَنَّ صَالِحًا لَنَا مِن الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣)

التفسير

إشاره

جحد نعمه عظمى:

في هذه الآيات إشارة إلى جانب آخر من حالات المشركين و أسلوب تفكيرهم، و الرد على تصوراتهم الخاطئة. لما كانت الآيه السابقه تجعل جميع ألوان النفع و الضر و علم الغيب منحصرًا باللَّهِ، و كانت في الحقيقه إشارة إلى توحيد

أفعال الله. فالآيات محل البحث تعدّ مكمله لها لأنّ هذه الآيات تشير إلى توحيد أفعال الله أيضا.

تقول الآية الأولى من هذه الآيات هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فجعل الحياه و السكن جنبا إلى جنب فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ (١).

وبمرور الأيام و الليالى ثقل الحمل فَلَمَّا أَثْقَلَتْ كان كل من الزوجين ينتظر الطفل، و يتمنى أن يهبه الله ولدا صالحا، فلذلك دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ و عند ما استجاب الله دعاءهما، و رزقهما الولد الصالح أشركا بالله فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

الجواب على سؤال مهم!

هناك بين المفسرين كلام فى المراد من الزوجين الذين تكلمت عنهما الآيتان الأوليان من الآيات محل البحث...

هل أنّ المراد من «النفس الواحده» و زوجها آدم و حواء؟ مع أنّ آدم من الأنبياء و حواء امرأه مؤمنه كريمه، فكيف ينحرفان عن مسير التوحيد و يسلكان مسير الشرك؟! و إذا كان المراد من النفس الواحده غير آدم و تشمل الآيه جميع أفراد البشر، فكيف ينسجم التعبير إذا و قوله تعالى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ؟! ثم بعد هذا ما المراد من الشرك، و أى عمل أو تفكير قام به الزوجان فجعللا لله شركاء؟!

ص: ٣٢٨

١- ١) تغشاهما فعل يليه ضمير التأنيث و هو غشى، و معناه غطى، و هذه الجملة كناية لطيفه عن المقاربه الجنسيه و المضاجعه.

و فى الجواب على مثل هذه الأسئلة نقول:

يوجد طريقان لتفسير الآيتين هاتين «و ما بعدهما»، و لعل جميع ما قاله المفسِّرون على اختلاف آرائهم يرجع إلى هذين الطريقين...

الأول: إنَّ المراد من نفس «واحدة». هو الواحد الشخصى كما ورد هذا المعنى فى آيات أخرى من القرآن أيضا، و منها أوَّل آيه من سورة النساء.

و التعبير بالنفس الواحد-أساسا-جاء فى خمسة مواطن فى القرآن المجيد، وواحدة منها فى الآيه-محل البحث-و الأربعة الأخرى هى فى سورة النساء (الآيه الأولى) و سورة الأنعام، الآيه (٩٨)، و سورة لقمان، الآيه (٢٨)، و سورة الزمر، الآيه (٦)، و بعض هذه الآيات لا-علاقه لها ببحثنا هذا، و بعضها يشبه الآيه محل البحث. فبناء على ذلك فالآيات-محل البحث-تشير إلى آدم و زوجه حواء فحسب! و على هذا فالمراد بالشرك ليس هو عباده غير الله أو الإعتقاد بألوهيه غيره، بل لعل المراد شى آخر من قبيل ميل الإنسان لطفله، الميل الذى ربّما يجعله غافلا عن الله أحيانا.

و التفسير الثانى: هو أنّ المراد من النفس الواحد هو الواحد النوعى، أى أن الله خلقكم جميعا من نوع واحد كما خلق أزواجكم من جنسكم أيضا.

و بذلك فإنَّ الآيتين و ما بعدهما من الآيات-محل البحث-تشير إلى نوع الناس، فهم يدعون الله و ينتظرون الوالد الصالح فى كمال الإخلاص لله و الانقطاع إليه، كمن يحدق بهم الخطر فيلتجئوا إلى الله، و يعاهدون الله على شكره بعد حلّ معضلاتهم. و لكن عند ما يرزقهم الله الولد الصالح، أو يحلّ مشاكلهم ينسون جميع عهودهم فإنَّ كان الولد جميلا قالوا: إنّه اكتسب جماله من أبيه أو أمّه، و هذا هو قانون الوارثه. و تاره يقولون: إنّ غذاؤه و الظروف الصحيه تسببت فى نموّه و سلامته. و تاره يعتقدون بتأثير الأصنام و يقولون: إنّ ولدنا كان من بركه الأصنام

و عطائها! أو أمثال هذا الكلام...

و هكذا يهتمون التأثير الرباني بشكل عام، و يرون العلة الأصلية هي العوامل الطبيعيه أو المعبودات الخرافيه (١).

و القرائن فى الآيات-محل البحث-تدل على أن التفسير الثانى أكثر انسجاما و أكثر تفهما لغرض الآيه، لأنه:

أولاً: إن تعبيرات الآى تحكى عن حال زوجين كانا يعيشان فى مجتمع ما من قبل، و رأيا الأبناء الصالحين و غير الصالحين فيه، و لهذا طلبا من الله و سألاه أن يرزقهما الولد الصالح. و لو كانت الآيات تتكلم على آدم و حواء فهو خلاف الواقع، لأنه لم يكن يؤمئذ ولد صالح و غير صالح حتى يسألا الله الولد الصالح.

ثانياً: الضمائر الوارده فى آخر الآيه الثانیه و الآيات التى تليها، كلها ضمائر «جمع» و يستفاد من هذا أن المراد من ضمير التثنيه هو إشاره إلى الفريقين لا إلى الشخصين.

ثالثاً: أن الآيات التى تلت الآيتين الأوليين تكشف عن أن المقصود بالشرك هو عباده الأصنام، لا محبته الأولاد و الغفله عن الله، و هذا الأمر لا ينسجم و النبى آدم و زوجه! فبملاحظه هذه القرائن يتضح أن الآيات-محل البحث-تتكلم عن نوع الإنسان و زوجه ليس إلا.

و كما ذكرنا فى الجزء الثانى من التفسير الأمثل أن خلق زوج الإنسان من الإنسان ليس معناه أن جزءا من بدنه انفصل عنه و تبدل إلى زوج له يسكن إليه «كما ورد فى روايه إسرائيليه أن حواء خلقت من ضلع آدم الأيسر!».

بل المراد أن زوج الإنسان من نوعه و جنسه، كما نقرأ فى الآيه (٢١) من

ص: ٣٣٠

١-١) يرى بعض المفسرين أن بدايه الآيه يتعلق بآدم و حواء، و ذيل الآيه تتعلق بأبناء آدم و حواء، و هذا تكلف، لأنه يحتاج إلى حذف و تقدير، و هو لا ينسجم و ظاهر الآيه.

سوره مريم! قوله تعالى: أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا .

روايه مجعوله:

جاء فى بعض المصادر الحديثيه لأهل السنّه، و بعض كتب الحديث الشيعيه غير المعتمره، فى تفسير الآيات محل البحث، حديث لا ينسجم مع العقائد الإسلاميه، و لا يليق بشأن الأنبياء أبدا. و هذا الحديث كما جاء فى مسند أحمد هو:

أن سمره بن جندب روى عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: لَمَّا وَلِدْتَ حَوَاءَ طَافَ بِهَا إِبْلِيسُ وَ كَانَ لَا يَعِيشُ لَهَا وَ لَدَ فَقَالَ: سَمِيَهُ: عَبْدَ الْحَارِثِ، فَعَاشَ وَ كَانَ ذَلِكَ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَ أَمْرِهِ (١) «الحارث اسم من أسماء الشيطان».

و جاء فى بعض الروايات الوارد فيها هذا المضمون ذاته أن آدم رضى بهذا الأمر!! و سواء أ كان راوى هذه الروايه سمره بن جندب-الكذاب المشهور- أم غيره أمثال كعب الأخبار أو وهب بن منبه اللذين كانا من علماء اليهود ثم أسلما، و يعتقد بعضهم أنّهما أدخلوا فى ثقافته الإسلاميه خرافات التوراه و بنى إسرائيل.

و مهما يكن الأمر فالروايه بنفسها خير دليل على فسادها و بطلانها، لأنّ آدم الذى هو خليفه الله «فى أرضه» و نبيّه الكبير، و كان يعلم الأسماء، بالرغم من كونه بترك الأولى هبط إلى الأرض، إلا- أنّه لم يكن إنسانا يختار سبيل الشرك و يسمّى ولده عبد الشيطان، فهذا الأمر يصدق فى مشرك جاهل فحسب لا فى آدم...

و الأعجب من ذلك أنّ الحدى أنف الذكر يتضمن معجزه للشيطان أو كرامه له، إذ بتسميته الولد باسمه عاش الولد خلافا للأبناء الآخرين. و إنّ له لمدعاه

ص: ٣٣١

للأسف الشديد أن ينساق كثير من المفسرين تحت وطأه هذا الحديث المختلق و أضرابه، فيجعلون مثل هذه الأباطيل تفسيراً للآي. و على كل حال، فإنّ مثل هذا الكلام لما كان مخالفاً للقرآن، و مخالفاً للعقل أيضاً، فينبغي أن ينبذ في سله المهملات.

و تعقيباً على هذا الأمر يردّ القرآن- بأسلوب بين متين- عقيدة المشركين و أفكارهم مره أخرى، فيقول: أَيْسُرُ كُونَ مَا لَا يُخْلَقُ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ .

و ليس هذا فحسب، فهم ضعاف و لَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَ لَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ .

و الأوثان و الأصنام في حاله لو ناديتموها لما استجابت لكم وَ إِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ .

فمن كان بهذه المنزلة و بهذا المستوى أنى له بهدايه الآخرين! و يحتمل بعض المفسرين احتمالاً آخر في تفسير الآية، و هو أنّ الضمير «هم» يرجع إلى المشركين لا إلى الأصنام، أى أنّهم إلى درجه من الإصرار و العناد بحيث لا يسمعونكم و لا يدعونون لكم و لا يسلمون.

كما و يحتمل أنّ المراد هو أنّكم لو طلبتم منهم الهدايه، فلن يتحقق دعاؤكم و طلبكم على كل حال سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ .

و طبقاً للاحتمال الثانی يكون معنى الجملة على النحو التالى: سواء عليكم أ طلبتم من الأصنام شيئاً، أو لم تطلبوا ففى الحالين لا أثر لها، لأنّ لا تقدر على أداء أى شىء أو التأثير فى شىء.

يقول الفخر الرازى فى تفسيره: إذا المشركين إذا ابتلوا بمشكلة تضرعوا إلى الأصنام و دعواها، و إذا لم يصبهم أذى أو سوء كانوا يسكتون عنها، فالقرآن يخاطبهم بالقول سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ .

إشاره

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنَّكُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْتَاطُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ (١٩٥)

التفسير

هاتان الآيتان-محل البحث-تواصلان الكلام على التوحيد و مكافحه الشرك، و تكملان ما عالجتاه الآيات السابقه، فتعدان كل شرك في العباده عملا- سفيها و بعيدا عن المنطق و العقل! و التدقيق في مضمون هاتين الآيتين يكشف أنهما تبطلان منطق المشركين بأربعة أدله، و السرّ في كون القرآن يعالج إبطال الشرك باستدلالات مختلفه، و كل حين يأتي ببرهان مبين، لأن الشرك ألدّ أعداء الإيمان، و أكبر عدوّ لسعاده الفرد و المجتمع.

و لما كانت للشرك جذور مختلفه و أفانين متعدده في أفكار البشر، فإنّ

القرآن يستغل كل فرصه لقطع جذوره الخبيثه...و أفانيه التي تهدد المجتمع الإنساني.

فتقول الآيه الأولى من هاتين الآيتين: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ .

فبناء على ذلك لا معنى لأن يسجد الإنسان لشيء مثله،و أن يمدّ يد الضراعه و الحاجه إليه،و أن يجعل مقدراته و مصيره تحت يده! و بتعبير آخر:إن مفهوم هذه الآيه هو أنكم-أيها المشركون-لو أمعنتم النظر لرأيتم معبوداتكم ذات أجسام و أسيره المكان و الزمان،و تحكمها قوانين الطبيعه،و هي محدوده من حيث الحياه و العمر و الإمكانيات الأخرى.و خلاصه الأمر:ليس لها امتياز عليكم،و إنما جعلتم لها امتيازاً عليكم بتصوراتكم و تخيلا-تكم! ثم إن كلمه «عباد» جمع «عبد»و يطلق هذا اللفظ على الموجود الحي،مع أن الآيه استعملته في الأصنام،فكانت لذلك تفاسير متعدده...

التفسير الأول:أنه من المحتمل أن تشير الآيه إلى المعبودين من جنس الإنسان أو المخلوقات الأخرى،كالمسيح إذ عبده النصرى،و الملائكه إذ عبدتها جماعه من المشركين العرب.

و التفسير الثانى:أن الآيه تنزلت و حكمت ما توهمه المشركين فى الأصنام بأن لها القدره،فكانوا يكلمونها و يتضرعون إليها،فالأيه-محل البحث-تخاطبهم بأنه على فرض أن للأصنام عقلا و شعورا،فهى لا تعدو أن تكون عبادا أمثالكم.

التفسير الثالث:أن العبد فى اللغه يطلق أحيانا على الموجود الذى يزرع تحت نيز الآخر و يخضع له،حتى لو لم يكن له عقل و شعور،و من هذا القبيل أن العرب يطلقون على الطريق المطرق بالذهاب و الإياب أنه «معبد».

ثم تضيف الآية: أنكم لو تزعمون بأن لهم عقلا و شعورا فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين .

و هذا هو الدليل الثاني على إبطال منطق المشركين، و هو كون الأصنام لا تستطيع أن تعمل شيئا، و هي ساكنة عاجزه عن الإجابة و الرد...

و فى البيان الثالث تبرهن الآية على أن الأصنام أضعف حتى من عبادها المشركين، فتساءل مستنكرة: أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ (١) بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا .

و هكذا فإن الأصنام من الضعه بمكان حتى أنها بحاجة إلى من يدافع عنها و يحامى عنها، فليس لها أعين تبصر بها، و لا آذان تسمع بها، و لا أرجل تمشى بها، و لا أى إحساس آخر. و أخيرا فإن الآية تبين ضمن تعبير هو فى حكم الدليل الرابع مخاطبه النبى صلى الله عليه و آله و سلم قائلة: قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظَرُونَ .

أى إذا كنت كاذبا، و أن الأصنام مقربات عند الله، و قد تجرأت عليها فلم لا تعضب على؟ و ليس لها و لا لكم و لمكائدكم أى تأثير على. فبناء على ذلك فاعلموا أن هذه الأصنام موجودات غير مؤثره، و إنما تصوراتكم هى التى أضفت عليها ذلك التوهم!.

ص: ٣٣٥

١- ١) يبطشون فعل مشتق من «البطش» على زنه «العرش» و معناه الاستيلاء بالشده و الصوله و القدره!...

إشارة

إِنَّ وَليَّيَ اللّٰهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨)

التفسير

إشارة

المعبودات التي لا قيمة لها:

تعقبا على الآيه المتقدمه التي كانت تخاطب المشركين بالقول (على لسان النبي): اُدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ مِنْبِهِ إِيَّاهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَجِيبُونَ أَنْ يَصِيبُوا النَّبِيَّ بِأَدْنَى ضَرَرٍ، فَإِنَّ الْآيَةَ الْأُولَى - من الآيات - محل البحث - تذكر الدليل على ذلك فتقول: إِنَّ وَليَّيَ اللّٰهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ .

و ليس وليى وحدى فحسب، بل هو ولي جميع الصالحين وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ .

ثم يؤكد القرآن بالآيه التاليه على بطلان عباده الأوثان مره أخرى فيقول:

وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ

بل أبعء من ذلك و إن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا و بالغرم من العيون المصنوعه لهم التي يخيل إلى الرائي أنها تنظر: و تراهم ينظرون إليك و هم لا يبصرون .

و كما أشرنا سابقا أيضا، فالآية-محل البحث-يحتمل أن تشير إلى الأصنام كما يحتمل أن تشير إلى المشركين. ففي الصورة الأولى مفهومها- كما قدمنا بيانه -أما في الصورة الثانية فيكون مفهومها: أنه لو دعا المسلمون هؤلاء المشركين المعاندين إلى طريق التوحيد الصحيح ما قبلوا ذلك منهم، و هم ينظرون إليك و يرون دلائل الصدق و الحق فيك، إلا أنهم لا يبصرون الحقائق! و مضمون الآيتين الأخيرتين ورد في الآيات السابقة أيضا، و هذا التكرار إنما هو لمزيد التأكيد على مكافحه الشرك و قلع جذوره التي نفذت في أفكار المشركين و أرواحهم عن طريق التلقين و التقرير المتكرر.

ص: ٣٣٧

إشاره

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْتَعِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَأْيُهُ قَالُوا لَوْ لَا اجْتَبَيْتُمَا قُلُوبَنَا لَمَا نُحِبُّهَا قُلْ إِنَّمَا اتَّبَعْتُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)

التفسير

إشاره

وساوس الشيطان:

في هذه الآيات يبين القرآن شروط التبليغ وقياده الناس و إمامتهم بأسلوب أخذ رائق وجيز، و هي في الوقت ذاته متناسب و الآيات المتقدمه التي كانت تشير إلى مسأله تبليغ المشركين أيضا.

ففي الآيه الأولى-من الآيات محل البحث-إشاره إلى ثلاث من وظائف القاده و المبلغين،فتوجه الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم فتقول في البدايه خُذِ الْعَفْوَ .

العفو: قد يأتي بمعنى الزيادة في الشيء أحيانا، كما قد يأتي بمعنى الحدّ الوسط، كما يأتي بمعنى قبول العذر و الصفح عن المخطئين و المسيئين، و تأتي أحيانا بمعنى استسهال الأمور.

و القرائن الموجوده في الآيه تدلّ على أنّ الآيه محلّ البحث لا- علاقه لها بالمسائل الماليه و أخذ المقدار الإضافي من أموال الناس، كما ذهب إليه بعض المفسرين، بل مفهومها المناسب هو استسهال الأمور، و الصفح، و اختيار الحدّ الوسط (١).

و من البديهي أنّه لو كان القائد أو المبلغ شخصا فظا صعبا، فإنّه سيفقد نفوذه في قلوب الناس و يتفرقون عنه، كما قال القرآن الكريم: **وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ (٢)**.

ثمّ تعقيب الآيه بذكر الوظيفة الثانيه للنبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و تأمره بأن يرشد الناس إلى حميد الأفعال التي يرتضيها العقل و يدعو إليها الله عزّ و جل قائله: **وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ**.

و هي تشير إلى أنّ ترك الشدّه لا يعنى المجامله، بل هو أن يقول القائد أو المبلغ الحق، و يدعو الناس إلى الحق و لا يخفى شيئا.

أمّا الوظيفة الثالثه للنبي صلّى الله عليه و آله و سلّم فهي أن يتحمل الجاهلين، فتقول: **وَاعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**.

فالقاده و المبلغون يواجهون في مسيرهم أفرادا متعصّبين جهله يعانون من انحطاط فكري و ثقافي و غير متخلقين بالأخلاق الكريمه، فيرشقونهم بالتهم، و يسيئون الظن بهم و يحاربونهم.

فطريق معالجه هذه المعضله لا يكون بمواجهه المشركين بالمثل، بل

ص: ٣٣٩

١-١) لمزيد من التوضيح يراجع الجزء الثاني من التفسير الأمثل في هذا الصدد.

٢-٢) آل عمران، ١٥٩.

الطريق السليم هو التحمل و الجلد و عدم الاكثرات بمثل هذه الأمور. و تجربه خير دليل على أن هذا الأسلوب هو الأسلوب الأمثل لمعالجه الجهله، و إطفاء النائره، و القضاء على الحسد و التعصب، و ما إلى ذلك.

و فى الآيه التّاليه دستور آخر، و هو فى الحقيقه يمثل الوظيفه الرّابعه التى ينبغى على القاده و المبلغين أن يتحملوها، و هى أن لا يدعوا سيلا- للشيطان إليهم، سواء كان متمثلا بالمال أم الجاه أم المقام و ما إلى ذلك، و أن يردعوا الشياطين أو المتشيطين و وساوسهم، لئلا ينحرفوا عن أهدافهم.

فالقرآن يقول: **وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١)**.

أجمع آيه أخلاقيه...:

روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لا آيه فى القرآن أجمع فى «المسائل» الأخلاقيه من هذه الآيه» (٢) «أى الآيه الأولى من الآيات محل البحث».

قال بعض الحكماء فى تفسير هذا الحديث: إن أصول الفضائل الأخلاقيه وفقا لأصول القوى الإنسانيه «العقل» و «الغضب» و «الشهوه» تتلخص فى ثلاثه أقسام:

١- الفضائل العقلية: و تدعى بالحكمه، و تتلخص بقوله تعالى: **وَ أُمِرَ بِالْعُرْفِ .**

٢- الفضائل النفسية فى مواجهه الطغيان و الشهوه، و تدعى بالعفه، و تتلخص بـ «خذ العفو».

٣- و التسلط على القوه الغضبيه، و تدعى بالشجاعه، و تتلخص فى قوله

ص: ٣٤٠

١- ١) ينزغ مأخوذ من ماده «الترغ» على زنه «الترغ» و معناه الدخول فى الأمر لإفساده أو الإثارة ضده!...

٢- ٢) مجمع البيان، ذيل الآيه.

تعالى وَ أَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ .

و سواء كان الحديث الشريف يدلّ على ما فسّره المفسّرون و أشرنا إليه آنفا، أو كما عبرنا عنه بشروط القائد أو المبلغ، فهو يبيّن هذه الحقيقة، و هي أنّ هذه الآية القصيره الوجيزه تتضمن منهجا جامعا واسعا كليا فى المجالات الأخلاقية و الاجتماعيه، بحيث يمكننا أن نجد فيها جميع المناهج الإيجابية البناءه و الفضائل الإنسانية. و كما يقول بعض المفسرين: إنّ إعجاز القرآن بالنسبه إلى الإيجاز فى المبنى، و السعه فى المعنى، يتجلى فى الآية محل البحث تماما.

و ينبغى الالتفات إلى أنّ الآية و إن كانت تخاطب النبى نفسه إلاّ أنّها تشمل جميع الأممه و المبلغين و القاده.

كما ينبغى الالتفات إلى أنّ الآيات محل البحث ليس فيها ما يخالف مقام العصمه أيضا، لأنّ الأنبياء و المعصومين ينبغى أن يستعذوا بالله من وساوس الشيطان، كما أنّ أى أحد لا يستغنى عن لطف الله و رعايته و الاستعاذه به من وساوس الشياطين، حتى المعصومين.

و

جاء فى بعض الروايات أنه لما نزلت الآية خُذِ الْعَفْوَ... سأل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم جبرئيل عن ذلك فقال جبرئيل: لا أدرى، حتى أسأل العالم ثم أتاه فقال:

«يا محمد، إنّ الله يأمرك أن تعفو عن ظلمك، و تعطى من حرمك، و تصل من قطعك» (١).

و

جاء فى حديث آخر أنه لما نزلت آية خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرَضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ قال النبى: كيف يا ربّ و الغضب؟ فنزل قوله وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢).

و ينبغى الإشارة إلى أنّ الآية الثانيه هنا جاءت فى سوره فصلت الآية (٣٦)

ص: ٣٤١

١-١) مجمع البيان، ذيل الآية محل البحث.

٢-٢) روى ذلك صاحب المنار قائلا: روى عن جدنا الإمام الصادق رضى الله عنه فى ج ٩، ص ٥٣٨.

بتفاوت يسير بين الآيتين، إذ ورد التعبير مكان قوله تعالى: إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ و في الآيه التاليه بيان للانتصار على وساوس الشيطان بهذا النحو إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ. أى يتذكرون ما أنعم الله عليهم، ويفكرون في سوء عاقبه الذنب و عذاب الآخره فيتضح لهم بذلك طريق الحق.

و الطائف:هو الذى يطوف و يدور حول الشئء، فكأن وساوس الشيطان تدور حول فكر الإنسان و روحه كالطائف حول الشئء ليجد منفذا إليه، فإذا تذكر الإنسان في مثل هذه الحاله ربّه، و استعاذ من وساوس الشيطان و عاقبه أمره، أبعدها عنه. و إلا أذعن لها و انقاد وراء الشيطان.

و أساسا فإن كل إنسان في آيه مرحله من الإيمان، أو أى عمر كان، يتلى بوساوس الشياطين. و ربّما أحس أحيانا أن في داخله قوه مهيمنه تدفعه نحو الذنب و تدعوه إليه، و لا شك أن مثل هذه الحاله من الوسوس في مرحله الشباب أكثر منها في آيه مرحله أخرى، و لا- سيما إذا كانت البيئه أو المحيط كما هو في العصر الحاضر من التحلل و الحرّيه، لا الحرّيه بمعناها الحقيقي، بل بما يذهب إليه الحمقى «من الانسلاخ من كل قيد و التزام أخلاقي أو اجتماعي أو ديني» فتزداد الوسوس الشيطانيه عند الشباب.

و طريق النجاه الوحيد من هذا التلوّث و التحلل في مثل هذه الظروف، هو تقويه رصيد التقوى أولاً كما أشارت إليه الآيه إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا... ثم المراقبه و التوجه نحو النفس، و الالتجاء إلى الله و تذكر أطافه و نعمه و عقابه الصارم للمذنب...

و هناك إشارات كثيره في الروايات الإسلاميه إلى أثر ذكر الله العميق في معالجه الوسوس الشيطانيه. حتى أن الكثير من المؤمنين و العلماء و ذوى المنزله

كانوا يحسون بالخطر عند مواجهه وساوس الشيطان، و كانوا يحاربونها «بالمراقبه» المذكوره فى كتب علم الأخلاق بالتفصيل.

و الوسوس الشيطانيه مثلها مثل الجرائم الضاره التى تبحث عن البنيه الضعيفه لتنفذ فيها. إلا أنّ الأجسام القويه تطرد هذه الجرائم فلا تؤثر فيها.

و جمله فإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ إشاره إلى حقيقه أن الوسوس الشيطانيه تلقى حجابا على البصيره «الباطنيه» للإنسان، حتى أنه لا يعرف العدو من الصديق، و لا الخير من الشر. إلا أن ذكر الله يكشف الحجب و يزيد الإنسان بصيره و هدى، و يمنحه القدره على معرفه الحقائق و الواقعيات، المعرفه التى تخلّصه من مخالب الوسوس الشيطانيه.

و ملخص القول: أننا لا- حظنا فى الآيه السابقيه كيف ينجو المتقون من نزغ الشيطان و وسوسته بذكر الله، إلا أن الآثمين إخوه الشياطين يبتلون بمزيد الوسوس فلا- ينسلخون عنها، كما تعبّر الآيه التاليه عن ذلك قائله: وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ .

«الإخوان» كنايه عن الشياطين، و الضمير «هم» يعود على المشركين و الآثمين، كما نقرأ هذا المصطلح فى الآيه (٢٧) من سوره الإسراء
إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ .

و«يمدونهم» فعل مأخوذ من الإمداد و معناه الإعانه و الإدامه، أى أنّهم يسوقونهم فى هذا الطريق دائما.

و جمله ثمّ لا يُقْصِرُونَ تعنى أنّ الشياطين لا يألون جهدا فى إضلال المشركين و الآثمين.

ثمّ تذكر الآيه التاليه حال جماعه من المشركين و المذنبين البعيدين عن المنطق، فتقول: إِنَّهُمْ يَكذِبُونَكَ- يا رسول الله- عند ما تتلوا عليهم آيات القرآن، و لكن عند ما لا تأتيمهم بآيه، أو يتأخر الوحي يتساءلون عن سبب ذلك: وَإِذَا لَمْ

و لكن قل لهم اننى لا اعمل و لا اقول إلا بما يوحى الله الى قل إنما أتبع ما يوحى إلى من ربي هذا بصائر من ربكم و هدى و رحمة لقوم يؤمنون .

و يتضح من هذه الآية-ضمنا-أن جميع أقوال النبى و أفعاليه مصدرها وحى السماء، و من قال بغير ذلك فهو بعيد عن القرآن.

ص: ٣٤٤

١- ١) الاجتباء مأخوذ من الجبايه، و أصلها جمع الماء فى الحوض و نحوه، و لذلك يسمّى حوض الماء ب«الجبايه»، و جمع الخراج يسمّى جبايه أيضا. ثم توسعوا فى الاستعمال فأطلقوا على جمع الأشياء و انتخابها و اختيار ما يراد منها اجتباء. فجمله «لولا اجتبيتها» تعنى لو لا اخترتها.

إشاره

وَ إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَ أذْكَرَ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْأَصَالِ وَ لَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)

التفسير

وَ إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا

:

لقد بدأت هذه السوره (سوره الأعراف) ببيان عظمه القرآن، و تنتهى بالآيات-محل البحث-التي تتكلم عن القرآن أيضا.

و بالرغم من أن المفسرين ذكروا أسبابا لنزول الآيه الأولى-من هذه الآيات محل البحث-منها مثلا ما روى عن ابن عباس و جماعه آخرين، أن المسلمين فى بادئ أمرهم كانوا يتكلمون فى الصلاه، و ربما ورد شخص (جديد) أثناء الصلاه فيسأل المصلين و هم مشغولون بصلاتهم: كم ركعه صليتُم؟ فيجيبونه: كذا ركعه. فنزلت الآيه و منعتهم أو نهتهم عن ذلك.

كما نقل الزهري سببا آخر لنزول الآيه، وهو أنه لما كان النبي يقرأ القرآن، كان شاب من الأنصار يقرأ معه القرآن بصورت مرتفع، فالآيه نزلت و نهت عن ذلك.

و أتيا كان شأن نزول هذه الآيه، فهي تقول: **وَ إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** و الفعل «انصتوا» مأخوذ من ماده «الإنصات» و معناه: السكوت المشفوع بالإصغاء و الاستماع.

و قد اختلف المفسرون في أن الإنصات و السكوت هنا في الآيه، هل هو عند قراءة القرآن في جميع الموارد؟ أم هو منحصر وقت الصلاة و عند قراءة إمام الجماعة؟ أم هو عند ما يقرأ إمام الجمعة في خطبه الصلاة-القرآن؟ كما أن هناك أحاديث شتى في هذا الصدد في كتب الفريقين في تفسير هذه الآيه. و الذي يستفاد من ظاهر الآيه أن هذا الحكم عام غير مختص بحال ما و لا وقت معين. إلا أن الروايات المتعدده الوارده عن الأئمة الطاهرين، بالإضافة إلى إجماع العلماء و اتفاقهم على عدم وجوب الاستماع عند قراءة القرآن في أية حال، يستدل من ذلك على أن هذا الحكم بصوره كليته حكم استحبابي، أي ينبغي إن قرئ القرآن-حيثما كان، و كيف كان-أن يستمع الآخرون و ينصتوا احتراماً للقرآن، لأن القرآن ليس كتاب قراءه فحسب، بل هو كتاب فهم و إدراك، ثم هو كتاب عمل أيضا.

و هذا الحكم المستحب ورد عليه التأكيد إلى درجه أن بعض الروايات عبرت عنه بالوجوب.

إذ

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «يجب الإنصات للقرآن في الصلاة و في

ص: ٣٤٦

غيرها و إذا قرئ عندك القرآن وجب عليك الإنصات و الاستماع» (١).

حتى أنه يستفاد من بعض الروايات أن لو كان إمام الجماعة مشغولا بالقراءة في الصلاة، و قرأ شخص آخر آية من القرآن فيستحب للإمام السكوت حتى ينهى قراءه الآية، ثم يكمل الإمام قراءته. حيث

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أن أمير المؤمنين عليا عليه السلام كان مشغولا بصلاة الصبح، و كان ابن الكوا-ذلك المناق الفظ القلب-خلف الإمام مشغولا بالصلاة، فقرأ فجأه و لقد أوجى إليك و إلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك و لتكونن من الخاسرين و كان هدفه من قراءه الآية أن يعترض على الإمام على مكتيا عن قبول الحكم في صفين-كما احتملوا ذلك-لكن الإمام سكت احتراماً للقرآن حتى ينتهي ابن الكوا من قراءه الآية، ثم رجع الإمام إلى قراءته فأعاد ابن الكوا عمله مره ثانيه، فسكت الإمام أيضا، فكرر ابن الكوا القراءة ثلثه فسكت على عليه السلام أيضا، ثم تلا قوله تعالى: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ وَ هو يشير إلى أن عذاب الله و عقابه الأليم في انتظار المناققين و غير المؤمنين، و ينبغي أن يتحمل الإنسان أذاهم، ثم أن الإمام أكمل السوره و هوى إلى الركوع (٢).

و يستفاد من مجمع ما تقدم، و لا سيما من البحث آنف الذكر، أن الاستماع و السكوت عند قراءه آيات القرآن أمر حسن جدا إلا أنه بشكل عام غير واجب... و لعل جملة لعلكم ترحمون إضافة إلى الروايات و الإجماع، تشير إلى استحباب هذا الحكم أيضا.

و المورد الوحيد الذي يجب فيه السكوت أو يكون حكم السكوت فيه واجبا، هو في صلاة الجماعة، إذ على المأموم أن يسكت و يستمع لقراءه الإمام، حتى أن جمعا من الفقهاء قالوا: إن هذه الآية تدل على سقوط الحمد و السوره من

ص: ٣٤٧

١-١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٥٧.

٢-٢) تفسير البرهان.

قبل المأموم «عند صلاة الجماعة».

و من جمله الزوايات الداله على هذا الحكم ما

روى من حديث عن الإمام الباقر عليه السلام «و إذا قرئ القرآن فى الفريضة خلف الإمام فاستمعوا له و انصتوا لعلكم ترحمون» (١).

و أما استعمال «لعل» فى هذه الجملة، فهو - كما أشرنا سابقا - لغرض أن تشملكم رحمه الله، فمجرد السكوت غير كاف، بل توجد أمور أخرى منها العمل بالآى أيضا.

و لا بأس أن نذكر الملاحظة التى بينها الفقيه المعروف الفاضل المقداد السيورى فى كتابه «كنز العرفان» إذ فسّر الآيه تفسيراً آخر فقال: إن المراد من الآيه هو الإصغاء للآيات و إدراك مفاهيمها و الإذعان لإعجازها.

و لعل هذا التفسير كان بسبب أن الآيه السابقه كانت تتكلم عن المشركين، إذ كانوا يتذرعون بحجج واهيه فى شأن نزول القرآن، فالقرآن يقول لهم: فاستمعوا و انصتوا لعلكم تعرفون الحق (٢).

و ليس هناك مانع من أن نعتبر مفهوم الآيه واسعاً بحيث يشمل جميع الكفار و المسلمين، فغير المسلمين عليه أن يستمع و ينصت للقرآن و يكفر فيه حتى يؤمن فىنال رحمه ربّه، و المسلم عليه أن يستمع و يدرك مفهوم الآى و يعمل به لىنال رحمه ربّه، لأن القرآن كتاب إيمان و علم و عمل لجميع، لا لطائفه خاصّه أو فريق معين.

و فى الآيه التّاليه إكمالاً - للأمر السابق - يخاطب القرآن النبى الكريم - و هذا الحكم كلى و عام أيضا و إن كان الخطاب موجهاً للنّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم كما هو الحال فى سائر آيات القرآن الأخرى و أحكامها - إذ يقول سبحانه فى كتابه:

ص: ٣٤٨

١-١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٥٧.

٢-٢) كنز العرفان، ج ١، ص ١٩٥.

ثُمَّ يَضِيفُ قَائِلًا: وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْأَصَالِ .

[و الأصال: جمع الأصيل، و معناه قبيل المغرب أو عند الغروب.]

وَ لَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ .

فذكر الله في كل حال و في كل وقت، صباحا و مساء، مدعاه لإيقاظ القلوب و جلائها من الدرن، و إبعاد الغفلة عن الإنسان. و مثله مثل مزنه الربيع، إذا نزلت أمرعت القلوب بأزهار التوجه و الإحساس بالمسؤولية و البصيره، و كل عمل إيجابى بناء!...

ثُمَّ تَخْتَمُ هَذِهِ الْآيَةَ سُورَةَ الْأَعْرَافِ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ، وَ هِيَ أَنْكُمْ لَسْتُمْ الْمَكْلُفُونَ بِذِكْرِ اللَّهِ مِنْ يَذْكُرُ اللَّهَ لَيْسَ هُوَ أَنْتُمْ فَحَسَبَ، بَلِ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ .

و التعبير عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَعْنِي الْقَرْبَ الْمَكَانِي، لِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ مَكَانٌ خَاصٌّ، بَلِ هُوَ إِشَارَةٌ إِلَى الْقَرْبِ الْمَقَامِي، أَيْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَ غَيْرَهُمْ مِنَ الْمُقْرَبِينَ عَلَى رِغْمِ مَقَامِهِمْ وَ مَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ، فَهَمَّ لَا يَقْصِرُونَ فِي التَّسْبِيحِ وَ الذِّكْرِ لِلَّهِ وَ السُّجُودِ لَهُ.

و السجده عند تلاوه هذه الآيه مستحبه، إلا أن بعض أهل السنه كأصحاب أبي حنيفة و أتباعه يقولون بوجوبها.

رَبَّنَا نُورَ قُلُوبِنَا بِنُورِ ذِكْرِكَ، ذَلِكَ النُّورَ الَّذِي يَفْتَحُ لَنَا طَرِيقَنَا نَحْوَ الْحَقِيقَةِ، وَ نَسْتَمِدُّ مِنْهُ الْمَدَدَ فِي نَصْرِهِ رَايَهُ الْحَقُّ وَ مَكَافَحَهُ الظَّالِمِينَ وَ أَنْ تَدْرِكَ مَسْئُولِنَا وَ نُؤَدِي رِسَالَتَنَا- آمِينَ.

ص: ٣٤٩

(١-١) التضرع مأخوذ من الضرع و هو الشدى، و الفعل تضرع يطلق على من يتحلب اللبن بأصابعه، ثم توسع في هذا الاستعمال فأطلق على إظهار الخضوع و التواضع.

سوره الأنفال

إشارة

و هي مدينة و عدد آياتها خمس و سبعون آية

ص: ٣٥١

نظرة خاطفة إلى محتويات هذه السورة

فى الآيات الخمس و السبعين التى تتكون منها سوره الأنفال أثرت مباحث مهمه جدًا.

ففى مستهلها إشاره إلى قسم مهم من المسائل المالىه من جملتها الأنفال و الغنائم التى يعدّ كلّ منهما دعامة لبيت المال. كما تضمّنت هذه السوره مباحث أخرى منها:

صفات المؤمنين الصادقين و ما يمتازون به، قصه معركة بدر، و هى أوّل مواجهه مسلحه بين المسلمين و أعدائهم، و ما تضمّنت من أحداث عجيبه تلهم العبر.

بعض أحكام الجهاد و وظائف المسلمين إزاء هجوم العدو المتواصل.

ما جرى للنبي صلى الله عليه و آله و سلم فى ليلته التاريخيه «ليله المبيت».

حال المشركين قبل الإسلام و خرافاتهم.

ضعف المسلمين و عجزهم بادئ الأمر ثمّ تقويتهم ببركه الإسلام.

حكم الخمس و كيفيه تقسيمه.

وجوب الاستعداد «العسكرى و السياسى و الاجتماعى» للجهاد فى كل زمان و مكان.

رجحان قوى المسلمين و المعنويه على عدوهم بالرغم من قلّه عددهم

ظاهرا.

حكم أسرى الحرب و كيفية معاملتهم.

المهاجرون و الذين لم يهاجروا.

مواجهه المنافقين و طريقه التعرّف عليهم. و أخيرا نجد فى هذه السوره سلسله مسائل أخرى أخلاقية و اجتماعية ببناءه.

فلا غرابه أن نقرأ بعض الروايات الواردة فى شأن هذه السوره و فضيلتها، كالروايه الوارده

عن الإمام الصادق إذ تقول مثلا:

«من قرأ سوره الأنفال و براهه فى كل شهر لم يدخله نفاق أبدا، و كان من شيعة أمير المؤمنين حقا، و يأكل يوم القيامة من موائد الجنة معهم حتى يفرغ الناس من الحساب» (١).

و كما أشرنا من قبل فإن فضائل سور القرآن و الثواب العظيم الذى وعد به من يتلو هذه السوره، كل ذلك لا يتأتى بمجرد قراءة الألفاظ، بل القراءة مقدمه للتفكر، و التفكير وسيله للفهم، و الفهم مقدمه للعمل. و بما أن سوره الأنفال شرحت كيفية البراهه من صفات المنافقين، و كذلك ذكرت صفات المؤمنين الصادقين حقا، فمن قرأها و تمثلها فى حياته لم يدخله نفاق أبدا.

و كذلك من قرأ صفات المجاهدين فى هاتين السورتين، و جوانب من التّضحيات الوارده عن أمير المجاهدين على عليه السلام و تمثلها، كان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام حقا.

ص: ٣٥٤

١-١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآيه.

إشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١)

سبب النزول

ورد عن ابن عباس أنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَيَّنَ فِي يَوْمِ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ جَوَائِزَ لِلْمُقَاتِلِينَ الْمُسْلِمِينَ تَرْغِيبًا، كَأَنَّ يَقُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِثْلًا: مَنْ جَاءَنِي بِفُلَانٍ مِنَ الْأَعْدَاءِ أُسِيرًا فَلَهُ عِنْدِي كَذَا «جائزه».

وكان هذا الترغيب-إضافه إلى إيقاده روح الإيمان و الجهاد في وجودهم-مدعاه أن يشب المقاتلون الفتيه في تسابق «افتخارى» نحو الهدف.

إلا- أنّ الكهول و الشيوخ ظلّوا ثابتين تحت ظلال الرايات، فلمّا انتهت معركة بدر أسرع المقاتلون الفتيان لأخذ الجوائز من النبي، إلا- أنّ الشيوخ و كبار السنّ قالوا: إنّ لنا نصيبا أيضا، لأننا كنّا سنندا و ظهرنا لكم، و لو اشتدّ بكم الأمر لرجعتم إلينا حتما. و احتدم النقاش حينئذ بين رجلين من الأنصار في شأن غنائم المعركة.

فنزلت الآيه-محل البحث-و قالت بصراحه: إنّ الغنائم هي للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فله

أن يتصرّف فيها ما يشاء. ففسّـيها النبي صلّى الله عليه وآله و سلّم بين المسلمين بالتساوى، و أمر أن يصطلح الإخوه المسلمون فيما بينهم.

التفسير

أشاره

إنّ الآيه-محل البحث- كما قرأنا فى سبب التزول، نزلت بعد معركة بدر و تتكلم على غنائم الحرب و تبين حكما إسلاميا واسعا بشكل عام، فتخاطب النبي بالقول: **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ!** .

فبناء على ذلك فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أى أنّ الإيمان ليس بالكلام فحسب، بل هو الطاعه لله و الرسول دون قيد أو شرط و فى جميع مسائل الحياه لا فى غنائم الحرب وحدها.

ما هى الأنفال؟

الأنفال فى الأصل مأخوذه من ماده «نفل» على زنه «نفع» و معناها الزيادة، و إنما سمّيت الصلوات المستحبه نافله لأنّها زياده على الصلوات الواجبه، و كذلك يطلق على الحفيد نافله لأنه زياده فى الأبناء.

و يطلق لفظ «نوفل» على من يهب المزيد من العطاء.

و إنّما سمّيت غنائم الحرب أنفالا أيضا لأنّها كميه من الأموال الإضافيه التى تبقى دون صاحب، و تقع فى أيدي المقاتلين دون أن يكون لها مالك خاص. أو لأنّ المقاتلين إنّما يحاربون للانتصار على العدو لا للغنائم، فالغنيمة أو الغنائم موضوع إضافي يقع فى أيديهم.

ص: ٣٥٦

١- بالرغم من أن الآيه محل البحث نازله فى شأن غنائم الحرب، إلا أن لمفهومها حكما كلياً و عاماً، و هى تشمل جميع الأموال الإضافيه التى ليس لها مالك خاص. لهذا ورد فى الروايات عن أهل البيت عليهم السلام أن الأنفال لها مفهوم واسع، إذ نقرأ فى بعض الروايات المعتبره

عن الإمامين «الباقر و الصادق عليهما السلام» ما يلى:

«إنها ما أخذ من دار الحرب من غير قتال، كالذى انجلى عنها أهلها و هو المسمى فيئا، و ميراث من لا وارث له، و قطائع الملوك إذا لم تكن مغصوبه و الآجام و بطون الأدويه و الموات، فإنها لله و لرسوله، و بعده لمن قام مقامه يصرفه حيث يشاء من مصالحه و مصالح عياله» (١) و بالرغم من أن الحديث-أنف الذكر-لم يتحدّث عن جميع غنائم الحرب، إلا أننا نقرأ حديثاً آخر

عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيه: «إن غنائم بدر كانت للنبي خاصه فقسمها بينهم تفضلاً منه» (٢).

و نستنتج ممّا ذكر آنفاً أنّ مفهوم الأنفال أساساً لا يقتصر على غنائم الحرب فحسب، بل يشمل جميع الأموال التى ليس لها مالك خاص، و هذه الأموال جميعها لله و للرسول و لمن يلى أمره و يخلفه، و بتعبير آخر: إن هذه الأموال للحكومة الإسلاميه، و تصرف فى منافع المسلمين العامه.

غايه ما فى الأمر أن قانون الإسلام فى غنائم الحرب و الأموال المنقوله التى تقع فى أيدي المقاتلين المسلمين عند القتال-كما سنفصل ذلك فى هذه السوره-مبنى على أن يعطى أربعه أخصاسها-ترغيباً-للمقاتلين المسلمين و تعويضاً عن أتعابهم، و يصرف خمسها فى المصارف التى أشارت إليها الآيه

ص: ٣٥٧

١-١) كنز العرفان، ج ١، ص ٢٥٤.

٢-٢) المصدر السابق.

و على هذا الأساس فإنّ الغنائم داخله فى مفهوم الأنفال العام، و هى فى الأصل ملك الحكومه الإسلاميه، و إعطاء أربعه أحماسها للمقاتلين عطيه و تفضل منها.

٢- قد يتصور أنّ الآيه محلّ البحث «بناء على شمولها غنائم الحرب أيضا» تتنافى و الآيه ٤١ من هذه السوره التى تقول: وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ سَائِرِ الْمَصَارِفِ. لأنّ مفهومها أنّ أربعه الأحماس الباقيه هى للمقاتلين المسلمين.

إلاّ أنّه مع ملاحظه ما ذكرناه آنفا يتّضح أنّ غنائم الحرب فى الأصل كلها لله و للرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم و إعطاء أربعه أحماسها للمقاتلين نوع من التفضل و الهديه، و بتعبير آخر: إنّ الحكومه الإسلاميه تهب أربعه الأحماس من حقها إلى المجاهدين، فلا يبقى عندئذ أى تناف بين الآيتين.

و يتّضح أيضا أنّ آيه الخمس لا تنسخ آيه الأنفال،- كما تصوّر ذلك بعض المفسّرين- بل كلّ منهما باق على قوّته! ٣- كما قرأنا فى شأن النزول آنفا، أنّ مشاجره وقعت بين بعض الأنصار فى شأن غنائم الحرب، و قطعاً لهذه المشاجره فقد نفت الآيه أنّ تكون الغنائم لغير الله و الرسول ثمّ أمرت المسلمين بإصلاح ذات البين.

و أساساً فإنّ إصلاح ذات البين و إيجاد التفاهم و قلع الكدر و البغضاء من صدور المسلمين، و تبديل كل ذلك بالمحبّه، يعدّ من أهم الأغراض الإسلاميه.

و كلمه «ذات» تعنى الخلقه و البنيه و أساس الشىء، و البين يعنى حاله الارتباط و العلاقه بين شخصين أو شيئين. فبناء على هذا فإنّ إصلاح ذات البين يعنى إصلاح أساس الارتباطات، و تقويه العلاقات و تحكيمها، و إزاله عوامل التفرقه و النفاق.

و قد أولت التعاليم الإسلاميه عنايه فائقه لهذا الموضوع حتى عدته من أفضل العبادات.

يقول أمير المؤمنين على عليه السلام فى آخر وصاياه-عند ما عممه ابن ملجم بالسيف-لولديه«إئى سمعت جدكما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول:إصلاح ذات البين أفضل من عامه الصلاه و الصيام» (١).

و

جاء عن الإمام الصادق صلى الله عليه وآله وسلم فى كتاب الكافى أنه قال: «صدقه يحبها الله إصلاح بين الناس إذا تفسدوا،و تقارب بينهم إذا تباعدوا» (٢).

كما

ورد عنه عليه السلام فى الكتاب آنف الذكر ذاته أنه قال للمفصل: «إذا رأيت بين اثنين من شيعتنا منازعه فافتدها من مالى» (٣).

ولهذا نقرأ فى بعض الروايات عن أبى حنيفه سابق الحاج قال:مر بنا المفضل و أنا و ختنى نتشاجر فى ميراث،فوقف علينا ساعه ثم قال لنا:تعالوا إلى المنزل فأتيناه فأصلح بيننا بأربعمائه درهم فدفعها إلينا من عنده حتى إذا استوثق كل واحد منا من صاحبه،قال أما إنها ليست من مالى و لكن أبو عبد الله عليه السلام أمرنى إذا تنازع رجلان من أصحابنا فى شىء أن أصلح بينهما و أفتديها من ماله،فهذا من مال أبى عبد الله عليه السلام (٤).

و السبب فى كل هذا التأكيد فى المسائل الاجتماعيه يتجلى بقليل من التأمل،لأن عظمه الأممه و قدرتها و عزتها لا يمكن تحقيقه إلا فى ظل التفاهم و التعاون.فإذا لم يتم إصلاح ذات البين،و لم تطو الخلافات الصغيره و المشاجرات،تنفذ جذور العداوه و البغضاء فى القلوب تدريجا،و تتحول الأممه

ص: ٣٥٩

١-١) نهج البلاغه.

٢-٢) الحديثان ١ و ٢ من أصول الكافى باب إصلاح بين الناس.

٣-٣) المصدر السابق.

٤-٤) المصدر السابق.

القويه المتحده إلى جماعات متفرقه متناحره، و تضعف أمام الأعداء و الحوادث، كما يحدق الخطر بالمسائل العباديه فى مثل هذه الأئمه من صلاه و صيام، و حتى بحيشه القرآن و(موجوديته).

و لذلك فقد أوجبت الشريعه الإسلاميه إصلاح ذات البين فى بعض مراحلها، و جازت الإنفاق من بيت المال لتحقق هذا الأمر، و نذبت إلى ذلك فى مراحلها الأخرى التى لا تتعلق بمصير المسلمين مباشره، و عدت ذلك مستحبا مؤكدا...

ص : ٣٦٠

إشارة

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)

التفسير

إشارة

خمس صفات خاصه بالمؤمنين:

كان الكلام فى الآيه السابقه عن تقوى الله و طاعته و طاعه رسوله بعد المشاجره اللفظيه بين بعض المسلمين فى شأن الغنائم.

و إكمالاً لهذا الموضوع فالآيات-محل البحث- تذكر صفات المؤمنين بحق فى عبارات موجزه غزيره المعنى.

فيشير الذكر الحكيم فى هذه الآيات إلى خمس صفات بارزه فى المؤمنين:

ثلاث منها ذات جانب معنوى و روحانى و باطنى، و اثنتين منها لها جانب عملى

و خارجى ...

فالثلاث الأولى عبارته عن «الإحساس بالمسؤولية» و«الإيمان» و«التوكل».

و الاثنان الآخران هما الارتباط بالله، و الارتباط بخلق الله سبحانه.

فتقول الآيات أولاً: **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .**

و«الوجل» حاله الخوف التى تنتاب الإنسان، و هو ناشئ عن أحد أمرين:

فقد ينشأ عند إدراك المسؤولىه و احتمال عدم القيام بالوظائف اللازمه التى ينبغى على الإنسان أدائها بأكمل وجه امتثالاً لأمر الله تعالى.

و قد ينشأ عند إدراك عظمه مقام الله، و التوجه إلى وجوده المطلق الذى لا نهايه له، و مهابته التى لا حد لها.

و توضيح ذلك: قد يتفق للإنسان أن يمضى لرؤيه شخص عظيم هو - بحق - جدير بالعظمه من جميع الجوانب، فالإنسان الذى يمضى لرؤيته قد يقع تحت تأثير ذلك المقام و تلك العظمه، بحيث يحس بنوع من الرهبه فى داخله و يضطرب قلبه حتى أنه لو أراد الكلام لتعلمهم، و قد ينسى ما أراد أن يقوله، حتى لو كان ذلك الشخص يحب هذا الإنسان و يحب الآخرين جميعاً و لم يصدر عنه ما يدعو إلى القلق.

فهذا الخوف و الاضطراب أو المهابه مصدرها عظمه ذلك الشخص، يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد: **لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ (١)**.

كما نقرأ فى آيه أخرى من قوله تعالى: **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (٢)**.

و هكذا فإن العلاقة قائمه بين العلم و الخوف أيضاً، و بناء على ذلك فمن

ص: ٣٦٢

١-١ (١) الحشر، ٢١.

٢-٢ (٢) فاطر، ٢٨.

الخطأ أن نعدّ أساس الخوف و الخشيّه عدم أداء الوظائف المطلوبه فحسب.

ثُمَّ تَبَيَّنَ الْآيَةُ الصَّفْهَ الثَّانِيَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ فَتَقُولُ: وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا .

إنّ النمو و التكامل من خصائص جميع الموجودات الحيه، فالموجودات الفاقده للنمو و التكامل إمّا أن يكون ميتا أو فى طريقه إلى الموت. و المؤمنون حقًا لهم إيمان حتى ينمو غرسه يوما بعد يوم بسقيه من آيات الله، و تفتح أزهاره و براعمه، و يؤتى ثماره أكثر فأكثر، فهم ليسوا كالموتى من الجمود و عدم التحرك، ففى كل يوم جديد يكون لهم فكر جديد و تكون صفاتهم مشرقه جديده...

و هذه الدّرجات مبهمه لم يعين مقدارها و ميزانها، و هذا الإبهام يشير إلى أنّها درجات كريمه عاليه.

و للمؤمنين إضافه لدرجاتهم رحمه من الله و مغفره و رزق كريم.

و الحق أنّنا-نحن المسلمين-الذين ندعى الإسلام و قد نرى أنفسنا أولى فضل على الإسلام و القرآن، نتهم القرآن و الإسلام جهلا بأنهما سبب التأخر و الانحطاط، و ترى لو أنّنا طبقنا فقط مضامين هذه الآيات محل البحث على أنفسنا و التى تمثل صفات المؤمنين بحق، و لم نتكل على هذا و ذاك، و أن نظوى كل يوم مرحله جديده من الإيمان و المعرفة، و أن نحس دائما بالمسؤوليه لتقويه علاقتنا بالله و بعباده فننفق ما رزقنا الله فى سبيل تقدم المجتمع، أن نكون بمثل ما نحن عليه اليوم؟! و ينبغى ذكر هذا الموضوع أيضا، و هو أنّ الإيمان ذو مراحل و درجات، فقد يكون ضعيفا فى بعض مراحل حتى أنّه لا يبدو منه أى شىء عملى مؤثر، أو يكون ملوّثا بكثير من السيئات. إلا أنّ الإيمان المتين الراسخ من المحال أن يكون غير بناء أو غير مؤثر و ما يراه البعض من أن العمل ليس جزءا من الإيمان، فلاقتصارهم على أدنى مراحل الإيمان.

إشارة

كَلِمَاتٍ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦)

التفسير

قرأنا في الآيه الأولى من هذه السوره أنّ بعض المسلمين من جديدي العهد بالإسلام، كانوا غير راضين عن كيفية تقسيم غنائم معركة بدر (إلى حد ما).

ففي الآيتين محل البحث يقول الله سبحانه وأولئك: هذه ليست أول مرّة تكرهون شيئاً مع أنّه فيه صلاحكم كما كان الأمر في أساس غزوه بدر و كانوا غير راضين بادئ الأمر، إلا أنّهم رأوا كيف تمت هذه المعركة لصالح الإسلام و المسلمين.

فإذن لا ينبغي أن تقوم أحكام الله بالنظرات الضيقه المحدوده، بل ينبغي الانصياع و التسليم لها ليستفاد من نتائجها النهائيه.

تقول الآيه الأولى من الآيتين محل البحث: إنّ عدم رضا بعض المسلمين في شأن تقسيم الغنائم يشبه عمليه إخراجك من مكّه و عدم رضى بعض المؤمنين

بذلك: كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ .

و التعبير بالحق إشاره إلى أنّ أمر الخروج كان طبقاً لوحى الإلهي و دستور سماوى، و كانت نتيجه الوصول إلى الحق و استقرار المجتمع الإسلامى، إلاّ- أنّ هؤلاء الأفراد لا يرون إلاّ ظواهر الأمور، و لهذا: يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعِيدًا مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ .

إلاّ- أنّ الحوادث التاليه كشفت لهم عن خطئهم فى حساباتهم، و أنّ خوفهم و قلقهم دونما أساس، و أنّ هذه المعركه (معركه بدر) حققت للمسلمين انتصارات مشرقه، فمع رؤيه مثل هذه النتائج علام يجادلون فى الحق و تمتد ألسنتهم بالاعتراض؟! و التعبير ب فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يكشف ضمناً-أولاً- أن هذا التشاجر أو المحاوره لم تكن عن نفاق أو عدم إيمان، بل عن ضعف الإيمان و عدم امتلاك النظرة الثاقبه فى المسائل الإسلاميه.

و ثانياً: إنّ الذين جادلوا فى شأن الغنائم كانوا قله و فريقاً من المؤمنين، غير أنّ بقيتهم و غالبيتهم أذعنوا لأمر رسول الله و استجابوا له.

ص: ٣٦٥

إشاره

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَهِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨)

غزوه بدر أول مواجهه مسلحه بين الإسلام و الكفر...

لما كانت الآيات السابقه قد أشارت إلى معركة بدر، فإن الآيتين أعلاه و ما بعدهما من الآيات قد أماطت اللثام عن جوانب مهمه و حساسه فى تلك المعركه ليستلهم المسلمون من هذه الآيات الحقائق التى مرّت بهم فى الماضى القريب، و يجعلوها أمام أعينهم للعبره و الاتعاظ.

و لإيضاح الآيتين محل البحث و الآيات التّاليه، من المناسب أن نلقى الضوء على ما جرى فى هذه المعركه الحاسمه، و كيف كانت هذه المواجهه المسلحه الأولى و هذا الجهاد الإسلامى بوجه العدو اللدود؟ لتتجلى لنا دقائق الأمور و لطائف ما أشارت إليه الآيات الكريمة فى شأن معركة بدر الكبرى.

بدأت معركة بدر-طبقاً لما يقول المؤرخون و المحدثون و المفسرون-حين

كان أبو سفيان كبير مكة عائدا بقافلة تجاربه مهمه مؤلفه من أربعين شخصا، و تحوى على ثروه تجاربه تقدّر بخمسين ألف دينار من الشام نحو المدينه.

فأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه أن يتعبأوا و يتهيئوا لمواجهه هذه القافله الكبيره التى تحمل جل رأس مال العدو معها، و بمصادره أموال القافله لتوجيه ضربه اقتصاديه نحو العدو و تعقبها ضربه عسكريه قاصمه.

و كان للنبي و أصحابه الحق فى مثل هذه الحمله أو الهجوم، لأنه-أولا- عند ما هاجر المسلمون من مكة نحو المدينه استولى أهل مكة على كثير من أموالهم، و نزلت بهم خساره كبيره. فكان لهم الحق أن يجبروا مثل هذه الخساره.

ثم بعد هذا كله برهن أهل مكة طيله الثلاثه عشر عاما التى أقام النبي و أصحابه بمكة خلالها أنهم لا يألون جهدا فى إيذاء النبي و أصحابه، بل أرادوا به الوقيعه و المكيد، فإنّ عدوا كهذا لن يسكت عن النبي و دعوته بمجرد هجرته إلى المدينه، و من المسلم به أنه سيعبى قواه فى المستقبل لمواجهه النبي و الإيقاع به.

إذن فالعقل و المنطق يوجبان أن يسارع المسلمون بمبادره عاجله لمصادره أموال أهل مكة لتدمير دعامتهم الاقتصاديه، و ليوفروا على أنفسهم إمكانيه التهيؤ العسكري و الاقتصادى لمواجهه العدو مستقبلا.

و هذه المبادره كانت و لا تزال فى جميع الخطط العسكريه قديمها و حديثها و أما من يرى أن توجه النبي نحو قافله أبى سفيان- و دون الأخذ بنظر الإعتبار هذه الجهات المشار إليها آنفا- نوعا من الإغاره، فإمّا أن يكون جاهلا- لا يعرف جذور المسائل التاريخيه فى الإسلام أو أنه مغرض يريد تحوير الواقعيات و الثوابت التاريخيه.

و على كل حال، فإنّ أبى سفيان عرف عن طريق أتباعه و أصدقائه تصميم النبي على مواجهه قافلته، هذا من جهه، كما أنّ القافله حينما كانت متجهه نحو الشام للإتيان بمال التجاره تعرضت لتحركات من هذا القبيل. لهذا فإنّ أبى سفيان

أرسل من يمضى إلى مكّه بسرعه ليخبر أهلها بما سيؤول إليه أمر القافله.

فمضى رسول أبى سفيان بحاله مثيره كما أوصاه أبو سفيان، إذ خرم أنف بعيره و بتر أذنيه و الدماء تسيل على وجه البعير لهيجانه، و قد شقّ ثوبه- أو طمريه - و ركب بعيره على خلاف ما يركب الناس «إذ ظهره كان إلى رقبه البعير و وجهه إلى عجزه» ليلفت الناس إليه من كل مكان. فلما دخل مكّه أخذ يصرخ قائلاً: أيّها الناس الأعزّه، أدركوا قافلتكم، أدركوا قافلتكم و أسرعوا و تعجلوا إليها، و إن كنت لا- أعتقد أنّكم ستدركونها فى الوقت المناسب، فإنّ محمّداً و رجالا- مارقين من دينكم قد خرجوا من المدينه ليتعرضوا لقافلتكم.

و كانت عاتكه بنت عبد المطلب عمّه النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم آنشدّ قد رأت رؤيا موحشه عجيبه، و قد تناقلت الأفواه رؤياها فيزداد الناس هيجانا.

و كانت عاتكه قد رأت قبل ثلاثه أيّام من مجيء رسول أبى سفيان إلى مكّه، أنّ شخصا يصرخ: أيّها الناس تعجلوا إلى قتلاكم، ثمّ صعد هذا المنادى إلى أعلى جبل أبى قيس و أخذ حجرا كبيرا فرماه فتلاشى الحجر فى الهواء، و لم يبق بيت فى مكّه لقريش إلاّ نزل فيه منه شيء، كما أن وادى مكّه يجرى دما عبيطا.

فلما استيقظت فزعه مرعوبه من نومها و قصّت رؤياها على أخيها العباس، ذهل الناس لهول هذه الرؤيا.

لكن أبا جهل لما بلغه ذلك قال: ما رأت عاتكه رؤيا، هذه نبيّه ثانيه فى بنى عبد المطلب، و باللات و العزى لننظرن ثلاثه أيّام، فإن كان ما رأت حقّا فهو كما رأت، و إن كان غير ذلك لنكتبنّ بيننا كتابا: أنّه ما من أهل بيت من العرب أكذب رجالا و نساء من بنى هاشم.

و لكن لم يكده يمضى اليوم الثالث حتى كان ما من أمر ذلك الرجل الذى هزّ مكّه و أهلها.

و لما كان أكثر أهل مكّه شركاء فى هذه القافله فقد تعبثوا بسرعه و تحركوا

نحو القافلة بحوالى ٩٥٠ مقاتلا- و ٧٠٠ بعير و مائه فرس، و كان أبو جهل يقود هذا الجيش. و من جهة أخرى و لكى يسلم أبو سفيان من تعرض النبي و أصحابه لقافلته، فقد غير مسيره و اتجه نحو مكة بسره.

و كان النبي صلى الله عليه و آله و سلم قد قارب بدرأ فى نحو من ثلاثمائة و ثلاث عشر رجلا كانوا يمثلون رجال الإسلام آنئذ «و بدر منطقه ما بين مكة و المدينة» و قد بلغه خبر تهيؤ أبي جهل و من معه لمواجهته.

فتشاور النبي صلى الله عليه و آله و سلم مع أصحابه: هل يلحقون القافلة و يصادرون أموالها، أو أن عليهم أن يتهيؤوا لمواجهه جيش العدو؟ فقالت طائفة من أصحابه: نقاتل عدونا، و كرهت طائفة أخرى ذلك و قالت: إنما خرجنا لمصادره أموال القافلة.

و دليلها معها، إذ أنها لم تخرج إلا لهذا السبب (من المدينة) و لم يكن النبي و أصحابه عازمين على مواجهه جيش أبي جهل و لم يتعبأوا لذلك، فى حين أن أبا جهل قد تعبأ لهم و يريد قتالهم.

و قد ازداد هذا التردد بين الطائفتين، خاصه بعد أن عرف أصحاب النبي أن جيش العدو ثلاثة أضعافهم و تجهيزاته أضعاف تجهيزاتهم، إلا أن النبي بالرغم من كل ذلك قبل بالقول الأول «أى قتال العدو» فلما التقى الجيشان لم يصدق العدو أن المسلمين قد وردوا الميدان بهذه القلّة، بل ظن العدو أنهم مختبئون و أنهم سيصدقون به عند المواجهه، لذلك فقد أرسل شخصا ليرصد الأمور فرجع و أخبرهم بأن المسلمين ليسوا أكثر ممّا رأوهم.

و من جهة أخرى- كما أشرنا آنفا- فإن طائفة من المسلمين كانت فى قلق و اضطراب و كانت تصرّ على عدم مواجهه هذا الجيش اللجب، إذ لا موازنه بين أصحاب النبي و أصحاب أبي جهل! لكن النبي صلى الله عليه و آله و سلم طمأنهم بوعد الله و

قال: «إن الله وعدنى إحدى الطائفتين و لن يخلف الله الميعاد» قافله قريش أو جيش قريش، و لن يخلف الله وعده، فوالله لكأنى أرى مصرع أبي جهل و جماعه من

ثم أمر النبي أن ينزل أصحابه إلى بئر بدر «و بدر فى الأصل اسم رجل من قبيله جهينه حفر بئرا فى ذلك الموضوع فسميت باسمه، و سميت الأرض بأرض بدر أيضا».

و فى هذه الأثناء استطاع أبو سفيان أن يفتر بقافلته من الخطر المحقق به، و اتجه نحو مكة عن طريق ساحل البحر الأحمر غير المطروق، و أرسل رسولا- إلى قريش: إن الله نجى قافلته، و لا- أظن أن مواجهه محمدا فى هذا الظرف مناسبه، لأن له أعداء يكفونكم أمره. إلا- أن أبا جهل لم يرض باقتراح أبى سفيان و أقسم بالللات و العزى أنه سيواجه محمدا، بل سيدخل المدينة لتعقيب أصحابه أو؟؟؟ سيأسرهم جميعا و يمضى بهم لمكة، حتى يبلغ خبر هذا الانتصار آذان العرب.

و أخيرا ورد جيش قريش أرض بدر و أرسلوا غلمانهم للاستقاء من ماء بدر،

فأسرهم أصحاب النبي و أخذوهم للتحقيق إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم فسألهم النبي: من أنتم؟ فقالوا: يا محمد نحن عبيد قريش، قال: كم القوم؟ فقالوا: لا علم لنا بعددهم، قال: كم ينحرون فى كل يوم جزورا؟ فقالوا: تسعه إلى عشره.

فقال النبي صلى الله عليه و آله و سلم: القوم تسعمائة الى ألف (كل مائه يأكلون بعيرا واحدا).

كان الجؤ مكفها بالرعب و الوحشه، إذ كان جيش قريش معبأ مدججا بالسلاح، ولديه المؤمنه و العدد، حتى النساء اللائى ينشدن الأشعار و المغنيات اللائى يثرن الحماسه. و كان جيش أبى جهل يرى نفسه أمام طائفه صغيره أو قليله من الناس، و لا يصدق أنهم سينزلون الميدان.

فلما رأى النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن أصحابه قلقون و ربما لا ينامون الليل من الخوف فيواجهون العدو غدا بمعنويات مهزوره قال لهم كما وعده الله: لا تحزنوا فإن كان عددكم قليلا فإن الله سيمدكم بالملائكه، و سرى عن قلوبهم حتى ناموا ليلتهم مطمئنين راجين النصر على عدوهم.

المشكلة الأخرى التي كان أصحاب النبي يواجهونها، هي أن أرض بدر كانت غير صالحة للنزال لما فيها من الرمال، فنزل المطر تلك الليلة، فأفاد منه أصحاب النبي فاغتسلوا منه و توضأوا و أصبحت الأرض صالحة للنزال، العجيب في ذلك أن المطر كان في جهة العدو شديدا بحيث أربكهم و أزعجهم.

و الخبر الجديد الذي حصل عليه أصحاب النبي من جواسيسهم الذين تحسسوا ليلا حاله العدو أن جيش قريش مع كل تلك الإمكانات العسكرية في حاله من الرعب بمكانه لا توصف، فكأن الله أنزل عليها جيشا من الرعب و الوحشه.

و عند الصباح اصطف جيش المسلمين الصغير بمعنويات عالية ليواجهوا عدوهم، و لكن النبي صلى الله عليه و آله و سلم -إتماما للحجّه و لثلا- يبقى مجال للتذرع بالذرائع الواهيه- أرسل إلى قريش ممثلا عنه ليقول لهم: إن النبي لا يرغب في قتالكم لا يحب أن تكونوا أول جماعه تحاربه. فوافق بعض قادة قريش على هذا الاقتراح و رغبوا في الصلح، إلا أن أبا جهل امتنع و أبى بشده.

و أخيرا اشتعلت نار الحرب، فالتقى أبطال الإسلام بجيش الشرك و الكفر، و وقف حمزه عم النبي و على ابن عم النبي الذي كان أصغر المقاتلين سنا و جها لوجه مع صناديد قريش و قتلوا من بارزهم فانهار ما تبقى من معنويات العدو، فأصدر أبو جهل أمرا عاما بالحمله، و كان قد أمر بقتل أصحاب النبي من أهل المدينه «الأنصار» و أن يؤسر المهاجرون من أهل مكّه. فقال النبي لأصحابه:

«غضوا أبصاركم و عضو على نواجذ و لا تستلوا سيفا حتى آذان لكم».

ثم

مد النبي صلى الله عليه و آله و سلم يديه إلى الدعاء، و رفع بهما نحو السماء فقال: «يا رب إن تهلك هذه العصابه لم تعبد و إن شئت أن لا تعبد لا تعبد...» فهبت ريح عاصف الى العدو، و كان المسلمون يحملون على عدوهم و الرياح تهب من خلفهم بوجه العدو، و أثبت المسلمون جداره فائقه و صمدوا

ص: ٣٧١

للقِتال حتى قتلوا منهم سبعين» (و أبو جهل من القتلى) وأسروا سبعين، و انهزم الجمع و ولّوا الدبر، و لم يقتل من المسلمين إلا نفر قليل، و كانت هذه المعركة أول مواجهه مسلحه بين المسلمين و عدوّهم من قريش، و انتهت بالنصر الساحق للمسلمين على عدوّهم (١).

التفسير

و الآن و بعد أن عرفنا باختصار كيف كانت غزوه بدر، نعود ثانيه إلى تفسير الآيتين.

في الآية الأولى- من الآي محل البحث- إشارة إلى وعد الله بالنصر في معركة بدر إجمالاً، إذ تقول الآية: **وَ إِذِ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ .**

لكنكم لخوفكم من الخسائر و اخطار و بلايا الحرب لم تكونوا راغبين فيها و تودون أن غير ذات الشوكه تكون لكم .

و قد جاء في بعض الروايات الإسلامية

أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم قال لهم: «إحدى الطائفتين لكم، إما العير و إما النفير».

و كلمه العير تعنى القافله، و النفير يعنى الجيش.

إلا- أنه- كما يلاحظ في الآية الكريمه، أن التعبير جاء بذات الشوكه مكان الجيش و النفير، و بغير ذات الشوكه مكان القافله أو العير.

و هذا التعبير يحمل في نفسه معنى لطيفاً، لأن الشوكه ترمز إلى القدره و تعنى الشده، و أصلها مأخوذ من الشوك، ثم استعملت هذه الكلمه «الشوكه» في نصول الرماح، ثم أطلق هذا الاستعمال توسعاً على كل نوح من الأسلحه، و لما كان السلاح يمثل القوه و القدره، و الشده فقد عبر عنه بالشوكه.

ص: ٣٧٢

١- ١) لمزيد من الإيضاح يراجع تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ١٢١ إلى ١٣٦ و مجمع البيان ج ٤، ص ٥٢٣، ٥٢١، و ما ذكرناه بتصريف و اختصار.

فبناء على هذا فإنَّ ذات الشوكه تعنى الجماعه المسلحه، و غير ذات الشوكه تعنى الجماعه غير المسلحه، و لو اتفق أن يوجد فيها رجال مسلحون فهم معدودون لا- يكثر بهم. أى أن فيكم من يرغب في مواجهه العدو غير مسلحه، و ذلك بمصادره أموال تجارته، و ذلك ابتغاء الراحة أو حبًا منه للمنافع الماديه، في حين أن الحرب أثبتت بعد تمامها أن الصلاح يكمن في تحطيم قوى العدو العسكريه، لتكون الطريق لا- حبه لانتصارات كبيره في المستقبل، و لهذا فإنَّ الآيه تعقب بالقول وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (١).

فعلى هذا، كانت واقعه بدر درسا كبير للمسلمين للإفاده منه في الحوادث الآتيه، و يؤكد لهم أن يتدبروا عواقب الأمور، و لا يكونوا سطحيين يأخذون بالمصالح الآتيه، و بالرغم من أن بعد النظر يقترن بالمصاعب عاده، و قصر النظر على العكس من ذلك يقترن بالمنافع الماديه و الراحة المؤقته، إلا أن النصر في الحاله الأولى يكون شاملا و متجدرا، أما في الحاله الثانيه فهو انتصار سطحي موقت.

و لم يكن هذا درسا لمسلمي ذلك اليوم فحسب، بل ينبغي لمسلمي اليوم أن يستلهموا من ذلك التعليم السماوى، فعليهم ألا يغضوا أبصارهم عن المناهج الأصوليه بسبب المشاكل و الأتعاب و يستبدلوها بمناهج غير الأصوليه قليله الأتعاب.

و في آخر آيه يماط اللثام عن الأمر بصوره أجلى، إذ تقول الآيه الكريمه لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُنْطِلَ الْبَاطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ .

ترى هل الآيه هذه تأكيد لما ورد في الآيه السابقه، كما يبدو لأول وهله، أم هو موضوع جديد تتضمنه الآيه؟!

ص: ٣٧٣

١-١) الدابر بمعنى ذيل الشيء و عقبه، فبناء على هذا يكون معنى «و يقطع دابر الكافرين» هو استئصال جذورهم.

قال بعض المفسرين، كالفخر الرازي في تفسيره الكبير، وصاحب المنار: إن الحق في الآية المتقدمه إشاره لانتصار المسلمين في معركة بدر، إن الحق في الآية محل البحث، «الثانيه» إشاره لانتصار الإسلام و القرآن الذي كان نتيجة الانتصار العسكري في معركة بدر، وهكذا فإنّ الانتصار العسكري في تلك الظروف الخاصه -مقدمه لانتصار الإسلام و المسلمين.

كما يرد هذا الاحتمال، و هو أن الآية السابقه تشير إلى إرادته الله «الإرادته التشريعيه» التي كانت جليه في أوامر النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و الآية الثانيه تشير إلى نتيجة هذا الحكم و الأمر (فلاحظوا بدقه!)...

إِذْ تَسْتَعْثِفُونَ رَبَّكُمْ فَاَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا
النَّصِيرُ إِلَّا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ اللَّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيَطَهَّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ
عَنكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيُرِيحَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا
سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ
يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكَمُ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤)

دروس مفيدة من ساحه المعركه:

إن هذه الآيات تتحدث عن اللحظات الحساسة من واقعه بدر، والألطف الإلهية الكثيره التي شملت المسلمين لتثير في نفوسهم الإحساس بالطاعة والشكر، ولتعيد الدرب نحو انتصارات المستقبل.

و تشير ابتداء لإمداد الملائكة فتقول: إِذِ تَسْتَعِيْثُونَ رَبَّكُمْ .

جاء في بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يستغيث ويدعو ربه مع بقية المسلمين، وقد رفع يديه نحو السماء قائلاً:

«اللهم أنجز لى ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض» (١).

و عند ذلك فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنَّى مِمْدَكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ .

و كلمه (مردفين) من (الإرداف) بمعنى اتخذ محل خلف الشيء فيكون مفهومها أن الملائكة كانت تتابع بعضها بعضاً فى النزول لنصره المسلمين.

و احتمال معنى آخر فى الآيه، وهو أن مجموعه الألف من الملائكة كانت تتبعها مجموعات أخرى، ليتطابق هذا المعنى والآيه (١٢٤) من سورة آل عمران، و التى تقول عن لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إِذِ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ .

إلا أن الظاهر أن عدد الملائكة فى بدر هو الألف، و كلمه مردفين صفة هذا الألف. و آيه سورة آل عمران كانت وعداً للمسلمين فى أنزال ملائكة أكثر لنصره المسلمين إذا ما اقتضى الأمر.

ولئلا يعتقد بعض بأن النصر كان بيد الملائكة فحسب، فإن الآيه تقول: وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَ لَتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصِيرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

لأنَّ الله عزيز و مقتدر لا يستطيع أحد الوقوف مقابل إرادته، و حكيم لا ينزل نصرته إلاَّ للأفراد الصالحين و المستحقين لذلك.

هل قاتلت الملائكة؟

لقد جرى البحث في هذه المسألة كثيرا بين المفسرين، فبعضهم يرى أنَّ الملائكة دخلت ساحه القتال و هاجمت الأعداء بأسلحتها الخاصه، و قتل بعضهم. و نقلت بعض الروايات في تأييد ذلك.

إلاَّ أنَّ القرائن تؤيد الرأى الذى يقول: إنَّ الملائكة نزلت لتطمئن قلوب المؤمنين، و يزداد عزمهم، و هذا الرأى أقرب إلى الواقع لعدّه أدله:

أولاً: لقد قرأنا فى الآيه قوله تعالى: **وَ لَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ فَإِذَا مَا عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ بِهَذَا الْمَدَدِ فَإِنَّهُمْ يقاتلون بصوره أفضل، لا أن الملائكة شاركت فى الحرب.**

ثانيا: إذا كانت الملائكة هى التى قتلت جنود الأعداء، فأيه فضيله للمجاهدين فى معركة بدر و ما ورد عن مقامهم و منزلتهم من روايات كثيره؟ ثالثا: كان عدد المقتولين فى بدر هو (٧٠ نفرا) و قد كان الكثير منهم قد سقط بسيف على عليه السلام، و القسم الآخر بيد المقاتلين الآخرين، و هؤلاء معروفون بأسمائهم فى التاريخ، فبناء على ذلك -من الذى- بقى لتقتله الملائكة؟! ثم تذكر الآيه النعمه الثانيه التى اكتنفت المؤمنين فتقول: **إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَّهُ مِنْهُ .**

و(يغشى) من ماده(الغشيان) بمعنى تغطيه الشىء و إحاطته. فكأنَّ النوم كالغطاء الذى وضع عليهم فغطاهم.

و(النعاس) يطلق على بدايه النوم، أو النوم القليل أو الخفيف الناعم و لعلها إشاره إلى أنه بالرغم من هدوئكم النفس لم يأتكم نوم عميق يمكن الأعداء من

استغلاله و الهجوم عليكم. و هكذا استفاد المسلمون من هذه النعمة العظيمه من تلك الليله.

و الرحمه الثالثه التى وصلتكم هى: وَ يُنَزَّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهَّرَ كُمْ بِهِ وَ يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ .

و هذا الرجز قد يكون وساوس الشيطان، أو رجزا بدنيا كجنابه بعضهم، أو الأمرين معا. و على أيه حال، فإنّ الماء ملاً الوديان من أطراف بدر بعد أن استولى الأعداء على آبار بدر و كان المسلمون بحاجة ماسه للغسل و رفع العطش، فإذا هذا الماء قد ذهب بكل تلك الأرجاس.

ثم أنّ الله تعالى أراد بذلك تقويه معنويات المسلمين و كذلك تثبيت الرمال المتحركه تحت أقدامهم بواسطة المطر: وَ لِيُزِيلَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ... و يمكن أن يكون المراد من تثبيت الأقدام هو رفع المعنويات و زياده الثبات و الاستقامه ببركه تلك النعمه، أو إشاره إلى هذين الأمرين.

و النعمه الأخرى التى أنعمها الله على المجاهدين فى بدر، هى الرعب الذى أصاب به الله قلوب أعدائهم، فزلزل معنوياتهم بشده، فيقول تعالى إِذِ يُوحَى رُبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .

سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ

و إنّه لمن العجب و الغرابه أن ينهار جيش قريش القوى أمام جيش المسلمين القليل، و أن تذهب معنوياتهم - كما ينقل التاريخ - بصوره يخاف معها الكثير منهم من منازلهم المسلمين، و حتى أنّهم كانوا يفكرون بأنّ المسلمين ليسوا أشخاصا مألوفين، و كانوا يقولون بأنّ المسلمين قد جاؤوكم من قرب يثرب (المدينه) بهدايا يحملونها على إبلهم هى الموت.

و لا شك أنّ هذا الرعب الذى أصاب قلوب المشركين، و الذى كان من عوامل النصر، لم يكن جزافا، فلقد أثبت المسلمون شجاعتهم و أقاموا صلاه

الجماعه، و كانت شعارتهم قويه.فاظهار المؤمنون الصادقين وفاءهم و خطبه بعضهم مثل

سعد بن معاذ نيابه عن الأنصار أمام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ قائلا:

«بأبى أنت و أمى،يا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ إِنَّا قَدْ آمَنَّا بِكَ وَ صَدَقْنَاكَ وَ شَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَرْنَا بِمَا شِئْتَ وَ خَذْنَا مِنْ أَمْوَالِنَا مَا شِئْتَ،وَ اِتْرَكَ مِنْهُ مَا شِئْتَ وَ الَّذِي أَخَذْتَ مِنْهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي تَرَكْتَ مِنْهُ،وَ اللَّهُ لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَخُوضَ هَذَا الْبَحْرَ لَخُضْنَا مَعَكَ...إِنَّا لَنَرْجُوا أَنْ يَقَرَّ اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ عَيْنَيْكَ بِنَا...».

مثل هذا الحديث سرعان ما انتشر بين الأعداء و الأصدقاء،أضف إلى ذلك ما رآه المشركون من ثبات راسخ عند المسلمين يوم كانوا فى مكّه رجالا و نساء.

اجتمعت كل هذه الأمور لترسم صورته الخوف عند المشركين.

ثمّ الريح العاتيه التى كانت تهب على المشركين و المطر الشديد عليهم و الخواطر المخفيه لرؤيا(عاتكه)فى مكّه،و غيرها من العوامل التى كانت تبعث فيهم الخوف و الهلع الشديد.

ثمّ آن القرآن يذكّر المسلمين بالأمر الذى أصدره النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ للمسلمين بأنّ عليهم اجتناب الضرب غير المؤثر فى المشركين، حال القتال لثلاث تضيع قوتهم فيه،بل عليهم توجيه ضربات مؤثره و قاطعه فاضربوا فَوْقَ الْأَعْتَاقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ .

و(البنان)جمع(البنانه)بمعنى رؤوس أصابع الأيدي أو الأرجل،أو الأصابع نفسها،و فى هذه الآيه يمكن أن تكون كناية عن الأيدي و الأرجل أو بالمعنى الأصلي نفسه،فإنّ قطع الأصابع من الأيدي يمنع من حمل السلاح، و قطعها من الأرجل يمنع الحركه،و يحتمل أن يكون المعنى هو إذا كان العدو مترجلا،فيجب أن تكون الأهداف رؤوسهم،و إذ كان راكبا فالأهداف أيديهم و أرجلهم.

كما أنّ بعضا يرى أنّ هذه الجملة هى خطاب للملائكه،إلا أنّ القرائن تدل

على أنّ المخاطبين هم المسلمون، وإذا كان الملائكة هم المخاطبين فيها فيمكن أن يكون الهدف من الضرب على الرؤوس و الأيدي و الأرجل، هو إيجاد الرعب فيهم لترتبك أيديهم و أرجلهم فتسقط و تنحني رؤوسهم. (و بالطبع فإنّ هذا التفسير يخالف الظاهر من العبارة، و يجب إثباته بالقرائن تحدثنا عنها سابقا من مسأله عدم قتال الملائكة).

و بعد كل تلك الأحاديث، و لكيلا يقول شخص بأنّ هذه الأوامر الصادقة تخالف الرحمة و الشفقه و أخلاق الرجولة، فإنّ الآيه تقول: **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ .**

و(شاقوا) من ماده (الشقاق) و هي في الأصل بمعنى الإنفطار و الانفصال، و بما أنّ المخالف أو العدو و يتعد عن الآخرين فقد سمي عمله شقاقا: **وَ مَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .**

ثمّ يؤكد هذا الموضوع: و يقول: ذوقوا العذاب الدنيوى من القتل فى ميدان الحرب و الأسر و الهزيمه السافره، و مع ذلك انتظروا عذاب الآخره أيضا: **ذِكْرُكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ .**

إشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُؤَلِّمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَلِكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ (١٨)

التفسير

إشاره

الفرار من الجهاد ممنوع!

كما ذكرنا في تفسير الآيات السابقه، فإنّ الحديث عن قصه معركة بدر و أطفاف الله الكثيره على المسلمين الأوائل من أجل أن يتخذ منه المسلمين العبره و الدرس في المستقبل، لذلك فإنّ هذه الآيات توجه خطابها للمؤمنين و تأمرهم أمرا عاما بالقتال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ .

و(لقيتم) من ماله(اللقاء) بمعنى الاجتماع و المواجهه،و تأتي في أكثر أحيان بمعنى المواجهه في ميدان الحرب.

و(الزحف)في الأصل بمعنى الحركة إلى أمر ما بحيث تسحب الأقدام على الأرض كحركة الطفل قبل قدرته على المشى،أو الإبل المرهقه التي تخط أقدامها على الأرض أثناء سيرها،و يطلق على الجيش الجرار الذي يشاهد من بعيد و كأنه يحفر الأرض أثناء مسيره.

و استخدام كلمه(زحف)-في الآيه أنفا-تشير إلى أنه بالرغم من أن عدوكم قوى و كثير،و أنتم قليلون،فلا ينبغي لكم الفرار من ساحه الحرب،و كما كان عدوكم كثيرا في ميدان بدر فثبتم و انتصرتم.

فالفرار من الحرب يعدّ في الإسلام من كبائر الذنوب، إلا أن ذلك مرتبط- كما نبين بعض الآيات-بكون الأعداء ضعفى عدد المسلمين،و سنبحث هذا الأمر بعون الله في الآيتين (٦٥)و(٦٦)من هذه السوره. و لذلك تذكر الآيه بعدها جزاء من يفر من ميدان الحرب مع الإشاره لمن يستنون منهم فتقول: وَ مَنْ يُؤَلِّهْمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ .

و كما نرى فقد استثنت الآيه صورتين من مسأله الفرار،ظاهرهما أنهما من صوره الفرار،غير أنهما في الحقيقه و الواقع صورتان للقتال و الجهاد.

الصوره الأولى:عبر عنها ب «مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ» و«متحرف»من ماله(التحرّف) أى الابتعاد جانبا من الوسط نحو الأطراف و الجوانب،و المقصود بهذه الجملة هو أن المقاتلين يقومون بتكتيك قتالى إزاء الأعداء،فيفرون من أمامهم نحو الأطراف ليلحقهم الأعداء:ثم يغفلوهم فى توجيه ضربه قويه إليهم و استخدام فن الهجوم و الانسحاب المتتابع و كما يقول العرب:(الحرب كزّ و فرّ).

الصوره الثانيه:أن يرى المقاتل نفسه وحيدا فى ساحه القتال،فينسحب للالتحاق بإخوانه المقاتلين و ليهجم معهم من جديد على الأعداء.

و على كل حال، فلا- ينبغي تفسير هذا التحريم بشكل جاف يتنافى و أساليب الحروب و خدعها، و التي هي أساس كثير من الانتصارات.

و تختتم الآية محل البحث بالقول: إِنَّ جِزَاءَ مَنْ يَفْرَ مِضَافًا إِلَى اسْتِحْقَاقِهِ لِعُضْبِ اللَّهِ فَإِنَّ مَصِيرَهُ إِلَى النَّارِ: وَ مَا أَوَّاهُ جَهَنَّمَ وَ بَسَّسَ الْمَصِيرُ .

و الفعل «باء» مشتق من «البواء» و معناه الرجوع و اتّخاذ المنزل، جذره فى الأصل يعنى تصفيه محل ما و تسطيحه، و حيث إنّ الإنسان إذا نزل فى محل عدله و سطحه، فقد جاءت هذه الكلمه هنا بهذا المعنى. و فى الآية إشارة إلى أنّ غضب الله مستمر و دائم عليهم، فكأنّهم قد اتّخذوا منزلا عند غضب الله.

و كلمه «المأوى» فى الأصل معناها «الملجأ» و ما نقرؤه فى الآية، محل البحث وَ مَا أَوَّاهُ جَهَنَّمَ فهو إشارة إلى أنّ الفارين يطلبون ملجأ و مأوى من فرارهم لينقذوا أنفسهم من الهلكه، إلاّ أنّ ما يحصل هو خلاف ما يطلبون، إذ ستكون جهنم مأواهم، و ليس ذلك فى العالم الآخر فحسب، بل هو فى هذا العالم إذ سيحترقون فى جهنم الذله و الانكسار و الضياع.

و لذا

فقد جاء فى «عيون الأخبار» عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام فى جواب أحد أصحابه حين سأله عن فلسفه تحريم الفرار من الجهاد فقال: «و حرم الله الفرار من الزحف لما فيه من الوهن فى الدين، و الاستخفاف بالرسول و الأئمة العادله عليهم السلام، و ترك نصرتهم على الأعداء، و العقوبه على إنكار ما دعوا إليه من الإقرار بالربوبيه و إظهار العدل و ترك الجور و إماته الفساد، لما فى ذلك من جرأه العدو على المسلمين، و ما يكون من السبى و القتل و إبطال دين الله عزّ و جلّ و غيره من الفساد» (1) و من ضمن الامتيازات الكثيره التى كانت عند الإمام على عليه السلام، و ربّما يشير

ص: ٣٨٣

إلى نفسه أحيانا ليكون نبراسا للآخرين

قوله «إني لم أفر من الزحف قط، ولم يبارزني أحد إلا سقيت الأرض من دمه» (١) والعجيب أن بعض المفسرين من أهل السنه يصرّ على أن حكم الآيه السابقه يختص بمعركه بدر، وأن التهديد والوعيد من الفرار من الجهاد يتعلق بالمقاتلين في بدر فحسب، مع أنه لا يوجد دليل في الآيه على هذا التخصيص، بل لها مفهوم عام يشمل كل المقاتلين والمجاهدين.

وفي الزوايات والآيات كثير من القرائن الذي يؤيد هذا المعنى «ولهذا الحكم شروط طبعا سنتناولها نعالجها في الآيات المقبله من هذه السوره إن شاء الله».

ولثلاث- يصاب المسلمون بالغرور في انتصارهم، ولثلاث- يعتمدوا على قواهم الجسميه فحسب، وليذكروا الله في قلوبهم دائما، ولتعلقوا به طلبا لألطافه، فإن الآيه التاليه تقول: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى .

لقد ورد في الزوايات والتفاسير أن النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم قال لعلي يوم بدر: أعطني حفنه من تراب الأرض و حصاها، فناوله على ذلك، فرمى النبي جهه المشركين بذلك التراب و قال: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى (٢) قالوا: كان لهذا الفعل أثر معجز إذ وقع ذلك التراب على وجوه المشركين و عيونهم فملاهم رعبا.

لا شك أن الظاهر يشير إلى أن النبي و أصحابه هم الذين أدوا هذا الدور في معركه بدر، لكن القرآن يقول: إنكم لم تفعلوا ذلك أولا، لأن القدرات الروحيه و الجسميه و الإيمانيه التي هي أصل تلك النتائج كلها من عطاء الله و قد تحركتم

ص: ٣٨٤

١-١) نور الثقلين، ج ٢، ص ١٣٩.

٢-٢) راجع نور الثقلين، ج ٢، ص ١٤٠.

بقوه الله و في سبيل الله. و ثانيا قد حصلت في ساحه بدر معاجز كثيره أشرنا إليها سابقا، و قد بعثت في نفوس المجاهدين القوه، و انهارت بها قوى المشركين و معنوياتهم، و كان كل ذلك بألطف الله سبحانه.

و في الحقيقه فإن الآيه محل البحث تشير إلى لطيفه في مذهب

«لا- جبر و لا- تفويض بل أمر بين أمرين» لأنها في الوقت الذي تخبر عن قتل المسلمين للكافرين، و تقول إن النبي رمى التراب بوجوه المشركين تسلب منهم كل هذه الأمور (فتأمل بدقه).

و لا- شك في عدم وجود تناقض في مثل هذه العبارة، بل الهدف هو القول بأن هذا الفعل كان منكم و من الله أيضا، لأنه كان بإرادتكم و الله منحكم القوه و المدد.

و بناء على ذلك فإن الذين اعتقدوا بمذهب الجبر مستدلين بهذه الآيه فإن الرد عليهم موجود في الآيه ذاتها.

و الذين قالوا بوحده الوجود مستدلين بهذه الآيه فإن الرد عليهم موجود في الآيه بأسلوب لطيف، لأنه إذا كان المراد بأن الخالق و المخلوق واحد، فلا ينبغي أن ينسب الفعل إليهم تاره و ينفي عنهم تاره أخرى، لأن النسبه و نفيها دليل على التعدد، و إذا تجردت الأفكار عن الحكم المسبق و التعصب المقيت لرأينا أن الآيه لا- ترتبط بأي من المذاهب الضاله، بل هي تشير إلى المذهب الوسط «أمر بين أمرين» فحسب.

و هذه الإشارة لأجل هدف تربوي، و هو إزالة الغرور و آثاره، إذ يقع ذلك عادة في الأفراد بعد الانتصارات.

و تشير الآيه في ختامها إلى لطيفه مهمه أخرى، و هي أن ساحه بدر كانت ساحه امتحان و اختبار، إذ تقول: **وَ لِيُثَبِّتَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا .**

و البلاء معناه الاختبار في الأصل، غايه ما في الأمر تاره يكون بالنعم فيسمى بلاء حسنا، و تاره بالمصائب و العقاب فيسمى بلاء سيئا، كما تشير إلى

ذلك الآيه (١٦٨) من سوره الأعراف فى شأن بنى إسرائيل وَ بَلَّوْنَاَهُم بِالْحَسَنَاتِ وَ السَّيِّئَاتِ .

لقد شاء الله أن يذيق المؤمنين فى أول مواجهه مسلحه بينهم و بين أعدائهم طعم النصر، و أن يجعلهم متفائلين للمستقبل، و هذه الموهبه الإلهيه كانت اختبارا لهم جميعا، و إلا أنه لا ينبغى لهم أن يعترفوا بهذا الانتصار أبدا، فتكون النتيجة سلبيه، و ذلك بأن يروا عدوهم حقيرا و ينسوا بناء ذواتهم و يغفلوا عن الاعتماد على الله.

لهذا فإن الآيه تختتم بهذه الجملة إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

أى أن الله سمع صوت استغاثه النبى و المؤمنين، و اطلع على صدق نياتهم، فأنزل أطفاه عليهم جميعا و نصرهم على عدوهم، و أن الله يعامل عباده بهذه المعامله حتى فى المستقبل، فيطلع على ميزان صدق نياتهم و إخلاصهم و استقامتهم، فالمؤمنون المخلصون ينتصرون أخيرا، و المراءون المدعون ينهزمون و يفشلون.

و فى الآيه التاليه يقول سبحانه تعميما لهذا الموضوع و أن مصير المؤمنين و الكفار هو ما سمعتم، فيقول: ذَلِكُمْ (١) ثم يعقب القرآن مبينا العله وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ .

ص: ٣٨٦

١ - ١) فى الحقيقه أن هذا الكلمه إشاره إلى جمله مقدره هى «ذلكم الذى سمعتم هو حال المؤمنين و الكافرين...».

إشاره

إِنْ تَسِيءُ تَفْتَحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)

التفسير

لقد جرى بحث كثير بين المفسرين حول الذين توجهت إليهم الآيه بالحديث، فبعضهم يعتقد بأنهم المشركين، لأنهم قبل خروجهم من مكه إلى بدر اجتمعوا حول الكعبه و ضربوا على ستائرهما (لغرورهم و اعتقادهم بأنهم على الحق). وقالوا: «اللهم أنصر أعلى الجندين و أهدى الفتتين و أكرم الحزبين» (١).

و روى أن أبا جهل دعا فقال: (اللهم ربنا ديننا القديم و دين محمد الحديث، فأى الدينين كان أحب إليك و أرضى عندك فانصر أهله اليوم) (٢)... و لذلك فقد نزلت هذه الآيه لتقول لهم: إِنْ تَسِيءُ تَفْتَحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ .

ص: ٣٨٧

١- ١) هذه الجملة فى الحقيقة «ذلكم الذى سمعتم هو حال المؤمنين و الكافرين».

٢- ٢) مجمع البيان و تفاسير أخرى.

و الذى يبعد هذا التفسير أن الحديث فى الآيات السابقه و اللاحقه لهذه الآيه موجه للمؤمنين، فيستبعد أن تكون بينها آيه واحده تتحدث مع المشركين، و يضاف لذلك الارتباط المعنوى الموجود بين مضامين كل هذه الآيات-و لذلك اعتبر بعض المفسرين أن المخاطبين فى الآيه هم المؤمنون، و أحسن صورته لتفسير الآيه على هذا الوجه هى:

لقد حصل بين بعض المؤمنين جدال حول تقسيم الغنائم بعد واقعه بدر- كما رأينا- و نزلت آيات توبخهم و تضع الغنائم تحت تصرف شخص الرسول كاملا- صلى الله عليه و آله و سلم فقام بتقسيمها بينهم بالتساوى، بغية تربيتهم و تعليمهم، ثم ذكرهم بحوادث بدر و كيف نصرهم الله على عدوهم القوي.

و هذه الآيه تتابع الحديث عن الموضوع نفسه فتخاطب المسلمين و تقول لهم: إنكم إذا سألتم الله الفتح و النصر فسوف يستجيب لكم و ينصركم، و إذ تركتم الاعتراض و الجدل عند النبي صلى الله عليه و آله و سلم فبذلك مصلحتكم، و إذا عدتم لنفس الأسلوب من الاعتراض فسنعود نحن أيضا، و نترككم وحيدين فى قبضه الأعداء و حتى إذا كان عددكم كثيرا فبدون نصره الله لن تقدرُوا أن تعملوا أى شىء، و إن الله مع المؤمنين المخلصين و الطائعين لأوامره و أوامر نبيه.

و هكذا يستفاد من الآيات و خاصه من إلقاء اللوم على المسلمين لبعض مخالفتهم، و كذلك سياق الآيات السابقه و ما فيها من أوامر و روابط معنويه واضحه، فإن التفسير الثانى يكون أقرب إلى النظر...

إشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)

التفسير

إشاره

الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون!

تتابع هذه الآيات البحوث السابقة، فتدعو المسلمين إلى الطاعة التامه لأوامر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في السلم أو الحرب أو في أي أمر آخر، وأسلوب الآيات فيه دلالة على تقصير بعض المؤمنين في التنفيذ والطاعة، فتبدأ بالقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ .

و تضيف لتؤكد الأمر من جديد: وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ .

لا- شك في أن إطاعه أوامر الله تعالى واجبه على الجميع، المؤمنين و غير المؤمنين، ولكن بما أن المخاطبين و المعنيين بهذا الحديث التربوي هم المؤمنون

فلهذا كان الكلام فى هذه الآيه الشريفه موجها إليهم.

الآيه الثانيه: تؤكّد هذا المعنى أيضا فتقول: **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ** .

إنّ هذا التعبير الطريف يشير للذين يعلمون و لا- يعملون، و يسمعون و لا- يتأثرون، و فى ظاهرهم أنّهم من المؤمنين، و لكنّهم لا يطيعون أوامر الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم، فهؤلاء لهم آذان سامعه لكل الأحاديث و يعون مفاهيمها، و بما أنّهم لا يعملون بها و لا يطبقونها فكأنّهم صمّ لا يسمعون، لأنّ الكلام مقدمه للعمل فلو عدم العمل فلا فائده من آيه مقدمه.

و أمّا المراد من هؤلاء الأشخاص الذين يحذّر القرآن المسلمين لكيلا يصيروا مثلهم، فيرى بعض أنّهم المنافقون الذين اتخذوا لأنفسهم مواقع فى صفوف المسلمين، و قال آخرون: إنّما تشير إلى طائفه من اليهود، و ذهب بعض بأنّهم المشركون من العرب. و لا مانع من انطباق الآيه على هذه الطوائف الثلاث، و كل ذى قول بلا عمل.

و لما كان القول بلا عمل، و الاستماع بلا تأثر، أحد الأمراض التى تصاب بها المجتمعات، و أساس الكثير من التخلفات، فقد جاءت الآيه الأخرى لتؤكّد على هذه المسأله بأسلوب آخر، فقالت: **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١)** .

و لَمّا كان القرآن كتاب عمل فإنّه ينظر إلى النتائج دائما، فيعتبر كل موجود لا فائده فيه كالمعدوم، و كل حى عديم الحركه و التأثير كالميت، و كل حاسه من حواس الإنسان مفقود إذا لم تؤثر فيه تأثيرا ايجابيا فى مسيره الهدايه و السعاده، و هذه الآيه اعتبرت الذين لهم آذن سالمه لكنّهم لا يسمعون لآيات الله و دعوه

ص: ٣٩٠

(١-١) «...صم» جمع «الأصم» و هو الذى لا يسمع و «البكم» جمع «الأبكم» و هو فاقد النطق.

الحق و نداء السعادة، كمن لا أذن له و لا سمع لديه، و الذين لهم ألسنه سالمه لكنّها ساكته عن الدعوه إلى الحق و مكافحه الظلم و الفساد، فلا يأمرّون بمعروف و لا ينهون عن منكر، بل يضيعون هذه النعمه فى التملق و التذلل أمام الطواغيت أو تحريف الحق و تقويه الباطل، فهؤلاء كمن هو أبكم لا يقدر على الكلام، و كذلك الذين يتمتعون بنعمه الفكر و العقل و لكنّهم لا يصححون تفكيرهم، فهؤلاء فى عداد المجانين.

□
و تقول الآيه بعدها إن الله لا يمتنع من دعوه هؤلاء إن كانوا صادقين فى طلبهم و على استعداد لتقبل الحق: وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ .

و قد ورد فى الروايات أنّ بعض عبده الأصنام جاءوا النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم و قالوا: إذا أخرجت لنا جدنا الأكبر (قصى بن كلاب) حتّى من قبره، و شهد لك بالنبوه، فسوف نسلمّ جميعاً! فنزلت الآيه لتقول: إنّه لو كان حديثهم صادقا لفعل الله ذلك لهم بواسطه المعجزه، لكنّهم يكذبون و يأتون بأعداء واهيه، بهدف التخلص من الإذعان لدعوه الحق...

و يقول تعالى: وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ .

فالذين سمعوا دعوه الحق كثيرا، و بلغت آذانهم آيات القرآن، و فهموا مضامينها العاليه، لكنّهم أنكروها بسبب عتوهم و عصبيّتهم، فهم غير مؤهلين للهدايه لما اقترفت أيديهم، و لا شأن بعدئذ لله و رسوله بهم، فهم فى ظلام دامس و ضلال بهيم.

كما أنّ هذه الآيه تعد جوابا قاطعا للقائلين بمدرسه الجبر، لأنّها تقرر بأن يكمن فى الإنسان نفسه و أنّ الله يعامل الناس بما يبدونه من أنفسهم من استعداد و قابليه فى طريق الهدايه.

١- «و لو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم»

لقد حاول بعض الناشئة عمل قياس منطقي من هذه الآية و الخروج منه بنتيجة لصالحهم، فقالوا، إن القرآن يقول في الآية: وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ. و قال أيضا: وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ. فيمكن الاستنتاج من هاتين الجملتين الجملة التالية و هي: لو علم الله فيهم خيرا فهم سيعرضون.

و هذا الاستنتاج خطأ محض.

□ و قد أخطأ هؤلاء لأن معنى جملة: وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ. في قسمها الأول هو: لو كان هؤلاء قابليه فسيوصل الحق لأسمعهم، و لكن القسم الثاني معناه أن هؤلاء إذا لم تنهيا لهم القابليه للهدايه فسوف لن يستجيوا و سوف يعرضون...

و النتيجة أن الجملة المذكوره آنفا وردت في الآية بمعنيين مختلفين، و على هذا لا- يمكن تأليف قياس منطقي منهما... (١)

(فتأمل).

و هذه المسألة تشبه من يقول: إنني لو كنت أعتقد بأن فلانا يستجيب لدعوتي لدعوته، لكنه في الحال الحاضر إذا دعوته فسوف لن يستجيب، و لذلك فسوف لن أدعوه...

٢- لاستماع الحق مراحل

إن الإنسان قد يسمع أحيانا ألفاظا و عبارات دون التفكير في مضامينها، إلا أن بعضا لفرط لجاجتهم، كانوا يرفضون حتى هذا القدر من السمع، كما يقول

ص: ٣٩٢

١- (١) و بحسب اصطلاح المنطق أن الحدّ الوسط غير موجود في القياس آنفا، لأنّ الجملة الأولى هي (لأسمعهم حال كونهم يعلم فيهم خيرا). و الجملة الثانية (لأسمعهم حال كونه لا يعلم فيهم فهما) و النتيجة أن الحدّ الوسط المشترك غير موجود بين الجملتين لتمكين تأليف القياس منهما، لأنّ الجملتين مختلفتان و منفصلتان (فتأمل).

عنهم القرآن وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (١).

وتاره يقبل الإنسان باستماع الأحاديث، لكنّه لا يقرر أبدا العمل بها، كالمناقين الذين ورد ذكرهم في الآية (١٦) من سوره محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .

وقد يصل وضع هؤلاء أعلى مراحل الخطر، إذ يسلبون قدره على معرفه الخبيث و الطيب، وحتى إذا استمعوا الحديث الحق لا يكون بإمكانهم استيعابه و هضمه.

و القرآن يقول عن هذه الطوائف الثلاث، إنّ هؤلاء في واقعهم صم بكم، لا يذوّقون الذى يسمع في الحقيقه يجب عليه الإدراك و التفكير و العزم على العمل بإخلاص.

و كم من أناس في عصرنا و زمننا الحاضر عند ما يسمعون آيات القرآن يتفاعلون معها بشكل ملفت للنظر، لكنهم في العمل لا يتطابقون بأى شكل مع مضمون القرآن الكريم.

ص: ٣٩٣

(١ - ١) سوره فصلت، الآية ٢٦.

إشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)
وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ
تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ وَ رَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)

التفسير

إشاره

دعوه للحياه:

تتابع هذه الآيات دعوه المسلمين المتقدمه للعلم و العمل و الطاعه و التسليم لكنّها تتابع الهدف ذاته عن طريق آخر، فتقول ابتداء:
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .

فهذه الآيه تقول بصراحه: إنّ دعوه الإسلام هي دعوه للعيش و الحياه، الحياه المعنويه، الحياه الماديه، الحياه الثقافيه، الحياه
الاقتصاديّه، الحياه السياسيّه،

الحياه الأخلاقية و الاجتماعيه،و أخيرا الحياه و العيش بالمعنى الصحيح على جميع الأصعدة،و هذه أقصر و أجمع عبارته عن الإسلام و رسالته الخالده،إذا سأل أحد عن أهداف الإسلام،و ما يمكن أن يقدمه،فنقول جمله قصيره:إنّ هدفه هو الحياه على جميع الأصعدة،هذا ما يقدمه لنا الإسلام.

ترى هل كان الناس موتى قبل بزوغ الإسلام و نزول القرآن ليدعوهم القرآن إلى الحياه...؟ و جواب هذا التساؤل:نعم،فقد كانوا موتى و فاقدى الحياه بمعناها القرآنى، لأنّ الحياه ذات مراحل مختلفه أشار إلى جميعها القرآن الكريم.

فتاره تأتي بمعنى(الحياه النباتيه) كما يقول القرآن: **إِغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (١)**.

و تاره تأتي بمعنى(الحياه الحيوانيه)مثل: **إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى (٢)**.

و تاره بمعنى(الحياه الفكرية و العقلية)مثل: **أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ (٣)** و تاره بمعنى«الحياه الخالده فى العالم الآخر)مثل: **يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٤)**.

و تاره بمعنى(العالم و القادر بلا حد و لا نهايه)كما نقول عن الله: **الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ .**

و بالنظر إلى هذه الأقسام التى ذكرناها نعرف أنّ الناس فى الجاهليه كانوا يعيشون الحياه الحيوانيه و الماديه،و كانوا بعيدين عن الحياه الإنسانيه و المعنويه و العقلية،فجاء القرآن ليدعوهم إلى الحياه.

ص: ٣٩٥

١-١) الحديد،١٧.

٢-٢) فصلت،٣٩.

٣-٣) الأنعام،٢٢.

٤-٤) الفجر،٢٤.

و من هنا نعلم أنّ من يضع الدين فى قوالب جامده لا روح فيها بعيدا عن مجالات الحياه، و يختزله فى مسائل فكريه و اجتماعيه صرفه فقد جانب الصواب كثيرا، لأنّ الدين الصحيح هو الذى يبعث الحركه فى كل جوانب الحياه، و يحيى الفكر و الثقافه و الإحساس بالمسؤوليه، و يوجد التكامل و الرقى و الوحده و التألف، فهو إذا يبعث الحياه فى البشريه بكل معنى الكلمه.

و بذلك تتضح هذه الحقيقه أيضا و هى أن الذين فسّروا الآيه بمعنى واحد هو الجهاد أو الإيمان أو القرآن أو الجنّه، و اعتبروا كل واحد من هذه الأمور هو العامل الوحيد للحياه فى الآيه المباركه، هؤلاء فى الحقيقه حددوا مفهوم الآيه، لأنّه يشتمل على كل ذلك و أكثر حيث يندرج، -ضمن مفهوم الآيه- كل شىء، و كل فكر، و كل قانون يبعث الروح فى جانب من جوانب الحياه.

ثم يقول تعالى: **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**.

إنّ المقصود بالقلب هنا- كما ذكرنا سابقا- الروح و العقل، أمّا كيف يحول الله بين المرء و قلبه؟ فقد ذكرنا لذلك احتمالات مختلفه...

فتاره قيل: إنّه إشاره لشده قرب الله من عباده، فكأنّ الله فى داخل روح العبد و جسمه، و كما يقول القرآن الكريم: **وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**.

و قيل: إشاره إلى أنّ تقلب القلوب و الأفكار هو بيد الله، كما نقرأ فى الدعاء:

(يا مقلب القلوب و الأبصار).

و قيل: إنّ المقصود هو أنّ الإنسان لولا اللطف الإلهى غير قادر على معرفه الحق من الباطل.

و قيل أيضا: إنّ المقصود هو أنّه ما دام للناس فرصه فينبغى عليهم أداء الطاعات و أعمال الخير، لأنّ الله قد يحول بواسطه الموت بين المرء و قلبه.

و يمكن بنظره شامله جمع كل التفاسير فى تفسير واحد، هو أنّ الله عزّ و جلّ حاضر و ناظر و مهيمن على كل المخلوقات. فإنّ الموت و الحياه و العلم و القدره

و الأمن و السكينه و التوفيق و السعاده، كلها بيديه و تحت قدرته، فلا يمكن للإنسان كتمان أمر ما عنه، أو أن يعمل أمرا بدون توفيقه، و ليس من اللائق التوجه لغيره و سؤال من سواه. لأنه مالك كل شيء و المحيط بجميع وجود الإنسان. و ارتباط هذه الجمل مع سابقتها من جهة أنه لو دعا النبي صلى الله عليه و آله و سلم الناس إلى الحياه، فذلك لأن الذي أرسله هو مالك الحياه و الموت و العقل و الهدايه و مالك كل شيء.

و للتأكيد على هذا الموضوع فإن الآيه تريد أن تقول: إنكم لستم اليوم في دائره قدرته فحسب، بل ستذهبون إليه في العالم الآخر، فأنتم في محضره و تحت قدرته هنا و هناك.

ثم تشير إلى عاقبه السوء لمن يرفض دعوه الله و رسوله إلى الحياه فتقول:

وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً

و كلمه (فتنه) استعملت في القرآن المجيد بمعان مختلفه، فقد جاءت تارة بمعنى الإختيار و الامتحان، و تارة بمعنى البلاء و العذاب و المصيبه، و هي في الأصل بمعنى إدخال الذهب في بوتقه النار ليميز جيده من رديئه، ثم استعملت بمعنى الإختيارات التي تكشف الصفات الباطنيه للإنسان، و استحدثت في الابتلاء و الجزاء الذي يبعث الصفاء في روح الإنسان و يطهره من شوائب الذنوب، و أميا في هذه الآيه فإن كلمه (فتنه) بمعنى البلاء و المصائب الاجتماعيه التي يصاب بها الجميع فيحترق فيها الأخضر مع اليبس.

و في الحقيقه فشان الحوادث الاجتماعيه هو هكذا، فإذا ما توانى مجتمع ما عن أداء رسالته، و انهارت القوانين على أثر ذلك، و انعدم الأمن، فإن نار الفتنه ستحرق الأبرار مع الأشرار، و هذا هو الخطر الذي يحذر الله تبارك و تعالى منه و يحذر في هذه الآيه المجتمعات البشريه كلها.

و مفهوم الآيه هنا هو أن أفراد المجتمع مسئولين عن أداء وظائفهم، و كذلك

فهم مسئولون عن حثّ الآخرين لأداء وظائفهم أيضا، لأنّ الاختلاف و التشتت في قضايا المجتمع يؤدي إلى انهياره، و يتضرر بذلك الجميع، فلا يصحّ أن يقول أحد بأنني أؤدي رسالتي الاجتماعيه و لا- علاقه لي بالآثار السلبيه الناجمه عن عدم أداء الآخرين لواجباتهم، لأنّ آثار القضايا الاجتماعيه ليست فرديه و لا شخصيه.

و هذا الموضوع يشبه تماما ما لو احتجنا لصد هجوم الأعداء إلى مائه ألف مقاتل، فإذا قام خمسون ألف مقاتل بأداء وظائفهم فمن اليقين أنّهم سيخسرون عند منازلتهم العدو، و هذا الانكسار سيشمل الذين أدوا وظائفهم و الذين تقاعسوا عن أدائها و هذه هي خصوصيه المسائل الاجتماعيه.

و يمكن إيضاح هذه الحقيقه بصوره أجلى و هي: أنّ الأختيار من أبناء المجتمع مسئولون في التصدّي للأشرار لأنهم لو اختاروا السكوت فسيشاركون أولئك مصيرهم عند الله كما

ورد ذلك في حديث مشهور عن النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم حيث قال: (إنّ الله عزّ و جلّ لا يعذب العامه بعمل الخاصه حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم و هم قادرون على أن ينكروا، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصه و العامه) (١).

و يتّضح ممّا قلناه أنّ هذا الحكم يصدق في مجال الجزاء الإلهي في الدنيا و الآخره، و كذلك في مجال النتائج و آثار الأعمال الجماعيه (٢).

و تختتم الآيه بلغه التهديد فتقول: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ لئلا يصاب هؤلاء بالغفله بسبب الألفاف و الرحمه الإلهيه و ينسوا شدّه الجزاء الإلهي، فتأكلهم الفتن و تحيط بهم من كل جانب، كما أحاطت المجتمع الإسلامى،

ص: ٣٩٨

(١-١) تفسير المنار، الجزء ٩، ص ٦٣٨.

(٢-٢) فقد جرى الحديث بين المفسّرين حول كلمه «لا تصيبين» في أنّها هل هي صيغه نفى أو نهى، فالذين قالوا بالنهى و فسروها بمعنى اتّقوا الفتن لأنّها لا تصيب الظالمين و حدهم، و قال بعض: إنّها صيغه نفى و لكن لما يعتقد علماء العربيه بأنّ نون التوكيد لا تظهر في النهى و جواب القسم، فقد اعتبروا الجملة جوابا لقسم مقدر.

و أرجعته القهقري بسبب نسيانه السنن و القوانين الإلهيه.

فنظره قصيره إلى مجتمعا الإسلامى فى زماننا الحاضر و الانكسارات التى أصابته أمام أعدائه، و الفتن الكثيره، كالاستعمار و الصهيونيه، و الإلحاد و الماديه، و الفساد الخلقى و تشتت العوائل و سقوط شبابه فى وديان الفساد، و التخلف العلمى، كل ذلك يجسد مضمون الآيه، و كيف أنّ تلك الفتن أصابت كل صغير و كبير، و كل عالم و جاهل، و سيستمر كل ذلك حتى اليوم الذى تتحرك فيه الروح الاجتماعيه للمسلمين، و يهتم الجميع بصلاح المجتمع و لا يتخلفوا عن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر.

و يأخذ القرآن الكريم مرّه أخرى بأيدى المسلمين ليعيدهم نحو تاريخهم، فكم كانوا فى بدايه الأمر ضعفاء و كيف صاروا لعلمهم يدركون الدرس البليغ الذى علمهم إياه فى الآيات السابقه فيقول: **وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ .**

و هذه عباره لطيفه تشير إلى الضعف و قلّه العدد التى كان عليها المسلمون فى ذلك الزمن، و كأنّهم كانوا شيئا صغيرا معلقا فى الهواء بحيث يمكن للأعداء أخذه متى أردوا، و هى إشاره لحال المسلمين فى مكّه قبل الهجره قبال المشركين الأقوياء. أو إشاره لحال المسلمين فى المدينه بعد الهجره فى مقابل القوى الكبرى كالفرس و الروم: **فَأَوَّاهَكُمْ وَ أَيَّدَكُمْ بِنَضْرِهِ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .**

ص: ٣٩٩

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَإِعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)

سبب النزول

لقد وردت عدّه روايات فى سبب نزول هاتين الآيتين، منها ما ورد عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السلام من أن النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم أمر بمحاصره يهود (بنى قريضة) و استمرت هذه المحاصره واحدا و عشرين يوما، حتى أجبروا على المطالبه بالصلح، كما جرى ذلك مع اليهود من (بنى النضير) و ذلك بأن يرحلوا عن أرض المدينه إلى أرض الشام، لكن النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم رفض ذلك العرض (لعله كان يشك فى صدق نياتهم) و قال: يجب القبول بحكم (سعد بن معاذ) لكنهم طلبوا من النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم أن يرسل إليهم (أبا لبابه) و هو من أصحاب النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم فى المدينه، و كانت له معهم صداقه قديمه، و كانت عائلته و أبناؤه و أمواله عندهم.

فقبل النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم ذلك الطلب و أرسل (أبا لبابه) إليهم فاستشاروه: هل من مصلحتهم القبول بتحكيم (سعد بن معاذ)؟ فأشار أبو لبابه إلى حلقه، بمعنى أنكم

لو قبلتم فسوف تقتلون فلا- ترضوا بهذا العرض، فهبط أمين الوحي جبرائيل عليه السلام إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فأخبره بذلك.

يقول أبو لبابه: فو الله ما زالت قدماي حتى عرفت إني خنت الله ورسوله، وعند ذاك نزلت هذه الآيات في أبي لبابه. وقد عاد أبو لبابه معلنا ندمه الشديد و أتى بحبل و ربط نفسه به إلى أحد أعمده مسجد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. وقال: و الله لا أذوق طعاما و لا شرابا حتى يموت أو يقبل الله توبته. و استمر على هذه الحال دون أكل و شرب إلى سبعة أيام، حتى فقد وعيه و سقط على الأرض مغشيا عليه، فقبل الله توبته، و قام المؤمنون بإبلاغه الخبر، لكنّه أقسم أن لا يفكّ نفسه من العمد حتى يأتيه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و يفكّ عنه الحبل، فجاءه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و فكّ حبله، و قال (أبو لبابه):

إنّ من تمام توبتي أن أهجّر دار قومي التي أصبت فيها بالذنب و أن انخلع من مالي،

فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ له: «يجزيك الثلث أن تصدّق به» (١).

و قد جاء هذا المضمون نفسه في كتب أهل السنه حول سبب النزول، إلا أنّ بعضهم استبعد النزول في شأن (بنى قريضة)، لأنّ سابقاتها من الآيات تتعلق بحادثه بدر، و لأنّ هذه القضية لم تقع إلا بعد مدّه طويله من واقعه بدر، لهذا قالوا:

إنّ المقصود في الروايات هو أنّ حادثه بنى قريضة من مصاديق الآيه، لا أنّها نزلت فيها، و إنّ هذه العبارة يوردها الكثيرون في أسباب النزول. فعلى سبيل المثال فقد جاء في بعض الكتب نقلا عن بعض الصحابه أنّ الآيه الفلانيه قد نزلت في قتل عثمان، غير أنّ من المعلوم أنّ قتل عثمان حدث بعد سنين طويله من وفاه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

و يحتمل أيضا أن الآيه قد نزلت في بنى قريضة، و لكن بما أنّها كانت تتناسب و الآيات النازله في قضيه بدر، فقد أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالحقها بتلك الآيات.

ص: ٤٠١

الخيانة و أساسها:

يوجه الله سبحانه في الآيه الأولى من الآي محل البحث الخطاب إلى المؤمنين فيقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ

إنّ الخيانة لله و رسوله، هي وضع الأسرار العسكريه للمسلمين في تصرف أعدائهم، أو تقويه الأعداء أثناء محاربتهم، أو بصوره عامه ترك الواجبات و المحرمات و الأوامر الإلهيه، و لذلك فقد ورد عن (ابن عباس): إنّ من ترك شيئا من الأوامر الإسلاميه فقد ارتكب خيانه بحق الله و رسوله.

ثمّ تقول الآيه: وَ تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ (١).

و (الخيانة) في الأصل معناها: الامتناع عن دفع حق أحد مع التعهد به، و هي ضد (الأمانه) و الأمانه و إن كانت تطلق على الأمانه الماليه غالبا، لكنّها في منطِق القرآن ذات مفهوم أوسع يشمل شؤون الحياه الاجتماعيه و السياسيه و الأخلاقيه كافه، و لذلك جاء في الأحاديث: «المجالس بالأمانه».

و نقرأ

في حديث آخر: «إذا حدث الرجل بحديث ثمّ التفت فهو أمانه. و من ذلك تكون أرض الإسلام أمانه إلهيه بأيدي المسلمين و أبنائهم أيضا. و فوق كل ذلك فإنّ القرآن المجيد و تعاليمه كل ذلك يعد أمانه إلهيه كبرى، و قد قال بعضهم:

إنّ أمانه الله هي أوامره، و أمانه النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم سنته، و أمانه المؤمنين أموالهم و أسرارهم، و لكن الأمانه في الآيه -أنفا- تشمل على كل ذلك.

على كل حال، فإنّ الخيانة في الأمانه من أقبح الأعمال و شرّ الذنوب. فإنّ من يخون الأمانه منافق في الحقيقه، كما

ورد في الحديث عن الرسول الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم. حيث قال: «آيه المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، و إذا وعد أخلف، و إذا

ص: ٤٠٢

ائتمن خان،و إن صام و صلى و زعم أنه مسلم».

كما أن ترك الخيانه فى الأمانه يعدّ من الحقوق و الواجبات الإنسانيه،حتى إذا كان صاحب الأمانه غير مسلم فلا تجوز خيانه أمانته.

و يقول القرآن فى آخر الآيه: وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أى أنه قد يصدر منكم على نحو الخطأ ما هو خيانه،و لكن تقدموا على الخيانه و أنتم تعلمون،فإن عملا- كعمل (أبى لبابه)لم يكن لجهل أو خطأ،بل بسبب الحب المفرط للمال و البنين و حفظ المصالح الشخصيه الذى قد يسد فى لحظه حساسه كل شىء بوجه الإنسان، فكأنه لا يرى بعينه و لا يسمع بأذنيه...فيخون الله و رسوله،و هذه فى الحقيقه خيانه مع العلم،و المهم أن يستيقظ الإنسان بسرعه كما فعل (أبو لبابه)ليصلح ما قام بتخريبه.

و الآيه بعدها تحذر المسلمين ليجتنبوا الماديات و المنافع العابره،لئلا تلقى على عيونهم و آذانهم غشاء فيرتكبون خيانه تعرّض المجتمع إلى الخطر فتقول:

وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ

و كلمه «فتنه»-كما ذكرنا-تأتى فى مثل هذه الموارد بمعنى وسيله الامتحان،و الحقيقه أنّ أهم وسيله لامتحان الإيمان و الكفر و الشخصيه و فقدانها، و ميزان القيم الإنسانيه للأفراد هو هذان الموضوعان(المال و الأولاد).

فكفيه جمع المال و كفيه إنفاقه،و المحافظه عليه و ميزان التعلق به،كل تلك ميادين لامتحان البشر،فكم من أناس يلتزمون بظاهر العباده و شعائر الدين، حتى المستحبات يلتزمون بشده فى أدائها،لكنهم إذا ما ابتلوا بقضيه ماليه،تراهم ينسون كل شىء و يدعون الأوامر الإلهيه و مسائل الحق و العدل و الإنسانيه جانبا.

أمّا عن الأبناء فهم ثمار قلب الإنسان و براعم حياته المتفتحه،و لهذا نجد الكثير من الناس المتمسكين بالدين و المسائل الأخلاقيه و الإنسانيه،لا يراعوا الحق و الدين بالنسبه للمسائل المتعلقه بمصلحه أبنائهم،فكأن ستارا يلقى على

أفكارهم فينسون كل الأمور، و يصير حبّهم لأبنائهم سببا ليحلّوا الحرام و يحرّموا الحلال، و من أجل توفير المستقيم لأبنائهم يستحقون كل حق و يقدمون على كل منكر، فيجب علينا الاعتصام بالله العظيم في هذين الميدانين العظيمين للامتحان، و أن نحذر بشدّه، فكم من الناس زلت أقدامهم و سقطوا فيهما، و ظلت لعنه التاريخ تلاحقهم أبداً بذلك. فإذا زلت لنا قدم يوماً، فيجب علينا الإسراع في تصحيح المسير ك(أبي لبابه) و إذا كان المال هو السبب في الانحراف، فعلينا بذله و إنفاقه في سبيل الله.

□
و في نهاية الآية بشاره كبرى لمن يخرج من هذين الامتحانين منتصراً، فنقول: **وَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ .**

فمهما كان حبّ الأبناء كبيراً، و مهما كانت الأموال محبوبه و كثيره، فإنّ جزاء الله و ثوابه أعلى و أعظم من كل ذلك.

و هنا تثار أسئلة كثيرة، منها: لماذا يمتحن الله الناس مع إحاطته العلميه بكل شيء؟ و لماذا يكون الامتحان شاملاً للجميع حتى الأنبياء؟ و ما هي مواد الامتحان الإلهي و ما هي السبل للتغلب عليها؟ و قد أجبتنا على كل تلك الأسئلة في المجلد الأولي من التفسير الأمثل.

إشارة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)

التفسير

إشارة

الإيمان و وضوح الرؤيه:

تناولت الآيات السابقة أوامر حياتيه تتضمن السعاده الماديه و المعنويه للإنسان، لكن العمل بها غير ممكن إلا- في ظلال التقوى، لذلك جاءت هذه الآيه المباركه لتؤكد أهميه التقوى و آثارها في مصير الإنسان، وقد بينت الآيه أربعة ثمار و نتائج للتقوى.

فقال ابتداء: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا... .

و كلمه «فرقان» صيغه مبالغه من ماده (فرق) و هى هنا بمعنى الشئ الذى يفصل بين الحق و الباطل تماما.

إنّ هذه الجملة الموجهه و الكبيره فى معناها قد بينت إحدى أهم المسائل المؤثره فى مصير الإنسان، و هى أنّ درب الإنسان نحو النصر محفوف دائما بالمصاعب و الحفر فإذا لم يبصرها جيدا و يحسن معرفتها و اتقاءها فسيسقط فيها

لا- محاله، فأهم مسأله فى هذا الطريق هى معرفه الحق و الباطل، معرفه الحسن و القبيح، معرفه الصديق و العدو، معرفه الفوائد و الأضرار، معرفه عوامل السعاده و الضياع، فإذا استطاع الإنسان معرفه هذه الحقائق جيدا فسيسهل عليه الوصول إلى الهدف.

إنّ المشكله التى تعترض الإنسان غالبا هى خطأه فى تشخيص الباطل و اختياره على الحق، و انتخاب العدو بدل الصديق، و طريق الضلال بدل طريق الهدايه، و هنا يحتاج الإنسان إلى بصر و بصيره قويّه، و وضوح رؤيه. إنّ هذه الآيه المباركه تقول: إنّ هذه البصيره ثمره لشجره التقوى. أما كيف تعطى هذه التقوى البصيره للإنسان؟ فقد يكون الأمر مبهما لدى البعض، لكن قليلا من الدقه و التأمل كافيه لتوضيح العلاقه الوثيقه بين هذين الإثنين، و لإيضاح ذلك نقول:

أولاً: إنّ قوه عقل الإنسان تستطيع إدراك الحقائق بقدر كاف، و لكن ستأثر من الحرص و الطمع و الشهوه و حبّ النفس و الحسد، و حبّ المفرد للمال و الأزواج و الأولاد و الجاه و المنصب كل ذلك يغدو كالدخان الأسود أمام بصيره العقل، أو كالغبار الغليظ الذى يملأ الآفاق، و هنا لا يمكن للإنسان معرفه الحق و الباطل فى أجواء مظلمه، أما إذا غسل تلك الغشاوه بماء التقوى و انقشع ذلك الدخان الأسود، عند ذاك تسهل عليه رؤيه نور الحق.

ثانياً: أنّنا نعلم أنّ كل كمال فى أى مكان إنّما هو قيس من كمال الحق، و كلّما اقترب الإنسان من الله فإنّ نور الكمال المطلق سينعكس فى وجوده أكثر، و على ذلك فإنّ أى علم و معرفه فهو نبع من علمه و معرفته تعالى، و كلّما تقدّم الإنسان فى ضلال التقوى و ترك المعاصى من الله، ذابت قطره وجوده فى بحر وجود العظيم أكثر، و سيحصل على مقدار أكثر من العلم و المعرفه.

و بعبارة أخرى فإنّ قلب الإنسان كالمراة، و وجود الله كالشمس الساطعه على الوجود، فإذا تلوّث مرآه قلبه من الأهواء حتى اسودت، فسوف لا تعكس

النور، فإذا تمّ جلاؤها بالتقوى و زال الدرّن عنها، فإنّ تلك الشمس الوضاءه الساطعه ستعكس فيها و تنير كل مكان.

و لذلك فإنّنا نرى على مدى التاريخ بعض النساء و الرجال المتّقين يملكون وضوحا من الرّؤية لا يمكن بلوغه بوسائل العلم و المعرفة أبدا، فهم يرون أسباب الكثير من الحوادث التي تعصف بالمجتمع غير المرئيه، و يرون وجود أعداء الحق و إن حجبتهآ آلاف الستائر الخادعه.

و هذا الأثر العجيب للتقوى في معرفه الواقع، جاء ذكره في الكثير من الرّوايات و الآيات الأخرى، ففي سورة البقره تقول الآيه ٢٨٢: **إِتَّقُوا اللَّهَ وَ يُعَلِّمَكُمُ اللَّهُ**، و جاء في الحديث المعروف: «المؤمن ينظر بنور الله».

و في نهج البلاغه في قصار الكلم: «أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع».

ثالثا: بالتحليل العقلي يمكن فهم العلاقة الوثيقه بين التقوى و إدراك الحقائق أيضا، لأنّ المجتمعات التي تسير في دروب الفساد و الرذيله و أجهزه الإعلام فيها تطبل لذلك الميسر، و الصحافه و الراديو و التلفزيون كلها تدعو للتلوث و الانحراف و خدمه الفساد، فمن البديهي أن يصعب على الناس تمييز الحق من الباطل، الجيد من الرديء، و نتيجه الأمر، فإنّ انعدام التقوى يكون سببا لفقدان القدره على هذه المعرفه أو سوء المعرفه.

و مثال آخر: فإنّ عائله غير متقيه، و صغارها يشبون في محيط ملوث بالفساد و الرذيله، فمن العسير على هؤلاء في المستقبل تمييز الجيد من الرديء، و إهدار القوى و الطاقات في الذنوب يتسبب بقاء الناس على مستوى دان من البصيره و المعرفه و انحطاط في التفكير حتى و إن كانوا متقدمين في الصناعه و الحياه الماديه.

و بناء على ما تقدم فإنّنا نرى أنّ ادنى انحراف عن التقوى يسبب نوعا من

العمى و سوء المعرفة، لذلك نرى فى العالم الصناعى اليوم مجتمعات متقدمه جدًا فى العلم و الصناعه، و لكنّها فى حياتها اليوميّه مصابه بأمراض و مشاكل شديده تبعث على الاستغراب و التعجب، و هنا تتجلى عظمه ما قاله القرآن الكريم.

و نظرا إلى أنّ التقوى لا- تنحصر بالتقوى فى العمل، بل تشمل التقوى فى الفكر و العقل، فإنّ هذه الحقيقه تتّضح بصوره أجلى. فالتقوى فى الفكر تعنى مواجهه التسبب و عدم الانضباط فى التفكير، بمعنى أن نبحت فى دراساتنا و تحقيقاتنا عن أصح الأدله و أوثق البراهين، و أن لا نلتزم بعقيده دون التحقيق الكافى و الدقه اللازمه.

و الذين يراعون التقوى و يلتزمون بها فى تفكيرهم سيبلغون النتائج الصحيحه أسرع بكثير ممن لا يلتزم بها، كما أنّ الخلط و الخطأ يكثر عند من لا يتقى الله فى استدلالاته و أسلوب تفكيره.

و هناك أمر آخر يجب الانتباه إليه، لأنّ الكثير من مفاهيمنا الإسلاميه قد تعرضت للتشويه بين المسلمين، و هو أنّ الكثير من الناس يتصور أنّ الإنسان المتقى هو الذى يكثر من غسل بدنه و لباسه و يعتبر كل فرد و كل شىء نجسا و مشكوكا فيه، و ينزوى جانبا متجنباً الخوض فى الأمور الاجتماعيه، و يسكت أمام كل واقعه، فهذه النظرات المغلوطة عن التقوى و المتقين فى الحقيقه إحدى عوامل انحطاط المجتمعات الإسلاميه، لأنّ هذه التقوى لا تنتج معرفه و لا وضوح رؤيه و لا تكون فرقانا بين الحق و الباطل.

و على كل حال، و بعد أن اتّضح أوّل ثواب للمتقين نعود لتفسير بقية الآيه و سائر الثمار الأربعة لها.

يقول القرآن الكريم: إنّه إضافة إلى معرفه الحق من الباطل فإنّ من آثار التقوى أن يغطى على ذنوبكم و يمحو آثارها من وجودكم و يُكفّر عنكم سيئاتكم .

مضافا إلى ذلك، فإنه تعالى سيشملكم بمغفرته وَ يَغْفِرْ لَكُمْ .

□
و ثمار كثيره أخرى تنتظركم لا يعلمها إلا الله: وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

فهذه الآثار الأربعة هي ثمرات في شجرة التقوى، و وجود روابط طبيعيه بين التقوى و قسم من هذه الآثار لا يمنع من نسبه كل ذلك إلى الله تبارك و تعالى، لأننا و كما قلنا مرارا في هذا التفسير فإنّ أى موجود ذى آثار إنّما تحصل بمشيئه الله و قدرته، فيمكن نسبه تلك الآثار إلى الله عزّ و جلّ، و إلى ذلك الموجود أيضا.

و أما الفرق بين (تكفير السيئات) و (الغفران). فقد قال بعض المفسرين بأنّ الأولى إشاره إلى الحجب من الدنيا، و الثانيه إلى النجاه من الجزاء الأخرى، و يرد احتمال آخر هنا و هو أن (تكفير السيئات) تشير للآثار النفسيه و الاجتماعيه للذنوب و التي تزول بفعل التقوى، و لكن (الغفران) إشاره إلى مسأله العفو الإلهي و الخلاص من الجزاء...

ص: ٤٠٩

إشارة

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ (٣٠)

سبب النزول

ذكر المفسِّرون و المحدثون أن الآيه-محل البحث- تشير إلى الحوادث التي أدت إلى هجره الرسول صَلَّى الله عليه و آله و سلَّم من مكَّه إلى المدينة.

هذه الحوادث و إن رويت بعبارات مختلفه إلا- أنها تتفق جميعا على حقيقة أن الله عزَّ و جلَّ قد أنقذ نبيِّه الكريم عن طريق الإعجاز من خطر محقق به، و نروى هذه الحادته وفقا لما ورت في الدر المنثور و مجمع البيان ذيل الآيه آنفا ...

قال المفسِّرون: إنَّها نزلت في شأن «دار الندوه» و ذلك أن نفرا من قريش اجتمعوا فيها و هى دار قصي بن كلاب، و تأمروا في أمر النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلَّم فقال عروه بن هشام: نتربص به ريب المنون، و قال أبو البخترى: أخرجوه عنكم تستريحوا من أذاه، و قال أبو جهل: ما هذا برأى، و لكن اقتلوه بأن يجتمع عليه من كل بطن رجل فيضربوه بأسيا فهم ضربه رجل واحد... فيرضى بنو هاشم حينئذ بالديَّة، فصوب

إبليس هذا الرأى، و كان قد جاءهم فى صورته شيخ كبير من أهل نجد، و خطأ الأولين.

فاتفقوا على هذا الرأى و أعدّو الرجال و السلاح و جاء جبرئيل عليه السلام فأخبر النبى صلى الله عليه و آله و سلم فخرج إلى الغار و أمر عليًا فبات على فراشه، فلمّا أصبحوا و فتشوا عن الفراش، و جدوا عليًا عليه السلام و قد ردّ الله مكرهم فقالوا: أين محمّد؟ فقال: لا أدرى، فاقتصّوا أثره و أرسلوا فى طلبه، فلمّا بلغوا الجبل و مرّوا بالغار رأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو كان هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاثا ثمّ قدم المدينة» (١).

التفسير

إشارة

سرّ بداية الهجرة:

يعتقد بعض المفسّرين أنّ هذه الآية، و خمس آيات تليها، نزلت فى مكّة لأنّها تشير إلى هجره النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و لكن سياقها يدل على نزولها بعد الهجرة، إذ تتكلم على حادثه سابقه.

فبناء على ذلك تكون هذه الآية قد نزلت فى المدينة بالرغم من حديثها عن هجره النبى صلى الله عليه و آله و سلم فتحدث عن الذكرى الكبرى و النعمة العظمى التى منّ الله بها على النبى صلى الله عليه و آله و سلم و المسلمين، فتقول فى بدايتها و إذ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ .

كلمه «المكر» كما ذكرنا سلفا تعنى فى اللغة التدبير و التخطيط و الحيله.

ثمّ تضيف الآية قائلة: وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ .

فإذا أمعنا النظر فى موضوع هجره النبى صلى الله عليه و آله و سلم فإننا سنجد أنّ المشركين قد بذلوا كل ما فى وسعهم و جهدهم من طاقات فكرية و جسدية للقضاء على نبى

ص: ٤١١

(١-١) الدر المنثور وفقا لما نقل عنه صاحب المنار، و مجمع البيان ذيل الآية.

الإسلام صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم، حتى أنهم أعدّوا جائزه لهذا الغرض وهي مائه ناقه، وهذا العدد من الإبل كان يعدّ ثروته كبرى يومئذٍ «هذه الجائزه لكلّ من يقبض على النّبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم حتى بعد أن خرج عن قبضتهم» وقد طفق الكثير يجوبون الفياض والجبّال ليبحثوا عنه طلباً لتلك الجائزه الكبرى حتى بلغوا الغار، ولكن الله سبحانه أذهب بأتعابهم أدراج الرياح بواسطه نسيج العنكبوت! ونظراً إلى أنّ هجره النّبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم تمثل مرحله جديده فى التاريخ الإسلامى، بل التاريخ الإنسانى، فإننا نستنتج أنّ الله قد غير مسيره التاريخ البشرى بما نسجته العنكبوت من خيوط!...

و هذا الأمر لا ينحصر بهجره النّبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم، بل فى جميع تاريخ الأنبياء، فإنّ الله سبحانه أذل أعداءهم و دمرهم و أباد قوى الضلال بأسباب هيئه كالريح-مثلاً- أو كثره البعوض، أو الطير الصغيره التى تسمّى بالأبائيل، ليبيّن حاله الضعف البشرى و العجز إزاء قدرته اللامتناهيه و ليردع الإنسان عن التفكير بالطغيان و العناد.

و ممّا يسترعى النظر أنّ الالتجاء إلى هذه الأساليب الثلاثة: السجن و النفى و القتل، لم يكن منحصرًا بالمشركين فى مواجهه النّبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم فحسب، فإنّ الطغاه يلجأون إلى هذه الأساليب الثلاثة دائماً للقضاء على المصلحين و إسكاتهم، و الحيلولة دون بسط نفوذهم بين المستضعفين، إلّا- أنّه كما كانت النتيجة خلاف ما أراد مشركو مكّه فى شأن النّبي و أضحت مقدمه لتحرك إسلامى جديد، فكذلك مثل هذه الموجهات الشديده قد باءت نتائجها فى مواطن أخرى بعكس ما كان متوقعا

(١)

ص: ٤١٢

١-١) الملاحظه اللطيفه هنا هو أنّ كتابه هذا التفسير كانت فى الاجزاء السابقه تسير مسيرا بطيئًا، و لكن بما أن راقم هذه السطور حين كتابه هذا الجزء من التفسير كان قد نفى من قبل حكومه الطاغوت إلى مدينه «مهباد» و «أنارك» فإنّ كتابه هذا التفسير قد سارعت الخطى بحيث إنّنى أكملت تمام هذا الجزء فى ذلك المنفى.

إشاره

وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّفِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيهً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥)

التفسير

إشاره

القائلون شططا:

ذكر في الآيه السابقه مثل خرافى من منطق المشركين العملى، و فى هذه الآيات مثل آخر من منطقهم الفكرى، ليتضح أن هؤلاء لم يمتلكوا سلامه فى

الفكر و لا صحه فى العمل، فجميع أساليبهم خاويه بغير أساس.

تقول الآيه الأولى من الآيات محل البحث: وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ

كانوا يقولون مثل هذا الكلام عند ما يعجزون عن مواجهه القرآن و معارضته، و كانوا يعرفون جيدا أنهم غير قادرين على معارضه القرآن، إلا أنهم و لحقدهم و عصبيتهم، أو لأنهم يريدون إضلال الناس، كانوا يقولون: إن الإتيان بمثل هذه الآيات غير عسير و لو نشاء لقلنا مثلها، و لكنهم لم يستطيعوا أن يأتوا بمثلها أبدا، و ما هذا القول منهم سوى ادعاء فارغ يهدفون بذلك إلى إبقاء كيانهم الاجتماعى - كسائر الجبايره فى التاريخ - إلى أمر معدود.

و الآيه التالية تتحدث عن منطق عجيب آخر فتقول: وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بَعْدَابٍ أَلِيمٍ .

لقد كانوا يقولون ذلك لشده تعصبهم و عنادهم، و كانوا يتصورون أن الدين الإسلامى لا أساس له أبدا، و إلا فإن أحدا يحتمل حقانيه الإسلام كيف يمكنه أن يدعو على نفسه بمثل هذا الدعاء؟ كما و يحتمل أيضا أن شيوخ المشركين و سادتهم يقولون ذلك الكلام لتضليل الناس و ليثبتوا لبسطائهم أن رساله النبى صلى الله عليه و آله و سلم باطله تماما، فى حين أنهم لا يعتقدون بما يقولون. و كأنهم - أى المشركين - يريدون أن يقولوا للنبى صلى الله عليه و آله و سلم: إنك تتكلم عن الأنبياء السابقين، و إن الله قد أهلك أعداءهم بحجاره أمطرها عليهم «كما هى الحال فى شأن قوم لوط» فإن كنت صادقا فيما تقول فأمطر علينا حجاره من السماء! و

قد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام (فى مجمع البيان) أنه لما نصب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عليا عليه السلام يوم غدير خم فقال: من كنت مولاه فعلى مولاه، طار ذلك فى البلاد، فقدم على النبى صلى الله عليه و آله و سلم النعمان بن الحارث الفهرى، فقال: أمرتنا من الله

أن نشهد أن لا- إله إلا- الله و أنك رسول الله، وأمرتنا بالجهاد و الحج و الصوم و الصلاة و الزكاة فقبلناها، ثم لم ترض حتى نصبت هذا الغلام فقلت: من كنت مولاه فعلى مولاه، فهذا شيء منك أو أمر من عند الله؟ فقال صلى الله عليه و آله و سلم: «و الله الذى لا- إله إلا- هو، إن هذا من الله». فولى النعمان بن الحارث و هو يقول: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجاره من السماء، فرماه الله بحجر على رأسه فقتله (١).

و هذا الحديث لا ينافى نزول الآية فى قصه الغدير، لأن سبب النزول لم يكن موضوع النعمان، بل إن النعمان قد اقتبس من الآية فى الدعاء على نفسه، و هذا يشبه قولنا فى الدعاء مقتبسين ذلك من القرآن رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الآخِرَةِ حَسَنَةً «و سيأتى تفصيل هذا الموضوع و ما ذكرته كتب أهل السنه من أساتيد كثيره له فى ذيل الآية الأولى من سوره المعارج سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ يَا ذَنُ اللَّهِ».

و فى ما تقدم من الآيات نلاحظ أن المشركين و جَّهَّوْا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إشكالين.

الأول منهما: واضح البطلان، و هو قولهم: لو نشاء لقلنا مثل هذا. فلم يردّ عليه القرآن. بديهي أن هذا الادعاء أجوف كاذب، لأنهم لو استطاعوا لما توانوا عنه أبدا و لجاءوا به، فلا حاحه إذن للردّ عليه.

و الإشكال الثانى: لو كانت هذه الآيات نازله من قبل الله فأنزل علينا العقاب و البلاء، فيرد عليهم القرآن فى الآية الثالثه، من الآيات محل البحث، بقوله: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ .

و فى الحقيقه أن وجودك- يا رسول الله- الذى هو رحمه للعالمين، يمنع من

ص: ٤١٥

(١-١) راجع مجمع البيان، ج ٥، ص ٣٥٢ و تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ١٥١.

نزول البلاء بسبب هذه الذنوب، فيهلك قومك كما هلكت الأمم السابقة جماعات أو متفرقين.

ثُمَّ تَعْقِبُ الْآيَةَ بِالْقَوْلِ: وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ .

و للمفسرين احتمالات متعددة في تفسير الجملة آنفه الذكر، منها أنّ بعض المشركين ندموا على قولهم الذى ذكرته الآية فقالوا: غفرانك ربنا، و كان ذلك سببا لأن لا ينزل عليهم العذاب حتى بعد خروج النبي صلى الله عليه و آله و سلم من مكّه.

و قال بعضهم: إنّ الآية تشير إلى من بقى من المؤمنين فى مكّه، لأنّ بعضا ممن لم يستطع الهجره بقى فيها بعد خروج النبي، فوجودهم الذى هو شعاع من وجود النبي صلى الله عليه و آله و سلم منع من نزول العذاب.

كما يحتمل أن تكون هذه الجملة التى ذكرتها الآية تتضمن مفهوم جملة شرطيه، أى أنّهم لو ندموا على فعلهم توجهوا إلى الله و استغفروه فسيرتفع عنهم عقاب الله.

كما لا يبعد فى الوقت ذاته-الجمع بين هذه الاحتمالات كلّها فى تفسير الآية، أى يمكن أن تكون الآية إشاره إلى جميع هذه الاحتمالات.

و على أية حال، فإنّ مفهوم الآية لا- يختص بمعاصرى النبي صلى الله عليه و آله و سلم بل هو قانون عام كلّى يشمل جميع الناس. لهذا فقد روى فى مصادرنا عن الإمام على، و

فى مصادر أهل السنه عن تلميذ الإمام على «ابن عباس» أنّه قال عليه السّلام: «كان فى الأرض أمانان من عذاب الله، و قد رفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسكوا به. و قرأ هذه الآية» (١).

و يتضح من الآية-محل البحث، و الحديث آنف الذكر- أنّ وجود الأنبياء عليهم السّلام مدعاه لأمن الناس من عذاب الله و بلائه الشديد، ثمّ الاستغفار و التوبه

ص: ٤١٦

و التوجه و الضراعه نحو الله، إذ يعدّ الاستغفار و التوبه ممّا يدفع به العذاب.

فإذا انعدم الاستغفار فإنّ المجتمعات البشريه ستفقد الأمن من عذاب الله لما اقترفته من الذنوب و المعاصي.

و هذا العذاب أو العقاب قد يأتي في صوره الحوادث الطبيعيه المؤلمه، كالسيل مثلاً، أو الحروب المدمّره، أو في صور أخرى، و

قد جاء في دعاء كميل بن زياد عن الإمام على عليه السلام قوله «اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل البلاء».

فهذا التعبير يدل على أنّه لو لا الاستغفار فإنّ كثيراً من الذنوب قد تكون سبباً في البلاء و الكوارث.

و ينبغي التذكير بهذه اللطيفه، و هي أنّ الاستغفار لا يعنى تكرار ألفاظ معينه، كأن يقول المرء «اللهم اغفر لي» بل المراد منه روح الاستغفار الذي هو حاله العوده نحو الحق و التهيؤ لتلافى ما مضى من العبد قبال ربّه.

و الآيه التاليه: تقول: إنّ هؤلاء حقيقون بعذاب الله و مَا لَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .

و هذا التعبير في الآيه يشير إلى يوم كان المسلمون في مكّه، و لم يكن لهم الحق أن يقيموا صلاه الجماعة بتمام الحريه، و الاطمئنان عند المسجد الحرام، إذ كانوا يتعرضون للإيذاء و التعذيب.

أو أنّ هذا التعبير يشير إلى منع المشركين المسلمين و صدهم إياهم بعد أدائهم مناسك الحج و العمره، فلم يأذنوا لهم بالتردد إلى المسجد الحرام.

و العجيب أنّ هؤلاء المشركين كانوا يتصورون أنّ لهم حق التصرف كيفما شاءوا في المسجد الحرام، و أنّهم أولياؤه. إلاّ أنّ القرآن يضيف في هذه الآيه قائلاً:

وَ مَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ

و بالرغم من زعمهم أنّهم أولياؤه ف إنّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

و مع أنّ هذا الحكم ورد في شأن المسجد الحرام، إلاّ أنّه يشمل جميع المراكز

الدينيه و المساجد فيان سدننها ينبغي أن يكونوا من أظهر الناس و أتقاهم و أورعهم و أكثرهم اهتماما بالمحافظة على مراكز العباده،ليجعلوها منطلقا للتعليم و بثّ الوعي و الإيقاظ. إذ لا يصلح لإداره هذه المراكز حفته من الحمقى أو باعه الضمائر الملوّثين و المرتبطين بالأجانب،الذين يسعون إلى تحويل المساجد و مراكز العباده إلى محال تجاربه،أو جعلها مكانا لتخدير الأفكار، و الابتعاد عن الحقّ.و في اعتقادنا أنّ المسلمين لو كانوا ملتزمين بتعاليم القرآن في شأن المساجد،لكانت المجتمعات الإسلاميه اليوم لها وجه آخر و صوره مشرقه! و الأعجب في هذا الشأن أنّ المشركين كانوا يدعون أنّهم يصلّون و يعبدون الله بما كانوا يقومون به من أعمال قبيحه كالصغير و التصديه عند البيت،و لهذا فقد قالت الآيه التاليه عنهم: **وَ مَا كَانَ صِيْلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَ تَصْدِيَهُ .**

و نقرأ في التاريخ أنّ طائفه من الأعراب في زمان الجاهليه عند ما كانوا يطوفون بالبيت العتيق، كانوا يخلعون ثيابهم و يصفرون و يصفقون و يسمّون أعمالهم هذه عباده،و ورد أيضا أنّ النبي الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم عند ما كان يقف بجانب الحجر الأسود و يتجه بوجهه نحو الشمال ليكون في مقابل الكعبه و بيت المقدس، و يشرع بالصلاه، كان يقف إلى يمينه و يساره رجالان من بنى سهم فيأخذ أحدهم بالصياح و الآخر بالتصفيق ليؤذياه في صلاته.

تعقب الآيه على ما تقدم لتقول: **إِنَّ أَعْمَالَكُمْ -بل حتى صلاتكم- مدعاه للخجل و السفاهه و لذلك فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون .**

إنّ الإنسان حين يقلّب صفحات التاريخ و يتوغّل فيه باحثا عن جوانب من تاريخ عرب الجاهليه التي وردت الإشاره إليها في القرآن،يرى-و يا للعجب العجاب!-في عصرنا الحاضر الذي عرف بعصر الفضاء و الذره من يعيد تلك الأعمال التي كانت في زمان الجاهليه،و يتصوّر نفسه في عباده،فيقرءون الآيات

القرآنيه أو الأشعار فى مدح النبى صلى الله عليه وآله وسلم و الامام على عليه السلام بالألحان الموسيقية ذات الإيقاع المثير، و تهتز أيديهم و رؤوسهم بما يشبه حاله الرقص، و يسمون ذلك ذكرا و مدائح، و يقيمونها فى التكايا و غيرها. مع إن الإسلام يبرأ من جميع هذه الأعمال، و هى مثل آخر من أمثله أعمال «الجاهلية».

و يبقى هنا سؤال واحد، و هو أن الآيه الثالثه من الآيات محل البحث قد نفت نزول العذاب بتوفر شرطين طبعاً، و الآيه الرابعه أثبتت ترى ألا- يقع التضاد بين الآيتين؟ و الجواب: إن الآيه السابقيه إلى العقاب الدنيوى، و الآيه اللاحقه لعلها إشاره إلى العقاب الأخرى، أو أنها إشاره إلى أن هؤلاء يستحقون العقاب فى الدنيا و هو محقق بهم، فإذا مضى النبى صلى الله عليه وآله وسلم و لم يتوبوا و يستغفروا ربهم فإنه سينزل بهم لا محاله

إشاره

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧)

سبب النزول

جاء في تفسير على بن إبراهيم و كثير من التفاسير الأخرى، أن الآية-محل البحث-نزلت في معركة بدر، و ما بذله أهل مكه للصدء عن سبيل الله، لأنهم لما عرفوا ما حصل-إذ جاءهم مبعوث أبي سفيان-قاموا بجمع الأموال الكثيره ليعينوا بها مقاتليهم، إلا أنهم خابوا و قتلوا و آبوا إلى جهنم و ساءت مصيرا، و كان ما أنفقوه في هذا الصدد وبالا و حسره عليهم. و الآية الأولى تشير إلى سائر معوناتهم التي قدموها في سبيل مواجهه الإسلام و محاربتة، و قد طرحت الموضوع في صياغه كليه.

و قال بعضهم: إن الآية نزلت في ما بذله أبو سفيان لألفى مقاتل «مرتزق» في

معركه أحد.

إلاّ أنه لما كانت الآيه محل البحث واقعه فى سياق الآيات النازله فى معركه بدر، فإنّ الرأى الأوّل فى شأن نزولها يبدو أقرب للصحه.

التفسير

مهما يكن شأن نزول الآيه، فمفهومها مفهوم جامع يحمل فى معناه كلّ ما بذله أعداء الحق و العدل من أموال لنيل مقاصدهم المشؤومه، إذ تقول فى مستهلها: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيُضِدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .

إلاّ أنّ هذا الإنفاق و البذل لن يحقق لهم نصراً فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ .

و لا يبتلون بالحسره و الهزيمه فى الدنيا فحسب، بل هم كذلك فى الآخره أيضاً وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ .

ملاحظات

١- يستفاد من الآيه محل البحث أنّ «هؤلاء» يحسّون بعدم جدوى أعمالهم حتى قبل غلبهم و انهزامهم، و حيث إنّهم لا يرون نتيجة مثمره لما أنفقوه من الأموال، فسيبتلون بالألم و الحسره، و هذا الأمر هو نوع من جزائهم الدنيوى و أحد عقوباتهم فيها.

أمّا الجزء الآخر الذى ينالونه، فهو فشل خططهم و مناهجهم، لأنّ الذين يقاتلون و هم متعلقون بالأموال و الثروه لا يستطيعون مواجهه المقاتلين من أجل المبدأ و الأهداف المقدسه.

و قد برهنت الحوادث فى عصرنا هذا على أنّ الدول القويه التى تغرى

ص: ٤٢١

مقاتليها بالمال و الرغبات الماديّه، كثيرا ما تصاب بالخزي و الافتضاح و الهزيمه بوجه الأمم المستضعفه التي تقا تل عن إيمان و عقيدته راسخه!...

و بالإضافه إلى هذين الجزاءين فهناك جزاء ثالث ينتظرهم يوم القيامة، و هو «الغضب الإلهي».

٢- ما ذكرته الآيه محل البحث، نجد له أمثله في عصرنا الحاضر، كقوى الاستكبار، و اتباع الظلم و الفساد، و دعاه المذاهب الخرافيه الباطله، و باذلى الأموال الطائله لتحقيق أهدافهم و تضليل الناس و صدهم عن سبيل الحق، و هم يظهرن بأزياء متعدده، فتاره في صورته المساعدات الماليه-ظاهرا- كبناء المستشفيات، و أخرى في صورته التعاون الثقافى، و مرّه في ثوب المقاتلين المرتزقه.

لكن الهدف النهائى واحد و الماهيه واحده، فكل همهم التوسعه الاستعماريه و الظلم و الجور، و لو وقف المؤمنون حقا صفا بوجه هذه المحاولات كما وقف أصحاب بدر لأحبطوا جميع هذه المحاولات و لباءت بالفشل، و لجعلوا هذا الإنفاق وبالا و حسره على المستكبرين، و لساقوهم إلى جهنم و ساءت مصيرا.

٣- قال بعض المفسرين: إن هذه الآيه واحده من دلائل صدق دعوه النبى محمّد صلى الله عليه و آله و سلم، لأنها تخبر عن حوادث لم تكن وقعت بعد، و قد غلب بها أعداء الإسلام، و مع أن أولئك بذلوا أموالا طائله لانتصارهم!! و إذا لم نعتبر الآيه من الأخبار بالمغيبات التي تتعلق بالحوادث المقبله، فإنها على الأقل تكشف عن محتوى القرآن الدقيق في شأن المواجهه بين الحق و الباطل، كما أنها تكشف عن عظمه القرآن و التعاليم الإسلاميه.

و بعد أن تكلمت الآيه السابقه على ثلاث نتائج مشؤومه لإنفاق أعداء الإسلام، فإن الآيه التي تليها تقول: لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ .

هذه سنه إلهيه دائمه أن يعرف المخلص من غير المخلص، و الطاهر من غير

الطاهر، و المجاهد الصادق من الكاذب، و الأعمال الطيبه من الأعمال الخيئه، فلا يبقى أى من ذلك مجهولا أبدا، بل لا بدّ فى النهايه من أن تمتاز الصفوف بعضها عن بعض و يسفر الحق عن وجهه. و هذا الأمر يتحقق-طبعاً-عند ما يكون أتباع الحق- كأولئك المسلمين الأوائل يوم بدر-فى مستوى كاف من التضحيه و الوعى.

ثم تضيف الآيه وَ يَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ .

فالخبيث من أیه طائفه و فى أى شكل كان سيؤول فى النهايه إلى الخسران، كما تقول الآيه فى نهايه المطاف [□]أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

إشاره

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ
الَّذِينَ كُفُّوا لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ (٤٠)

التفسير

إشاره

من المعلوم فى أسلوب القرآن هو الجمع بين البشاره و النذاره، أى أنه كما ينذر أعداء الحق بالعقاب و العذاب، فإنه يفتح لهم فى الوقت نفسه طريق العوده أمامهم.

و الآيه الأولى: من الآيات محل البحث تتبع هذا الأسلوب ذاته، فتأمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم قائله: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ .

و يستفاد من الآيه المباركه أن قبول الإسلام يوجب محو كل سابقه و هو ما ورد فى الروايات على أنه أصل عام، كما فى عبارته «الإسلام يجب ما قبله» أو ما جاء عن أهل السنه فى تعبير آخر

عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن «الإسلام يهدم ما كان قبله،

و إن الهجره تهدم ما كان قبلها،و إن الحج يهدم ما كان قبله» (١) و المقصود من الحديث آنفا هو أن كل ما عمله الإنسان من سيئات و حتى تركه للفرائض و الواجبات قبل إسلامه فسوف يمحي عنه بقبوله للإسلام،و لا يكون قبوله للإسلام أثر رجعي لما سبق،لهذا ورد في كتب الفقه عدم وجوب قضاء ما فات من العبادات على من أسلم.

و تضيف الآيه قائله:إنهم إن لم يصححوا أسلوبهم و إن يعودوا فقد مضت سنت الأولين .

و المقصود من هذه السنه هو ما آل إليه أعداء الحق بعد ما واجهوا الأنبياء، و ما أصاب المشركين عند ما واجهوا النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم في معركة بدر.

فنحن نقرأ في سوره غافر،الآيه:(٥١): إنا لننصر رسلنا و الذين آمنوا في الحياه الدنيا و يوم يقوم الأشهاد .

و نقرأ في سوره الاسراء،الآيه(٧٧):بعد بيان سحق أعداء الإسلام قوله تعالى: سِنَّهُ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَ لَا تَجِدُ لِسِنَّتِنَا تَحْوِيلاً .

و لما كانت الآيه السابقه قد دعت الأعداء للعوده إلى الحق،و إن هذه الدعوه قد تولد هذه الفكره لدى المسلمين و هي أنه قد انتهت فتره الجهاد و لا بد بعد الآن من اللين و التساهل،ترفع هذه الشبهه الآيه التاليه و تقول: وَ قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ .

و كلمه«الفتنه»-كما بينها في تفسير الآيه(١٩٣)من سوره البقره-ذات معنى واسع تشمل كل أنواع الضغوط،فتاره يستعملها القرآن بمعنى عباده الأصنام و الشرك الذى يشمل كل أنواع التحجر و الجمود و اضطهاد أفراد المجتمع.

ص: ٤٢٥

١-١) صحيح مسلم وفقا لما نقله صاحب المنار في تفسيره، ج ٩، ص ٦٦٥.

و تطلق الفتنة أيضا على الضغوط التي يفرضها الأعداء، للوقوف بوجه اتساع دعوته الإسلام، ولإسكات صوت أهل الحق، بل حتى إرجاع المؤمنين نحو الكفر.

و في الآيه محل البحث فسر الفتنة بعضهم بمعنى الشرك، و فسّرها آخرون بأنها تعنى سعى الأعداء لسلب الحريات الفكرية و الاجتماعيّة من المسلمين.

و لكن الحقّ أنّ مفهومها واسع يشمل الشرك، بقربنه قوله: **وَ يَكُونُ الدِّينُ لِلَّهِ** و سائر ضغوط الأعداء على المسلمين.

الهدف من الجهاد و بشرى كريمه:

تشير الآيه آنفه الذكر إلى قسمين من أهداف الجهاد المقدسه و هما:

١- القضاء على عباده الأصنام و تطهير الأرض من معابدها و نحو ذلك و كما ذكرنا في بحثنا عن أهداف الجهاد فإنّ الحريّه الدينيه تتعلق بمن يتبع أحد الأديان السماويه فلا يجوز إكراه هؤلاء من أجل تغيير عقيدتهم، و لكن عباده الأصنام ليست دينا و لا فكرا، بل هي خرافه و جهل و انحراف، و على الحكومه الإسلاميه إزالتها و تطهير البلاد منها عن طريق الإعلام و التبليغ الإسلامى - أولا- و إذا لم يؤدّ ذلك إلى نتيجة فيجب اللجوء إلى القوه لتدمير معابد الأوثان.

٢- نيل الحريه في نشر الإسلام و التبليغ له، و في هذا القسم أجاز الإسلام استخدام القوه في مواجهه من يمنع المسلمين من نشر عقيدتهم لفتح الطريق بوجه الحوار المنطقي السليم.

و قد ورد في تفاسير أهل السنه كتفسير «روح البيان» للآلوسى، و تفاسير شيعيه أخرى،

عن الإمام الصادق عليه السلام «لم يجيء تأويل هذه الآيه، و لو قام قائمنا بعد، سيري من يدركه ما يكون من تأويل هذه الآيه، و ليبلغن دين محمد ما بلغ

الليل حتى لا يكون شرك على ظهر الأرض كما قال تعالى» (١).

و لقد أنكر صاحب تفسير المنار-لتعصبه-هذا الحديث الوارد فى شأن مسأله قيام المهدي عليه السلام، و ذلك لحكمه المسبق المخطئ فى هذه القضية، و العجيب أن له ميلا خاصا فى تفسيره إلى الفكر الوهابى، مع أن الوهابيين بالرغم من تعصّبهم يصرحون بأن ظهور الإمام المهدي عليه السلام من الأمور المسلّم بها، و يعتبرون الروايات فيه من المتواترات.

و سنورد الأدله و المصادر فى هذا الصدد فى ذيل الآيه (٣٣) من سوره التوبه، كما سنشير إلى النقطه الأساسيه فى خطأ هذا المفسر و الرد عليها، و لقد فصلنا الأمر فى كتابنا «المصلح العالمى الكبير».

و إذا كانت بعض الروايات المتعلقة بظهور المهدي غير صحيحه و فيها بعض الخرافات، فلا ينبغى أن يؤدى ذلك إلى الإعراض عن بقية الروايات الصحيحه و المتواتره! و أخيرا فإن الآيه فى نهايتها، و تزامنا مع الشده فى العمل، تمد يد المحبّه و الرأفه إلى الأعداء مرّه أخرى فتقول: فإن انتهوا فإن الله بما يعملون خبير و لكن إذا تمادوا فى عنادهم و طغيانهم و لم يستسلموا للحق، فاعملوا أن النصر حليفكم و الهزيمة من نصيب أعدائكم، لأنّ الله مولاكم و هو خير ناصر و معين:

وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَاَعْلَمُوْا أَنَّ اللّٰهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَ نِعَمَ النَّصِيرِ

ص: ٤٢٧

(١-١) راجع مجمع البيان، ذيل الآيه، و تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ١٥٥، تفاسير أخرى.

بدايه الجزء العاشر القرآن الكريم

ص: ٤٢٩

اشاره

وَإِغْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبَىٰ وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١)

التفسير

اشاره

الخمس فرض إسلامي مهم:

وجدنا في بدايه هذه السوره كيف أنّ بعض المسلمين تشاجروا في شأن تقسيم الغنائم بعد غزوه بدر، وقد أمر الله سبحانه-درءاً لأصول الخلاف-أن توضع الغنائم تحت تصرف النبي صلى الله عليه و آله و سلم لينفقها بما يراه صالحاً، فقام بتقسيمها بالتساوي بين المقاتلين المسلمين.

و في هذه الآيه عود إلى مسأله الغنائم، لتناسب الآيات التي سبقتها، و التي كانت تتكلم على الجهاد، إذ وجدنا في بعضها إشارات مختلفه لموضوع الجهاد، و لما كان الجهاد يرتبط بمسأله الغنائم غالباً، فكان في المقام تناسب بين الجهاد و بين ذكر أحكام الغنائم «بل سلاحظ أن القرآن تعدى في حكمه إلى أبعد من

مسأله الغنائم، و نظر إلى جميع الموارد».

يقول الحق سبحانه: وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبَىٰ (الأئمه من أهل البيت عليهم السلام) وَ التَّيَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ - من ذريه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أيضاً. وَ يَضِيفُ مُؤَكِّدًا إِنَّ كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ - أى يوم بدر - يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ .

وَ يَنْبَغِي الالْتِفَاتِ إِلَى أَنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْخَطَابَ فِي الْآيَةِ مَوْجَّهٌ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّهَا تَبْحَثُ فِي غَنَائِمِ الْجِهَادِ الْإِسْلَامِيِّ، وَ بَدِيهِي أَنَّ الْمَجَاهِدَ مُؤْمِنًا، لَكِنَّهَا مَعَ ذَلِكَ تَقُولُ: إِنَّ كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ فِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ ادْعَاءَ الْإِيمَانِ وَحْدَهُ لَا يَعَدُّ دَلِيلًا عَلَى الْإِيمَانِ، بَلْ حَتَّى الْمَشَارَكَةَ فِي سَوْحِ الْجِهَادِ قَدْ لَا تَكُونُ دَلِيلًا عَلَى الْإِيمَانِ، فَقَدْ تَكُونُ وَرَاءَ ذَلِكَ أُمُورٌ أُخْرَى. فَالْمُؤْمِنُ الْكَامِلُ هُوَ الَّذِي يَدْعُنُ لِأَوَامِرِ اللَّهِ كَافَةً وَ يَنْقَادُ لَهَا، وَ خَاصَّةً الْأَوَامِرِ وَ الْأَحْكَامِ الْمَالِيَةِ، وَ لَا يَأْخُذُ بِبَعْضٍ وَ يَتْرِكُ بَعْضًا، وَ تَشِيرُ الْآيَةُ فِي نَهَايَتِهَا إِلَى قَدْرِهِ اللَّهُ غَيْرَ الْمَحْدُودِ، فَتَقُولُ:

وَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

أى بالرغم من قلتكم يوم بدر و كثيره عدوكم فى الظاهر، لكن الله القادر خذلهم و أيدكم فانتصرتهم عليهم.

ملاحظات

إشارة

١- يوم الفرقان بين الحق و الباطل

سمى يوم معركة بدر بيوم الفرقان بين الحق و الباطل، و يوم الالتقاء بين جماعه الكفر و جماعه الإيمان، و فى ذلك إشارة إلى ما يلى:

أولاً: إن يوم بدر ظهرت فيه الأدلة على صدق النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ لِأَنَّهُ وَعَدَ الْمُسْلِمِينَ بِالنَّصْرِ قَبْلَ ذَلِكَ، مَعَ أَنَّ الْقِرَائِنَ فِي الظاهر لم تكن داله على ذلك، و لقد اتحدت

تلك الأسباب بشكل غير متوقع فكان النصر، وهو ما لا يمكن حمله على المصادفه و الاتفاق فبناء على ذلك فإن صدق الآيات التي نزلت على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في ذلك اليوم كان كامنا في الآيات نفسها.

ثانيا: إنَّ المعركة في بدر: «يوم التقى الجمعان» كانت في الواقع إحدى النعم الإلهية الكبرى على المسلمين، لا يَنَّ بعضهم كان يخشاها في البدايه، لكن تلك المواجهه و النصر دفعا بهم خطوات كبيره نحو الأمام، إذ بلغ صدهم و اشتهاهم بذلك أنحاء الجزيره العربيه، و دعا الجميع للتفكر في هذا الدين الجديد و قدرته المذهله و كان ذلك اليوم يوما شديدا على الأئمه الإسلاميه القليله آنشد، حيث امتاز به المؤمنون الصادقون عن المدعين الكاذبين، فكان ذلك اليوم بكل جوانبه يوم الفرقان بين الحق و الباطل.

[٢-عدم وجود تضاد بين آيه الأنفال و هذه الآيه]

٢- ذكرنا في بدايه السوره عدم وجود تضاد بين آيه الأنفال و هذه الآيه، و لا- موجب الإعتبار إحداهما ناسخه للأخرى، لأنه بمقتضى آيه الأنفال فإنَّ الغنائم الحربيه هي للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، إلاَّ أنه وهب أربعة أخماسها للمقاتلين المسلمين، و ادخر الخمس المتبقى للموارد التي ذكرتها الآيه «و لمزيد الإيضاح راجع بحثنا في تفسير الآيه الأولى من هذه السوره».

٣- ما هو المراد من ذى القربى؟

ليس المراد في هذه الآيه الأقرباء كلهم و لا أقرباء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ جميعا، بل هم الأئمه من أهل البيت عليهم السلام، و الدليل على هذا الأمر هو الروايات المتواتره التي وردت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن طرق أهل البيت (١) ، و توجد أدله أخرى على ذلك في كتب أهل السنه.

ص: ٤٣٣

فبناء على ذلك فإن من يرى أن سهما من الخمس يتعلق بكل أقرباء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يواجه هذا السؤال وهو: ما هذا امتياز الذي أولاه الإسلام لأقرباء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وقومه، مع أن الإسلام بعيد عن القبليه والقوميه والعرقيه؟! لكننا إذا خصصنا «بذى القربى» الأئمه من أهل البيت عليهم السلام مع ملاحظه أنهم خلفاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وقاده الحكومه الإسلاميه، يتضح السبب فى إعطائهم هذا السهم من الخمس.

و بعبارة أخرى: إنَّ السهام الثلاثة «سهم الله و سهم النبي و سهم ذى القربى» ترجع جميعها إلى قائد الحكومه الإسلاميه، فيصرف منها فى شؤون حياته البسيطة، وينفق الباقي منها فى ما يوجبه مقام القياده، أى أنه يصرفها فى الحقيقه فى حاجات الناس و المجتمع!.

و حيث أن بعض المفسيّرين من أهل السنه «كصاحب المنار» يرى أن ذا القربى هو جميع الأقارب، فقد تخبط فى الإجابة على السؤال آنف الذكر و ظلّ فى حيره من أمره، حتى جعل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أشبه بالملوك و السلاطين، فأوجب عليه أن يجذب قومه و قبيلته اليه بالأموال التى عنده! و من الواضح بطلان هذا المنطق، إذ يتنافى و منطق الحكومه العالميه الإنسانيه التى لا تعترف بالامتيازات القبليه «و سيأتى إيضاح هذا الموضوع بصورة أكثر فى البحوث المقبله، إن شاء الله».

٤- ما هو المراد من اليتامى و المساكين و ابن السبيل

إنَّ المقصود باليتامى و المساكين و ابن السبيل فى الآيه-هم هذه الطوائف الثلاث من بنى هاشم بالرغم من أن ظاهر الآيه مطلق غير مقيد، و دليلنا على التقييد هو الروايات الكثيره الوارده عن أهل البيت عليهم السلام، و نعلم بأن كثيرا من الأحكام المطلقه فى النصوص القرآنيه قيدتها السنه النبويه و جعلت لها شروطا

و هذا الأمر غير منحصر بالآيه محل البحث حتى تكون ماثرا للغرابه و التعجب.

أضف إلى ذلك أنّ الزكاه محرّمه على المحتاجين من بنى هاشم، فيلزم توفير مصدر آخر لهم، و هذه قرينه على أنّ الآيه تخصّ المحتاجين من بنى هاشم.

لذا نقرأ

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام قوله: «إنّ الله تعالى لما حرّم علينا الصدقه أنزل لنا الخمس، فالصدقه علينا حرام و الخمس لنا حلال» (١)

٥- هل الغنائم منحصره فى غنائم الحرب

إشاره

الموضوع المهم الآخر الذى يجب أن يبحث فى الآيه، و هو فى الحقيقه بمثابة العمده فيها، هو: هل لفظ الغنيمه المذكور فيها يطلق على الغنائم الحربيه فحسب، أو الموضوع أوسع من ذلك فيشمل كل زياده فى المال؟! ففى الصوره الأولى فإنّ الآيه تبيّن الخمس فى غنائم الحرب فحسب، و أمّا الخمس فى سائر الموارد فينبغى معرفته من السنه و الأخبار المتواتره و صحيح الزوايات، و لا مانع أن يشير القرآن إلى قسم من أحكام الخمس بما يناسب مسائل الجهاد، و أن تتناول السنه الشريفه بيان أقسامه الباقية.

فمثلا قد وردت الصلوات الخمس اليوميه صريحه فى القرآن، كما أشير إلى صلاه الطواف التى هى من الصلوات الواجبه أيضا، و لم ترد أيه إشاره فى القرآن إلى صلاه الآيات المتفق على وجوبها من قبل الفرق الإسلاميه من أهل السنه و الشيعه كافه، و لا نجد قائلا يقول بأنّه لا- يجب الإتيان بصلاه الآيات لأنّها لم تذكر فى القرآن أو أن القرآن أشار إلى بعض الأغسال و لم يذكر غيرها، فيجب ترك ما لم يشر إليه القرآن! فهذا المنطق لا يقره أى مسلم أبدا.

فبناء على ذلك، لا إشكال فى أن يبيّن القرآن قسما واحدا من أقسام

ص: ٤٣٥

الخمس فحسب، و يكلّ توضيح الباقي إلى السنّه، و في الفقه الإسلامى نظائر كثيره لهذه المسأله.

إلاّ أنّه مع هذه الحال ينبغي أن ننظر إلى معنى «الغنيمه» فى اللغه و العرف! فهل هى منحصره فى غنائم الحرب؟! أم تشمل كل أنواع الأرباح و الزياده فى المال؟! الذى يستفاد من كتب اللغه هو أنّ جذرها اللغوى لم يرد فى ما يؤخذ من العدو فى الحرب، بل تشمل كل أنواع الزياده المالىه و غيرها.

و نشير هنا إلى بعض كتب اللغه المشهوره التى يعتمد عليها علماء العرييه و أداؤها على سبيل المثال و الشاهد. إذ نقرأ فى كتاب «لسان العرب» الجزء الثانى عشر قوله «الغنم الفوز بالشىء من غير مشقّه، و الغنم و الغنيمه، و المنغم:

الفىء، و

فى الحديث: الرهن لمن رهنه له غنمه و عليه غرمه، غنمه زيادته و نماؤه و فاضل قيمته... و غنم الشىء غنما فاز به...».

و نقرأ فى الجزء التاسع من «تاج العروس»: «و الغنم: الفوز بالشىء بلا مشقّه».

و فى كتاب «القاموس» هذا المعنى نفسه للغنيمه أيضا.

و جاء فى كتاب «المفردات» للراغب أنّ أصل الغنيمه من الغنم، ثمّ يقول: ثمّ استعملوه فى كل مظفور به من العدى و غيره.

و حتى من ذكر أنّ معناها هو غنائم الحرب، لم ينكر أنّ معناها فى الأصل واسع و شامل لكل خير يقع بيد الإنسان بدون عناء و مشقّه.

و ترد الغنيمه فى العرف فى مقابل الغرامه، فكما أن معنى الغرامه واسع شامل لكل أنواع الغرامات، فإنّ معنى الغنيمه واسع شامل لكل أنواع الغنائم.

و قد وردت هذه الكلمه فى نهج البلاغه كثيرا بالمعنى المذكور نفسه، إذ نقرأ

فى الخطبه (٧٦) قوله عليه السّلام: «اغتنم المهل».

و

فى الخطبه (١٢٠) يقول عليه السّلام: «من أخذها لحق و غنم».

ص: ٤٣٦

و

يقول في كتابه (٥٣) إلى مالك الأشتر: «و لا تكوننّ عليهم سبعا ضاريا تغتتم أكلهم».

و

يقول في كتابه (٤٥) إلى عثمان بن حنيف: «فو الله ما كنزت من دنياكم تبرا و لا ادخرت من غنائمها و فرا».

و

يقول في بعض كلماته القصار برقم (٣٣١): «إنّ الله جعل الطاعه غنيمه الأكياس».

و

يقول في كتابه (٤١): «و اغتتم من استقرضك في حال غناك».

و نظير هذه التعبيرات و الكلمات التي تدل على عدم انحصار معنى الغنيمه في غنائم الحرب كثير.

و أما ما قاله المفسرون:

إنّ أكثر المفسرين الذين تناولوا هذه الآية بالبحث صرّحوا بأنّ للغنيمه معنى واسعاً في اللغه يشمل غنائم الحرب و غيرها ممّا يحصل عليه الإنسان من دون مشقّه، و حتى الذين قالوا بأنّها تختص بغنائم الحرب «لفتوى فقهاء السنه» يعترفون بأنّ معناها في اللغه غير مقيد، بل قيّده بدليل آخر.

«القرطبي» مفسّر أهل السنه المعروف، كتب في ذيل الآية: «إنّ الغنيمه في اللغه هو الخير الذي يناله الفرد أو الجماعه بالسعي و الجد» (١).

و ينبغي أن يعلم أن علماء أهل السنه متفقون على أنّ المراد من الغنيمه المذكوره في آيه و اَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ هِيَ الأموال التي يحصل عليها الناس بالقوّه في الحرب، و ينبغي ملاحظه أنّ هذا القيد غير وارد في اللغه، لكنّه ورد في العرف الشرعي.

ص: ٤٣٧

و يقول «الفخر الرازى» فى تفسيره: الغنم الفوز بالشىء يقول بعد هذا: إنَّ المعنى الشرعى للغنيمه فى اعتقاد فقهاء أهل السنه هو غنائم الحرب (١).

كما أنَّ «صاحب المنار» قد ذكرها بمعناها الواسع و لم يخصصها بغنائم الحرب، بالرغم من اعتقاده بلزوم تقييد المعنى الواسع بالقيد الشرعى، و تخصيص الآيه بغنائم الحرب (٢).

و قال «الآلوسى» فى تفسيره روح المعانى: «إنَّ الغنم فى الأصل معناه كل ربح و منفعه» (٣).

و قال صاحب «مجمع البيان» فى بدايه كلامه: إنَّ الغنيمه بمعنى غنائم الحرب، إلّا أنّه لما بين معنى الآيه قال: «قال أصحابنا: إنَّ الخمس واجب فى كل فائده تحصل للإنسان من المكاسب و أرباح التجارات، و فى الكنوز و المعادن و الفوضى، و غير ذلك ما هو مذكور فى الكتب، و يمكن أن يستدل على ذلك بهذه الآيه، فإنَّ فى عرف اللغه يطلق على جميع ذلك اسم الغنم و الغنيمه» (٤).

و العجيب أنَّ بعض المغرضين -و كأنَّهم مأمورون ببث السِّموم فى الأفكار- حرّفوا ما ذكره صاحب مجمع البيان فى كتاب ألفوه فى شأن الخمس، حيث ذكروا عبارته الأولى فى تفسير الغنيمه بأنَّ المراد منه غنائم الحرب، و لكنَّهم لم يشيروا إلى إيضاحاته حول عموميه المعنى اللغوى و معنى الآيه الذى أورده أخيراً، و قد كذبوا بما لفقوا على هذا المفسِّر الإسلامى الكبير، و كأنَّهم يتصورون أن كتاب مجمع البيان فى أيديهم و لن يقرأه غيرهم. و الأَعْجب من ذلك أنَّهم لم يرتكبوا هذه الخيانه الفكرية فحسب، بل تصرفوا فى كتب أخرى فأخذوا

ص: ٤٣٨

١-١) الفخر الرازى، ج ١٥، ص ١٦٤.

٢-٢) تفسير المنار، ج ١٠، ص ٧٠٣.

٣-٣) تفسير روح المعانى، ج ١٠، ص ٢.

٤-٤) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٥٤٣.

بما ينفعهم و تركوا ما يضرهم.

و فى تفسير «الميزان» ورد بصراحة-استنادا إلى علماء اللغة-أن الغنيمه هى كل فائده تستحصل عن طريق التجاره و الكسب أو الحرب، و مع أن سبب نزول الآيه هو غنائم الحرب، إلا أن ذلك لا يخصص مفهوم الآيه و عموميتها (1).

و نستنتج مما ذكرناه أنفا ما يلى:

إن آيه الغنائم ذات معنى واسع يشمل كل فائده و ربح، لأن معنى الغنيمه اللغوى عام و لا دليل على تخصيص الآيه.

و الشىء الوحيد الذى استند إليه جماعه من مفسرى أهل السنه، هو أن الآيات السابقه و الآيات اللاحقه لهذه الآيه تتعلق بالجهاد، و هذا الأمر يكون قرينه على أن آيه **أَتَمَّا غَنِمْتُمْ** تتعلق بغنائم الحرب.

فى حين أن أسباب النزول و سياق الآيات لا يخصص عموميه الآيه كما هو معلوم، و بعبارة أجلي: لا مانع من كون مفهوم الآيه ذا معنى عام، و أن يكون سبب نزولها هو غنائم الحرب فى الوقت ذاته، فهى من مصاديق هذا المفهوم أو الحكم.

و نظير هذه الأحكام كثير فى القرآن الكريم و السنه المطهره، بأن يكون حكمها عاما و مصداقها جزئيا «خاصا».

فمثلا فى الآيه (7) من سوره الحشر نقرأ قوله تعالى: **مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا** فهذه الآيه ذات حكم كلى فى وجوب الالتزام بأوامر النبى صلى الله عليه و آله و سلم مع أن سبب نزولها هو الأموال التى تقع بأيدي المسلمين من دون حرب، و يطلق على ذلك اصطلاحا «الفىء».

و كذلك نجد فى الآيه (233) من سوره البقره حكما كليا فى قوله: **لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** مع أنه يتعلق بالنساء المرضعات و الأمر موجه لآباء

ص: 439

الأطفال الرضع أن يعطوا المرضعات أجورهن حسب وسعهم. وكون الآية وارده في هذا الأمر الخاص لا يمنع من عموميه القانون الذي جاءت به و هو عدم التكليف.

الخلاصه، أنّ الآية محل البحث جاءت في سياق آيات الجهاد، إلا أنّها تقول:

«إنّ أيه فائده أو ربح تحصلون عليه-و منه غنائم الحرب-فعلّكم أن تعطوا خمسه».

و خاصّه أنّ «ما» الموصوله «و من شيء» لفظان عامان ليس فيهما قيد و لا شرط و هما يؤكّدان هذا الموضوع.

٦- ألا يعد تخصيص نصف الخمس لبنى هاشم تبعيضاً بين المسلمين!؟

إشاره

يتصوّر بعض أن هذه الضريبه الإسلاميه الشامله لخمس الكثير من الأموال، أي نسبه (عشرين المائه) حيث يعطى نصفها للساده من أبناء الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم، نوع من التمييز العنصرى أو ملاحظه العلاقات العائليه، و أنّ هذا الأمر لا ينسجم و روح العداله الاجتماعيه للإسلام و كونها شامله لجميع العالم.

الجواب:

إنّ هؤلاء لم يدر سوا ظروف هذا الحكم و خصوصياته بدقه كافيه، فالإجابه على هذا السؤال كامنه في تلك الخصوصيات.

و توضيح ذلك: أولاً: إن نصف الخمس المتعلق ببني هاشم إنّما يعطى للمحتاجين و الفقراء منهم فحسب، و لما يكفيهم لسنه واحده لا أكثر، فبناء على ذلك تصرف هذه الأموال على المقعدين عن العمل و المرضى و اليتامى من الصغار، أو من يكون في ضيق و حرج. لسبب من الأسباب و لهذا فإنّ القادرين على العمل «بالفعل أو بالقوه» و الذين بإمكانهم أن يديروا حياتهم المعاشيه، ليس

لهم بأى وجه أن يأخذوا شيئاً من الخمس.

أمّا ما يقوله بعض السواد بأنّ الساده يمكنهم أخذ الخمس حتى ولو كان ميزاب بيتهم من ذهب فهو كلام ساذج ولا أساس له أبداً.

ثانياً: إنّ المحتاجين والضعفاء من سادات بنى هاشم لا يحق لهم أخذ شيء من الزكاه، فلهذا جاز لهم أن يأخذوا من هذا القسم من الخمس فحسب. (١)

ثالثاً: إذا زاد القسم المختص لبنى هاشم عن احتياجاتهم فإنّه يرجع إلى بيت المال حتى ينفق فى مصارف أخرى، كما أنّه إذ نقص هذا السهم عن حاجتهم يدفع الباقي من بيت المال إليهم أو من سهم الزكاه.

و بملاحظه تلك النقاط الثلاث يتّضح لنا عدم وجود فرق فى الواقع - من الناحيه الماديه بين الساده وغيرهم.

فالمحتاجون من غيرهم يمكنهم سدّ حاجتهم من الزكاه و يحرمون من الخمس، و المحتاجون من الساده يسدّون حاجتهم من الخمس و يحرمون من الزكاه.

فيوجد فى الحقيقه صندوقان، هما صندوق الخمس و صندوق الزكاه، فيحق لكل من القسمين الأخذ من أحد الصندوقين و بصوره التساوى فيما بينهما، أى ما يحتاجه كلّ لعام واحد (فتأمل).

فالذين لم يمعنوا النظر فى هذه الشروط و الخصوصيات تصوّروا من بيت المال أكثر من غيرهم أو أنّهم يتمتعون بامتياز خاص.

و السؤال الوحيد الذى يطرح نفسه هنا هو: إذا قلنا بعدم الفرق بين الإثنين آخر الأمر، فما جدوى هذه الخطه إذا؟! و يمكن أن ندرك جواب هذا التساؤل بملاحظه شيء واحد، و هو أنّ بين

ص: ٤٤١

١ - ١) إنّ حرمه أخذ بنى هاشم الزكاه مسلم بها و قد وردت فى أكثر كتب الحديث و فتاوى العلماء و كتبهم الفقهيّه، فهل يعقل بأنّ الإسلام قد فكّر فى شأن الفقراء و المحتاجين من غير بنى هاشم و لم يعالج قضيه المحتاجين من بنى هاشم؟ فتركهم لحالهم.

الزكاة والخمس بونا شاسعا، إذ أنّ الزكاة من ضرائب الأموال العامّة للمجتمع الإسلامي فتصرف عموما في هذه الجهة، ولكن الخمس من ضرائب الحكومة الإسلامية فيصرف على القيادة والحكومة الإسلامية وتؤمن حاجتها منه.

فالتحرير على السادة من مدّ أيديهم للأموال العامّة، «الزكاة» كان في الحقيقة ليجتنبوا عن هذا المال باعتبارهم أقارب النبي، ولكيلا تكون ذريعه بيد الأعداء بأنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ سلط أقرباءه على الأموال العامّة.

إلاّ أنّه-من جانب آخر-ينبغي سدّ حاجه الضعفاء والفقراء من السادة، لذلك جعلت هذه الخطة لسدّ حاجتهم من ميزانية الحكومة الإسلامية لا من الميزانية العامّة ففي الحقيقة أنّ الخمس ليس امتيازاً لبني هاشم، بل هو لإبعادهم من أجل الصالح العام ولثلا ينبعث سوء الظن بهم (١).

والذي يسترعى النظر أنّ هذا الإمر أشارت إليه أحاديث الشيعة والسنة،

ففي حديث عن الإمام الصادق نقراً: «أنّ أناساً من بني هاشم أتوا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فسألوه أن يستعملهم على صدقات المواشي، وقالوا: يكون لنا هذا السهم الذي جعل الله عزّ وجلّ للعاملين عليها فنحن أولى به، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: يا بني عبد المطلب (هاشم) إن الصدقة لا تحل لي ولا لكم، ولكنني وعدت الشفاعة، إلى أن قال: «أ تروني مؤثراً عليكم غيركم» (٢).

ويدل هذا الحديث على أن بني هاشم كانوا يرون في ذلك الأمر حرماناً، وقد وعدهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يشفع لهم.

ونقرأ حديثاً في صحيح مسلم الذي يعد من أهم مصادر الحديث عند أهل السنة، خلاصته أنّ العباس وربيعة بن الحارث جاء إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وطلبا منه أن

ص: ٤٤٢

١ - ١) وإذا لاحظنا أنّ في بعض الروايات التعبير ب«كرامه لهم من أوساخ الناس» فهو ليقنع بني هاشم من هذه الحرمة من جانب، وليفهم الناس أن يؤدوا الزكاة إلى المحتاجين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

٢ - ٢) وسائل الشيعة، ج ٦، ص ١٨٦.

يأمر ابنيهما-و كانا فتيين و هما عبد المطلب بن ربيعه و الفضل بن العباس-بجمع الزكاه ليتمكننا أن يأخذا سهما منه شأنهما كشأن الآخرين،ليؤمنا لنفسيهما المال الكافي لزواجهما،فامتنع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ وَ أمر بسد حاجتهما عن طريق آخر و هو الخمس.

و يستفاد من هذا الحديث الذي يطول شرحه أنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ كان مصرّاً على أبعاد أقاربه عن الحصول على الزكاه التي هي من أموال عامّة الناس.

من مجموع ما قلناه يتّضح أنّ الخمس ليس امتيازاً للسّاده،بل هو نوع من الحرمان لحفظ المصالح العامّة...

٧- ما هو المراد من سهم الله؟

إنّ ذكر سهم على أنّه سهم الله،للتأكيد على أهميه مسأله الخمس و إثباتها، و لتأكيد ولايه الرّسول و القيادة الإسلاميه و حاكميه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ أيضاً.

أى كما أنّ الله جعل سهما باسمه و هو أحق بالتصرف فيه،فقد أعطى النبي و الإمام حق الولاية و التصرف فيه كذلك،إلا فإنّ سهم الله يجعل تحت تصرف النبي أو الإمام يصرفه في المكان المناسب،و ليس لله حاجه في سهم معين.

إشاره

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ لَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيْعَادِ لَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْنِهِ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْنِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَ لَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَسَّدْتَ لَهُمْ وَ لَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ لَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَ إِذْ يُرِيكُهُمْ وَهُمْ إِذِ التَّقَاتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤)

التفسير

إشاره

الأمر الذي لا بد منه:

يعود القرآن في هذه الآيات الكريمة-و لمناسبه الكلام في الآيات السابقة إلى يوم الفرقان يوم معركة بدر و انتصار المسلمين لمؤزر في ذلك الموقف الخطير-يعود ليعرب عن أجزاء من فصول تلك المعركة، ليطلع المسلمون على

أهميه ذلك النصر العظيم.

فتقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَى .

«العدوه» مأخوذه من «العدو» على زنه «السرو» ومعناها فى الأصل التجاوز، و لكنّها تطلق على أطراف كل شىء، و حواشيه، لأنها تتجاوز الحدّ الوسط إلى إحدى الجوانب، و جاءت هذه الكلمه فى هذه الآية بهذا المعنى أى «الطرف، و الجانب».

«و الدنيا» مأخوذه من الدنو، على وزن العلوّ و تعنى الأقرب، و يقابل هذا اللفظ الأقصى و القصوى.

و كان المسلمون فى الجانب الشمالى من ميدان الحرب الذى هو أقرب إلى جهه المدينه، و كان الأعداء فى الجانب الجنوبى و هو الأبعد.

و يحتمل أن يكون المعنى هو أن المسلمين لاضطرارهم كانوا فى القسم الأسفل فى الميدان، و كان الأعداء فى القسم الأعلى منه و هو يعدّ ميزه لهم.

ثمّ تعقب الآية قائله: وَ الرِّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ .

و كما رأينا من قبل فإنّ أبا سفيان حين علم بتحرّك المسلمين غير مسير قافلته إلى جهه أخرى على جانب البحر الأحمر حتى صار قريبا من مكّه، و لو أنّ المسلمين لم يضلّوا أثر القافله فلعلمهم كانوا يتبعونها، و لا يوفقون لمواجهه الأعداء و منازلتهم فى معركة بدر التى تحققت فيها النصر العظيم و الفتح المبين.

و بغض النظر عن كل ذلك فإنّ عدد قوات المسلمين و إمكاناتهم كان أقلّ من قوات الأعداء من جميع الوجوه، لهذا فإنّ الآية الكريمة تقول: وَ لَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيعَادِ .

لأنّ الكثير منكم سيدر كون ضعفهم الظاهرى قبال الأعداء فيتقاعسون عن قتالهم، و لكن الله جعلكم إزاء أمر مقدر، و كما تقول الآية: لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ

و ليعرف الحق من الباطل فى ظلال ذلك النصر غير المتوقع و المعجزه الباهره و لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنِهِ وَ يَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنِهِ .

و المراد من «الحياه» و «الهلكه» هنا هو الهدايه و الضلال، لأن يوم بدر الذى سَمَّى يوم الفرقان تجلَّى فيه الإمداد الإلهى لنصره المسلمين، و ثبت فيه أن لهؤلاء علاقه بالله و أن الحق معهم.

و تعقب الآيه قائله: وَ إِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ .

فقد سمع نداء استغاثاتكم، و كان مطلعاً على نياتكم، و لذلك أيدكم بنصره على أعدائكم.

إن القرائن تدلّ عن أنّ بعض المسلمين لو كانوا يعرفون حجم قوّه أعدائهم لامتنعوا عن مواجهتهم، مع أنّ طائفه أخرى من المسلمين كانوا مطيعين للنبي صلى الله عليه و آله و سلم فى مواجهه جميع الشدائد، لهذا فإنّ الله جعل الأمور تسير بشكل يلتقى فيه المسلمون- شاءوا أم أبوا- مع أعدائهم، فكانت المواجهه المصيريه.

و كان النبي صلى الله عليه و آله و سلم قد رأى فيه منامه من قبل أن قلّه المشركين تقاتل المسلمين، و كانت هذه الرؤيا إشاره إلى النصر و بشاره به، فقد رواه صلى الله عليه و آله و سلم للمسلمين فازدادت العزائم فى الزحف نحو معركة بدر.

و بالطبع فإنّ رؤيا النبي صلى الله عليه و آله و سلم، فى منامه كانت صحيحه، لأنّ قوّه الأعداء و عددهم بالرغم من كثرتهم الظاهريه، إلاّ أنّهم كانوا قلّه فى الباطن ضعفاء غير قادرين على مواجهه المسلمين، و نحن نعرف أنّ الرؤيا ذات تعبير و إشاره، و أنّ الرؤيا الصحيحه هى التى تكشف الوجه الباطنى للأمر.

و الآيه الثانيه: من الآيات محلّ البحث تشير إلى الحكمة من هذا الأمر، و النعمه التى أولاهها سبحانه و تعالى للمسلمين عن هذا الطريق، فتقول: إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَ لَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَ لَهَبَطَ مَعْنُوايَاتِكُمْ، و لم يقف الأمر

عند هذا الحد، بل لأذى ذلك إلى التنازع و اختلاف الكلمه وَ لَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ وَ أَنْقَذَ الْأَمْرَ بِوَأَسْطِهِ الرَّوْيَا الَّتِي أَظْهَرَتِ الْوَجْهَ الْبَاطِنِي لَجَيْشِ الْأَعْدَاءِ، وَ لِأَنَّ اللَّهَ يَعْرِفُ بَاطِنَكُمْ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

و تذكر الآيه الأخرى بمرحله من مراحل معركة بدر تختلف عن سابقتها، ففي هذه المرحلة و في ظل خطاب النبي المؤثر فيهم و البشائر الربانية، و رؤيه حوادث حال التهيؤ للقتال - كنزول المطر لرفع العطش و لتكون الرمال الرخوه صالحه لساحه المعركة - تجددت بذلك المعنويات و كبر الأمل بالنصر و قويت عزائم القلوب، حتى صاروا يرون الجيش المعادي و كأنه صغير ضعيف لا حول و لا قوه له، فتقول الآيه المباركه: وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَغْنِيكُمْ قَلِيلًا .

أمّا العدو فإنه لما كان يجهل معنويات المسلمين و ظروفهم، فكان ينظر إلى ظاهرهم فيراهم قليلا جدا، بل رآهم أقل مما هم عليه، إذ تقول الآيه في الصدود وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَغْنِيهِمْ .

حتى روى عن أبي جهل أنه قال: إنما أصحاب محمد أكله جزور، و في ذلك كناية عن منتهى القله. أو أنهم سيحسمون الأمر معهم في يوم واحد من الغداه حتى العشي، و قد جاء في الأخبار أنهم كانوا ينحرون كل يوم عشره من الإبل لطعامهم، لأن عدد جيش قريش كان حوالي ألف مقاتل.

و على كل حال: فقد كان تأثير هذين الأمرين كبيرا في نصر المسلمين، لأنهم من جهة رأوا جيش العدو قليلا فتزال كل خوف و رعب من نفوسهم، و من جهة أخرى ظهر عدد المسلمين قليلا - في عين العدو، كيلا - يترددوا في قتال المسلمين و ينصرفوا عن الحرب التي أدت في النهايه إلى هزيمتهم.

لهذا فإن الآيه تعقب على ما سبق قائلة: لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا .

فلم تنته هذه المعركة وحدها وفق سنه الله فحسب، بل إن إرادته نافذه في كل شيء و إلى الله تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

و فى الآيه (١٣) من سوره آل عمران إشاره إلى المرحله الثالثه من قتال يوم بدر، إذ تشير إلى أنّ الأعداء لما اشتعل أوار الحرب و رأوا الضربات الشديده لجيش الإسلام تنزل على رؤوسهم كالصواعق، أصابهم الذعر و الخوف الشديد، فأحسوا عندئذ و كأنّ جيش الإسلام قد ازداد عدده و تضاعف أضعاف ما كان عليه، فانهارت معنوياتهم و أدى هذا الأمر إلى هزيمتهم و تمزقهم.

و ممّا ذكرناه آنفا يتّضح أنّه لا يوجد أى تناقض، لا بين الآيات محل البحث، و لا بينها و بين الآيه (١٣) من سوره آل عمران، لأنّ كلّاً من هذه الآيات تبين مرحله من مراحل المعركه.

فالمرحله الأولى: هى ما قبل القتال، و هى ما ورد فيها عن رؤيا النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم فى منامه و رؤيته جيش المشركين قليلاً.

و المرحله الثانيه: هى نزولهم فى أرض بدر و معرفه بعض المسلمين بعدد الأعداء و عدده و خوف بعضهم و خشيته من قتالهم.

و المرحله الثالثه: هى حصول المواجهه المسلحه و ما أنعمه الله عليهم، و ما رأوه من مشاهد قلّت عدد أعدائهم فى أعينهم «فتأملوا بدقّه!».

إشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصِيَّدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧)

التفسير

إشاره

سته أوامر أخرى في شأن الجهاد:

قال المفسرون: إنَّ أبا سفيان بعد ما استطاع النجاه بقافله قريش التجاربه من مواجهه المسلمين، أرسل مبعوثا إلى قريش الذاهبين إلى ساحه بدر و دعاهم إلى العوده، لأنه رأى أن لا حاجه إلى القتال، لكن أبا جهل هذا المغرور و المتعصب و المتكبر أقسم أن لا يرجعوا حتى يبلغوا أرض بدر «و كانت بدر قبل هذه المعركه من مراكز اجتماع العرب، و تقام فيها سوق تجاربه كل عام» و يمكنوا فيها ثلاثه أيام، و ينحروا الإبل و يأكلون ما يشتهون و يشربون الخمر، و تغنى لهم المغنّيات، حتى يسمع جميع العرب بهم و تثبت بذلك قوتهم و قدرتهم!...

لكن أمرهم آل إلى الهزيمة فشرّبوا كؤوس المنيا المترعه بدلا من كؤوس الخمر، وجلست المغنيات ينحن على جنازتهم!! و الآيات محل البحث تشير إلى هذا الموضوع، وتنهى المسلمين عن مثل هذه الأعمال، وتضع لهم تعاليم جديدة في شأن الجهاد إضافه إلى ما سبق من هذه الأمور.

و بصوره عامله فإنّ في الآيات محل البحث سته أوامر للمسلمين هي:

١- أنّها تقول أولاد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا أَيُّ أَنْ إِحْدَى عِلَائِمِ الْإِيمَانِ هِيَ ثَبَاتُ الْقَدَمِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَ خَاصَّةً فِي مَوَاجِهَةِ الْأَعْدَاءِ.

٢- وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

و لا ريب أنّ المراد من ذكر الله هنا ليس هو الذكر اللفظي فحسب، بل حضور القلب، و ذكر علمه تعالى و قدرته غير المحدوده و رحمته الواسعه، فهذا التوجه إلى الله يقوّى من عزيمة الجنود المجاهدين، و يشعر الجندي بأنّ سندا قويا لا تستطيع أيه قدره في الوجود أن تتغلب عليه يدعّمه في ساحه القتال، و إذا قتل فسينال السعاده الكبرى و يبلغ الشهاده العظمى، و جوار رحمه الله، فذكر الله يبعث على الاطمئنان و القوّه و القدره و الثبات في نفسه.

بالإضافه إلى ذلك، فذكر الله و حبّه يخرجان حبّ الزوجه و المال، و الأولاد من قلبه، فإنّ التوجه إلى الله يزيل من القلب كل ما يضعفه و يزلزله، كما

يقول الإمام على بن الحسين زين العابدين عليه السّلام في دعائه المعروف- في الصحيفه السجديه- بدعاء أهل الثغور: «و أنسهم عند لقائهم العدوّ ذكر دنياهم الخدّاعه، و امح عن قلوبهم خطرات المال الفتون، و اجعل الجنّه نصب أعينهم».

٣- كما أنّ من أهم أسس المبارزه و المواجهه هو الالتفات للقيادة و إطاعه أوامر القائد و الأمر، الأمر الذي لولاه لما تحقق النصر في معركة بدر، لذلك فإنّ الآيه بعدها تقول: وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ .

٤- وَ لَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا لَأَنَّ النِّزَاعَ وَ الفِرْقَةَ اِمَامِ الْأَعْدَاءِ يُوْدِي إِلَى

الضعف و خور العزيمه، و نتيجة هذا الضعف و الفتور هي ذهاب هيبه المسلمين و قوتهم و عظمتهم و تَذَهَبَ رِيحُكُمْ .

«و الريح» في اللغه، هي الهواء. فالنزاع يولد الضعف و الوهن.

و أما ذهاب الريح، فهو إشاره لطيفه إلى زوال القوه و العظمه، و عدم سير الأمور كما يرام، و عدم تحقق المقصود، لأنّ حركه الريح فيما يرام توصل السفن إلى مقاصدها، و لما كانت الريح في ذلك العصر أهم قوه لتحريك السفن فقد كانت ذات أهميه قصوى يؤمئذ.

و حركه الريح في الروايات و البيارق تدل على ارتفاع الرّايه التي هي رمز القدره و الحكومه، و التعبير آنف الذكر كنايه لطيفه عن هذا المعنى.

٥- ثم تأمر الآيه بالاستقامه بوجه العدو، و في قبال الحوادث الصعبه، فتقول: وَ اضْبِرُّوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ .

و الفرق بين ثبات القدم في الأمر الأوّل، و الاستقامه و الصبر في الأمر الخامس، هو من جهه أن ثبات القدم يمثل الناحيه الظاهريه، «الجسميه» أما الاستقامه و الصبر فليسا ظاهريين، بل هما أمران نفسيان و معنويان.

٦- و تدعو الآيه الأخيره- من الآيات محل البحث- المسلمين إلى اجتناب الأعمال الساذجه البلهاء، و رفع الأصوات الفارغه، و تشير إلى قضيه أبي سفيان و أسلوب تفكيره هو و أصحابه، فتقول: وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَ رِثَاءَ النَّاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .

فأهدافهم غير مقدسه، و كذلك أساليبهم في الوصول إليها، و لقد رأينا كيف أبدووا و تلاشى كلّ ما جاءوا به من قوه و عدّه، و سقط بعضهم مخرجاً بدمائه في التراب، و أسبل الآخرون عليهم الدّموع و العبرات في مأتمهم، بدل أن يشربوا الخمر في حفل ابتهاجهم، و تختتم الآيه بالقول: وَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ .

اشاره

وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَنْ أَعْمَهُمُ اللَّهُمَّ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي لَجَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ
إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ
هُؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ
أَذْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَالَمِينَ (٥١)

التفسير

اشاره

المشركون و المنافقون و وساوس الشيطان:

مره أخرى نلاحظ في هذه الآيات تجسيد جانب آخر من معركة بدر بما يتناسب و الآيات السابقة في هذا الشأن، أو بما يتناسب و
الآية الأخيرة التي

تكلمت عن أعمال المشركين الشيطانيه فى يوم بدر.

فكما أنّ دعاه الحق مؤيدون بالله و ملائكه فى نهجهم الذى سلكوه، فإنّ أتباع الباطل و الضالين متأثرون بوساوس الشياطين و إغواءاتهم.

و قد مرّ فى بعض الآيات السابقه كيف أن الملائكه دافعت عن المقاتلين المسلمين فى بدر (و مرّ تفسير ذلك). فإنّ أول آيه من الآيات محل البحث تتكلم عن دفاع الشياطين عن المشركين، فتبدأ بالقول: وَ إِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ .

إنّ تزيين الشيطان للعمل يكون عن طريق تحريك الأهواء و الشهوات و الرذائل، فيتزين للإنسان عمله حتى ينظر إليه باعجاب و يعده عملا عقلائيا من جميع الجهات، و يراه منطقيا نبيلًا.

ثم تقول الآيه: وَ قَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جَارٌّ لَكُمْ .

و لن آلو جهدا فى الدفاع عنكم، كما يدافع الجار عن جاره و يظهر له وفاءه و إخلاصه، و ألازمكم ملازمه الظل للشاخص.

كما و يحتمل فى تفسير الجار هنا أنّه ليس المراد من الجار جار الدار، بل هو من يؤوى غيره و يؤمنه و يلجأ إليه، لأنّ من عاده العرب و خاصّه القبائل أو الطوائف القويّه منها أن تضمّن من يلجأ إليها من أصدقائها و أصحابها و تؤمنهم و تدافع عنهم بكل ما أوتيت من قوه.

فالشيطان يمنح أصحابه المشركين الأمان و ورقه اللجوء إليه.

ثم تقول الآيه: فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقَبَيْهِ وَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ .

و استدل على نكوصه و تراجعته الفهقرى بدليلين هما:

أولا قوله: إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ .

فإنه يرى آثار النصر جيدا فى وجوه المسلمين الغاضبه و يشاهد عليها

سمات اللطف الإلهي و الإمداد الغيبي و تأييد الملائكة لهم، فمن الطبيعي أن يتراجع عند ما يرى كل ذلك الدعم الرباني و القوى الغيبه.

و الثاني قوله: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ .

فإنّ الجزاء الإلهي ليس أمرا يسيرا يمكنه أن يقف بوجهه، بل إنّه هو العذاب الأليم و الله شديد العقاب .

هل جاء الشيطان عن طريق الوسوسة أو ظهر متجسدا لهم؟

جرى الكلام بين المفسرين حول مسأله نفوذ الشيطان إلى قلوب المشركين، و قوله لهم في ساحه معركة بدر، و كيفيه حصول ذلك، و تلخص جميع الآراء القديمه و الحديثه في عقيدتين:

١- يعتقد بعضهم أنّ هذا الأمر حصل على صورته و ساوس باطنيه، فقد زين لهم بوساوس أعمالهم في عيونهم و صور لهم أنّهم يملكون قوه لا تقهر، و أغراهم و صور لهم أنّه هو ملجؤهم، إلاّ أنّهم بعد قتالهم الشديد للمسلمين، و الحوادث الإعجازيه التي حققت النصر للمسلمين و محت الوسوس عن قلوبهم، أحسوا بالانكسار و أنّه لا ملجأ لهم أبدا سوى ما ينتظرهم من الجزاء الإلهي و العذاب الشديد.

٢- و يرى بعضهم الآخر أنّ الشيطان تجسد لهم في صورته الإنسان، ففي روايه أوردتها كتب الحديث كثيرا: إنّ قريشا عند ما قررت التحرك و المسير نحو بدر، كانت تخشى الهجوم من طائفه بنى كنانه لتشاجر كان بينها و بينهم، و عند ذاك جاءهم إبليس في صورته «سراقه بن مالك» الذي كان من رؤوس بنى كنانه و طمأنهم بأنهم يوافقونهم على هذا الأمر، و أنّهم سينتصرون، لكنّه تراجع لما رأى نزول الملائكة، و لاذ بالفرار و انهزم الجيش عند ما رأى ضربات المسلمين الشديده و انهزام إبليس.

وقالت قريش بعد عودتها لمكة: إنَّ سراقه السبب في انهزام الجيش، فوصل الخبر إلى سراقه فأقسم أنه لا علم له بذلك، و عند ما قصَّ عليه بعضهم ما كان منه في يوم بدر أنكر كل ذلك و أقسم أنه لم يخرج من مكة و لم يحصل من تلك الأمور شيء أبداً، فعلم أن ذلك لم يكن سراقه بن مالك (١).

و دليل الطائفة الأولى أن إبليس لا يستطيع أن يتمثل في سورة إنسان.

بينما ترى الطائفة الثانية عدم وجود دليل على استحاله هذا الأمر أبداً، و خاصه أنه نقل ما يشبه هذه القصة في هجره النبي صلى الله عليه و آله و سلم مجيء، رجل كبير على هيئة شيخ نجدى إلى دار الندوة، و إضافة إلى أن سياق الآية و ظاهر المحادثة يتلاءم مع تجسيد الشيطان.

و على أية حال، فإنَّ الآية تدل على أن الناس إذا ساروا في نهج الحق أو الباطل في الأمور و القضايا الجماعية، فإنَّ سلسله من الإمدادات و القوى الغيبية أو القوى الشيطانية ستتحرک معهم، و هي تظهر في مختلف الصور، فعلى السائرين في سبيل الحق و منهاج الله الحذر من هذا الأمر.

و تشير الآية بعدها إلى روحية جماعه ممن يميلون إلى الشرك في ساحه بدر، فتقول: إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ. حين تصوروا أنهم سينتصرون مع قلة العدد و العده، أو أنهم سينالون الشهاده و الحياه الابديه في هذا المسار.

لكن هؤلاء لعدم إيمانهم و عدم معرفتهم بالإمداد الإلهي أنكروا تلك الحقائق البينه، لأنه كما تقول الآية المباركه: وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

و قد اختلف المفسرون في المراد من المنافقين و الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ و لا يستبعد أن تكون العبارتان تشير ان إلى المنافقين في المدينة، لأنَّ

ص: ٤٥٥

١- ١) نقل باختصار عن مجمع البيان و نور الثقلين، و سائر التفاسير، ذيل الآية.

القرآن الكريم عند ما يتعرض لموضوع المنافقين في أول سورة البقره يقول: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا (١) فهؤلاء الذين ذكرتهم الآيه-محل البحث-إمّا أنهم من المنافقين الذين التحقوا بصفوف المسلمين من المدينة، وكانوا يظهرن الإسلام و الإيمان و لم يكونوا في حقيقتهم كذلك، أو أنهم من الذين تظاهروا بالإيمان في مكّه لكنهم لم يهاجروا إلى المدينة و انضموا في معركة بدر إلى صفوف المشركين، فلما رأوا قله المسلمين في معركة بدر قبال جيوش الكافرين قالوا: إن هؤلاء أصابهم الغرور في دينهم الجديد و جاءوا إلى هذه الساحة.

و على أيه حال فإنّ الله سبحانه يخبر عن ثبات هؤلاء الباطنيه، و يوضح الخطأ في تفكير هؤلاء و أمثالهم.

و تجسّد الآيه بعدها كيفيه موت الكفار و نهايه حياتهم، فتتوجه بالخطاب إلى النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم فتقول: وَ لَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبَارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ .

و مع أنّ الفعل «ترى» فعل مضارع، لكنّه مع وجود «لو» يدل على الماضي، فتكون الآيه إشاره إلى حاله المشركين السابقه و موتهم الأليم، و لهذا السبب يعتقد بعض المفسرين أنّ ذلك إشاره إلى قتل هؤلاء على أيدي الملائكه في بدر، و أوردوا في هذا الصدد بعض الروايات غير المؤكده. إلا أنّ القرائن- كما أشرنا سابقا- تدل على عدم تدخل الملائكه مباشره في الحرب أو المعركه، فبناء على هذا فإنّ الآيه محل البحث تتكلم عن ملائكه الموت و كيفيه قبض الأرواح و الجزاء الأليم الذي يمني به أعداء الحق في تلك اللحظه.

و عذابَ الْحَرِيقِ إشاره إلى جزاء يوم القيامة و عقابه، و قد جاء هذا التعبير

ص: ٤٥٦

فى آيات أأرى من القرآن كالأيه (٢٢) من سورة الحج، و الأيه (١٠) من سورة المعارج بالمعنى ذاته...

ثم يقال لأولئك: ذلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ .

و التعبير ب«أيديكم» إنما جاء لأن أكثر أعمال الإنسان يجريها بالاستعانه باليَد، و إلا فإن الآيه تشمل جميع الأعمال البدنيه و الروحيه.

و تضيف الآيه الأخيره معقبه بالقول: وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ .

و مصطلح «الظلام» صيغه مبالغه، و معناها شديد الظلم، و قد أوضحنا السبب فى اختيار هذه الكلمه و أمثالها فى بحوث حول الظلم فى المجلد الثالث من التفسير الأمثل فليراجع هناك.

ص: ٤٥٧

[سوره الأنفال (٨): الآيات ٥٢ الى ٥٤]

كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعَيَّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَ كُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤)

سنه الله تقبل التغيير و التبديل:

في هذه الآيات إشاره إلى «سنه إلهيه دائمه» تتعلق بالشعوب و الأمم و المجتمعات، لثلا يتصور بعض أن ما أصاب المشركين يوم بدر من عاقبه سيئه كان أمرا استثنائيا، فإن من جاء بمثل تلك الأعمال في السابق، أو سيقوم بها مستقبلا سينال العاقبه ذاتها.

فتقول الآيه الأولى من الآيات محل البحث: كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

فبناء على هذه فإن قريشا و المشركين و عبده الأصنام فى مكه،الذين أنكروا آيات الله و تعنتوا بوجه الحق و حاربوا قاده الإنسانيه،ليسوا وحدهم الذين نالوا جزاء ما اقترفوه،بل أن ذلك قانون دائم،و سنه إلهيه تشمل من هم أقوى منهم-كآل فرعون- كما تشمل الشعوب الضعيفه كذلك،ثم توضح الآيه التاليه أصل هذا الموضوع فتقول: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ .

و بعباره أخرى:إن الرحمه الربانيه عامه تسع جميع الخلق،لكنها تبلغ الناس و تصل إليهم بما يناسب كفاءتهم و شأنهم،فإن الله سبحانه يغدق مبتدئا بنعمه الماديّه و المعنويّه على جميع الأمم،فإذا استفادوا من تلك النعم فى السير نحو الكمال و الاستمداد منها فى سبيل الحق تعالى و الشكر على نعمائه،بالإفاده منها إفاده صحيحه،فإن الله سبحانه سيثبت نعماءه و يزيدها.أما إذا استغلت تلك المواهب فى سبيل الطغيان و الانحراف و العنصرية،و كفران النعمه و الغرور و الفساد،فإن الله سيسلبهم تلك النعم أو يبدلها إلى بلاء و مصيبه،بناء على ذلك فإن التغيير يكون من قبلنا دائما،و إلا فإن النعماء الإلهيه لا تزول!...

و تعقيبا على هذا الهدف يعود القرآن ليشير إلى حال الطغاه-كفرعون و أقوام آخرين-فيقول: كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ اعْرِفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَ كُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ظلموا أنفسهم و ظلموا سواهم أيضا.

الجواب على سؤال:

قد يرد هنا سؤال و هو: لم تكررت عباره كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ اعْرِفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ فى الآى بفاصله قليله مرّتين،و مع اختلاف سير فى التعبير؟! و للإجابه على هذا التساؤل ينبغى الالتفات إلى لطيفه،و هى أنه بالرغم من

أنّ التكرار أو التأكيد على المسائل الحساسه من أصول البلاغه، و يلاحظ في أقوال البلغاء، و الفصحاء، لكنّ في الآيات-آنفه الذكر-فرقا مهما يخرج تلك العبارة عن صورته التكرار. و هو أنّ الآيه الأولى تشير إلى الجزء الإلهي في مقابل إنكار آيات الحق و التكذيب بها، ثمّ تمثل حال هؤلاء بقوم فرعون و الأقوام السابقين.

إلا أنّ الآيه الثانيه تشير إلى تبدل النعم في الدنيا و ذهاب المواهب الرّبانيه، مثل الانتصارات و الأمن و القدرات و ما يفتخر به. ثمّ مثلت الآيه بحال فرعون و الأقوام السابقين.

ففي الحقيقه أنّ جانبا من الكلام كان عن سلب النعم و ما ينتج عن ذلك من الجزاء، و يقع الكلام في جانب آخر منه على تبدل النعم و تحوّله.

ملاحظات

إشاره

١- أسباب حياه الشعوب و موتها

يعرض التأريخ لنا شعوبا و أممًا كثيره، فطائفه اجتازت سلّم الرقي بسرعه، و وصلت طائفه ثانيه إلى أسفل مراحل الانحطاط، و طائفه ثالثه عاشت يوما في تشمت و ضياع و تناحر و تفرقه، ثمّ قويت في يوم آخر، و طائفه رابعه على العكس منها إذ سقطت من أعلى مراتب الفخر إلى قعر و ديان الذله و الضياع.

و الكثير من الناس يمرّون مرور الكرام على حوادث التأريخ المختلفه دون أي تفكر فيها، و الكثير منهم بدلا من البحث في العلل أو الأسباب الواقعيه لحياه الشعوب و موتها يرجعون ذلك إلى أسباب وهميه و خياليه.

و يرجعوا آخرون إلى حركه الأفلاك و دورانها إيجابا و سلبا.

و أخيرا فإنّ بعضهم لجأ إلى مسأله القضاء و القدر بمفهومها المحرّف، أو إلى

مسائل حسن الطالع و الحظ و عدمهما، و ما شابه ذلك، فيرجعون كل الحوادث الحسنه أو المرّه إلى هذه الأمور. و كل ذلك بسبب الخوف من الأسباب الحقيقيه لتلك الأمور.

و القرآن الكريم فى الآيات المتقدمه يضع أصعب التحقيق على الأصل و المنبع، و يبين أنواع العلاج و أسباب النصر و الهزيمه فيقول: لأجل معرفه الأسباب الأصليه لا- يلزم البحث عنها فى السماوات و لا فى الأرضين، و لا وراء الأوهام و الخيال، بل ينبغى البحث عنها فى وجودكم و فكركم و أرواحكم و أخلاقكم، و فى نظمكم و الاجتماعيه، فإنّ كل ذلك كامن فيها.

فالشعوب التى فكّرت ملياً و حركت عقولها و وحدّت جموعها و تأخت فيما بينها، و كانت قويه العزم و الإراده، و قامت بالتضحيه و الفداء عند لزوم ذلك، هذه الشعوب منتصره حتماً.

أمّا إذا حلّ الضعف و التخاذل و الركود مكان العمل و السعى الحثيث، و حلّ التراجع مكان الجراه و النفاق و التفرقه مكان الاتحاد، و حبّ النفس مكان الفداء، و حلّ التظاهر و الرياء محلّ الإخلاص و الإيمان، فيبدأ عند ذلك السقوط و البلاء.

و فى الحقيقيه أنّ جملة: **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعَيَّرًا بِعَمَلِ غُلَامٍ ؕ إِنَّمَا أَعْتَمَدْنَا عَلَىٰ قَوْمٍ لَّا يَشْكُرُونَ ۖ** بِأَنْفُسِهِمْ تَبَيَّنَ أسمى قانون فى حياه الإنسانيه، و توضح أنّ مدرسه القرآن الكريم هى أكرم مدرسه فكريه لحياه المجتمعات الإنسانيه، و أوضحتها حتى لأولئك الذين نسوا فى عصر الفضاء و الذره قيمه الإنسان، و جعلوا حركه التأريخ مرتبطه بالمصانع و المعامل و قضايا الإقتصاد.

فهى تقول لهؤلاء: إنكم فى خطأ كبير إذا أخذتم بالمعلول و تركتم العله الأصليه أو نسيتموها، و تمسكتم بغصن واحد من شجره كبيره و تركتم أصولها.

و لثلا نمضى بعيداً، فإنّ تأريخ الإسلام، أو تأريخ حياه المسلمين-بتعبير أصح- قد شهد انتصارات باهره فى بداياته، و انكسارات و هزائم مرّه صعبه

بعدها.

ففى القرون الأولى كان الإسلام يتقدم فى العالم بسرعه، وبيت فى كل مكان منه أنوار العلم و الحرّيه، و يبسط ظلاله على أقوام جدد بالثقافه و العلوم، فكان ذا قدره متحركه و محركه و بناءه معاً، و جاء بمدينه زاهره لم يشهد التاريخ مثلها، و لم تمر بضعه قرون حتى أخذ الخمول يعطل تلك الحركه، و أخذت الفرقه و التشتت و الضعف و الخور و التخلف مكان ذلك الرقى، حتى بدأ المسلمون يمدون أيديهم إلى الآخرين طلباً لوسائل الحياه الابتدائيه، و يبعثون بأبنائهم إلى ديار الأجانب لأخذ الثقافه و العلم، بينما كانت جامعات المسلمين يومئذ من أرقى جامعات العالم العلميه و المراكز التى تهوى إليها أفئده الأصدقاء و الأعداء ابتغاء المعرفه.

لكن الأمور بلغت حدا بحيث أنهم لم يصدرُوا علماً و صناعه، بل استوردوا ما يحتاجونه من خارج بلدانهم.

و أرض فلسطين التى كانت يوماً مركز مجد المسلمين و عظمتهم و لم يتمكن الصليبيون -لمدّه مائتى عام- برغم تقديمهم ملايين القتلى و الجرحى من ابتزازها من أيدي المقاتلين المسلمين. إلا أنهم أسلموها «اليوم» خلال ستة أيام ببساطه، فى وقت كان عليهم أن يعقدوا المؤتمرات أشهراً و سنين لإرجاع شبر منها. و لا يعرف بعد هذا إلى أيه نتیجه سيصلون؟ ألم يعد الله عباده بالقول: وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١) أو قوله: وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢).

أو قوله: وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (٣).

ص: ٤٤٢

١- (١) الروم، ٤٧.

٢- (٢) المنافقون، ٨.

٣- (٣) الأنبياء، ١٠٥.

فهل الله عاجز-و العياذ بالله-من تحقيق و عوده؟!أو قد نسيها!أو غيرها؟ و إذا لم يكن كذلك،فلم ذهب كل ذلك المجد و العظمه و العزّه؟ إنّ القرآن الكريم يجب-في آيه قصيره-على كل تلك التساؤلات،و يدعو إلى العوده إلى أعماق الوجدان،و النظر في ثنايا المجتمع،فسترون أن التغيير يبدأ من أنفسكم،و أنّ الألفاف و الرحمه الإلهيه تعم الجميع،فأنتم الذين أذهبتم قدراتكم و طاقاتكم هدرافصرتم إلى هذا الحال.

و لا تتكلم الآيه عن الماضي فحسب ليقال:إنّ ما مضى قد مضى بما فيه من مراره و حلاوه،و انتهى و لن يعود،و الكلام عنه غير مجد و غير نافع.بل تتكلم الآيه عن الحاضر و المستقبل أيضا،فإنّكم إذا عدتم إلى الله و أحكمتم أسس إيمانكم،و وعت عقولكم،و ذكرتم عهدكم و مسئولياتكم،و تصافحت الأيدي بعضها مع بعض و تعالت الصرخات المدويه للنهضة،و بدأتم بالجهاد و الفداء و السعى و العمل على كل صعيد،فسوف تعود المياه إلى مجاريها،و ستنقضى الأيام السود و ترون أفقا مشرقا و ضاء،و ستعود أمجادكم العظيمه،في صوره أجلى و أكبر! تعالوا لتبديل أحوالكم،و ليكتب علماؤكم،و يجاهد مقاتلوكم،و يسعى التجار و العمال،و يقرأ شبابكم أكثر فأكثر و يطهروا أنفسهم و تزداد معارفهم، ليتحرك دم جديد في عروق مجتمعكم فتتجلى قدراتكم بشكل يعيد له أعداؤكم الأرض المحتله التي لم يعد منه شبر واحد بالرغم من كل أنواع التذلل و الرجاء و الاستعطاف!!....

و من الضروري أن نذكر هذه اللطيفه،و هي أنّ القيادة ذات تأثير مهم في مصير الشعوب،و لا ننسى أن الشعوب الواعيه تختار لنفسها القيادة الحكيمه اللائقه،أمّا القاده الضعاف أو المتكبرون أو الظالمون فيسحقهم غضب الشعوب و إرادتهم القويه،و لا ينبغي أن ننسى أنّ ما وراء الأسباب و العوامل الظاهريه

سلسله من الإمدادات الغيبية تنتظر المؤمنين و المخلصين، لكنّها لا ينالها كل أحد جزافاً، بل لا بدّ من الاستعداد و الجداره! و نختم هذا الموضوع بذكر روايتين.

الأولى: ما

ورد عن الإمام الصادق في هذا الشأن إذ قال عليه السّلام «ما أنعم الله على عبد بنعمه فسلبها إياه حتى يذنب ذنبا يستحق بذلك السلب» (١).

و الثانيه: ما نقرؤه

في حديث آخر له عليه السّلام: «إنّ الله عزّ و جلّ بعث نبيا من أنبيائه إلى قومه و أوحى إليه أن قل لقومك: إنّه ليس من أهل قريه و لا ناس كانوا على طاعتي فأصابهم فيها سراء، فتحولوا عمّا أحبّ إلى ما أكره إلاّ تحولت لهم عمّا يحبّون إلى ما يكرهون. و ليس من أهل قريه و لا- أهل بيت كانوا على معصيتي فأصابهم فيها ضراء فتحولوا عمّا أكره إلى ما أحبّ إلاّ تحولت لهم عمّا يكرهون إلى ما يحبّون».

و الحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجه.

٢- لا جبر في العقابه و لا جبر في التأريخ، و لا في سائر الأمور...

و الموضوع المهم الآخر الذي يستفاد من هذه الآيات بوضوح، هو أنّه ليس للإنسان مصير خاص قد تعين من قبل، و لا يقع تحت تأثير ما يسمى ب«جبر التأريخ» و«جبر الزمان» بل إنّ الذي يصنع التأريخ و حياه الإنسان، و يجعل التحوّلات في الأسلوب و الأخلاق و الأفكار و غيرها، و هو إرادته الإنسان نفسه! فبناء على ذلك فالذين يعتقدون بالقضاء و القدر الجبري، و يقولون: إنّ الأمور و الحوادث جميعها تجرى بمشيئه الله الإجباريه، تردّهم هذه الآيه.

و كذلك الجبر المادى الذي يجعل من الإنسان ألعوبه بيد الغرائز التي لا تتغير

ص: ٤٤٤

و أصول الوارثه.

أو جبر المحيط بحيث يرون أنه تتحكم فيه الأوضاع الاقتصادية و المعامل و المصانع.

فكل ما تقدم من «الجبر» ترفضه المدرسه الإسلاميه، و يرفضه القرآن، فالإنسان حرّ و هو الذى يقرر مصيره بنفسه.

إنّ الإنسان-بملاحظه ما قرأناه فى الآيات من قانون-يمسك بزمام مصيره و تأريخه بنفسه، فيصنع لها الفخر و النصر، و هو الذى يسوق نفسه إلى الابتلاء و المذلّه، فداؤه منه و دواؤه بيده، فإذا لم يغير نفسه و لم يسع فى بناء شخصيته لن يكون له دور فى صياغه مصيره و شأنه.

ص: ٤٦٥

إشاره

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَمَا تَتَّقِنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرُّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩)

التفسير

إشاره

مواجهه من ينقض العهد بشده!

في هذه الآيات المباركه إشاره إلى طائفه أخرى من أعداء الإسلام الذين وجهوا ضربات مؤلمه للمسلمين في حياه النبي صلى الله عليه وآله وسلم المليئه بالأحداث، إلا أنهم ذاقوا جزاء ما اقترفوه مرًا و كانت عاقبه أمرهم خسرا. و هؤلاء هم يهود المدينه الذين عاهدوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عدّه مرات.

و هذه الآيات تبين الأسلوب الشديد الذى ينبغى أن يتخذه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بحقهم، الأسلوب الذى فيه عبره للآخرين، كما فيه درء لخطر هذه الطائفه.

و تبدأ الآيات فتعرف هذه الطائفة بأنها شر الأحياء الموجوده فى هذه الدنيا فتقول: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

و لعل التعبير ب الَّذِينَ كَفَرُوا يشير إلى أنّ كثيرا من يهود المدينة كانوا يعلنون حبهم للنبي و إيمانهم به قبل أن يظهر صلى الله عليه و آله و سلم وفقا لما وجدوه مكتوبا عنه فى كتبهم، حتى أنهم كانوا يدعون الناس و يمهدون الأمور لظهوره. و لكنهم و بعد أن ظهر وجدوا أنّ مصالحهم الماديه مهدده بالخطر، فكفروا به و أظهروا عنادا شديدا فى هذا الأمر حتى لم تبق بارقه أمل بإيمانهم، و كما يقول القرآن الكريم: فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

و تقول الآيه الأخرى: الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ (١). و المغروض أن يراعوا الحياد على الأقل فلا يكونوا بصدد الإضرار بالمسلمين و إعانه الأعداء عليهم.

فلا هم يخافون الله تعالى، و لا يحذرون من مخالفه أوامره، و لا يراعون القواعد و الأصول الانسانيه: وَ هُمْ لَا يَتَّقُونَ .

و التعبير ب«ينقضون» و«لا يتقون» و هما فعلا مضاارعان، هذا التعبير بهما يدل على الاستمرار، كما أنه يدل على أنهم قد نقضوا عهودهم مرارا. (٢).

و الآيه بعدها توضح كيفيه أسلوب مواجهه هؤلاء فتقول: فَإِذَا تَثَقَّفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ أَى قَاتَلَهُمْ بشكل مد مر بحيث أن الطوائف القابعه خلفهم لإمدادهم يعتبروا بذلك و يتفرقوا عنهم.

و كلمه «تثقفنهم» مأخوذه من ماده «الثقف» على زنه «السقف» بمعنى بلوغ

ص: ٤٦٧

١- ١) «من» فى جمله «عاهدت منهم» إما للتبعيض فتعنى أنك عاهدت سادتهم أو البارزين من يهود المدينة، أو أنها للصله فتكون معناها عاهدتهم... كما يرد هذا الاحتمال و هو أن معنى «عاهدت منهم» هو أخذت العهد منهم.

٢- ٢) بالإضافة إلى ما ذكرنا فى المتن فهناك قرينه لفظيه تدل على هذا المعنى أيضا و هى «فى كل مره»...

الشيء بدقه و سرعه، و هى إشاره إلى وجوب التنبه و الاطلاع السريع و الدقيق على قراراتهم، و الاستعداد لإنزال ضربه قاصمه لها وقع الصاعقه عليهم قبل أن يفاجئوك بالهجوم.

و كلمه «شَرَدَ» مأخوذه من ماده «التشريد» و هى بمعنى التفريق المقرون بالاضطراب فينبغى أن يكون الهجوم عليهم بشكل تتفرق معه المجموعات الأخرى من الأعداء و ناقضى العهود، و لا يفكروا بالهجوم عليكم.

و هذا الأمر إنما صدر ليعتبر به الأعداء الآخرون، بل حتى الأعداء فى المستقبل أيضا و يتجنبوا الحرب مع المسلمين، و ليتجنب نقض العهد - كذلك - الذين لهم عهود مع المسلمين، أو الذين سيعاهدونهم مستقبلا لَعَلَّهُمْ يَدَّكَّرُونَ .

وَ إِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ

و لا تبدأهم بالهجوم قبل إبلاغهم بإلغاء العهد إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ .

و بالرغم من أن الآيه قد منحت النبى صلاحيه نقض العهد إذا أحس بخيانتهم أو نقضهم عهودهم، إلا أن من الواضح أن الخوف من نقضهم العهد لا - يكون جزافا و دون سبب بل عند ما يرتكبون ما يدل على تفكيرهم بالنقض و يتفقون مع العدو على الهجوم، فهذا القدر من القرائن و الأمارات يجيز للنبى صلى الله عليه و آله و سلم أن يبلغهم إلغاء العهد.

و جمله «فانبد إليهم» من «الإنباد» و هى بمعنى «الإلقاء» أو «الإعلام» و «الرد» أى: ردّ عليهم عهودهم و أعلن عن إلغائها جهرا.

و التعبير ب«على سواء» إمّا بمعنى أنه كما أنهم نقضوا العهد بأعمالهم التى اقترفوها، فألغى أنت من جهتك أيضا، فهذا حكم عادل، يتساوى و ما فعلوه. أو بمعنى الإعلان عن ذلك بأسلوب واضح صريح لا لبس فيه و لا خدعه.

و على كل حال، فإن الآيه - محل البحث - فى الوقت الذى تنذر فيه

المسلمين من نقض العهد، وتحذرهم أن يكونوا هدفا و غرضا لهجوم العدو، فهي تدعوهم إلى رعايه مبادئ الإنسانيه في حفظ العهود أو إلغائها.

و في آخر آيه-من الآيات محل البحث-يوجه تعالى الخطاب إلى ناقضى العهد، فيحذرهم من عاقبه ذلك فيقول: [□] وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ .

ص: ٤٦٩

إشارة

وَاعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَعْتَضْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ وَعَدُوا اللَّهَ وَعَدُواكُمْ وَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ كَذِبًا
مَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَالْأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِائَةَ أَلْفٍ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤)

التفسير

إشارة

المزيد من التعبئه العسكريه و الهدف منها:

تشير أول آية هنا-لتناسب الكلام في الآيات المتقدمه عن الجهاد-إلى أصل مهم يجب على المسلمين التمسك به في كل عصر و مصر، وهو لزوم

الاستعداد العسكرى لمواجهة الأعداء، فتقول: وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ .

أى لا- تنتظروا حتى يهجم العدو فتستعدوا عندئذ لمواجهة، بل يجب أن تكون لديكم قدره و الاستعداد اللازم لمواجهة هجمات الأعداء المحتمله.

و تضيف الآية قائله: وَ مِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ .

«الرباط» بمعنى شدّ الشىء، و يرد هذا الاستعمال كثيرا بمعنى ربط الحيوان فى مكان ما لرعايته و المحافظه عليه، و قد جاء هذا اللفظ هنا بما يناسب ذلك بمعنى الحفظ و المراقبه بصوره عامه.

و«المرباطه» تعنى حفظ الحدود، و تأتى كذلك بمعنى الرقابه على شىء آخر، و يطلق على مكان شدّ وثاق الحيوان ب«الرباط» و لذلك سمّت العرب أماكن نزول المجاهدين رباطا أيضا.

ملاحظات

إشاره

١- فى الجملة القصيره-آنفه الذكر-بيان لأصل مهم فى الجهاد و حفظ وجود المسلمين و ما لديهم من مجد و عظمه و فخر، و التعبير فى الآية واسع إلى درجه أنه ينطبق على كل عصر مصر تماما.

و كلمه «قوه» و إن قصرت لفظا، إلا- أنها ذات معنى وسيع و مغزى عميق، فهى لا تختص بأجهزه الحرب و الأسلحه الحديثه لكل عصر فحسب، بل تتسع لتشمل كل أنواع القوى و القدرات التى يكون لها أثرا ما فى الإنتصار على الأعداء، سواء من الناحيه الماديه أو الناحيه المعنويه.

فالذين يرون أنّ السبيل الوحيد للانتصار على الأعداء هو كميه السلاح، هم على خطأ كبير، لأننا شاهدنا فى عصرنا الحاضر شعوبا قليله العدد و أسلحتها غير

متطوره انتصرت على شعوب أقوى و ذات أسلحه حديثه متطوره، كما حصل للشعب الجزائري المسلم فى مواجهه الدوله الفرنسيه القويه! فبناء على ذلك، و مضافا إلى ضروره تحصيل الاسلحه المتطوره فى كل زمان بعنوان وظيفه إسلاميه حتميه-تجب تقويه عزائم الجنود و معنوياتهم للحصول على قوه أكبر و أهم.

و لا ينبغى الغفله عن بقيه القوى و القدرات الاقتصاديه و الثقافيه و السياسيه، و التى تندرج تحت عنوان «القوه» و لها تأثير بالغ على الأعداء.

و ممّا يسترعى النظر أنّ الروايات الإسلاميه ذكرت لنا تفاسير مختلفه فى شأن «القوه» و معناها، و ذلك يكشف عن مفهومها الواسع، ففى بعض الروايات نجد أنّ النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم بين أنّ المراد من القوه هو «التّبل» (١).

و نقرأ فى روايه أخرى-وردت فى تفسير على بن إبراهيم-أن المقصود من القوه هو كل أنواع السلاح (٢).

كما نقرأ فى تفسير العياشى أنّ المراد منه السيف و الدرع (٣).

و نجد روايه أخرى فى كتاب من لا يحضره الفقيه تقول: «منه الخضاب بالسواد» (٤).

فترى أنّ الإسلام قد أولى لون شعر المقاتلين من كبار السن اهتماما ليستعملوا الخضاب، فيراهم العدو فى عمر الشباب فيصاب بالرعب منهم، و يكشف هذا الأمر عن مدى سعه مفهوم القوه.

و بناء على ذلك، فمن فسّر القوه بمصداق واحد محدود قد جانب الصواب

ص: ٤٧٢

١-١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ١٦٤-١٦٥.

٢-٢) المصدر السابق.

٣-٣) المصدر السابق.

٤-٤) المصدر السابق.

و لكن مع الأسف، فإنّ المسلمين على الرغم ممّا لديهم من مثل هذا التعليم الصريح، لا نجد فيهم أثرا لتقويه العزائم و المعنويات بين صفوفهم، كأنّهم قد نسوا كل شيء. و لا هم يستغلون قواهم الاقتصاديه و الثقافيه و العسكريه و السياسيه لمواجهه عدوّهم.

و الأعجب من ذلك أنّنا مع إهمالنا هذا الأمر العظيم و تركه وراء ظهورنا نزعم أنّنا ما زلنا مسلمين!! و نلقى تبعه تأخرنا و انحطاطنا على رقبه الإسلام، و نقول: إذا كان الإسلام داعيه ترقّ و تقدم، فلم نحن المسلمون في تأخر و تخلف؟! و نحن نعتقد أنّ هذا الشعار الإسلامي الكبير: وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ إِذَا أَضْحَىٰ شَعَارًا شَامِلًا فِي كُلِّ مَكَانٍ، ينادى، به الصغير و الكبير، و العالم و غير العالم، و المؤلف و الخطيب، و الجندي و الضابط، و الفلاح و التاجر، و الترموا به في حياتهم و طبقوه، كان كافيا لجبران التخلف و التأخر.

إنّ سيره النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم العمليه و أئمه الإسلام تدل على أنّهم لم يدخروا وسعا، و استغلوا كل فرصه لمواجهه العدو، كإعداد الجنود و تهيئه السلاح، و شد الأزر و رفع المعنويات، و بناء معسكرات التدريب، و إختيار الزمان المناسب للهجوم، و العمل على استعمال مختلف الأساليب الحربيه، و لم يتركوا أيه صغيره و لا كبيره في ذلك.

و المعروف أنّ النبي بلغه أن سلاحا جديدا مؤثرا صنع في اليمن أيام معركة حنين، فأرسل النبي جماعه إلى اليمن لشراؤه فورا.

و نقرأ في أخبار معركة أحد أنّ النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم ردّ على شعار المشركين «أعل هبل، اعل هبل» بشعار أقوى منه و هو «الله أعلى و أجل» و رد على شعارهم: «إنّ لنا العزى و العزى لكم»، بقوله: «الله مولانا و لا مولى لكم»، و هذا الأمر يدلّ على أنّ النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و المسلمين - كذلك - لم يغفلوا عن إختيار أقوى الشعارات في

مواجهه الأعداء و الردّ على عقائدهم و شعاراتهم.

و من التعاليم الإسلاميه المهمّه فى هذا الصدد موضوع سباق الخيل و الرمايه، و ما جوزه الفقه فيهما من الربح و الخساره، فهو مثل آخر على تفكير الإسلام العميق إلى جانب الاستعداد لمواجهه الأعداء و حثّ المسلمين على ذلك.

٢- و اللطيفه المهمّه الأخرى التى نستنتجها من الآيه آنفه الذكر هو عالميه و خلود هذا الدين الالهى. لأنّ مفاهيم هذا الدين و مضامينه ذات أبعاد واسععه لا تخلق على مرور الزمان و لا تغدو باليه أو منسوخه برغم القدم، فجمله و أعدوا لهم ما استطعتم من قوّه كان لها مفهوم حى قبل أكثر من ألف عام، كما هى الحال اليوم، و سيقى مفهومها حيا إلى عشرات الآلاف من السنين الأخرى لأنّ أى سلاح يظهر فى المستقبل فهو كامن فى كلمه «القوّه» الجامعه، إذ أن جمله «ما استطعتم» عامّه، و كلمه «قوّه» نكره تؤيد عموميه تلك الجملة لتشمل كل قوّه.

٣- و يرد هنا سؤال و هو: لماذا وردت عباره «رباط الخيل» بعد كلمه «قوّه» بمالها من المفهوم الواسع.

و جواب هذا السؤال هو أنّ الآيه بالرغم من أنّها تتضمن قانونا شاملا لكل عصر و زمان، فهى فى الوقت ذاته تحمل تعليما مهما خاصا بعصر النبى، الذى هو عصر نزول القرآن. و فى الحقيقه إن هذا المفهوم العام جاء بمثال واضح لذلك العصر، لأنّ الخيل كانت فى ذلك الزمن من أهم وسائل الحرب، فهى وسيله مهمّه عند المقاتلين الشجعان و الأبطال فى هجومهم و قتالهم السريع، و أهميتها تشبه أهميه الطائرات و الدبابات فى العصر الحاضر.

الهدف من تهيئه السلاح و زياده التعبئه العسكريه:

ثمّ ينتقل القرآن بعد ذلك التعليم المهم إلى الهدف المنطقى و الإنسانى من وراء هذا الموضوع، فيقول: إنّ الهدف منه ليس تزويد الناس فى العالم أو فى

مجتمعكم بأنواع الأسلحة المدمره التي تهدم المدن و تحرق الأخضر و اليابس و ليس الهدف منه استغلال أراضي الآخرين و ممتلكاتهم، و ليس الهدف هو توسعه الاستعباد و الاستعمار فى العالم، بل الهدف من ذلك هو تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ! لأنّ أكثر الأعداء لا يستمعون لكلمه الحق و لا يستجيبون لنداء المنطق و المبادئ الإنسانيه، و لا يفهمون غير منطق القوّه! فإذا كان المسلمون ضعافاً، فسوف يفرض عليهم الأعداء كل ما يريدون، أمّا إذا اكتسبوا القوّه الكافيه، فإنّ أعداء الحق و العدل و الاستقلال و الحريه سيشعرون بالخوف و لا يفكرون بالتجاوز و العدوان.

و اليوم- و نحن فى تفسير هذه الآيه- فإنّ قسماً من الأراضي الإسلاميه فى فلسطين و غيرها من الدول المجاوره تسحقها أحذيه الجنود الصهاينه، و قد أعاروا بهجومهم الأخير على لبنان فشرّدوا الآلاف من العوائل، و قتلوا المئات من الأبرياء، و هدموا الكثير من الأحياء و الدور السكنيه، و أحالوها إلى انقاض، فأضافوا- بهذه المأساه المروعه جريمه أخرى إلى سجلهم الأسود... فى وقت استنكر الرأى العام العالمى هذا العمل الوحشى حتى أصدقاء إسرائيل، و أصدرت الأمم المتحده بياناً دعت فيه إلى إخلاء هذه الأرض، لكن هذا الشعب الذى لا يتجاوز بضعه ملايين لا يريد الاستماع لأيه كلمه حق و أى منطق إنسانى، و ذلك لما لديه من قوّه و أسلحه و استعداد كاف للحرب أعدّه منذ سنين طويله لمثل هذا العدوان.

فالمنطق الوحيد الذى يمكن به الردّ على هؤلاء هو منطق وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مِمَّا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ فَكأنّ هذه الآيه نزلت فى عصرنا الحاضر و من أجلنا، لتقول لنا: جهزوا أنفسكم و كونوا من القوه بحيث يصاب عدوّكم بالذعر و الخوف كيما يغادر أرضكم و ينسحب إلى مكانه الأوّل.

و ممّا يثير النظر و يسترعيه أنّ الآيه هنا جمعت التعبير ب«عدوّ الله» و«عدوّكم» و ذلك إشاره إلى عدم وجود منافع و أغراض شخصيه فى الجهاد و الدفاع عن الإسلام، بل الهدف هو حفظ رساله الإسلام الإنسانيه، فالذين يعادونكم إنّما هم أعداء الله و أعداء الحق و العدل و الإيمان و التوحيد و الأخلاق الإنسانيه، فينبغى الردّ عليهم انطلاقاً من هذا المجال.

و فى الحقيقه إنّ هذا التعبير شبيه بالتعبير «فى سبيل الله» أو «الجهاد فى سبيل الله» الذى يدلّ على أنّ الجهاد أو الدفاع الإسلامى لا يشبه فتح البلدان فى ما مضى من التاريخ، و لا- غزو الاستعمار التوسعى اليوم، و لا فى صورته إغارات القبائل العربيه فى زمن الجاهليه، بل كل ذلك من أجل الله و فى سبيل الله، و فى مسير إحياء الحق و العدل.

ثمّ تضيف الآيه بأنّ المزيد من استعداداتكم العسكريه يخيف أعداء آخرين لا تعرفونهم فتقول: وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ

ملاحظات

إشاره

١- من هم المقصودون فى الآيه «الذين لا تعلمونهم»

بالرغم من أنّ المفسّرين احتملوا فى هذه الطائفه: الذين لا تعلمونهم احتمالات كثيره، فقال بعضهم: إنّهم يهود المدينه الذين كانوا يضمرون عداههم، و قال آخرون: إنّها إشاره إلى الأعداء مستقبلاً، كدوله الروم و الفرس اللتين لم يحتمل المسلمون يومئذ أنّهم سيكونون فى حرب معهما أو يقع القتال بينهما و بينهم.

إلاّ أنّ الأصح- كما نراه- هو أنّ المراد منها هم المنافقون الذين دخلوا فى صفوف المسلمين دون أن يعلموهم، فإذا قوى جيش الإسلام فإنّ أولئك سيقعون

فى حيره و اضطراب و يرحلون، و الشاهد على هذه الموضوع هو الآيه (١٠١) من سوره التوبه إذ تقول: وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ .

و يحتمل أن مفهوم الآيه يشمل جميع أعداء الإسلام غير المعروفين أعم من المنافقين و غيرهم.

٢- الاستعداد فى كل مكان و زمان

و تتضمن الآيه تعليما لمسلمى اليوم أيضا، و هو أنه لا ينبغى الاكتفاء بالاستعداد لأعداء الإسلام الذين تعرفونهم، بل عليكم أن تنتبهوا للأعداء الاحتماليين أو «بالقوه» و أن تتهيأوا حتى تكونوا فى أعلى حدّ من القوه و القدره، و فى الحقيقه فإنّ المسلمين لو تنبهوا لهذه القضيه المهمه لما منوا بهجمات الأعداء المفاجئه.

و فى نهايه الآيه إشاره إلى موضوع مهم آخر، و هو أنّ الاستعداد العسكرى و جمع الأسلحه و الأجهزة الحربيه و وسائل الدفاع المختلفه، كل ذلك يحتاج إلى بالدعم المالى اللازم له، لذلك تأمر المسلمين بالتعاون الجماعى لتهيئه ذلك المال، و أن ما يبذلونه فى هذا الأمر فهو عطاء فى سبيل الله، و لن ينقص منه شىء أبداً و ما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ فِيرْجِعْ إِلَيْكُمْ جميعه، بل أكثر ممّا أنفقتم و أنتم لا تُظَلِّمُونَ، و ستنالون ثواب ذلك فى هذه الدنيا فى انتصار الإسلام و قوته و عظمته، لأنّ الشعب الضعيف ستعرض أمواله للخطر و سيفقد أمنه و حريته و استقلاله أيضا، فبناء على ذلك فإنّ ما تنفقونه فى هذا السبيل سيعود إليكم عن طريق آخر و فى مستوى أفضل و أسمى.

كما أنّ ثوابا أعظم ينتظركم فى العالم الآخر فى جوار رحمه الله، فمع هذه الحال لا تظلمون، بل ستنالون خيرا كثيرا.

وَمِمَّا يَسْتَرْعى النظر أَنَّ الجملة آنفه الذكر جاء فيها لفظ «شىء» وهى ذات مفهوم واسع، أى لا- يخفى على الله ما تبذلونه من جميع الأشياء، مالا كان أو نفسا أو فكرا أو منطقا أو قوه أو أى مال آخر ينفق فى تقويه بنيه المسلمين الدفاعيه و العسكريه، فإنَّ الله سيدخره و يعيده إليكم فى حينه.

و قد احتمل بعض المفسرين أن جملة «و أنتم لا- تظلمون» معطوفه على جملة «ترهبون» أى أنكم إذا ما أعددتم القوه اللازمه لمواجهة الأعداء فسيخافون أن يهجموا عليكم، و لن يقدرؤا على ظلمكم و إيذائكم، و بناء على ذلك فلن يصيبكم ظلم أبدا.

أهداف الجهاد فى الإسلام و أركانه:

و اللطيفه الأخرى التى تستفاد من هذه الآيه، و تكون جوابا على كثير من أسئله الجهلاء و إشكالاتهم، هى بيان شكل الجهاد و هدفه و منهجه، فالآيه تقول بوضوح: إنَّ الهدف منه ليس قتل الناس أو الاعتداء على حقوق الآخرين، بل الهدف- كما ذكرنا- هو إرهابكم الأعداء لكيلا يعتدوا عليكم و ليخافوكم، فينبغى أن تكون جميع جهودكم و سعيكم منصبا فى سبيل قطع شر أعداء الله و الحق و العدل.

فهل يملك الجهله فى أذهانهم مثل هذا التصور عن الجهاد فى القرآن الكريم، و ما صرّح به فى هذه الآيه- محل البحث- ليسوغ لهم أن يحملوا كل هذه الحملات المسعوره المتتاليه على هذا القانون الإسلامى. فتاره يدعون بأنَّ الإسلام هو دين السيف، و تاره يقولون بأنَّ الإسلام يفرض على الناس أفكاره بالحديد، و يقيسون النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم بسائر محتلى البلدان فى التاريخ.

و فى عقيدتنا أنّ جواب كل هؤلاء هو أن يعود إلى القرآن، و يفكروا فى الهدف الأصيل لهذا الموضوع، لتتضح لهم كل تلك الأمور.

مع أنّ الآيه السابقه أو ضحت هدف الجهاد فى الإسلام بقدر كاف، فإنّ الآيه التاليه التى تتحدّث على الصلح بين المسلمين توضح هذا الأمر بصوره أجلي فتقول وَ إِنِ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا .

و يحتمل فى تفسير هذه الجملة المتقدمه أنّهم إذا بسطوا أجنحتهم للسلم فابسط جناحيك أنت للسلم أيضا، لأنّ «جنحوا» فعل مصدره «الجنوح» و هو الميل، و يطلق على كل طائر أنّه «جناح» أيضا، لأنّ كل جناح فى الطائر يميل إلى جهه، لذلك يمكن الاستناد فى تفسير هذه الآيه إلى جذر اللغه تاره، و إلى مفهومها الثانوى تاره أخرى.

و لَمّا كان الناس يترددون أغلب الأحيان عند ما يراد التوقيع على معاهده الصلح، فإنّ الآيه تأمر النبى بعدم التردد فى الأمر إذا كانت الشروط عادله و منسجمه مع المنطق السليم و العقل، فتقول: وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

و مع ذلك فهى تحذر النبى صلّى الله عليه و آله و سلم و المسلمين من احتمال الاحتيال و الخداع فى دعوه الأعداء، إلى الصلح، فقد تكون دعوه للتمويه و الرّغبه فى توجيه ضربه مفاجئه، أو يكون هدفهم هو تأخير الحرب ليتمكنوا من إعداد قوات أكثر، إلّا- أنّ الآيه تطمئن النبى صلّى الله عليه و آله و سلم أن لا- يخشى هذا الأمر أيضا، لأنّ الله عزّ و جلّ سيكفيه أمرهم و سينصره فى جميع الأحوال، إذ تقول: وَ إِنِ يَرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ .

و سيرتك أيها النبى-السابقه-شاهده على هذه الحقيقه، لأنّ الله هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ .

فكم أرادوا بك كيدا، و كم مهدوا و أعدوا لك من خطط مدمّره بحيث لم تكن الغلبه عليها بالوسائل المألوفه ممكنه، لكنّه عزّ و جلّ حفظك و رعاك فى مواجهه

كل ذلك.

أضف إلى ذلك أنّ المؤمنين المخلصين قد أحاطوا بك من كل جانب و لم يدخروا وسعا في الدفاع عنك، فقد كانوا قبل ذلك متشتتين متعادين، و لكنّ الله شرح صدورهم بأنوار الهدايه و أَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ .

و قد كانت الحرب لسنوات طويله قائمه على قدم و ساق بين طائفتى الأوس و الخزرج و كانت صدورهم تغلى غيظا و حقدًا بعضهم على بعض بشكل لم يكن أى أحد يتصور أنّهم سيعيشون بعضهم مع بعض بالحب و الصفاء فى يوم ما، و سيكونون صفا واحدا مترابعا، و لكن الله القادر المتعادل فعل ذلك ببركه الإسلام و فى ظلال القرآن، و لم يكن هذا الإمر مقتصرًا على الأوس و الخزرج الذين هم من الأنصار، بل كان ذلك بين المهاجرين أيضا الذين جاءوا من مكّه، إذ لم يكن بينهم قبل الإسلام حب و مودّه، بل كانت صدورهم مليئه بالبغضاء و الشحناء أيضا، لكن الله عزّ و جلّ غسل كل تلك الأحقاد و أزالها بحيث تمكن معها ثلاثمائه و ثلاثه عشر من أبطال بدر، منهم حوالى ثمانين نفرا من المهاجرين و الباقي من الأنصار، فكانوا جيشا صغيرا، لكنّه متحدّ قوى استطاع أن يكسر شوكة العدوّ و يحطم قوته.

ثمّ تضيف الآيه أن اتحاد تلك القلوب، أو إيجاد تلك الألفه، لم يكن بوسائل مألوفه أو ماديه لُوْ أَنْفَقَتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ .

إنّ الذين يعرفون حاله نفوس المتعصبين و الحاقدين، كأولئك الذين كانوا فى العصر الجاهلى، يعرفون كذلك أن تلك الأحقاد و الضغائن لم يكن بالإمكان إزالتها، لا بالمال و لا بالجاه و المقام، لأنها كانت لا تزول عندهم إلا بالانتقام الذى يتكرر بصوره متسلسله فيما بينهم، و فى كل مرّه يكون فى صوره أشع و أكثر

ص : ٤٨٠

وحشيه و إجراما، و الأمر الوحيد الذى أمكن بسببه قلع تلك الجذور الفاسده من أصولها، هو إحداث ثوره عارمه و تغيير شامل فى الأفكار و الأرواح و العقائد، ثوره تصنع تحولا فى شخصياتهم و تبدل أساليب تفكيرهم، و ترفعهم عن الحضيض الذى كانوا فيه، لتتجلى لهم أعمالهم السابقه فى وجهها الكالح القبيح، فيطهروا بذلك أنفسهم، و يدرءوا عنها الأحقاد و الأوساخ و العصبية القبليه العمياء و هذه أمور لا يمكن إيجادها بالثروه و لا بالمال، بل فى ظلال الإيمان و التوحيد الخالص فحسب.

و تضيف الآيه معقبه فى الختام إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

فعزته تقتضى عجز الآخرين من الوقوف فى مواجهته، و حكمته تقتضى أن تكون كل أموره جاربه وفق حساب دقيق و نظام صحيح، و لهذا فإن الخطه الدقيقه و حدت القلوب المتنافره المتفرقه و جعلتها تنصاع للنبي صلى الله عليه و آله و سلم لينشروا أنوار الهدايه فى كل أرجاء العالم.

ملاحظتان

١- قال بعض المفسرين: إن الآيه محل البحث تشير إلى الخلافات بين الأوس و الخزرج، الذين هم من الأنصار فحسب، و لكن نظرا إلى أن المهاجرين و الأنصار نهضوا جميعا لنصره النبي فيتضح اتساع مفهوم الآيه.

و لعل أولئك كانوا يتصورون أن الخلافات كانت قائمه بين الأوس و الخزرج دون غيرهم، مع أنه كانت اختلافات كثيره فى المستويات الطبقيه و الاجتماعيه بين الفقراء و الأغنياء، و الكبار و الصغار، بين هذه القبيله و تلك، تلك الخلافات و«الانشاقات» أذهبها الإسلام و محا آثارها، كما يقول القرآن الكريم فى مكان

آخر: وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ اِذْ كُنْتُمْ اَعْدَاءً فَاَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ اِخْوَانًا (١).

٢- إن هذا القانون لا يختص بالمسلمين الأوائل فحسب، فالיום حيث يسطر الإسلام ظلاله على ثمانمائة مليون مسلم في أنحاء العالم، وهم من مختلف العناصر والأقوام المتباعده والمجتمعات المتنوعه. إذ لا يمكن إيجاد أيه حلقة اتصال بين كل هؤلاء سوى حلقة الإيمان والتوحيد، فإن الأموال والثروات والمؤتمرات لا يمكنها أن تفعل شيئاً مهما في هذا المجال، بل ما يمكن أن يوحدهم هو إيقاد شعله الإيمان أكثر في قلوب هؤلاء كما حصل عند المسلمين الأوائل، لأن النصر لا يتحقق إلا عن هذا الطريق، وهو طريق الأخوة الإسلاميه بين جميع الناس.

و تخاطب الآيه الأخيره من الآيات محل البحث النبي بالقول: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

و نقل بعض المفسرين أن هذه الآيه الكريمه نزلت عند ما قال جماعه من يهود بنى قريظه و بنى النضير لما قالوا للنبي صلى الله عليه و آله و سلم: نحن نسلم و نتبعك، يعنى إننا مستعدون لاتباعك و نصرتك، فنزلت هذه الآيه محذره النبي لثلا يعتمد على هؤلاء، بل المعول عليه هو الله و المؤمنون (٢).

و قد أورد الحافظ أبو نعيم- و هو من أكابر علماء السنه- في كتابه فضائل الصحابه، بسنده، أن هذه الآيه نزلت في حق على أمير المؤمنين، فالمقصود بالمؤمنين هو على عليه السلام (٣).

ص: ٤٨٢

١- ١) آل عمران، ١٠٣.

٢- ٢) تفسير التبيان، ج ٥، ص ١٥٢.

٣- ٣) موسوعه الغدير، ج ٢، ص ٥١.

وقد قلنا مرارا: إنَّ مثل هذه التفاسير و أسباب التّزول لا تجعل الآيات محدوده و منحصره، بل المقصود فيها هو أنّ شخصا كعلي بن أبي طالب عليه السّلام الذي كان في أوّل صفوف المؤمنين هو السند الأوّل للنبي بعد الله من بين المسلمين، مع أنّ بقيه المؤمنين هم أنصار النبي صلّى الله عليه وآله و سلّم و أعوانه.

ص: ٤٨٣

إشاره

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) أَلَا نَخَفُ اللَّهَ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)

التفسير

إشاره

لا ترتقبوا تساوى القوى:

فى هاتين الآيتين تتوالى التعاليم العسكريه و أحكام الجهاد أيضا.

فالأيه الأولى منهما تخاطب الرسول فتقول: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ .

إن الجنود و المقاتلين مهما كانوا عليه من استعداد ينبغى قبل بدء الحرب أن ترفع معنوياتهم و تشحذ هممهم، و هذا الأمر معروف فى جميع النظم العسكريه فى العالم، إذ يقوم قاده الجيوش و أمراؤهم قبل التحرك نحو سوح القتال أو عند

ساحه القتال، فيلقون خطبا تثيرهم و تقوى من معنوياتهم و تحذرهم من الهزيمه و الجبن.

غايه ما فى الأمر أنّ مثل مسأله الترغيب و التشويق إلى القتال محدوده فى المدارس الماديّه، و لكنّها واسعه فى الأديان السماويه، نظرا للتعاليم الربانيه، و تأثير الإيمان بالله، و التذكير بمنزله الشهداء عند ربّهم و مقامهم عنده، و ما ينتظرهم من الثواب الجزيل البعيد المدى، و ما سينالونه من العزه و الفخر عند انتصارهم، فكل ذلك يحرك روح البطوله و الثبات فى نفوس الجنود، فتلاوه بعض آيات القرآن فى الحروب الإسلاميه تشحذ الجندى عزما و قوه و إقداما لا حدود له، و يتقد فيه الشوق و العشق للتضحيه و الفداء.

و على كل حال، فإنّ الآيه توضح أهميه الإعلام و التبليغ و شحذ همم المقاتلين و الجنود و معنوياتهم باعتبار ذلك تعليما إسلاميا مهما.

و تعقب الآيه بالتعليم الثانى فنقول: **إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**

و بالرغم من أنّ الآيه فى صوره إخبار عن غلبه الرجل على عشره، لكن بقرينه الآيه بعدها **الآن خفف الله عنكم** يتضح أنّ المراد من ذلك هو تعيين الحكم أو الوظيفه و الخطه و المنهج، لا- أنّه مجرد خبر و هكذا فينبغى للمسلمين أن لا- ينتظروا حتى يبلغ عددهم مقدارا يكافئ قوه العدو و أفراده، ليتحركوا إلى ساحه القتال و الجهاد، بل يجب عليهم القيام بواجباتهم حتى إذا كان عدوهم عشره أضعافهم.

ثمّ تشير الآيه إلى علّه هذا الحكم فتقول: **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ** و هذا التعليل يبدو عجيبا لأوّل وهله، إذ ما هى العلاقه بين المعرفه و الفقاهه و بين النصر أو بين عدم المعرفه و الهزيمه؟! لكن الواقع هو أنّ العلاقه بينهما قريبه و متينه، لأنّ المؤمنين يعرفون نهجهم الذى سلكوه و يدركون الهدف من خلقهم و إيجادهم،

و يؤمنون بنتائج الإيجابيه فى هذا العالم، و الثواب الجزيل الذى ينتظرهم فى العالم الآخر، فهم يعلمون، لم يقاتلون؟ و من أجل من يجاهدون؟ و فى سبيل أى هدف مقدس يضحون؟ و على من سيكون حسابهم إذا ما ضحوا و استشهدوا فى هذا المضمار؟ فهذا السير الواضح المشفوع بالمعرفه يمنحهم الثبات و الصبر و الاستقامه.

أما الذين لا يؤمنون بالله و اليوم الآخر، كعبده الأصنام، فلا يعرفون لأى أمر يقاتلون؟ و لأجل من يجاهدون؟ و إذا قتلوا فمن يؤدى ديه دمهم؟ فهم لتقليدهم الأعمى و لعاداتهم الجاهليه ساروا رواء هذه الأفكار، و هكذا تبعت ظلمات الطريق و عدم معرفتهم الهدف و نتائج أعمالهم على انهيار أعصابهم و تفت فى عضدهم و ثباتهم، و تجعل منهم كائنات ضعيفه.

و بعد ذلك الحكم الثقيل بجهد الأعداء و ان كانوا عشره اضعاف يخفف الله عن المؤمنين و ينزل فى الحكم الذى يرهقهم فيقول: **الآن خفف الله عنكم و علم أن فيكم ضعفاً .**

ثم يقول: **فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين و إن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله .**

و لكن على كل حال ينبغى أن لا تنسوا تسديد الله و الله مع الصابرين .

بحوث

إشاره

و هنا لا بد من الالتفات الى عدّه أمور:

١- هل نسخت الآيه الأولى

كما لا حظنا فإن الآيه الأولى تأمر المسلمين أن لا يتقاعسوا عن مواجهه الأعداء حتى إذا كانوا عشره أضعافهم، غير أن الآيه الثانيه تخفض هذا العدد إلى

ص: ٤٨٦

ضعفين فحسب.

و هذا الاختلاف الظاهر بين الآيتين جعل بعضهم يقول: إن الآيه الأولى- من الآيتين محل البحث-نسختها الآيه الثانيه، أو أنه حمل الآيه الأولى على الاستحباب و الثانيه على الوجوب، أى إذا كان عدد الأعداء ضعف عدد المسلمين فيجب عليهم عدم التراجع عن ساحه الجهاد و القتال، أمّا إذا زاد عددهم عن الضعف حتى بلغ عشره أضعافهم فلهم عندئذ أن لا يقاتلوهم، و إن كان الأفضل لهم أن لا ينسحبوا عن جهادهم العدو.

إلا أنّ بعض المفسّرين يرون أن الاختلاف الظاهري الموجود بين الآيتين لا يدل على النسخ، و لا يدل على الاستحباب، بل إن لكل واحده من الآيتين حكما معينا، فعند ما يتلى المسلمون بالضعف و الخور و يكثُر فيهم المقاتلون غير المحنّكين أو غير المدرّبين و لا المتهيبين للقتال، فعندئذ يكون معيار العدد هو نسبه الضعف. أمّا إذا كان المقاتلون على استعداد تام، أشداء في إيمانهم و عزائمهم كالكثير من أبطال بدر، فالنسبه عندئذ ترتقى إلى عشره أضعاف.

فبناء على ذلك فإنّ الحكمين فى الآيتين محل البحث يرتبطان بالطائفتين المختلفتين و فى ظرفين متفاوتين.

و بهذا لا يوجد نسخ فى الآيه هنا، و إذا وجد فى الزوايات التعبير بالنسخ فينبغى الالتفات إلى أن النسخ ذو معنى واسع و يشمل التخصيص فى بعض الموارد.

٢- أسطوره توازن القوى

إنّ الآيتين- محل البحث- تتضمنان هذا الحكم المسلمّ به، و هو أنّ على المسلمين ألاّ ينتظروا موازنه القوى الظاهريه بينهم و بين العدو، بل عليهم أن ينهضوا لمواجهة و إن كان ضعف عددهم، بل حتى لو كان عشره أضعاف عددهم

ص: ٤٨٧

أحياناً، و أن لا يفروا من العدو بسبب قلّه العدد أبداً.

و ممّا يستجلب النظر أنّ أغلب المعارك التي كانت تجرى بين المسلمين و أعدائهم كان فيها ميزان القوى لصالح العدو، و كان المسلمون قلّه غالباً، و لم يكن هذا الأمر قد وقع في حروب الإسلام في عصر النّبي فحسب- كبدر و أحد و الأحزاب أو كمعركه مؤته التي رووا أن جيش المسلمين كان لا يتجاوز ثلاثة آلاف مقاتل، أمّا جيش العدو فأقل ما ذكروا عنه أنّه كان حوالي مائه و خمسين ألفاً، بل حتى الحروب بعد عصر النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم فقد ذكروا أن فرقاً مذهلاً كان بين جيش الإسلام الذي حرر فارس و جيش الساسانيين، فقد قيل مثلاً: إنّ الجيش الإسلامي كان لا يتجاوز خمسين ألف مقاتل، بينما كان جيش خسرو پرويز خمسمائة ألف مقاتل! و أمّا في معركة اليرموك التي وقعت بين المسلمين و الروم، فقد ذكر المؤرخون أن الجيش الذي جمعه هرقل كان حوالي مائتي ألف مقاتل، بينما كان جيش الإسلام لا يتجاوز أربعة و عشرين ألفاً! و الأعجب من ذلك أن المؤرخين يذكرون أنّ قتلى جيش الروم في معركة اليرموك كانوا يزيدون على سبعين ألفاً!! و ما من شك أن الموازنه بين القوى أو التفوق العسكري أحد أسباب النصر بحسب الظاهر، و لكن ما هو السبب الذي كان وراء انتصار المسلمين القله في مثل هذه المعارك؟ و الإجابة على هذا السؤال المهم ذكرها القرآن في الآيتين محل البحث في ثلاثة تعابير:

التّعير الأوّل: يقول فيه: عَشْرُونَ صَابِرُونَ ثُمَّ قَوْلُهُ فِي الْآيَةِ بَعْدَهَا: مَائَةٌ صَابِرَةٌ أَى ذُووِ اسْتِقَامَةٍ وَ ثَبَاتٍ.

و المراد هنا أنّ روح الاستقامه و الثبات، التي هي ثمره شجره الإيمان، كانت

سببا في أن يغلب الرجل المسلم عشره أمثاله من الكفار.

التعبير الثاني: وفي مكان آخر يقول: ذَلِكْ بِأَنَّهَمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُوْنَ أَيَّ أَنَّ عَدَمَ مَعْرِفَةِ الْعَدُوِّ هَدَفَهُ، وَمَعْرِفَتَكُمْ هَدَفَكُمْ الْمَقْدَسَ، يَسْتَعَاذُ عَنِ مَوْضِعِ قَلْتِكُمْ إِزَاءَ كَثْرَةِ الْعَدُوِّ.

التعبير الثالث: هو قوله سبحانه في الآي محل البحث: بِإِذْنِ اللَّهِ أَيَّ أَنَّ الْإِمْدَادَاتِ الْغَيْبِيَّةِ وَ لُطْفِ اللَّهِ وَ رَحْمَتِهِ تَشْمَلُ مِثْلَ هَؤُلَاءِ الْمَجَاهِدِينَ الصَّابِرِينَ فَتَنْصِرُهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ.

وفي عصرنا يواجه المسلمون أعداء ألداء أقوياء أيضا، لكن العجيب أن جيش المسلمين في كثير من المعارك أكثر من جيش العدو، ولكن مع ذلك لا أثر لانتصار المسلمين، وكانهم يسيرون باتجاه مخالف عما كان يسير عليه المسلمون الأوائل.

والسبب هو أن المسلمين اليوم لا يتمتعون بمعرفة كافية ويا للأسف، وقد فقدوا روح الصبر والاستقامة بسبب ركونهم إلى عوامل الفساد وزخرف الحياة المادية وزبرجها، كما أن الإمداد الغيبي و رعايه الله قد سلبا منهم بسبب تلوثهم بالذنوب، فابتلوا بمثل هذه العاقبة! إلا أن طريق العدو ما يزال مفتوحا، وتأمل أن يأتي اليوم الذي يعي المسلمون مآله أخرى مفهوم هاتين الآيتين و أمثالهما ليخلعوا عن أنفسهم حالة الذل والتقهقر.

٣- ما هو المراد من الآيتين؟

مما يستجلب النظر أن الكلام في الآية الأولى - من الآيتين محل البحث - كان على نسبة الواحد إلى العشرة، فمثلت الآية بـ إِنَّ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ .

إلا- أن الكلام فى الآ-يه الثانى كان عن نسه الضعف مثل المائه فى قبال المائىن، و الألف فى قبال الألفىن: فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ
صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ... إلخ.

و كأن هذا المثل البلىغ ىرىء أن ىبىن هذا الحقىقه، و هى أنّ الرجال الأشءاء من ذوى العزىمه و الإىمان ىمكنهم أن ىشكّلوا جىشا
مقتءرا حتى لو كانوا عشرين رجلا، إلا أنّهم لو كانوا ضعفاء، فلىس ىمكنهم أن ىصنعوا جىشا من عشرين، بل لا بء أن ىكونوا
أضعاف هذا العءء لتشكل جىش، «فلا حظوا بءقه».

إشاره

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْمَآرِضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّبْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا حَيَاتِكُمْ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)

التفسير

إشاره

أسرى الحرب:

بيّنت الآيات السابقة بعض أحكام الجهاد المهمّة وواجهه الأعداء، و في هذه الآيات استكمال لما سبق في عرض قسم من أحكام أسرى الحرب، لأنّ أغلب الحروب تقترب بتأسير جماعه من المتقاتلين من قبل الطرف الآخر، و قد

أولى الإسلام أهميه قصوى لمسأله أسرى الحرب، من حيث أسلوب التعامل معهم، و من حيث بعض النواحي الإنسانيه و أهداف الجهاد أيضا.

و أول موضوع مهم يثار في هذا الشأن، هو ما قالته الآيه الكريمه من أن كل نبي ليس له الحق في أسر افراد العدو الآ بعد أن يثبت اقدامه في الأرض و يكيل الضربات القاضيه للأعداء: [□] مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ .

و الفعل «يثخن» مأخوذ من «الثخن» على زنه «المحن» و معناه في الأصل الضخامه و الغلظه و الثقل، ثم استعمل هذا اللفظ بمعنى الفوز و القوه و النصر و القدره، للسبب المذكور آنفا.

و قال بعض المفسرين: إن معنى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ يدل على المبالغه و الشده في قتل الأعداء، و قالوا: إن معنى ذلك أن أخذ الأسرى ينبغي أن يكون بعد مقتله عظيمه في الأعداء و لكن مع ملاحظه كلمه «في الأرض» و الالتفات إلى جذر هذه الكلمه الذي يعنى الشده و الغلظه، يتضح أن معنى الآيه ليس هو ما ذكره، بل القصد هو التفوق على العدو تماما و إظهار القوه و القدره و إحكام السيطره على المنطقه.

إلا- أنه لما كان في قتل الأعداء و إبادتهم دليل على السيطره و إحكام مواقع المسلمين أحيانا، فإن من مصاديق هذه الجمله في بعض الشروط قتل الأعداء، و ليس هو مفهوم الجمله الأصيل.

على أية حال، فإن الآيه تنبه المسلمين إلى نقطه مهمه في الحرب، و هي أن عليهم عدم التفكير و الانشغال بأخذ الأسرى قبل اندحار العدو بالكامل، لأن بعض المسلمين المقاتلين- كما يستفاد من بعض الروايات- كان جلّ سعيهم هو الحصول على أكبر عدد من الأسرى في ساحه بدر مهما أمكنهم، لأن العاده كانت أن يدفع عن الأسير مبلغ من المال على شكل فديه ليتم الإفراج عنه بعد نهايه

و يعدّ هذا الأمر عملاً حسناً في بعض المواقع، إلا أنه عمل خطير قبل أن يطمأن من اندحار العدو كاملاً، لأنّ الانشغال بأسر العدو و شدّ وثاقهم و نقلهم إلى مكان آمن، كل ذلك يبعد المقاتلين غالباً عن أصل الهدف الذي من أجله كانت الحرب، و ربّما يمنح العدو الجريح فرصه لجمع قواه و إعاده هجومه، كما حدث في غزوه أحد، حيث شغل بعض المسلمين أنفسهم بجمع الغنائم، فاستغل العدو هذه الفرصه فأنزل ضربته الأخيره بالمسلمين.

و بناء على ذلك فإنّ تأسير الأعداء يجوز في صورته ما لو حصل اليقين بالنصر الساحق عليه، أمّا في غير هذه الصوره فيجب توجيه الضربات الشديده و المتتاليه لهدم قوات العدو و شلّها فإذا حصل الاطمئنان بذلك فإنّ الأهداف الإنسانيه توجب إيقاف القتل و الاكتفاء بأسرهم.

و قد أوضحت الآيه هاتين النقطتين المهمتين: العسكريه، و الإنسانيه، في عبارته موجزه:

ثم أَلَقْتُ بِاللُّومِ عَلَى أَوْلِيكَ الَّذِينَ خَالَفُوا هَذَا الْأَمْرَ فَتَقُولُ: تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ .

«و العرض» يعنى الأمور غير الثابته، و لما كانت الذخائر الماديه غير ثابتة في هذه الدنيا فقد عبّر عنها بالعرض.

و كما قلنا آنفا فإن الاهتمام بالجانب المادى فيما يتعلق بالأسرى و الغفله عن الهدف النهائى، أى الانتصار على العدو، لا أنه يحبط الثواب الأخرى فحسب، بل يسىء إلى الإنسان في حياته الدنيا و إلى عزّته و رفعتة و استقراره، ففي الحقيقه، هذه الأهداف المذكوره للفرد في الحياه الدنيا تعدّ من أمور الدنيا الثابته، فلا ينبغى أن نترك المنافع الطويله الأمد و المستقبلية رهن الخطر من أجل أن نحصل على منافع ماديه عابره!

و تختتم الآية بالقول أن التعليم آنف الذكر-في الواقع-مزيج من العزه و النصر و الحكمه و التدبير،لأنه صادر من قبل الله تعالى وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

الآيه التاليه توجه اللوم و التعنيف ثانيه لأولئك الذين يعرضون المنفعه العامه و المصلحه الاجتماعيه للخطر من أجل الحصول على المنافع الماديه العابره، فتقول الآية: لَوْ لَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

و قد أورد المفسرون في شأن قوله تعالى: لَوْ لَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ احتمالات مختلفه كثيره، إلا أن أقربها و أكثرها ملاءمه و مناسبه هو«إذا لم يكن الله قد قرر من قبل أن لا يعذب عباده ما لم يبين نبيه حكمه لهم،لأخذكم أخذاً شديداً بسبب تأسيركم عدوكم رغبه في المنافع الماديه و إيقاعكم جيش الإسلام و انتصاره النهائي في الخطر،إلا أنه-كما صرحت الآيات الكريمه في القرآن- فإن سنه الله اقتضت أن تبين أحكامه ثم يجازى الذي يخالفون عن أمره»،إذ قال سبحانه: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١) .

ملاحظات

إشارة

١-إن ظاهر الآيات-كما قلنا آنفا-يعالج موضوع أخذ الأسرى في الحرب لا-أخذ«الفديه»بعدها،و بذلك ينحل كثير من الإشكالات التي أثارها جماعه من المفسرون بشأن مفهوم الآية.

كما أن اللوم و التعنيف يختص بجماعه انشغلت-قبل أن يتم النصر النهائي- بأسر العدو لأهداف دنيويه،و لا علاقه لها بشخص النبي و أصحابه المؤمنين الذين كان هدفهم الجهاد في سبيل الله.

ص: ٤٩٤

و بذلك تنتفى جميع البحوث التي أوردوها، كالقول بأنّ النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلّم قد ارتكب ذنبا أو كيف ينسجم هذا العمل و عصمته صَلَّى الله عليه و آله و سلّم؟ فهذا الأمر غير صحيح.

كما يثبت بطلان الأحاديث المختلفه التي نقلتها بعض مصادر أهل السنه و كذبها في تفسير هذه الآيه، و التي تزعم أن الآيه (١) نزلت في شأن أخذ النبي و بعض المسلمين الفديه مقابل أسرى الحرب بعد معركة بدر، و قبل أن يأذن الله بذلك. و أنّ الذي خالف هذا الأمر و طالب بقتل الأسرى هو عمر فحسب- أو سعد بن معاذ-

أنّ النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلّم قال في حق عمر: لو نزل العذاب علينا لما نجا منه إلاّ عمر- أو سعد بن معاذ- فإنّ جميع ذلك عار من الصحه و لا أساس له، و إنّ تلك الروايات بعيدة كل البعد عن تفسير الآيه، و خاصّه أن أمارات الوضع ظاهره على هذه الأحاديث تماما.

٢- إنّ الآيات محل البحث لا تخالف أخذ الفداء و إطلاق سراح الأسرى إذا اقتضت مصلحه المجتمع الإسلامي ذلك، بل تقول هذه الآيات: إنّه لا- ينبغي على المجاهدين أن يكون همهم الأسر من أجل الفداء، فبناء على ذلك فهي تنسجم و تتفق و الآيه (٤) من سوره محمد صَلَّى الله عليه و آله و سلّم من جميع الوجوه، إذ تقول تلك الآيه فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِذَا مَنَا بَعْدُ وَإِنَّا فِدَاءٌ .

إلاّ- أنّه يجب الالتفات إلى مسأله مهمّه هنا، و هي: إذا كان بين الأسرى من يثير إطلاق سراحهم فتنة نشوب نار الحرب، و يعرض انتصار المسلمين للخطر، فيحق للمسلمين أن يقتلوا مثل هؤلاء الأشخاص، و دليل هذا الموضوع كما من في الآيه محل البحث ذاتها، بقريته «يثخن» و التعبير في الآيه (٤) من سوره

ص: ٤٩٥

١- (١) تفسير المنار، ج ١٠، ص ٩٠- تفسير روح المعاني، ج ١٠، ص ٣٢- و تفسير الفخر الرازي، ج ١٥، ص ١٩٨.

محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ب«أثخنتموهم».

ولهذا فقد جاء في بعض الروايات الإسلاميّة أنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أمر بقتل اثنين من أسرى معركة بدر، وهما «عقبه بن أبي معيط» و«النضر بن الحارث» ولم يرض بأن يفتديا أنفسهما أبداً (١).

٣- وفي الآيات محل البحث تأكيد على موضوع حريه إرادته الإنسان مرّه أخرى، ونفى مذهب الجبر، لأنّها تقول: إنّ الله يريد لكم الآخرة، ولكن بعضكم أغرته المنافع الماديّة العابره و ركن إليها.

وفي الآيه التاليه إشاره إلى حكم آخر من أحكام أسرى الحرب، وهو حكم أخذ الفداء.

وقد جاء في بعض الروايات (٢) الواردة في شأن نزول هذه الآيات أنّه بعد انتهاء معركة بدر وأخذ الأسرى، وبعد ما أمر النبي أن تضرب عنقا الأسيرين الخطيرين «عقبه بن أبي معيط» و«النضر بن الحارث» خافت الأنصار أن ينفذ هذا الحكم في بقيه الأسرى فيحرموا من أخذ الفداء، فقالوا: يا رسول الله إنّنا قتلنا سبعين رجلا و أسرنا سبعين، وكلّهم من قبيلتك فهدب لنا هؤلاء الأسرى لنأخذ الفداء منهم. وكان النبي يترقب نزول الوحي، فنزلت هذه الآيات فأجازت أخذ الفداء في قبال إطلاق سراح الأسرى.

و روى أنّ أكثر ما عين فداء على الأسرى من المال هو أربعة آلاف درهم، وأقله ألف درهم، فلما سمعت قريش أرسلت فداء الواحد تلو الآخر حتى حررت أسراها.

والعجيب أن صهر النبي على ابنته زينب «أبا العاص» كان من بين أسرى معركة بدر، فأرسلت زوجته زينب قلاذتها التي أهدتها أمّها خديجه عليهما السلام إليها في

ص: ٤٩٦

١- ١) راجع تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ١٣٥.

٢- ٢) راجع تفسير على بن إبراهيم وفقا لما جاء في نور الثقلين، ج ٢، ص ١٣٦.

زفافها، لتفتدى بها زوجها، فلما وقعت عينا النبي على تلك القلادة و تذكر تضحيه خديجه و جهادها، و تجسدت مواقفها أمام عينيه،

قال صلى الله عليه و آله و سلم: «رحم الله خديجه، فهذه قلاده جعلتها خديجه في جهاز بنتي زينب.

و وفقا لبعض الروايات فإنه امتنع عن قبول القلادة احتراماً لخديجه و إكراماً، و استجاز المسلمون في إرجاع القلادة، فأذنوا له أن يرجع القلادة إلى زينب، ثم أطلق (١) النبي صلى الله عليه و آله و سلم سراح أبي العاص، شريطه أن يرسل ابنته زينب- التي كانت قد تزوجت من أبي العاص قبل الإسلام- إلى المدينة، فوافق أبو العاص على هذا الشرط و وفى به بعدئذ (٢).

و على أية حال، فإن الآيه محل البحث أجازت للمسلمين التصرف في غنائم المعركة، و المبلغ الذي يأخذونه فداء من الأسير، فقالت: فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً .

و يمكن أن تكون هذه الجملة ذات معنى واسع يشمل حتى الغنائم الأخرى غير الفداء.

□
ثم تأمرهم الآيه بالتقوى فتقول: وَ اتَّقُوا اللَّهَ . و هذا إشاره إلى أن جواز أخذ مثل هذه الغنائم لا ينبغي أن يجعل هدف المجاهدين في المعركة هو جميع الغنائم و أن يأسروا العدو حتى يأخذوا فداءه. و إذا كان في القلوب مثل هذه التيات السيئه فعليهم أن يطهروا قلوبهم منها، و يعدهم الله بالعفو عما مضى فتقول الآيه:

□
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

ص: ٤٩٧

١ - ١) ورد في الكامل لابن الأثير، ج ٢، ص ١٣٤ أنه «فلما رآها رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم رق لها رقه شديده و قال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها؟ و تردوا عليها الذي لها فافعلوا»، فأطلقوا لها أسيرها و ردوا القلادة.

٢ - ٢) تفسير الميزان، ج ٩، ص ١٤١.

هل أن أخذ «الفداء» أمر منطقي عادل؟!!

قد ينقدح هنا سؤال مهم و هو: كيف ينسجم الفداء قبال إطلاق سراح الأسير و أصول العدالة؟ أن ليس هذا نوعا من بيع الإنسان؟ و الجواب على هذا السؤال يتجلى واضحا حين نعرف أنّ الفداء هو نوع من الضرائب العسكريه، أو الغرامه الحربيه، إذ أن كل حرب سبب في إهدار كثير من الطاقات الاقتصاديه و القوى الإنسانيه، فالجماعه التي تقاتل من أجل الحق يحق لها أنّ تعوض عن خسائرها بعد الحرب، و أحد طرق التعويض هو «الفداء». و مع ملاحظه أن الفداء كان يومئذ يتراوح بين أربعه آلاف درهم عن الأسير الغني، و ألف درهم عن الأسير الفقير، يتّضح أنّ الأموال التي أخذت من قريش في هذا الصدد لم تكن كثيره، بل لم تكن كافيه لسد خسائر المسلمين الماليه و الإنسانيه في تلك المعركه! ثمّ بعد هذا كله، فقد ترك المسلمون أموالا كثيره- في مكّه- عند هجرتهم اضطرارا إلى المدينه، فكانت هذه الأموال عند أعدائهم من قريش، و كان للمسلمين الحق أن يعوضوا عن خسائرتهم و أموالهم في يوم بدر بالفداء.

كما ينبغي الالتفات إلى هذه اللطيفه التي أشارت إليها الآية ٤ من سوره محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم، و هي أنّ مسأله الفداء ليست إلزاميه، فللحكومه الإسلاميه أن تبادل الأسرى متى ما رأت في ذلك مصلحه، أو أن تمن عليهم فتطلق سراحهم دون تعويض.

و المسأله المهمه الأخرى في شأن أسرى الحرب هي موضوع إصلاحهم و تربيتهم و هدايتهم، و لعل هذا الأمر غير موجود في المذاهب الماديّه، لكنّه مثار عناية و اهتمام أكيد في الجهاد من أجل تحرير الإنسان و إصلاحه و تعميم الحق و العدل.

و لهذا فَإِنَّ الآيه الرَّابِعَه من الآيات محل البحث تخاطب النَّبى أَن يدعو الأَسرى إلى الإیمان بالله و إصلاح أنفسهم، و يرغبهم فى كل ذلك، فتقول: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ .

و المراد من كلمه «خيرا» فى الجملة آفئه الذكر إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا هو الإیمان و قبول الإسلام أمّا المراد من كلمه «خيرا» فى الجملة الأخرى «يؤتكم خيرا» فهو الثواب أو الأجر المادى و المعنوى الذى ينالونه ببركه الإسلام، و هو أعظم عند الله من الفداء بمراتب كثيره! ثم إضافة إلى ذلك فسيشملكم لطف الله و يعفو عن سيئاتكم و يَعْفِرَ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

و حيث إِنَّ من الممكن أن يستغل بعض الأَسرى إظهار الإسلام لىسء إلى الإسلام و يخون النَّبى و ينتقم من المسلمين، فَإِنَّ الآيه التالىة تنذر النَّبى و المسلمين و تنذر أولئك من الخيانه فتقول: وَ إِنَّ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ وَ أَى خيانه أعظم من عدم الاستجابه لنداء الفطره و العزوف عن نداء الحق و العقل، و الشرك بالله و عباده الأصنام بدلا من الإیمان بالله و توحيده؟ ثم إِنَّ عليهم أن لا ينسوا نصره الله لك فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ و إذا أرادوا الخيانه فى المستقبل فلن يفلحوا و سوف ينالون الخزى و الخسران و الهزيمة مره أخرى. لأنَّ الله مطلع على نياتهم، و جميع تعاليم الإسلام فى شأن الأَسرى وفق حكمته وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ و قد جاء فى كتب الفريقين -الشيعة و أهل السنه- فى ذيل الآيتين محل البحث أن العباس عم النَّبى كان بين أسرى بدر، فطلبت جماعه من الأنصار أن لا

يؤخذ عنه فداء إكراما لرسول الله،

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «والله لا تذرون منه درهما»، (أى إذا كان الفداء قانونا إسلاميا عاما، فلا ينبغي أن يفرق بين عمى وبين أى أسير آخر).

و

قال لعمة العباس: «ادفع عنك وعن ابن أخيك-عقيل-الفداء».

فقال له العباس «وكان شغوفاً بالمال». يا محمد أ تريد أن تجعلنى فقيراً حتى أمد يدي إلى قريش؟! فقال له النبي: أعط فداءك من المال الذى أودعته عند أم الفضل-زوجتك- و قلت لها: إذا قتلت فى ساحة المعركة فأنفقيه على نفسك وعلى أبنائك.

فتعجب العباس من هذا الأمر وقال: من أخبرك بهذا؟ «و لم يطلع عليه أحد أبدا» فقال رسول الله: أخبرنى بذلك جبرائيل.

فقال العباس: أحلف بمن يحلف به محمد صلى الله عليه وآله وسلم لم يعلم بذلك إلا أنا و زوجتى، ثم قال: أشهد أنك رسول الله، و أعلن إسلامه.

و عاد جميع أسرى بدر إلى مكة إلا العباس و عقيلاً و نوفلاً، إذ أسلموا و بقوا فى المدينة، والآيات محل البحث تشير إلى حال أولئك (١).

و جاء فى شأن إسلام العباس فى بعض التواريخ أنه عاد إلى مكة بعد إسلامه، و كان يكتب إلى النبي عن مؤامرات المشركين ثم هاجر إلى المدينة قبل السنه الثامنه من الهجرة «عام فتح مكة».

و

فى كتاب قرب الإسناد عن الإمام الباقر عن أبيه الإمام زين العابدين، أنه جىء إلى رسول الله ذات يوم بأموال كثيره، فالتفت النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى العباس و قال له: ابسط عباة تك أو «رداءك» و خذ من هذا المال، ففعل العباس و أخذ من ذلك المال، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: هذا ما قاله الله سبحانه و تلا قوله:

ص: ٥٠٠

(١-١) -يراجع تفسير نور الثقلين، و روضه الكافى، و تفسير القرطبي، و تفسير المنار، ذيل الآيه محل البحث.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى

(١)

و هو إشاره إلى أن وعد الله قد تحقق عمليا في إتيان العباس خيرا ممّا أخذ منه.

و يعرف من هذا الحديث أنّ النبي كان في صدد أن يعوض الأسرى الذين أسلموا عمّا أخذ منهم، ترغيبا و تشويقا، و أن يعيد إليهم أموالهم المأخوذة منهم بصورة أحسن.

ص: ٥٠١

١-١) - تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ١٦٨.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ
 آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرْتُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصِيرُ إِلا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ
 بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَ
 الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَ
 الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ
 شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)

أربع طوائف مختلفة:

تبحث هذه الآيات التي تختتم بها سورة الأنفال -و تعدّ آخر فصل من فصولها- عن طوائف المهاجرين و الأنصار و الطوائف الأخرى من المسلمين و بيان قيمه هؤلاء جميعا، فتعطي كل طائفة قيمه، و تستكمل ما تناولته الآيات السابقة في شأن الجهاد و المجاهدين.

و بتعبير آخر: إنّ هذه الآيات عالجت نظام المجتمع الإسلامي من حيث العلائق المختلفة، لأنّ خطه الحرب و خطه الصلح كسائر الخطط و المناهج العامه، لا يمكن أن يتمّ أيّ منها دون تكوين علاقه اجتماعيه صحيحه، و أخذها بنظر الإعتبار.

و قد تناولت هذه الآيات خمس طوائف، أربع منها من المسلمين، و واحده من غير المسلمين، و الطوائف الأربع هي:

١- المهاجرون السابقون.

٢- الأنصار في المدينة.

٣- المؤمنون الذين لم يهاجروا.

٤- الذين آمنوا من بعد و هاجروا.

فتقول الآيه الأولى من الآيات محل البحث إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوُوا وَ نَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ .

فقد أشير في هذا القسم من الآيه إلى الطائفتين، الأولى و الثانيه [المهاجرون، و الأنصار]

أى الذين آمنوا في مكّه ثم هاجروا منها إلى المدينة، و الذين آمنوا في المدينة ثم آزرُوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ نصروه و دافعوا عنه و عن المهاجرين، و قد وصفتهم الآيه بأنهم بعضهم أولياء بعض، و بعضهم حماه بعض.

و الذى يسترعى النظر أنّ الآيه وصف الطائفه الأولى بأربع صفات هي:

الإيمان، و الهجره و الجهاد المالى و الاقتصادى «و ذلك عن طريق الإعراض عن أموالهم فى مكه، و ما بذلوه من أموال فى غزوه بدر»، و الصفه الرابعه جهادهم بأنفسهم و دمائهم و أرواحهم.

أمّا الأنصار فقد وصفتهم الآيه بصفتين هما: الإيواء، و النصره.

و قد جعلت هذه الآيه الجميع مسئولين بعضهم عن بعض، و يتعهد كلٌ بصاحبه بقولها بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ .

فهاتان الطائفتان- فى الحقيقه- كانتا تمثلان مجموعتين متلازمتين لا يمكن لأحدهما الاستغناء عن الأخرى، إذ منهما يتكون نسيج المجتمع الإسلامى، فهما بمثابة «المغزل و الخيط».

ثم تشير الآيه إلى الطائفه الثالثه فتقول: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا .

ثم استثنت فى الجملة التى بعدها مسئوليه واحده فحسب، و أثبتتها فى شأن هذه الطائفه، فقالت: وَ إِنِ اسْتَنْصِرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ... إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ .

و بتعبير آخر: يلزم الدفاع عن أولئك فى صورته ما لو أصبحوا قبال عدوّ مشترك، أمّا إذا واجهوا كفاراً بينكم و بينهم عهد و ميثاق، فإنّه يجب الوفاء بالعهد و الميثاق، و هى مقدمه على الدفاع فى هذه الصوره.

و حضّت الآيه على رعايه العهود و المواثيق و الدقه فى أداء هذه المسئوليه، و منبهه إلى علم الله بكل الأمور، فقالت: وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

فهو يرى جميع أعمالكم و يطلع على ما تفعلون من جهاد، أو أداء للوظيفه الملقاه على عاتقكم، أو إحساس بالمسئوليه، كما يعلم بمن لم يعتن بالأمر، و كذلك بالوهن و الضعف و عدم الإحساس بالمسئوليه إزاء هذه الوظائف

الكبيره.

أَمَّا الْآيَةُ الثَّانِيَةُ فَتَشِيرُ إِلَى النَّقْطَةِ الْمُقَابِلَةِ لِلْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ، أَيْ مَجْتَمَعِ الْكُفْرِ وَ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، فَتَقُولُ: وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ .

أى أنّ علاقاتهم منحصره فيما بينهم، ولا يحق لكم أن تتعاهدوا معهم، أو تحاموا عنهم، أو تطلبوا منهم النصره لأنفسكم، أو تلجؤوهم و تؤووهم إليكم، أو تأووا و تلتجئوا إليهم.

و بعبارة موجزه: لا يحق للكفار أن يدخلوا فى نسيج المجتمع الإسلامى، و لا يحق للمسلمين أن يدخلوا فى نسيج الكفار.

ثم تنبه الآيه المسلمين و تحذرهم من مخالفه هذا التعليم، فتقول: إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فُسَادٌ كَبِيرٌ .

و أى فتنة و فساد أكبر من تهمة انتصاركم، و سريان دسائس الأعداء فى مجتمعكم، و تخطيطهم لهدم دينكم دين الحق و العدل.

أَمَّا فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ فَتَجِدُ تَأْكِيدًا عَلَى مَقَامِ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ مَرَّةً أُخْرَى، وَ مَا لِهَذَا مِنْ مَوْقِعٍ وَ أَثَرٍ فِي تَحْقِيقِ أَهْدَافِ الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ، فَتَشِيرُ عَلَيْهِمُ الْآيَةُ بِقَوْلِهَا: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا .

لأنهم هبوا لنصره الإسلام فى الأيام الصعبة الشديده و فى الغربه و المحنه و قد اشترك كل فرد منهم بنوع من النصره لله و لرسوله صلى الله عليه و آله و سلم لهم مغفرة و رزق كريم .

فهم فائزون بثواب الله و النعمة الأخرويه، كما أنهم يتمتعون فى هذه الدنيا بالعزه و رفعة الرأس و الكرامه.

أَمَّا الْآيَةُ الْآخِرَةُ فَتَشِيرُ إِلَى الطَّائِفَةِ الرَّابِعَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أَيْ أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ، فَتَقُولُ: وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا

ص: ٥٠٥

أى أنّ المجتمع الإسلامى ليس مجتمعاً مغلقاً و محصوراً على نفسه، بل أبوابه مفتوحة لجميع المؤمنين و المهاجرين و المجاهدين، و إن كان للمهاجرين الأوائل مقام خاص و منزله كريمه، إلا أنّ ذلك لا يعنى أن المؤمنين الجدد و المهاجرين فى المستقبل لا يعدّون جزءاً من المجتمع الإسلامى و لا يكونون من نسيجه.

و تشير الآيه فى ختامها إلى ولاية الأرحام بعضهم لبعض، و أوليتها فيما جعله الله فى عباده من أحكام، فنقول: **وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ .**

و فى الحقيقة فإنّ الآيات السابقة تتكلم عن ولاية المؤمنين و المسلمين العامه «بعضهم إلى بعض» أمّا هذه الآيه محل البحث فتؤكد هذا الموضوع فى شأن الأرحام و الأقارب، فهم إضافة إلى ولاية الإيمان و الهجره يتمتعون بولاية الأرحام أيضاً، و من هنا فهم يرثون و يورثون بعضهم بعضاً، إلاّ أنّه لا يرث بين غيرهم من المؤمنين الذين لا علاقته قريبي بينهم.

فبناء على ذلك فإنّ الآيه الأخيره لا تتكلم عن الإرث، بل تتكلم عن موضوع واسع من ضمنه موضوع الإرث.

و إذا وجدنا فى الروايات الإسلاميه، و فى الكتب الفقيهيه، استدلالاً بهذه الآيه و الآيه المشابهه لها فى سوره الأرحام على الإرث، فلا يعنى ذلك أن الآيه الذى استدل به على الإرث منحصر بهذا الشأن فحسب، بل توضح قانوناً كلياً، و الإرث جزء منه. و لهذا نجد أنّه استدل بهذه الآيه محل البحث على موضوع خلافه التّبي مع أنّها غير داخله فى موضوع الإرث المالى.

و استدل بها على أولويه غسل الميت، كما صرّحت به الروايات الإسلاميه.

و بملاحظه ما ذكرناه آنفا يتّضح أنّه لا دليل على ما أصر عليه جماعه من

المفسرين على انحصار هذه الآيه بمسأله الإرث، و إذا أردنا أن نختار مثل هذه التفسير فإن السبيل الوحيد له أن نعدّه مستثنيا الإرث من الولايه المطلقه، التي بينتها الآيات السابقه لعامه المهاجرين و الأنصار، فنقول: إن الآيه الأخيره تقول بأن ولايه المسلمين العامه بعضهم لبعض لا تشمل الإرث.

و أما الاحتمال بأن الآيات السابقه تشمل الإرث أيضا ثم نسخت الآيه الأخيره هذا الحكم منها، فيبدو بعيدا جدا، لأن الترابط في المفهوم بين هذه الآيات جميعا من الناحيه المعنويه، بل حتى التشابه اللفظي، كل ذلك يدل على أن الآيات نزلت معا في وقت واحد. و بهذا لا يمكن القول بالتناسخ بين هذه الآيات.

و على كل حال فإن التفسير الأكثر تناسبا لهذه الآيات هو ما بيناه آنفا.

و في آخر جمله من هذه الآيه- التي هي آخر جمله من سوره الأنفال أيضا- يقول الله سبحانه: **إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** فما نزل في هذه السوره من أحكام تتعلق بالأنفال و غنائم الحرب، و تعاليم الجهاد و الصلح، و أحكام الأسرى و الحرب، و ما يتعلق بالهجره و غيرها، كل ذلك كان وفق حساب دقيق يتلاءم و روح المجتمع الإنساني، و العواطف و البشريه، و المصالح العامه في جميع جوانبها المختلفه.

ملاحظات

إشارة

١-الهجره و الجهاد

إنّ دراسه التاريخ الإسلامى تدلّ على أن هذين الموضوعين كانا من عوامل انتصار المسلمين الرئيسيه قبل عدوّهم، فلولا الهجره لتّم دفن الإسلام في مكّه، و لولا الجهاد لما اتسعت رقعه الإسلام، فالهجره أخرجت الإسلام من منطقه

خاصّه إلى مداه الرحب و صيرته عالميًا، و الجهاد عَلمَ المسلمين أنّهم إذا لم يعتمدوا على قدراتهم فإنّ عدوّهم الذى لا يلتزم بأية مقررات سوف لا يعترف لهم بأدنى حقّ. سوف لا يعطيهم حقوقهم المشروعه، و لا يصيخ لهم سمعا أبدا.

و اليوم إذا أردنا انقاذ الإسلام من الطرق المسدوده، و إزاحه الموانع التى جعلها الأعداء فى طريقه من كل جهه، فلا سبيل إلى ذلك إلاّ باحياء هذين الأصلين: الهجره و الجهاد.

فالهجره توصل صوت المسلمين إلى أسمع العالم كله، و تروى ظمأ القلوب المتعطشه للحق و العدل و من هو فى شوق إلى معرفه الحقيقه.

و الجهاد يهب المسلمين التحرك و الحياه، و يبعد أعداءهم الذين لا ينفعم إلاّ منطلق القوه عن قارعه الطريق و يبدهم.

و قد حدثت الهجره فى الإسلام مرارا. فكانت هجره المسلمين من مكّه إلى الحبشه حيث غرسوا بها الإسلام خارج الجزيره العربيه و بنوا فيها حصنا للمسلمين الأوائل قبال ضغوط أعدائهم.

ثمّ هجره النّبى و المسلمين الأولى إلى المدينه، و لهؤلاء المهاجرين الذين يطلق عليهم (مهاجرو بدر) أهميه قصوى فى تاريخ الإسلام، لأنّهم اتّجهوا ظاهرا نحو مستقبل مجهول مظلم، و غصوا ابصارهم عن جميع ما ملكوه فى سبيل الله، و أعرضوا عن حطام الدنيا.

هؤلاء المهاجرين أى: «المهاجرون الأوّلون» مثلوا فى الحقيقه الحجر الأساس لصرح الإسلام العظيم، و القرآن يثنى عليهم بالتكريم و التعظيم، و لوليهم عنايه خاصّه، لأنّهم كانوا من أشدّ المسلمين تضحيه.

«الهجره الثانيه» أطلقت على هجره طائفه أخرى من المسلمين إلى المدينه، و ذلك بعد صلح الحديبيه و الحصول على محيط آمن نسبيا بعد هذا الصلح، و قد تطلق الهجره على كل مهاجر من مكّه إلى المدينه حتى بعد واقعه

بدر، و إلى زمان فتح مكّه.

أمّا بعد فتح مكّه فقد انتفت الهجره من مكّه إلى المدينه، لأنّ مكّه أصبحت مدينه إسلاميه أيضا، و الحديث النبوى المشهور «لا هجره بعد الفتح» يشير إلى هذا المعنى.

لكن هذا الكلام لا- يعنى أن مفهوم الهجره زاك من قاموس مبادئ الإسلام كليا كما يتصور بعضهم، بل الهجره من مكّه إلى المدينه انتفى موضوعها، و إلاّ فمتى ما حدثت ظروف كظروف المسلمين الأوائل فقانون الهجره باق على قوته، و سوف يبقى ما دام الإسلام يتسع حتى يستوعب العالم أجمع.

و مع الأسف الشديد فإنّ أغلب المسلمين لنسيانهم هذا الأصل الإسلامى المهم انغلقتوا على أنفسهم، بينما نرى المبشرين المسيحيين و الفرق الضاله و الاستعمار يهاجرون إلى أنحاء المعموره كلها، و يذهبون حتى إلى القبائل أو الطوائف المتوحشه ممن يأكلون لحوم البشر فى مجاهيل أفريقيا، و يجوبون القطبين المتجمدين الشمالى و الجنوبى فى سبيل تحقيق أهدافهم، مع أن هذه مهمّه المسلمين فى الواقع، إلاّ أن العمل أضحى من الآخرين! و الأعجب من ذلك وجود الكثير من القرى فى جوار المدن الإسلاميه الكبرى، و بمسافه لا تبعد كثيرا عنها، إلاّ أن أهلها لا يعرفون عن الإسلام شيئا، و لا يعرفون أحكامه، و ربّما لم يروا وجه مبلغ إسلامى هناك أبدا. لهذا فإنّ محيطهم مستعد لنشوء جرائم الفساد و المذاهب المختلفه و البدع التى يفتعلها «الاستعمار» و لا ندرى بماذا يجيب المسلمون ربّهم يوم القيامه- و هم ورثه المهاجرين الأوائل- إزاء هذه الحال المزريه؟! و بالرغم من مشاهدته تحرك فى هذا الصدد أخيرا، إلاّ أنّه محدود و غير كاف أبدا.

و على أية حال، فإن موضوع الهجره و أثرها فى تاريخ الإسلام و مصير

المسلمين أكبر من أن تأتي على جميع جوانبه بهذا الاختصار(و لنا كلام بهذا الشأن لدى تفسير الآيات التي تناول هذا الموضوع إن شاء الله...).

٢-المبالغة و الإغراق في تنزيه الصحابه

حاول بعض إخواننا أهل السنه أن يستنتج من ما أولاه القرآن للمهاجرين السابقين «الأوائل» من اهتمام و احترام، أنهم لن يرتكبوا ذنبا إلى آخر عمرهم و حياتهم. و ذهبوا إلى إكرامهم و احترامهم جميعا دون استثناء، و دون الاعتراض على هذا و ذاك، و كيف ذلك؟! ثم عمموا هذا القول على جميع الصحابه-فضلا عن المهاجرين-و ذلك لثناء القرآن عليهم في بيعه الرضوان و غيرها، و ذهبوا عملا- إلى أن الصحابه-دون النظر إلى اعمالهم-أفراد متميزون.فلا- يحق لأى شخص توجيه النقد لهم و التحقيق فى سلوكهم.يجوز بأى وجه أن يوجه النقد إليهم.

و من جمله هؤلاء المفسر المعروف صاحب المنار، إذ حمل فى ذيل الآيات محل البحث حمله شعواء على الشيعة، لأنهم ينتقدون المهاجرين الأولين، و لم يلتفت إلى أن مثل هذا الإعتقاد لا- يتضاد و روح الإسلام و تاريخه!! فلا ريب أن للصحابه-و على الخصوص المهاجرين منهم-حرمة خاصه، إلا- أن هذه الحرمة كانت قائمه ما داموا فى طريق الحق و يضحون من أجل الحق، لكن من المقطوع به أن نظره القرآن إلى بعضهم أو حكمه قد تغير منذ انحرف عن النهج القويم و الصراط المستقيم.

فمثلا، كيف يمكننا أن نبرئ طلحه و الزبير من نقضهما بيعه إمامهما الذى انتخبه المسلمون«بغض النظر عن تصريح النبى بمقامه و شأنه»و كانا من ضمن المسلمين الذين بايعوه؟و كيف يمكن تبرأتها من دماء سبعة عشر ألف مسلم قتلوا فى حرب الجمل، مع أنه لا عذر لمن يسفك دم إنسان واحد أمام الله مهما

كان، فكيف بهذا العدد الهائل الذين سفكت دماؤهم؟ ترى هل يمكن أن نعدّ علياً عليه السلام و أصحابه في حرب الجمل على الحق كما نعدّ أعداءه فيها على الحق أيضاً؟! و نعدّ طلحه و الزبير و من معهما من الصحابه على الحق كذلك؟! و هل يقبل العقل و المنطق هذا التضاد الفاضح؟ و هل يمكننا أن نغض النظر من أجل عنوان «تنزيه الصحابه» و لا نلتفت إلى التاريخ و ننسى كل ما حدث بعد النبي صلى الله عليه و آله و سلم و نضرب عرض الجدار قاعده إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ؟ مالكم كيف تحكمون؟! و ما يمنع أن يكون الإنسان من أهل الجنه و مؤيداً للحق يوماً، و يكون من أهل النار و مؤيداً للباطل و من أعداء الحق يوماً آخر؟... فهل الجميع معصومون؟ ألسنا نرى التغييرات في أحوال الأشخاص بأم أعيننا؟! قصه «اصحاب الردّه» و ارتداد جمع من المسلمين بعد رحله الرسول صلى الله عليه و آله و سلم المذكوره في كتب أهل السنه و الشيعه، و أن الخليفه الأول تصدى لهم و قاتلهم، فهل يعقل أن أحداً من «اصحاب الردّه» لم ير النبي صلى الله عليه و آله و سلم و لم يكونوا في عدّه الصحابه؟ و الأعجب من ذلك أن بعضاً تشبث بالاجتهاد للتخلص من الطريق المسدود و التناقض في ذلك، و قالوا: إن أمثال طلحه و الزبير و معاويه و من لفّ لفهم قد اجتهدوا فأخطأوا و ليسوا مذنبين، بل هم مثابون مأجورون بأعمالهم من قبل الله! فما أفصح هذا المنطق؟! فهل الثوره على خليفه النبي صلى الله عليه و آله و سلم و نقض البيعه و هدر دماء الآلاف من الأبرياء من أجل رئاسات دنيويه و حب المال، موضوع معقد و مبهم و لا يعرف أحد ما فيه من سوء؟! ترى هل في سفك كل تلك الدماء البريئه أجر و ثواب عند الله؟!!

فإذا أردنا تبرئه جماعه من الصحابه ممّا ارتكبه من جرائم، فسوف لا نرى مجرماً أو مذنباً في الدنيا، وسنبرئ بهذا المنطق جميع القتله و المجرمين و الجبايره.

إنّ مثل هذا الدّفاع غير المنطقي -عن الصحابه- سيسبب النظره السيئه إلى أصل الإسلام.

و الخلاصه، أنّنا لا سبيل لنا إلّا احترام الجميع خاصّه أصحاب النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم ما داموا لم ينحرفوا عن مسير الحق و العدل و مناهج الإسلام، و إلّا فلا.

٣- الإرث في قوانين الإسلام

كما أشرنا سابقاً في تفسير سوره النساء، فإنّ الناس في زمان الجاهليه كانوا يتوارثون عن ثلاث طرق:

١- عن طريق النسب «و كان منحصرًا بالأولاد الذكور، أمّا الأطفال و النساء فهؤلاء محرومون من الإرث».

٢- عن طريق «التبني» بأن يجعل ولد غيره ولده.

٣- عن طريق العهد الذي يعبر عنه بالولاء (١).

و في بدايه الإسلام كان العمل جارياً بهذه الطرق قبل نزول قانون الإرث، إلّا أنّه سرعان ما حلّت الأخوه الإسلاميه مكان ذلك، و ورث المهاجرون الأنصار فحسب، و هم الذين تأخوا و عقدوا عهد الأخوه الإسلاميه، و بعد أن اتسع الإسلام أكثر فأكثر شرّع حكم الإرث النسبي و السببي، و نسخ حكم الأخوه الإسلاميه في الإرث.

و قد أشارت إليه الآيات -محل البحث- و الآيه (٦) من سوره الأحزاب، إذ

ص: ٥١٢

١- (١) بحثنا موضوع الإرث بالولاء في الجزء الثالث بصوره مفصله.

تقول: وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ .

كل هذا مقطوع به من حيث التاريخ، إلا أنه- كما قلنا من قبل- فإن جملة وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ الواردة في الآيات محل البحث لا تختص بمسألة الإرث، بل هي ذات معنى واسع، والإرث جزء منه.

٤- ما المراد من الفتنة و الفساد الكبير

احتمل المفسرون في تفسير هاتين الكلمتين الواردتين في الآيات محل البحث احتمالات كثيرة، إلا أن ما ينسجم أكثر مع مفهوم هذه الآيه هو أن المراد من «الفتنة» هو الاختلاف و التفرق و تزلزل مباني العقيدة الإسلامية على أثر وسوسه الأعداء، و«الفساد» يشمل كل إخلال و تخريب للنظم الاجتماعية المختلفة و خاصه سفك الدماء البريئه و الإرهاب و أمثال ذلك.

و في الحقيقة فإن القرآن المجيد ينذر المسلمين إذا لم يحكموا علائق الأخوه و التعاون فيها بينهم، و لم يقطعوا ارتباطهم بالعدو، فإن جماعتهم تزداد تشتتاً يوماً بعد يوم، و بنفوذ الأعداء داخل المجتمع الإسلامي و وساوس إغواءاتهم تزلزل أسس الإيمان و قواعده، و يتلى المسلمون عن هذا الطريق بفتنه عظيمه.

و كذلك إذا لم تكن علائق اجتماعيه قويه، فإن العدو سرعان ما ينفذ إلى المجتمع و تحدث أنواع المفاسد من إرهاب و سفك الدماء، و تضييع الأموال و إغواء الأولاد، و يبدو الضعف و النقص واضحاً في المجتمع، و يعم الفساد الكبير كل مكان.

ربنا، أيقظ مجتمعنا الإسلامي بلطفك. و تبهنا إلى أخطار التعاون مع الأعداء و تكوين العلاقه و إياهم. و نزه مجتمعنا من الفتنة و الفساد الكبير بنور المعرفة و وحده الكلمه، برحمتك يا أرحم الراحمين.

سوره التّوبه

اشاره

و هي مدنيه و عدد آياتها مائه و تسع و عشرون آيه فحسب

ص: ٥١٥

سوره التّوبه ینبغی الالتفات إلى الأمور التالیه قبل الشروع فی تفسیر السوره

١- أسماء هذه السّوره...

ذكر المفسّرون لهذه السّوره أسماء عديده تبلغ العشره، غیر أنّ المشهور منها هو ما یلی: سوره البراءه، و سوره التوبه، و السوره الفاضحه. و لكلّ من التسمیات سبب جلی.

فالبراءه، لأنّها تبتدأ بإعلان براءه اللّٰه من المشركین، و الذین ینقضون عهدهم.

و التوبه، لما ورد من مزید الكلام عن التوبه فی هذه السوره.

و الفاضحه، لما فیها من الآیات التي تكشف النقاب عن أعمال المنافقین لتعریتهم و خزیهم و فضیحتهم.

٢- متى نزلت هذه السوره

هذه السوره هی آخر سوره نزلت علی النّبی الأکرم صلی اللّٰه علیہ و آلہ و سلّم أو من أواخر السور النازلہ علیہ فی المدینہ، و هی كما قلنا ذات ١٢٩ آیه فحسب.

و المعروف أن بدایه نزول هذه السوره كانت فی السنه التاسعه للهجره، و یدلّ تتبع آیاتها علی أنّ قسما منها نزل قبل معرکه تبوک، و قسما منها نزل عند الاستعداد للمعرکه أو «الغزوه»، و قسما منها نزل بعد الرجوع من المعرکه و الفراغ منها.

ص: ٥١٧

و من بدايه السوره حتى الآيه (٢٨) نزل قبيل موسم الحج، كما سنبين ذلك بعون الله، و الآيات الأولى -هذه- و التي تتعلق بمن بقى من المشركين بلغها أمير المؤمنين عليه السلام فى موسم الحج.

٣-محتوى السوره

لما كان نزول هذه السوره إبان انتشار الإسلام فى الجزيره العربيه، و تحطيم آخر مقاومه للمشركين فقد كان لما حوته من مفاهيم أهميه بالغه و مواضع حساسه. إذ يتعلق قسم منها بالبقيه الباقيه من عبده الأوثان و المشركين، و قطع العلاقات معهم، و إلغاء المعاهدات و المواثيق التى كانت بينهم و بين المسلمين، لنقضهم لها مرارا، ليتم تطهير المحيط الإسلامى من رجس الوثنيه إلى الأبد.

و حيث إن بعض الأعداء عند انتشار رقعته الإسلام و تحطيم قوى الشرك غير مظهره بغيه النفوذ بين المسلمين، و لتوجيه ضربه قاضيه للإسلام من قبل المنافقين فإنّ قسما مهما من آيات هذه السوره تتحدّث عن المنافقين و عاقبهم، و تحذر المسلمين منهم.

و بعض آيات هذه السوره تتحدّث عن الجهاد فى سبيل الله و أهميته، لأنّ الغفله عن هذا الأمر الحياتى فى ذلك الظرف الحساس تبعث على ضعف المسلمين و تقهقرهم أو انكسارهم.

كما أنّ قسما منه يكمل البحوث السابقه التى تناولت انحراف أهل الكتاب «اليهود و النصارى» عن حقيقه التوحيد، و تتكلم عن انصراف علمائهم عن واجبه فى التبليغ و قياده المجتمع.

و فى بعض آيات هذه السوره حثّ للمسلمين على الاتحاد و رص الصفوف -تعقيبا على ما جاء آنفا فى الحث على الجهاد- و توبيخ للمتخاذلين المتحرّفين أو الضعاف الذين يتذرعون بذرائع واهيه للتخلص من هذا الواجب، ثمّ إنّ فيها

ثناء على المهاجرين السابقين إلى الهجره، و الصفوّه من المؤمنين الصادقين.

و حيث سبّب انتشار الإسلام و اتساع رقعه مجتمعه آنئذ ظهور حاجات مختلفه ينبغى توفيرها، فقد عرضت بقيه الآيات من هذه السوره موضوع الزكاه و تحريم تراكم الثروات و اكتنازها، و وجوب طلب العلم أو التعلّم و تعليم الجهله، و تناولت بحوثا متنوعه أخرى كقصه هجره النبي، و الأشهر الحرم التى يحرم فيها القتال، و أخذ الجزيه من الأقليات الدينيه غير الإسلاميه كاليهود و النصرى، و ما إلى ذلك.

٤- لم لم تبدأ هذه السوره بالبسملة؟

يجيب استهلال السوره على السؤال آنف الذكر فقد بدئت بالبراءه-من قبل الله-من المشركين، و إعلان الحرب عليهم، و اتباع أسلوب شديد لمواجهتهم، و بيان غضب الله عليهم، و كل ذلك لا يتناسب و البسملة بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الداله على الصفاء و الصدق و السلام و الحب، و الكاشفه عن صفه الرحمه و اللطف الإلهى.

و قد ورد هذا التعليل عن على عليه السلام (١).

و يعتقد بعض المفسرين أن سوره براءه-فى الحقيقه-تمه لسوره الأنفال، لأنّ الأنفال تتحدث عن العهود، و براءه تتحدث عن نقض تلك العهود، فلم تذكر البسملة بين هاتين السورتين لارتباط بعضهما ببعض. و قد ورد عن الإمام الصادق هذا المعنى أيضا (٢).

و لا مانع أن يكون السبب فى عدم ذكر البسملة مجموع الأمرين آنفى الذكر

ص: ٥١٩

١- ١) جاء فى مجمع البيان عن الشيخ الطبرسى عن على عليه السلام أنه قال «لم تنزل بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ على رأس سوره «براءه» لأنّ بسم الله للأمان و الرحمه و نزلت براءه لرفع الأمان و السيف فيه!».

٢- ٢) قال الطبرى نقلا عن الإمام الصادق عليه السلام «الأنفال و براءه واحده!».

-معا- فالأول ناظر إلى الرواية الأولى «رواية الإمام علي» والثاني يشير إلى روايه الإمام الصادق عليه السلام.

٥- فضيله هذه السوره و آثارها

أولت الروايات الإسلاميه أهميته خاصه لتلاوه سورتي براءه و الأنفال، و ممّا جاء في شأنهما

عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال «من قرأ براءه و الأنفال في كل شهر لم يدخله نفاق أبداً، و كان من شيعه أمير المؤمنين عليه السلام حقاً».

و قد قلنا مراراً: إنّ ما ورد من أهميه قصوى في الروايات الإسلاميه في قراءه مختلف السور لا يعنى ظهور آثار تلك القراءه من دون تفكّر و تطبيق لمضامينها، فنقول مثلاً: من قرأ سورتي براءه و الأنفال دون إدراك لمعانيهما فسيدراً عنه النفاق، و يكون من شيعه أمير المؤمنين عليه السلام، بل المراد في الحقيقه أن يكون مضمون السوره مؤثراً في بناء شخصيه الفرد و المجتمع، و لا يتحقق ذلك إلا بإدراك مغزى السوره و استيعاب معناها، و الاستعداد و التهيؤ لتطبيقها.

و حيث أن السورتين قد أوضحنا الخطوط العريضه العامه في حياه المؤمنين الصادقين و من في قبالهم من المنافقين، و أنارتا الطريق للعاملين لا- للمدّعين فحسب، فستكون ثمره تلاوتهما و الإعتبار بمضمونيهما هو ما ذكرته الروايه و بهذا تكون التلاوه مؤثره بناءً.

و أمّا من ينظر إلى القرآن و آياته الشريفه بشكل آخر، فهو أبعد ما يكون عن روح هذا الكتاب التربوي الذي جاء لبناء الإنسانيه و هدايتها.

و

قد ورد عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم في بيان الأهميه القصوى لما نوهنا عنه من لطائف، أنّه قال «نزلت عليّ براءه و التوحيد في سبعين ألف صف من صفوف الملائكه، و كان كل صف منهم يوصيني بأهميه هاتين السورتين».

ص: ٥٢٠

٦- حقيقه تاريخيه يسعي بعضهم إلى طمس معالمها

من المتفق عليه بين جميع المؤرخين و المفسرين تقريباً أنه لما نزلت الآيات الأولى من سورة براءه، و ألغيت العهود التي كانت بين المشركين و المسلمين، أمر النبي أبا بكر أن يبلغ هذه الآيات في موسم الحج، ثم أخذها منه و أعطها علياً عليه السلام ليقيم بتليغها، فقرأها علي على الناس في موسم الحج. و بالرغم من اختلاف الروايات في جزئيات هذه القصة و جوانبها المتفرقة، إلا أن ذكر النقاط التاليه يمكن أن يجلو لنا حقيقه ناصعه:

١- يروي أحمد بن حنبل- إمام أهل السنه المعروف- في مسنده عن ابن عباس، أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم أرسل فلاناً المقصود بفلان هو أبو بكر كما سيوضح ذلك بعدئذ، و أعطاه سورة التوبه ليبلغها الناس في موسم الحج، ثم أرسل علياً خلفه و أخذها منه و

قال صلى الله عليه و آله و سلم «لا يذهب بها إلا رجل مني و أنا منه» (١).

٢- كما جاء في المسند ذاته عن أنس بن مالك، أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم أرسل سورة براءه مع أبي بكر ليبلغها، فلما وصل أبو بكر إلى ذى الحليفه- و يدعى بمسجد الشجره أيضاً- هو و علي بعد مسافه فرسخ عن المدينه تقريباً،

قال النبي صلى الله عليه و آله و سلم:

«لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي» فبعث بها مع علي عليه السلام (٢).

٣-

ورد أيضاً في المسند نفسه- بإسناد آخر- عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه لما بعثه النبي و معه براءه قال: يا رسول الله لست خطيباً، فقال النبي صلى الله عليه و آله و سلم: لا محيص عن ذلك، فإما أن أذهب بها أو تذهب بها، فقال علي: إذا كان و لا بد فأنا أذهب بها. فقال له النبي صلى الله عليه و آله و سلم: «انطلق بها فإن الله يثبت لسانك و يهدي قلبك» (٣).

٤- و ينقل النسائي- أحد كبار علماء السنه- في خصائصه،

عن زيد بن

ص: ٥٢١

١- ١) مسند أحمد بن حنبل، ج ١، ص ٣٣١، ط مصر!

٢- ٢) مسند أحمد بن حنبل، ج ٣، ص ٢١٢.

٣- ٣) مسند أحمد بن حنبل، ج ١، ص ١٥٠.

سبيح، عن علي عليه السلام، أن النبي أرسل أبا بكر بسوره براءه إلى أهل مكّه، ثم بعث عليًا خلفه ليأخذ الكتاب منه «يعنى السوره» فلحقه في الطريق و أخذ الكتاب منه، فعاد أبو بكر حزينا أسيفا، وقال: يا رسول الله أنزل فيّ شيء؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم:

«لا، إلا أتى أمرت أن أبلغه أنا أو رجل من أهل بيتي» (١).

٥-و

في سند آخر أيضا، عن عبد الله بن أرقم، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث أبا بكر بسوره براءه، فلمّا سار و بلغ بعض الطريق بعث النبي عليا فلحقه و أخذ منه السوره، فذهب بها على إلى مكّه، فرجع أبو بكر إلى النبي متأثرا فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«لا يؤدي عنّي إلا أنا أو رجل منّي» (٢).

٦-و أورد ابن كثير-المفسر المعروف-

عن أحمد بن حنبل، عن حنش، عن أمير المؤمنين علي عليه السلام، أنه عند ما نزلت عشر آيات من سوره براءه على النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا أبا بكر و أعطاه إياها ليبلغها أهل مكّه، ثم بعث خلفي و أمرني بالذهاب خلفه و أخذ الكتاب منه، فعاد أبو بكر إلى النبي و قال: أنزل فيّ شيء؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا، ولكن جبرئيل جاءني و قال: لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك» (٣).

٧-و نقل ابن كثير هذا المضمون عنه عن زيد بن سبيح (٤).

٨-كما أنه روى هذا الحديث عن أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (محمّد الباقر عليه السلام) في تفسيره (٥).

٩-و

روى العلامة ابن الأثير و هو-الآخر- من علماء السنه الكبار، في «جامع الأصول» عن الترمذي عن أنس بن مالك، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أرسل سوره

ص: ٥٢٢

١- (١) الخصائص... للنسائي، ص ٢٨.

٢- (٢) المصدر السابق.

٣- (٣) تفسير ابن كثير، ج ٢، ص ٣٢٢.

٤-٤) المصدر السابق.

٥-٥) المصدر السابق.

براءة مع أبي بكر ثم دعاه، وقال: «لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذه إلا رجل من أهلي» فدعا عليا فأعطاه إيّاها (١).

١٠-

روى محب الدين الطبري، في كتابه ذخائر العقبى، عن أبو سعيد أو أبي هريره، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم أمر أبا بكر أن يتولى أمر الحج، فلما مضى وبلغ ضجنان سمع أبو بكر صوت بعير على فعرفه، فجاء إلى علي و قال: فيم جئت؟ فقال عليه السلام: أرسل النبي معي سورة براءه. فلما رجع أبو بكر إلى النبي و أظهر تأثره من تغيير «الرساله» قال له النبي صلّى الله عليه وآله وسلم: «لا يبلغ عنّي غيري أو رجل مني» يعني عليا (٢).

و قد صرحت روايات أخرى أنّ النبي أعطى ناقته عليا ليركبها و يأتي بها أهل مكّه فيبلغهم، فلما وصل منتصف الطريق سمع أبو بكر صوت ناقه رسول الله فعرفها.

و هذا النص - مع ما ورد آنفا - يدل على أنّ الناقه كانت ناقه النبي و قد أعطاها عليا، لأهميه ما أمر به.

و قد روى هذا الحديث كثير من كتب أهل السنه مسندا تاره، و مرسلاتاره أخرى، و هو من الأحاديث المتفق عليها، و لا يطعن فيه أبدا.

و طبقا لبعض الروايات الوارده عن أهل السنه أنّ أبا بكر لما صرف عن إبلاغ سورة براءه، جعل أميرا على الحاج بمكّه.

توضيح و تحقيق:

هذا الحديث يثبت - بجلاء - فضيله للإمام علي عليه السلام، إلا أنّنا - و يا للأسف - نجد مثل هذه الأحاديث لا ينظر إليها بعين الإنصاف و الحق، إذ يسعى بعضهم إلى

ص: ٥٢٣

١-١) جامع الأصول، ج ٩، ص ٤٧٥.

٢-٢) ذخائر العقبى، ص ٦٩.

محوها و نسيانها كلياً، أو إلى التقليل من أهميتها و قيمتها بأساليب شتى ملتويه:

١- فمثلاً يتناول صاحب تفسير المنار تاره- من الحديث آنف الذكر- المقطع الذى يتعلق بجعل أبى بكر أميراً على الحاج، و يختار الصمت و السكوت فى بقيه الحديث الذى يدور حول أخذ سوره من أبى بكر ليبلغها على عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و

قد قال فيه صلى الله عليه و آله و سلم: «لا يبلغها إلا أنا أو رجل منى» يعنى علينا عليه السلام.

مع أن سكوت قسم من الأحاديث عن هذا الموضوع لا- يكون دليلاً على أن نهمل جميع تلك الأحاديث الواردة فى شأن على عليه السلام و لا نأخذها بنظر الإعتبار!! فأسلوب التحقيق يقتضى تسليط الضوء على الأحاديث الواردة فى هذا الشأن كافة، حتى و لو كانت على خلاف ما يجنح إليه الكاتب و تميل نفسه، و أن لا يصدر عليها حكماً مسبقاً.

٢- و يقوم بعض المفسرين تاره بتضعيف سند الحديث، كما فى بعض الأحاديث الواردة عن حنش و السمّاك «كما فعله المفسر آنف الذكر».

مع أن هذا الحديث ليس له طريق واحد أو طريقان، بل له طرق شتى فى كتبهم المعتبره.

٣- و من العجيب الغريب أن يوجهوا مثل الحديث آنف الذكر توجيهاً مشيراً، فيقولون: إنما أعطى النبى سوره براءه علينا، لأنّ العرب اعتادت عند إلغاء المواثيق أو العهود أن يمضى الشخص بنفسه أو يرسل أحداً من أهله.

مع أنه ورد التصريح عن النبى:

أولاً: من طرق متعدده، أن جبرئيل أمره بأن يبلغ على سوره براءه أو هكذا أمرت!...

ثانياً: إننا نقرأ فى بعض الأحاديث الواردة عن طرقهم

أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم قال لعلى عليه السلام: ينبغى أن تبلغ سوره براءه، و إن لم تفعل فينبغى أن أبلغها أنا (مؤدى الحديث).

ترى ألم يكن العباس عمّ النبي أو أحد من أقارب النبي موجودا يومئذ بين المسلمين! حتى يقول النبي لعلي: إن لم تذهب فينبغي أن أذهب، لأنه لا يبلغها عنى إلا أنا أو رجل مني؟! ثالثا: لم يذكروا دليلا لأصل هذا الموضوع، وهو أنه كان من عادة العرب (كذا وكذا) وأكبر الظن أنهم وجهوا الحديث آنف الذكر وفق ميولهم ونزعاتهم!...

رابعاً:

جاء في بعض الروايات المعتبرة أنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يذهب بها إلا رجل مني و أنا منه» أو ما شابه ذلك.

و هذا التعبير يدل على أنّ النبي كان يعدّ علياً كنفسه، و يعد نفسه كعلي أيضاً.

و هذا المضمون تناولته آية المباهلة.

و نستنتج ممّا ذكرناه أنّنا لو تركنا التعصب الأعمى و الأحكام المسبقة جانبا، وجدنا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بفعله هذا أبان أفضليه على عليه السلام على جميع الصحابه إنه هذا إلا بلاغ.

ص: ٥٢٥

اشاره

بِإِذْنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَتَيَّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢)

التفسير

اشاره

إلغاء عهود المشركين:

كانت في المجتمع الإسلامي و محيطه طوائف شتى، و كان النبي صلى الله عليه و آله و سلم يتخذ منها موقفا خاصا يتناسب و موقفها منه.

فطائفه منها مثلا لم يكن لها أى عهد مع النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و النبي صلى الله عليه و آله و سلم كذلك لم يكن له أى عهد معها.

و طوائف أخرى عاهدت النبي صلى الله عليه و آله و سلم في الحديبيه- و أمثالها- على ترك المخاصمه و المنازعه، و كانت عهود بعضهم ذات أجل مسمى، و بعض العهود لم تكن ذات أجل مسمى.

و قد نقضت بعض تلك الطوائف عهودها من جانب واحد، و بدون أى سبب يجيز النقض و ذلك بمظاهرتها أعداء الإسلام. أو حاولت اغتيال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم

كما هو الحال فى يهود بنى النضير و بنى قريظه، فواجههم النبى بشده و طردهم من المدينه، لكن بعض المعاهدات بقيت ساريه المفعول، سواء كانت ذات أجل مسمى أو لم تكن.

الآيه الأولى من الآيتين محل البحث تعلن للمشركين كافه براءه من الله و رسوله إلى الذين عاهدتكم من المشركين .

ثم أمهلتهم مدّه أربعة أشهر ليفكروا فيها و يحدّدوا موقفهم من الإسلام، فإمّا أن يتركوا عبادتهم للأصنام، أو يتهيئوا للمواجهه و القتال، فقالت: فَسَيُحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ (١) وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ

ملاحظات

اشاره

١- هل يصح إلغاء المعاهده من جانب واحد؟!

نحن نعرف أنّ الإسلام أولى أهميه قصوى للوفاء بالعهد و الالتزام بالمواثيق حتى مع الكفار و المشركين، و هنا ينقدح سؤال و هو: كيف أمر القرآن بإلغاء العهود التى كانت بين المسلمين و المشركين من جانب واحد؟! و يتّضح الجواب بملاحظه الأمور التاليه:

أولاً: كما صرّح فى الآيتين (٧) و (٨) من هذه السوره فإنّ إلغاء هذا العهد لم يكن دون أیه مقدمه، بل هناك قرائن و دلائل ظهرت من جانب المشركين تدلّ على نقضهم عهدهم، و أنّهم كانوا على استعداد- فى ما لو استطاعوا- أن يوجهوا ضربه قاضيه للمسلمين دون أدنى اعتناء بعهودهم التى عاهدوها، و من المنطقى

ص: ٥٢٧

١- ١) «سيحوا» فعل أمر مشتق من «السياحه» و معناها الجوله الهادفه.

أنه إذا رأى الإنسان عدوه يتربص به و يستعد لنقض عهده، ولديه قرائن على ذلك و علائم واضحة أن ينهض لمواجهة قبل أن يستغفله و يعلن إلغاء عهده و يردّ عليه بما يستحق.

ثانياً: ما المانع من إلغاء العهود و الموائيق التي تفرض في ظروف استثنائية على بعض الأمم و الشعوب-فيضطرون مكرهين على قبولهم و الرضا بها- من جانب واحد إذا حصلوا على قدره الكافية لإلغائها.

و عباده الأصنام ليست عقيدة و لا فكرياً، بل هي خرافة و وهم باطل خطر، فيجب القضاء عليها و إزالتها من المجتمع الإنساني، فإذا كانت قوه عبده الأصنام و قدرتهم بالغه في الجزيره العربيه، و كان النبي صلى الله عليه و آله و سلم مجبوراً على معاهدتهم و مصالحتهم، فإن ذلك لا يعنى أنه لا يحق له إلغاء-معاهدته إذا ما قويت شوكته- و أن يبقى على عهده الذى يخالف العقل و المنطق و الدرايه.

و هذا يشبه تماماً ظهور مصلح كبير-مثلاً-بين عبده البقر، فيقوم بعمل إعلامى كبير، و حين يواجه ضغوطاً شديده يضطر إلى عقد هدنه بينهم و عند ما يجتمع له أتباع بقدر كاف ينتفض لإزاله هذه الخرافه، و الأفكار المنحطه، و يلغى معاهدته.

و لهذا نلاحظ أنّ هذا الحكم مختص بالمشركين، أمّا أهل الكتاب و سائر الأقسام الذين كانوا في أطراف الجزيره العربيه من الذين كان بينهم و بين النبي نوع من الموائيق و المعاهدات، فقد بقيت على حالها و لم يبلغ النبي صلى الله عليه و آله و سلم موائيقهم و عهودهم حتى وفاته.

أضف إلى ذلك أن إلغاء عهود المشركين لم يكن قد حدث بصورة مفاجئه، بل أمهلوا مدّه أربعه أشهر، و أعلن هذا القرار في الملاء- العام، و فى اجتماع الحاج يوم عيد الأضحى، و فى البيت الحرام، لتكون لهم الفرصه الكافيه للتفكير، و لتحديد الموقف، لعلهم يرجعون عن تلك الخرافه التي كانت أساس تفرقتهم

و تشتتهم و جهلهم، و يرتدعون عن خيانتهم. و الله سبحانه لم يرض لهم أن يكونوا غافلين عن هذا القرار، فلم يسلبهم فرصه التفكير، فإن لم يسلموا فقد كانت لهم الفرصه الكافيه للاستعداد للمواجهه القتاليه و الحرب، لئلا تكون المواجهه غير متكافئه الطرفين.

فلو لم يكن النبي صلى الله عليه و آله و سلم ليرعى الأصول الإنسانيه و الأخلاقيه لما كان أمهلهم مدّه أربعه أشهر، و الفرصه الكافيه لأن توقظهم من نومتهم؛ أو يستعدوا لتهيئه القوه القتاليه المناسبه لمواجهه المسلمين و محاربتهم إياهم بها.

أجل، لو لم يكن النبي صلى الله عليه و آله و سلم كذلك لما أمهلهم و لحاربهم من يوم إلغاء المعاهده! و من هنا فإننا نجد الكثير من أولئك المشركين-عبده الأصنام-راجعوا أنفسهم و فكروا مليًا فى التعاليم الإسلاميه حتى تابوا إلى رشدهم و اعتنقوا الإسلام.

٢- متى بدأت الأشهر الأربعة؟

هناك بين المفسرين كلام كثير فى الجواب على هذا السؤال، إلا أن ظاهر الآى يدل على أن المدّه بدأت منذ إعلان البلاغ المهم على المشركين، أى من يوم عيد الأضحى، و هو العاشر من شهر ذى الحجه، و انتهت فى العاشر من شهر ربيع الثانى من السنه التاليه.

و يؤيد ذلك ما ورد من حديث مروى عن الإمام الصادق عليه السلام فى هذا الشأن «راجع تفسير البرهان، ج ٢، ص ١٠٣».

اشاره

وَ أَذَانَ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ فَمَنِ تَّبِعُوا فَمِنْهُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئًا وَ لَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤)

التفسير

اشاره

العهود المحترمه:

نلاحظ في هاتين الآيتين البيئتين مزيد تأكيد على موضوع إلغاء المعاهدات التي كانت بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم و المشركين، حتى أن تاريخ الإلغاء قد أعلن في هذه الآيه إذ نقول: وَ أَذَانَ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ (١).

ص: ٥٣٠

١- ١) جمله و أذان إلخ. معطوفه على جمله: براءه من الله. و هناك احتمالات أخرى في تركيب الجملة «و نظمها»، غير أن ما ذكرناه أكثر ظهوراً كما يبدو.

و في الحقيقة، أنّ الله سبحانه يريد في هذا الإعلان العام في مكّه المكرمه، و في ذلك اليوم العظيم، أن يوصد كل ذريعه يتذرع بها المشركون و الأعداء، و يقطع ألسنه المفسدين، لئلا يقولوا: إنهم استغفلوا في الحمله أو الهجوم عليهم، و إن ذلك ليس من الشّهامه و الرجوله.

كما أنّ التعبير ب«إلى الناس» مكان أن يقال «إلى المشركين» يدل على وجوب إبلاغ هذا «الأذان» و الإعلام لجميع الناس الحاضرين في مكّه ذلك اليوم، ليكون غير المشركين شاهدا على هذا الأمر أيضا.

ثم يتوجه الخطاب في الآيه إلى المشركين أنفسهم ترغيبا و ترهيبا، لعلهم يهتدون، إذ تقول الآيه: فَإِنْ تُبْتُمْ فَهَوْ خَيْرٌ لَكُمْ .

أى أنّ الاستجابه لرساله التوحيد فيها صلاحكم و فيها خير لكم و لمجتمعكم و دنياكم و آخرتكم، فلو تدبّرتم بجد و صدق لرأيتم أن قبول الدعوه هو البلسم الشافي لكلّ جراحاتكم و ليس في الأمر منفعه لله أو لرسوله.

ثم إنّ الآيه تحذر المخالفين المعاندين المتعصبين فتقول: وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ . فلا يمكنكم الخروج من دائره قدرته المطلقه بحال.

و أخيرا فإنّ الآيه أنذرت المعاندين المتعصبين قائله: وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

و كما أشرنا من قبل فإنّ إلغاء هذه العهود من جانب واحد- و رفض عهد المشركين- يختص بأولئك الذين دلّت القرائن على استعدادهم لنقض عهدهم و بدت بوادره، لذلك فإنّ الآيه استثنت قسما منهم لوفائهم بالعهد، فقالت إِيَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئاً وَ لَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتُوا إِلَيْهِمْ وَعْهَدُهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ

١- الحج الأكبر!

اختلف المفسِّرون في المراد من قوله تعالى: يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ والذي نستفيدة من كثير من الروايات الواردة عن الفريقين، روايات أهل البيت عليهم السَّلام و أهل السنه، أنه يوم العاشر من ذى الحجه «عيد الأضحى» و بتعبير آخر «يوم النحر».

و انتهاء المده باليوم العاشر من شهر ربيع الثاني «للسنه العاشره»، ووفقا لما جاء في المصادر الإسلاميه، دليل آخر على هذا الموضوع: أضف إلى ذلك كله فإن يوم النحر في الواقع ينتهي فيه القسم الأساس من أعمال الحج، و من هنا فيمكن أن يدعى ذلك اليوم بيوم الحج الأكبر (١) و أما سبب تسميته بالحج الأكبر، فلأنه اجتمع في ذلك العام جميع الطوائف من المسلمين و عبده الأوثان و المشركين، [كما اعتادوا عليه في موسم الحج]

إلا أن هذا الأمر لم يتحقق في السنين التاليه «لمنع غير المسلمين من الحج».

و هناك تفسير آخر مضافا إلى التفسير المذكور آنفا و هو أن المراد منه مراسم الحج في قبال مراسم العمره التي يعبر عنها بالحج الأصغر.

و هذا التفسير جاء في بعض الروايات الإسلاميه، و لا يمنع أن تكون كلتا العلتين مدعاه لهذه التسميه (٢).

ص: ٥٣٢

١ - ١) جاء في تفسير نور الثقلين، عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «إنما سمى الأكبر لأنها كانت سنه حج المسلمون و المشركون و لم يحج المشركون بعد تلك السنه». (ج ٢، ص ١٨٤)

٢ - ٢) و جاء في التفسير المذكور آنفا عن الإمام الصادق عليه السلام في جوابه لبعض أصحابه: الأكبر هو يوم النحر و الأصغر العمره (ج ٢، ص ١٨٤)

٢- المواد الأربع التي أعلنت ذلك اليوم

و إن كان القرآن الكريم أعلن براءه الله من المشركين بشكل مطلق، إلا أنّ الذي يستفاد من الروايات أنّ علياً عليه السلام قد أمر بإبلاغ أربع مواد إلى الناس، وهي:

١- إلغاء عهد المشركين.

٢- لا يحق للمشركين أن يحجّوا في المواسم المقبلة.

٣- منع العراه و الحفاه من الطواف الذي كان شائعاً و مألوفاً حتى ذلك الوقت.

٤- منع المشركين من دخول البيت الحرام.

و

قد جاء في تفسير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ الإمام علياً خطب في موسم الحج ذلك العام فقال: «لا يطوفن بالبيت عريان، ولا يحجن البيت مشرك، و من كان له مده فهو إلى مدته، و من لم تكن له مده فمدته أربعة أشهر».

و في بعض الروايات إشاره إلى المادة الرابعة، و هي عدم دخول المشركين و عبده الأصنام البيت الحرام (١).

٣- من هم الذين كانت لهم عهود «إلى مده»

يظهر من أقوال المؤرخين و بعض المفسّرين أنّ الذين كانت لعهدهم مده، هم جماعة من بنى كنانة و بنى ضمره، فقد بقى من عهدهم في ترك المنازعه تسعه أشهر، و قد بقى النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم على عهده و فتياء، لأنّهم بقوا أوفياء لعهدهم و لم يظاهروا المشركين في مواجهه الإسلام حيث انتهت مدّتهم (٢).

و قد عدّ بعضهم طائفه بنى خزاعه من هؤلاء الذين كان لعهدهم مده. (٣)

ص: ٥٣٣

١- ١) جاء في بعض الروايات منع المشركين من دخول المسجد.

٢- ٢) تفسير مجمع البيان، ج ٥، ذيل الآيه محل البحث.

٣- ٣) تفسير المنار، ج ١٠، ذيل الآيه محل البحث.

اشاره

فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضِرُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ
أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦)

التفسير

اشاره

الشده المقرونه بالزفق:

نقرأ فى الآيتين أعلاه بيان وظيفه المسلمين بعد انتهاء مده إمهال المشركين «الأشهر الأربعة» وقد أصدر القرآن أوامره الصارمه
فى هذا الصدد فقال: فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ (١).

ثم يقول: وَخُذُوهُمْ وَأَحْضِرُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ (٢).

ص: ٥٣٤

١- ١) الفعل «انسلخ» مأخوذ من الانسلاخ و معناه الخروج، وأصله من «سلخ الشاه» أى إخراج الشاه من جلدها عند الذبح.

٢- ٢) المرصد مأخوذ من الرصد و يعنى الطريق أو الكمين.

و يلاحظ في هذه الآيه أربعه أوامر صارمه صادره في شأن المشركين «إيصاد الطرق بوجههم، محاصرتهم، أسرهم، ثم قتلهم». و ظاهر النص أن الأمور الأربعة ليست على نحو التخيير، بل ينبغي ملاحظه الظروف و المحيط و الزمان و المكان و الأشخاص، و العمل بما يناسب هذه الأمور، فلو كان في الأسر و المحاصره و إيصاد السبيل بوجه المشركين الكفايه فيها، و إلا فلا محيص عن قتالهم.

و هذه الشدّه متناغمه و متوائمه مع منهج الإسلام و خطته في إزالة الوثنيه و قلعها من جذورها، و كما أشرنا إلى ذلك سلفاً، فإنّ حريه الاعتقاد «أى عدم إكراه أهل الأديان الأخرى على قبول الإسلام» تنحصر في أهل الكتاب من اليهود و النصارى، و لا تشمل عبده الأوثان، لأنّ الوثنيه ليست عقيده صحيحه، و لا ديناً كى تلحظ بعين الاحترام، بل هي تخلف و خرافه و انحراف و جهل، و لا بدّ من استئصال جذورها بأى ثمن كان و كيف ما كان.

و هذه الشدّه و القوّه و الصرامه لا تعنى سدّ الطريق، -طريق الرجوع نحو التوبه- بوجههم، بل لهم أن يثوبوا إلى رشدهم و يعودوا إلى سبيل الحق، و لذلك فإنّ الآيه عقبه بالقول: فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ .

و في هذه الحال، أى عند رجوعهم نحو الإسلام، لن يكون هناك فرق بينهم و بين سائر المسلمين، و سيكونون سواء و إياهم في الحقوق و الأحكام.

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

.يتوب على عباده المنيين إليه.

و تستكمل الآيه التاليه هذا الموضوع بأمر آخر، كما يتّضح بجلاء أن هدف الإسلام من هذا الأمر إنّما هو نشر التوحيد و الحق و العداله، و ليس هو الاستثمار أو الاستعمار و امتصاص المال، أو الاستيلاء على أراضى الآخرين، إذ تقول الآيه: وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ .

أى عليك أن تعامل من يلجأ إليك من المشركين برفق و لطف، و امنحه

المجال للتفكير حتى يبين له محتوى دعوتك في كمال الإرادة و الحرية، فإذا أشرقت أنوار الهداية في قلوبهم فسيؤمنون بدعوتك.

ثم تضيف الآية قائلة: **ثُمَّ أُنْبِئْهُ مَأْمَنَهُ وَ أَوْصِلْهُ إِلَى مَكَانٍ آمِنٍ حَتَّى لَا يَعْتَرِضَهُ أَحَدٌ فِي طَرِيقِهِ.**

و أخيراً فإن الآية تبين عله هذا الحكم، فتقول: **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ .**

فبناء على ذلك لو فتحت أبواب اكتساب المعرفة بوجههم، فإنه يؤمّل فيهم خروجهم من الوثنية التي هي وليده الجهل -و التحاقهم بركب التوحيد الذي هو وليد العلم و المعرفة.

و قد ورد في كتب السنه و الشيعه أنّ أحد المشركين (عبده الأصنام) سأل علياً عليه السلام بعد إلغاء المعاهده فقال: يا ابن أبي طالب، لو أراد أحد أن يواجه النبي بعد هذه المدّة «الأشهر الأربعة» و يسأله أو يسمع كلام الله منه، أهو آمن؟! فقال علي عليه السلام: أجل، إنّ الله يقول: **وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ (١).**

و هكذا تتوازن و تتساوى كفتا الشدّه المستفاده من الآية الأولى -محل البحث- و اللين المستفاد من الآية التي تليها، فإن سبيل التريه قائم على الشده المشفوعه باللين، ليكون منهما الدواء الناجع.

ملاحظات

إشارة

١- ما المراد من الأشهر الحرم؟

بالرغم من أنّ المفسّرين قد بحثوا كثيراً في هذا الشأن، إلا أنه -مع ملاحظه ما جاء في الآيات المتقدمه- يظهر أنّ المراد منها هي أربعه الأشهر التي كانت مدّه

ص: ٥٣٦

(١-١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ١٠٦ و تفسير الفخر الرازي، ص ٢٢٦.

الإمهال للمشركين، والتي بدأت من عاشر ذى الحجه لسنه التاسعه و انتهت بالعاشر من شهر ربيع الثاني من السنه العاشره الهجرية.

و هذا التفسير يعتقد به أغلب المحققين، والأهم من ذلك أنّ كثيرا من الروايات صرّحت بهذا المضمون أيضا (1).

٢- هل الصلاه و الزكاه شرط في قبول الإسلام؟

يستفاد من الآيتين محل البحث أنّه لا بدّ من إقامه الصلاه و إيتاء الزكاه لقبول توبه المشركين، و لهذا فقد استدل بعض فقهاء أهل السنه على أن ترك الصلاه و الزكاه دليل على الكفر.

إلا أنّ الحق هو أنّ المراد من هذين الحكمين الإسلاميين هو متى ما شك في إسلام شخص ما، كما هي الحال في المشركين يومئذ، فعلامه إسلامه أن يؤدي هاتين الوظيفتين «الصلاه، و الزكاه».

أو أنّ المراد هو أن يقروا بالصلاه و الزكاه على أنّهما أمران إلهيان و يلتزموا بهما، و يعترفوا بهما على أنّهما فرضان واجبان و إن قصروا في أدائهما، لأن هناك أدله وافرته تقضى بأنّ تارك الصلاه أو الزكاه ليس كافرا، بل يعدّ إسلامه ناقصا.

و بالطبع إن كان ترك الزكاه له دلالة على تحدّي الحكومه الاسلاميه و الثوره عليها فهو سبب للكفر، إلا أن هذا بحث آخر لا علاقته له بموضوعنا هذا.

٣- الإيمان وليد العلم

يستفاد من الآيات محل البحث أنّ الباعث على عدم الإيمان هو الجهل، و أساس الإيمان الأصيل هو العلم، لهذا فينبغي توفير الإمكانيات اللازمه لإرشاد الناس و هدايتهم ليعرفوا طريق الحقّ، و لا يقبلوا الإسلام بواسطه التقليد إلا عميق.

ص: ٥٣٧

١- (١) ورد في تفسير نور الثقلين، الجزء الثاني منه ذيل الآيه محل البحث حديث بهذا الشأن (فراجع إن شئت).

اشاره

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرُوا بِالْآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا- وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠)

التفسير

اشاره

المعتدون الناقضون العهد:

كما لا حظنا في الآيات السابقة الإسلام ألغى جميع العهود التي كانت بينه وبين المشركين و عبده الأوثان-إلا جماعه خاصه-و أمهلهم مدّه أربعة أشهر ليقرروا موقفهم منه.

و فالآيات-محل البحث-بيان لعله إلغاء العهود من قبل الإسلام،فتقول الآية الأولى من هذه الآيات مستفهمه استفهاما إنكاريا:
كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ

!؟ أى أنهم لا ينبغي لهم أن يتوقعوا أو ينتظروا الوفاء بالعهد من قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن جانب واحد، فى وقت تصدر منهم المخالفات و عدم الوفاء بالعهد.

ثم استثنت الآية مباشرة أولئك الذين لم ينقضوا عهدهم، بل بقوا أوفياء له، فقالت: **إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** .

و فى الآية التالية يثار هذا الموضوع بمزيد الصراحة والتأكيد، ويستفهم عنه استفهاماً إنكارياً أيضاً، إذ تقول الآية: **كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَا لَ ذِمَّةً** .

و كلمه «الإل» معناها القرابه، وقال بعضهم: إنها تعنى هنا العهد و الميثاق.

فعلى المعنى الأول أى «القرابه» يكون المراد من ظاهر الآية أنه بالرغم من أن قريشا تربطها برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و بعض المسلمين علاقه قري، إلا أنها لا ترقب هذه القرابه أو الرحم و لا ترعى حرمتها، فكيف إذن تتوقع من النبي و المسلمين احترام علاقتهم بها.

و على المعنى الثانى تكون كلمه «إل» مؤكده بكلمه (ذمه) و تعنى العهد و الميثاق أيضاً، قال الراغب فى المفردات: إن «الإل» كل حاله ظاهره من عهد حلف و قرابه تثل (أى تلمع) فلا يمكن إنكاره (1).

و تضيف الآية معقبه بأن هؤلاء يريدون أن يخدعوكم بألفاظهم المزوقه فقالت: **يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ تَأْبَى قُلُوبُهُمْ** .

لأن قلوبهم مليئه بالحق و القسوه و طلب الانتقام و عدم الاعتناء بالعهد و علاقه القربى، و إن أظهروا المحبه بألسنتهم.

و فى نهايه الآيه إشاره إلى جذر هذا الموضوع و أساسه و هو فسقهم، فتقول:

وَ أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ

و فى الآيه التاليه بيان لبعض علائم فسقهم و عصيانهم، إذ أعربت الآيه عن ذلك على النحو التالي اشْتَرَوْا بِالآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ .

و قد جاء فى بعض الروايات أن أبا سفيان أقام مأدبه و دعا إليها جماعه من الناس، ليشير حفيظتهم و عداوتهم بوجه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عن هذا الطريق.

و يعتقد بعض المفسرين أن الآيه محل البحث تشير إلى هذه القصه، إلا أن الظاهر أن الآيه ذات مفهوم واسع يشمل هذه القصه و ما شاكلها حيث أغمضوا أعينهم و صدوا عن سبيل الله و آياته من أجل منافعهم الماديه التى لا تدوم طويلا.

ثم تعقب الآيه بالقول: إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فقد خسروا طريق السعاده و ضيعوها، و حرّموا الهدايه، و هم فى الوقت ذاته أو صدوا الطريق بوجه الآخرين، و أى عمل أسوأ من أن يحمل الإنسان وزره و وزر سواه! أمّا فى آخر آيه من الآيات-محل البحث- فهى تأكيد آخر على ما ورد فى الآيات المتقدمه، إذ تقول الآيه: لَا يَزُقُّونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَ لَا ذِمَّةً .

و هذه الخصله فيهم لم يبتل بها المؤمنون فحسب بل يعتدون على كل من تناله أيديهم و أولئك هم المعتدون .

و بالرغم من أن مضمون هذه الآيه تأكيد لما سبق من الآيات المتقدمه، إلا أن هناك فرقا بينهما، حيث كان الكلام فى ما سبق على عدم رعايه المشركين حرمة لخصوص النبى صلى الله عليه و آله و سلم و أصحابه المتقين حوله كيف و إن يظهروا عليكم لا يزقّبوا فيكم إلا و لا ذمّة أمّا الآيه محل البحث فالكلام فيها عن عدم رعايتهم حرمة لكل مؤمن لا يزقّبون فى مؤمن إلا و لا ذمّة

أى إن المشركين لا ينظرون إليكم (النبى و الخواص من الصحابه) نظره تمتاز عن سواكم بل هذه النظره-نظره العدا و البغضاء- ينظر بها المشركون إلى

كُلُّ مؤمن، و لا يكثرثون بكل شىء و لا يرعون حرمه و لا عهداً، فهم فى الحقيقه أعداء الإيمان و الحق، و هم مصداق ما ذكره القرآن فى شأن أقوام سابقين أيضاً حيث يقول: **وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١)**.

ملاحظات

إشارة

١- من هم المستثنون فى هذه الآية؟

جرى الكلام بين المفسرين فى الطائفة المستثناة من الحكم: **إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** فمن هؤلاء المستثنون فى هذه الآية؟! إلا أنه بملاحظه الآيات السابقه، يظهر أن المراد من هذه الجملة هم أولئك الذين بقوا على عهدهم و وفائهم، أى القبائل التى هى من بنى ضميره و بنى كنانه و بنى خزيمه و أضرابهم.

و فى الحقيقه فإن هذه الجملة بمنزله التأكيد للآيات السابقه، فإن على المسلمين أن يكونوا حذرين و اوعين، و أن يعرفوا هؤلاء الأوفياء بالعهد و يميزوهم عن سواهم الناكثين للعهد.

و ما قوله تعالى: **عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** فلعل هذا التعبير يشير إلى ما كان من معاهده بين المسلمين و المشركين فى السنه السادسه للهجره، عند صلح الحديبيه على بعد خمسه عشر ميلا عن مكه، فقد التحق جماعه آخرون من مشركى العرب كالقبائل المشار إليها آنفا بهذه المعاهده حيث عاهدوا المسلمين عن ترك الخصام، إلا أن مشركى قريش نقضوا عهدهم، ثم أسلموا فى السنه الثامنه عند فتح مكه، أما الجماعه التى التحقت حينئذ من المشركين بمن عاهد المسلمين، فلم يسلموا و لم ينقضوا عهدهم.

ص: ٥٤١

ولما كانت أرض مكّه تستوعب منطقه واسعه «حولى ٤٨ ميلا» فقد عدّت المنطقه كلها جزءا من المسجد الحرام، كما نقرأ عن ذلك فى الآيه (١٩٤) من سوره البقره، إذ تذكر موضوع حج التمتع و أحكامه فتقول: **ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**.

و المعروف عند الفقهاء و فتاواهم أن أحكام حج التمتع إنما تجب على من تبعد داره «أو دار أهله» أكثر من ٤٨ ميلا عن مكّه.

فبناء على ذلك لا مانع أبدا من أن يطلق على الحديبيه، التى تبعد ١٥ ميلا عن مكّه، تعبير: عند المسجد الحرام.

و أما قول بعضهم: إن الاستثناء الوارد فى الآيه إنما هو فى شأن مشركى قريش، الذين عدّ القرآن الكريم عهدهم الذى عقده فى صلح الحديبيه محترما، فهذا القول يبدو بعيدا، بل هو غير صحيحى، لأنه.

أولا: من المعلوم أنّ مشركى قريش نقضوا العهد، فنقضهم مقطوع به، و لا مراء فيه، فإن لم يكونوا قد نقضوا العهد، فمن الذين لم ينقضوا عهدهم إذا؟! ثانيا: إن صلح الحديبيه إنّما كان فى السنه السادسه للهجره، بينما أسلم مشركو قريش فى السنه الثامنه للهجره بعد فتح مكّه، فبناء على ذلك فالآيات هذه النازله فى السنه التاسعه للهجره، لا يمكن أن تكون ناظره إليهم.

٢- متى يجوز الغاء المعاهده؟

كما قلنا ذيل الآيات المتقدمه، فإنّ المراد من الآيات محل البحث لا يعنى جواز الغاء العهد بمجرد تصميم المشركين و عزمهم على نقض العهد عند بلوغهم القدره، بل إنّهم أبدوا هذا الأسلوب و طريقه تفكيرهم عمليا مرارا، فمتى استطاعوا أن يوجهوا ضربتهم إلى الإسلام دون الالتفات إلى المعاهده و جهوها.

و هذا المقدار من عملهم كاف لإلغاء عهدهم.

اشاره

فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَأَخِوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ يَدْعُوكُمْ أَوْلَ مَرَّةٍ أَتَخَشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يَخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَ يُذِيبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥)

التفسير

اشاره

لم تخشون مقاتله العدو!؟

إنَّ أحدَ أساليبِ الفصاحةِ و البلاغهِ أن يكرر المتحدثُ المطلبَ المهمَّ بتعابيرٍ مختلفه للتأكيد على أهميه، و ليكون له أثر في النفوس. و لما كانت مسأله تطهير

المحيط الإسلامى من الوثنيه و عباده الأصنام و إزاله آثارها، من المسائل ذات الأهميه القصوى، فإنّ القرآن يكرر هذه المطالب بعبارات جديده- فى الآيات محل البحث- و يورد القرآن كذلك لطائف تخرج المطلب- عن صوره التكرار، و لو التكرار المجازى.

فتقول الآيه الأولى من هذا الآيات محل البحث: فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَأِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ .

و تضيف معقبه وَ نُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

و كان التعبير فى الآيات المتقدمه أنهم إذا أدوا وظيفتهم الإسلاميه، أى تابوا و أقاموا الصلاه و آتوا الزكاه فخلوا سبيلهم أما التعبير فى هذه الآيه فَأِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ أى لا- فارق بينهم و بين أحد من المسلمين من حيث الاحترام و المحبه، كما لا فارق بين الإخوان.

و هذه التعبير تؤثر من الناحيه النفسيه فى أفكار المشركين و عواطفهم لتقبل الإسلام، إذ تقول فى حقهم تاره فخلوا سبيلهم و تاره فَأِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ إلخ...

و لكن لو استمر المشركون فى نقض العهود، فتقول الآيه التاليه: وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنَا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ .

صحيح أنهم عاهدوكم على عدم المخاصمه و المقاتله، إلا أن هذه المعاهده- بنقضها مرارا، و كونها قابله للنقض فى المستقبل- لا اعتبار لها أصلا و لا قيمه لها.

و تعقب الآيه مضيفه لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ و فى الآيه الأخرى خطاب للمسلمين لإثاره همهم، و إبعاد روح الضعف و الخوف و التردد عنهم فى هذا الأمر الخطير، إذ تقول الآيه: أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَ هُمْؤا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ .

فعلام تقلقون و أنتم لم تبدأوهم بالقتال و إلغاء العهد من قبلكم و هم بدأوكم

؟ و إذا كان بعضكم يتردد فى مقاتلتهم خشيه، منهم، فإن هذه الخشيه لا- محل لها أ تخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين .

و فى الآيه التاليه وعد بالنصر الحاسم للمسلمين، إذ تقول قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ .

و ليس ذلك فحسب، بل، وَ يُخْزِرُهُمْ وَ يُنْصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ .

و بهذا يشعر المؤمنون بالراحه و الطمأنينه بعد أن كانوا يقاسون الألم و العذاب تحت وطأه هؤلاء المجرمين، و يزيل الله تعالى عن قلوبهم آلام المحنه بهذا النصر وَ يَشْفِي صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ .

قال بعض المفسرين: إنَّ المراد من قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ هم جماعه المؤمنين من بنى خزاعه، و قد استغفلهم عبده الأوثان من بنى بكر فهجموا عليهم غدرا.

و قال بعض المفسرين: إنَّ المراد من هذا التعبير هم جماعه من أهل اليمن استجابوا لدعوه الإسلام، و لما وصلوا مكه عذبوا و أودوا من قبل عبده الأصنام.

إلا أنه لا يبعد أن تشمل هذه العبارة جميع أولئك الذين تعرّضوا لأذى المشركين و عبده الأصنام و تعذيبهم فكانت قلوبهم تغلى دما منهم.

أما الآيه التاليه فتضيف: إنَّ فى انتصار المؤمنين و هزيمة الكافرين سرورا للمؤمنين، و إنَّ الله يسددهم وَ يُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ .

و يحتمل أن تكون هذه الجملة تأكيداً للجملة السابقه وَ يَشْفِي صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ كما يحتمل أن تكون مستقله عنها. و أن تكون الجملة السابقه إشاره إلى أنَّ القلوب التى مرضت و تألمت سنين طويلاً من أجل الإسلام و النبى الكريم، شفيت بانتصار الإسلام.

و أما الجملة الثانيه وَ يُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ فهى إشاره أن أولئك الذين فقدوا أعزتهم و أحببتهم بما لا قوه من تعذيب وحشى من قبل المشركين

فَأَغَاظُوهُمْ، سَيَقَرُّ اللَّهُ عَيْنَهُمْ بِهَلَاكِ الْمَشْرِكِينَ وَ يُذْهِبَ غَمَظَ قُلُوبِهِمْ .

و تختتم الآية بالقول: وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

كما تشير العبارة الأخيرة ضمنا إلى امكانه أن يلج بعضهم باب التوبه، فينبغي على المسلمين أن يعرفوا أن الله يقبل توبتهم، فلا يعاملوهم بشده و قسوه فلا يجوز ذلك. كما أن الجمل بنفسها تحمل البشرى بأن مثل هؤلاء سيميلون نحو الإسلام و يشملهم توفيق الله،لما لديهم من التهيؤ الروحي و القابلية.

و قد ذهب بعض المفسرين أن الآيات الأخيرة-بصوره عامه من قبيل الإخبار القرانى بالمغيبات،و هى من دلائل صدق دعوه النبى صلى الله عليه و آله و سلم لأن ما أخبر عنه القرآن قد تحقق فعلا.

ملاحظات

١-هناك كلام بين المفسرين فى الجماعه الذين عنتهم الآية قَاتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ من هم؟! قال بعضهم:إنّ الآية تشير إلى اليهود،و إلى بعض الأقوام الذين نزلوا المسلمين و قاتلوهم بعد حين كالفرس و الروم.

و قال بعضهم:هى إشاره إلى كفار قريش.

و قال بعضهم:بل هى إشاره إلى المرتدين بعد إسلامهم.

إلا أنّ ظاهر الآيات يدلّ-بوضوح-على أن موضوعها هو جماعه المشركين و عبده الأصنام الذين عاهدوا المسلمين على عدم القتال و المخاصمه، إلا أنّهم نقضوا عهدهم.

و كان هؤلاء المشركون فى أطراف مكّه أو سائر نقاط الحجاز.

كما أنّه لا يمكن القبول بأنّ الآية ناظره إلى قريش،لأنّ قريشا

و رئيسها-أبا سفيان-أعلنوا إسلامهم-ظاهرا-فى السنه الثامنه بعد فتح مكه، و السوره محل البحث نزلت فى السنه التاسعه للهجره.

كما أنّ الاحتمال بأنّ المراد من الآيه هو الفرس أو الروم بعيد جدّا عن مفهوم الآيه، لأنّ الآيه-أو الآيات محل البحث-تتكلم عن مواجهه فعلية، لا على مواجهات مستقبلية أضف إلى ذلك فإنّ الفرس أو الروم لم يهّموا بإخراج الرّسول من وطنه.

كما أنّ الاحتمال بأنّ المراد هم المرتدون بعد الإسلام، بعيد غاية البعد، لأنّ التأريخ لم يتحدث عن مرتدين أقوياء واجهوا الرّسول ذلك الحين ليقاتلهم بمن معه من المسلمين.

ثمّ إنّ كلمه «أيمان» جمع «يمين» و كلمه «عهد» يشيران إلى المعاهده بين المشركين و الرّسول على عدم المخاصمه، لا إلى قبول الإسلام. فلاحظوا بدقه.

و إذا وجدنا فى بعض الروايات الإسلاميه أنّ هذه الآيه طبقت على «الناكثين» فى «معركه الجمل» و أمثالها، فلا يعنى ذلك أن الآيات نزلت فى شأنهم فحسب، بل الهدف من ذلك أنّ روح الآيه و حكمها يصدقان فى شأن الناكثين و من هم على شاكلتهم ممن سيأتون فى المستقبل.

و السؤال الوحيد الذى يفرض نفسه و يطلب الإجابه، هو: إذا كان المراد جماعه المشركين الذين نقضوا عهودهم، و قد جرى الكلام عليهم فى الآيات المتقدمه، فعلام تعبّر الآيه هنا عنهم بالقول: **وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ** مع أنّهم قد نكثوها فعلا.

و الجواب: إنّ المراد من هذه الجملة-المذكوره آنفا- أنّهم لو واصلوا نقضهم أو نكثهم للأيمان، و لم يثوبوا إلى رشدهم، فينبغى مقاتلتهم. و نظير ذلك ما جاء فى قوله تعالى: **إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** و مفهومها أنّنا نطلب من الله أن يوفقنا لأنّ نسير على الصراط المستقيم و أن تستمرّ هدايته إيانا.

و الشاهد على هذا الكلام أنّ جملة وَ إِن نَكْتُوا أَيْمَانَهُمْ جاءت في مقابل فَإِن تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ أَى لا يخلو الأمر من أحد وجهين، فإما أن يتوبوا و يعرضوا عن الشرك و يتجهوا نحو الله، و إما أن يستمرا على طريقهم و نكث أيمانهم. ففي الصورة الأولى هم إخوانكم في الدين، و في الصورة الثانية ينبغي مقاتلتهم.

٢- مِمَّا يَسْتَرْعَى الْإِنْتِبَاهَ أَنَّ الْآيَاتِ مَحَلَّ الْبَحْثِ لَا- تقول: قاتلوا الكفار، بل تقول: فَقَاتِلُوا أَيْمَانَهُ الْكُفْرِ وَ هِيَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْقَاعِدَةَ الْجَمَاهِيرِيَّةَ (و عامّة الناس تبع لزعمائهم و رؤسائهم، فينبغي أن يكون الهدف القضاء على رؤسائهم و أئمتهم، لأنهم أساس الضلال و التضليل و الظلم و الفساد، فاستأصلوا شجرة الكفر من جذورها و أحرقوها. فمواجهه الكفار لا تجدى نفعا ما دام أئمتهم في الوجود، أضف إلى ذلك فإنّ هذا التعبير يعدّ ضربا من ضروب النظرة البعيده المدى و علو الهمه و تشجيع المسلمين، إذ عدّ أئمه الكفر في مقابل المسلمين، فليواجهوهم فذلك أجدر من مواجهه من دونهم من الكفار.

و العجيب أنّ بعض المفسّرين يرى أنّ هذا التعبير يعنى أبا سفيان و أمثاله من زعماء قريش، مع أنّ جماعه منهم قتلوا في معركة بدر، و أسلم الباقي منهم كأبي سفيان بعد فتح مكّه- بحسب الظاهر- و كانوا عند نزول الآيه في صفوف المسلمين، فمقاتلتهم لا مفهوم لها.

و اليوم ما يزال هذا الدستور القرآني المهم باقيا على قوته «سارى المفعول» فالكى نزيل الاستعمار و الفساد و الظلم، لا بدّ من مواجهه رؤوساء و الأكابر و أئمه المنحرفين، و إلا فلا جدوى من مواجهه من دونهم من الأفراد، فلاحظوا بدقه.

٣- إنّ التّعبير بِفِإِخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ الْوَارِدِ فِي الْآيَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ، مِنْ أَلْطَفِ التَّعَابِيرِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَعْبُرَ بِهَا فِي شَأْنِ الْمَسَاوَاهِ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمَجْتَمَعِ، وَ بَيَانِ أَوْثَقِ الْعَلَاتِقِ الْعَاطِفِيَّةِ، لِأَنَّ أَجْلَى الْعَلَاتِقِ الْعَاطِفِيَّةِ وَ أَقْرَبَهَا فِي النَّاسِ الَّتِي تُمَثِّلُ

المساواه الكامله هي العلاقه ما بين الأخوين.

إلا أنّ من المؤسف أن الانقسامات الطبقية و النداءات القوميّه سحقت هذه الأخوه الإسلاميه التي كان الأعداء يغبطوننا عليها، و وقف الإخوان في مواجهه إخوانهم متراصين بشكل لا يصدق، و قد يقاتل كلّ منهما الآخر قتالا لا يقاتل العدو عدوه بمثل هذا القتال، و هذا واحد من أسرار تأخرنا في عصرنا هذا.

٤- يستفاد- إجمالاً- من جملة «أ تخشونهم» أنه كان بين المسلمين جماعه يخافون من الاستجابه للأمر بالجهاد، إماماً لقوه العدو و قدرته، أو لأنهم كانوا يعدو نقض العهد ذنباً.

فالقرآن يخاطبهم بصراحه أن لا- تخافوا من هؤلاء الضعاف، بل ينبغي أن تخافوا من عصيان أمر الله. ثم إن خشيتكم من نكث الإيمان و نقض العهد ليست في محلها، فهم الذين نكثوا إيمانهم و هم بدأوكم أول مرّه! ٥- يبدو أنّ جملة هُمّوا بإخراج الرسول إشارة إلى مسأله عزمهم على إخراج الرسول صلى الله عليه و آله و سلم من مكّه (عند هجرته إلى المدينه) بادی الأمر، إلا أن نياتهم تغيرت و تبدلت إلى الإقدام على قتله، إلا أنّ النبي غادر مكّه في تلك الليله بأمر الله.

و على كل حال، فإنّ ذكر هذا الموضوع ليس على سبيل أنهم نقضوا عهدهم، بل هو بيان ذكرى مؤلمه من جنایات عبده الأصنام، حيث اشتركت قريش و القبائل الأخرى في هذا الأمر. أمّا نقض العهد من قبل عبده الأصنام المشركين فكان واضحاً من طرق أخرى.

٦- ميّا يشير الدهشه و التعجب أنّ بعض أتباع مذهب الجبر يستدل على مذهبه بالآيه قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ مع أنّنا لو تجردنا عن التعصب لما وجدنا في الآيه أدنى دليل على مرادهم، و هذا يشبه تماماً لو أردنا أن ننجز

عملا-مثلا-فمنضى إلى بعض أصدقائنا و نقول له:نأمل أن يصلح الله هذا الأمر على يدك،فإنّ مفهوم كلامنا هذا لا يعنى بأنك مجبور على أداء هذا الأمر،بل المراد أنّ الله منحك قدره و نيه طاهره،و بالإفاده منهما استطعت أن تؤدي عملك باختيارك و بحريه تامّه.

ص : ٥٥٠

اشاره

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦)

التفسير

في هذه الآيه ترغيب للمسلمين في الجهاد عن طريق آخر، حيث تحمل الآيه المسلمين مسئوليه ذات عبء كبير، وهي أنه لا ينبغي أن تتصوروا أن كل شيء سيكون تامياً بادعائكم الإيمان فحسب، بل يتجلى صدق النبي وصدق القول والإيمان الواقعي في قتالكم الأعداء قتالا خالصا من أي نوع من أنواع النفاق.

فتقول الآيه أولاً: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً (١). .

و«الوليجه» مشتقه من «الولوج» ومعناه الدخول، وتطلق الوليجه على من

ص: ٥٥١

١- ١) «أم» حرف عطف و يعطف بها جملة استفهاميه على جملة استفهاميه أخرى، ولهذا فهي تعطي معنى الاستفهام، غايه ما في الأمر أنها تأتي بعد جملة استفهاميه دائما، وفي الآيه محل البحث عطفت على الجملة «ألا تقاتلون» التي بدئت بها الآيه (١٣).

يعتمد عليه في الأسرار و معناها يشبه معنى البطانه تقريباً.

و في الحقيقة فإنَّ الجملة المتقدمه تَبَّه المسلمين إلى أنَّ الأعمال لا تكمل بإظهار الإيمان فحسب، و لا تتجلى شخصيه الأشخاص بذلك، بل يعرف الناس باختبارهم عن طريقين:

الأول: الجهاد في سبيل الله لغرض محو آثار الشرك و الوثنيه.

الثاني: ترك أيه علاقته أو أي تعاون مع المنافقين و الأعداء.

فالأول لدفع العدو الخارجي، و الثاني يحصن المجتمع من خطر العدو الداخلي.

و جمله لَمْ يَغْلَمْ اللهُ التي قد يلاحظ نظيرها في بعض آيات القرآن الأخر، تعنى أن أمركم لم يتحقق بعد، و بتعبير آخر: إنَّ نفي العلم هنا معناه نفي المعلوم، و يستعمل مثل هذا التعبير في مواطن التأكيد. و إلاَّ- فإنَّ الله- طبقاً للأدله العقليه و صحيح آيات القرآن الكثيره- كان عالماً بكل شيء، و سيقى عالماً بكل شيء.

و هذه الآيه تشبه الآيه الأولى من سوره العنكبوت، إذ تقول: الم* أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ .

و كما ذكرنا آنفاً في تفسيرنا لسوره آل عمران أنَّ اختبار الله لعباده ليس لكشف أمر مجهول عنده، بل هو لتريبتهم و لأجل إنَّما الاستعدادات و تجلّي الأسرار الداخليه في الناس.

و تختتم الآيه بما يدلّ على الإخطار و التأكيد وَ اللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

فلا ينبغي أن يتصور أحدٌ أنَّ الله لا يعرف العلائق السريه بين بعض الأفراد و بين المنافقين، بل يعرف كل شيء جيداً و هو خبير بالأعمال كلها.

و استفاد من سياق الآيه أن بين المسلمين يؤمئذ من كان حديث العهد بالإسلام و لم يكن على استعداد للجهاد، فيشملة هذا الكلام أمّا المجاهدون الصادقون فقد بينوا مواقفهم في سوح الجهاد مرارا.

اشاره

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآثَمَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَّقِينَ (١٨)

التفسير

اشاره

من يعمر مساجد الله؟

من جمله المسائل التي يمكن أن تخالط أذهان البعض بعد إلغاء عهد المشركين و حكم الجهاد، هو: لم نبعده هذه الجماعة العظيمة من المشركين عن المسجد الحرام لأداء مناسك الحج، مع أن مساهمتهم في هذه المراسم عماره للمسجد من جميع الوجوه «المادية و المعنوية» إذ يستفاد من إعادتهم المهمة لبناء المسجد الحرام، كما يكون لوجودهم أثر معنوي في زياده الحاج و الطائفين حول الكعبة المشرفة و بيت الله.

فالآيتان-محل البحث-تردّان على مثل هذه الأفكار الواهية التي لا أساس

لها، و تصرّح الآيه الأولى منهما بالقول: **مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ**.

و شهادتهم على كفرهم جليه من خلال أحاديثهم و و أعمالهم، بل هي واضحة في طريقه عبادتهم و مراسم حجّهم.

ثمّ تشير الآيه إلى فلسفه هذا الحكم فتقول: **أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ**.

و لذلك فهي لا تجديهم نفعاً: **وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ**.

فمع هذه الحال لا-خير في مساعيهم لعمارهم المسجد الحرام و بنائه و ما إلى ذلك، كما لا فائده من كثرتهم و احتشادهم حول الكعبه.

فالله طاهر منزّه، و ينبغي أن يكون بيته طاهراً منزّهاً كذلك، فلا يصح أن تمسه الأيدي الملوثة بالشرك.

أمّا الآيه التّاليه فتذكر شروط عماره المسجد الحرام-إكمالاً- للحديث آنف الذكر-فتبيّن خمس شروط مهمّيه في هذا الصدد، فتقول، **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ**.

و هذا النصّ إشاره إلى الشرطين الأوّل و الثّاني، اللذين يمثلان الأساس العقائدي، فما لم يتوفر هذان الشرطان لا يصدر من الإنسان أى عمل خالص نزيه، بل لو كان عمله في الظاهر سليماً فهو في الباطن ملوّث بأنواع الأغراض غير المشروعه.

ثمّ تشير الآيه إلى الشرطين الثّالث و الرّابع فتقول: **وَ أَقَامَ الصَّلَاةَ وَ آتَى الزَّكَاةَ**.

أى أن الإيمان بالله و اليوم الآخر لا يكفي أن يكون مجرد ادعاء فحسب، بل تؤيده الأعمال الكريمة، فعلاقه الإنسان بالله ينبغي أن تكون قويه محكمه، و أن يؤدى صلاته بإخلاص، كما ينبغي أن تكون علاقته بعباد الله و خلقه قويه، فيؤدى الزكاه إليهم.

و تشير الآيه إلى الشرط الخامس و الأخير فتقول: وَ لَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ .

فقلبه ملئ بعشق الله، ولا يحس إلا بالمسؤولية في امتثال أمره و لا يرى لأحد من عبيده أثرا في مصيره و مصير مجتمعه و تقدمه، هم أقل من أن يكون لهم أثر في عماره محل للعباده.

ثم تضيف الآيه معقبه بالقول: فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ فيبلغون أهدافهم و يسعون لعمارهم المسجد.

ملاحظات

إشارة

١- ما المراد من العماره

هل تعنى عماره المسجد بناءه و تأسيسه و ترميمه، أو تعنى الاجتماع فيه و المساهمه في الحضور عنده؟! اختار بعض المفسرين أحد هذين المعنيين في تفسير «عمارهم المسجد» في الآيه- محل البحث- غير أن الآيه ذات مفهوم واسع يشمل هذه الأمور و ما شاكلها جميعا. فليس للمشركين أن يحضروا في المساجد، و ليس لهم أن يبنوا مسجدا- و ما إلى ذلك- بل على المسلمين أن يقوموا بكل ذلك.

و يستفاد من الآيه- ضمنا- أنه لا ينبغى للمسلمين أن يقبلوا من المشركين- بل جميع الفرق غير الإسلاميه- هدايا أو إعانات للمساجد و بنائها، لأن الآيه الأولى و إن كانت تتكلم على المشركين، لكن الآيه الثانيه بدأت بكلمه «إنما» لتدل على أن عماره مساجد الله خاصه بالمسلمين.

و من هنا يتضح أيضا أن متولى المساجد و مسئوليتها ينبغى أن يكونوا من أنزه الناس، و لا ينتخب لهذه المهمه من لا حريجه له في الدين طمعا في ماله و ثروته، أو مقامه الاجتماعى كما هو الحال في كثير من البلاد، إذ تولّى مساجدها

من ليس لها أهلا.

بل يجب ابعاد جميع الأيدي الملوثة عن هذه الأماكن المقدسه.

و منذ أن تدخل في أمور المساجد و المراكز الإسلاميه أو أشرف عليها حكام الجور، أو الأثرياء المذنبون، فقدت تلك المساجد و المراكز الإسلاميه «حيثيتها» و مكانتها و مسخت مناهجها البّناءه، و لذا فنحن نرى كثيرا من هذه المساجد على شاكلة مسجد ضرار.

٢- العمل الخالص ينبع من الإيمان فحسب

قد يتساءل بعضنا قائلا: ما يمنع أن نستعين بأموال غير المسلمين لبناء المساجد و عمارتها؟! لكن من يسأل مثل هذا السؤال لم يلتفت إلى أن الإسلام يعد العمل الصالح ثمره شجره الإيمان في كل مكان، فالعمل ثمره نيه الإنسان و عقيدته دائما و هو انعكاس لها و يتخذ شكلهما و لونهما دائما، فالنيات غير الخالصه لا تنتج عملا خالصا.

٣- الحماء الشجعان

تدل عبارته وَ لَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ عَلَى أَنَّ عماره المسجد المحافظه عليها لا تكون إلا في ظل الشهامه و الشجاعه، فلا تكون هذه المراكز المقدسه مراكز لبناء شخصيه الإنسان و ذات منهج تربوى عال إلا إذا كان بانوها و حماتها رجالا شجعانا لا يخشون أحدا سوى الله، و لا يتأثرون بأى مقام، و لا يطبقون منهجا غير المنهج الإلهى.

٤- هل المراد من الآية هو المسجد الحرام فحسب!؟

يعتقد بعض المفسرين أن الآية محل البحث تختص بالمسجد الحرام، مع أن

ألفاظ الآيه عامه، ولا دليل على هذا التخصيص، وإن كان المسجد الحرام الذي هو أعظم المساجد الإسلاميه فى مقدمتها، و يوم نزول الآيه كان المسجد الحرام هو محل إشاره الآيه، إلا أنّ ذلك لا يدلّ على تخصيص مفهوم الآيه.

٥- أهميه بناء المساجد

وردت أحاديث كثيره فى أهميه بناء المساجد عن طرق أهل البيت و أهل السنه، تدلّ على ما لهذا العمل من الشأن الكبير.

فقد ورد عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من بنى مسجدا و لو كمفحص قطاه بنى الله له بيتا فى الجنّه» (١).

كما

ورد عنه صلّى الله عليه و آله و سلّم قوله: «من أسرج فى مسجد سراجا لم تزل الملائكه و حملة العرش يستغفرون له ما دام فى ذلك المسجد ضوءه» (٢).

إلا- أنّ ما هو أكثر أهميه هذا اليوم هو عماره المسجد المعنويه، و بتعبير آخر ينبغى أن نهتم بعماره شخصيه الذين يرتادون المسجد و أهله و حفظته اهتمامنا بعماره المسجد ذاته.

فالمسجد ينبغى أن يكون مركزا لكل تحرك إسلامى فاعل يؤدى إلى إيقاظ الناس، و تطهير البيئه و المحيط، و حثّ المسلمين للدفاع عن ميراث الإسلام.

و ينبغى الالتفات إلى أن المسجد جدير بأن يكون مركزا للشباب المؤمن، لا- محلا للعجزه و الكسالى و المقعدين، فالمسجد مجال للنشاط الاجتماعى الفعال، لا مجال للعاطلين و البطالين و المرضى.

ص: ٥٥٧

١- ١) ورد هذا الحديث فى كتاب وسائل الشيعه، الباب ٨ من أبواب أحكام المساجد كما ورد عن ابن عباس فى تفسير المنار، ج ١، ص ٢١٣.

٢- ٢) كتاب المحاسن، ص ٥٧ حسب نقل كثر العرفان، ج ١، ص ١٠٨.

اشاره

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَيْدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)

سبب النزول

هناك روايات مختلفه في سبب نزول الآيات-محل البحث-منقوله في كتب أهل السنه و الشيعه،و نورد هنا ما يبدو أكثر صحه.

يروى «أبو القاسم الحسكاني»عالم أهل السنه المعروف،عن بريده، أن «شيبه»و«العباس» كان يفتخر كل منهما على صاحبه،و بينما هما يتفاخران إذ مرَّ عليهما على بن أبي طالب عليه السلام فقال:فيم تتفاخران؟ فقال العباس:حييت بما لم يحب به أحد و هو سقايه الحاج.

فقال شبيهه: إني أعمار المسجد الحرام، وأنا سادن الكعبة.

فقال على عليه السلام: على أنني مستحي منكما، فلي مع صغر سني ما ليس عندكما.

فقالا: وما ذاك؟! فقال: جاهدت بسيفي حتى آمنتما بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

فخرج العباس مغضبا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم شاكيا عليا فقال: ألا ترى ما يقول؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إذا سلم: أدعو لي عليا فلما جاءه على قال صلى الله عليه وآله وسلم: لم كلمت عمك العباس بمثل هذا الكلام؟ فقال عليه السلام: إذا كنت أغضبتة، فلما بينت من الحق، فمن شاء فليرض بالقول الحق ومن شاء فليغضب.

فنزّل جبرئيل عليه السلام وقلّ: يا محمّد، إنّ ربّك يقرؤك السلام و يقول: اتل هذه الآيات: أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَشْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (١).

وقد وردت هذه الرواية بالمضمون ذاته مع اختلاف يسير في التعابير في كتب كثيرة لأهل السنه، كتفسير الطبري و الثعلبي، وأسباب النزول للواحدي و تفسير الخازن البغدادي، و معالم التنزيل للعلامة البغوي، و المناقب لابن المغازلي، و جامع الأصول لابن الأثير، و تفسير الفخر الرازي، و كتب أخرى. (٢)

و على كل حال، فالحديث آنف الذكر من الأحاديث المعروفة و المشهوره، التي يقربها حتى المتعصبون، و سنتكلم عنه مرّه أخرى بعد تفسير الآيات.

التفسير

إشارة

مقياس الفخر و الفضل:

مع أنّ للآيات -محل البحث- شأنًا في نزولها، إلا أنّها في الوقت ذاته

ص: ٥٥٩

١- ١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآيات محل البحث.

٢- ٢) لمزيد الإيضاح يراجع كتاب إحقاق الحق، ج ٣، ص ١٢٢-١٢٧.

تستكمل البحث الذى تناولته الآيات المتقدمه، و نظير ذلك كثير فى القرآن.

فَالآيَةُ الْأُولَى مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ تَقُولُ: أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

«السقايه» لها معنى مصدرى و هو إيصال الماء للآخرين، و كما تعنى المكيال، كما جاء فى الآيه ٧٠ من سوره يوسف فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ وَ تَعْنَى الْإِنَاءَ الْكَبِيرَ أَوْ الْحَوْضَ الَّذِى يُصَبُّ فِيهِ الْمَاءُ .

و كان فى المسجد الحرام بين بئر زمزم و الكعبه محل يوضع فيه الماء يدعى ب«سقايه العباس» و كان معروفًا آنئذ، و يبدو أن هناك إناء كبيراً فيه ماء يستقى منه الحاج يومئذ.

و يحدثنا التاريخ أن منصب «سقايه الحاج» قبل الإسلام كان من أهل المناصب، و كان يضاهى منصب سدانه الكعبه، و كانت حاجه الحاج الماسه فى أيام الحج إلى الماء فى تلك الأرض القاحله اليابسه المرمضه (١) التى يقل فيها الماء، و جوها حار أغلب أيام السنه، و كانت هذه الحاجه الماسه تولى موضوع «سقايه الحاج» أهميته خاصه، و من كان مشرفاً على السقايه كان يتمتع بمنزله اجتماعيه نادره، لأنه كان يقدم للحاج خدمه حياتيه.

و كذلك «عماره المسجد الحرام» أو سدانه و رعايته، كان لها أهميته الخاصه، لأن المسجد الحرام حتى فى زمن الجاهليه كان يعدّ مركزاً دينياً، فكان المتصدى لعماره المسجد أو سدانه محترماً.

و مع كل ذلك فإنّ القرآن يصرّح بأنّ الإيمان بالله و باليوم الآخر و الجهاد فى سبيل الله أفضل من جميع تلك الأعمال و أشرف.

ص: ٥٦٠

١- ١) «المرمضه» مشتقه من «الإرماض» أى شديده الحر، و الأرض الرمضاء كذلك: شديه الحر.

أَمَّا الْآيَةُ التَّالِيَةُ فَتَوْضِحُ مَا أَجْمَلْتَهُ الْآيَةُ السَّابِقَةُ وَ تَوْكِيدُهُ بِالْقَوْلِ: الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَ أَوْلِيكَ هُمُ الْفَائِزُونَ .

و أمّا الآيه الثالثه-من الآيات محل البحث-فتقول: إنّ الله أنعم على المؤمنين و المهاجرون و المجاهدين فى سبيله ثلاث مواهب هى:

١- يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ .

٢- وَ رِضْوَانٍ .

٢٣- وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ .

و تعقب الآيه الأخيره لمزيد التوكيد بالقول خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ .

ملاحظات

إشاره

١-تحريف التاريخ

كما قرأنا آنفا فى شأن نزول الآيات محل البحث، و طبقا لروايه وردت فى كثير من كتب الآيات أهل السنه الشهيره، أنّها نزلت فى على عليه السلام و بيان فضائله، على أنّ مفهوم الآيات عام واسع «و قد قلنا مرارا بأن أسباب النزول لا تحدّد مفاهيم الآى».

إلا- أنّ بعض مفسّرى أهل السنه لم يرغب فى أن تثبت للإمام على عليه السلام فضائل بارزه مع اعتقادهم بأنّه رابع خلفاء المسلمين! و كأنّهم خافوا إن أذعنوا لما يجدونه عند على عليه السلام من الفضائل أن يقف الشيعة أمامهم متسائلين: لم قدّمتم على على غيره؟ فلذلك أغمضوا النظر عن كثير من مناقبه و فضائله، و سعوا جاهدين لأن

يقدهوا في سند الروايه التي تذكر فضل على عليه السلام على غيره أو في دلالتها.

و يا للأسف ما زال هذا التعصب المقيت ممتدا إلى عصرنا الحاضر، حتى أنّ بعض علمائهم المثقفين لم يسلموا من هذا الداء الوبيل و التعصب دون دليل! و لا أنسى المحاوره التي جرت بيني و بين بعض علماء أهل السنه، إذ أظهر كلاما عجيبا عند ذكرنا لمثل هذه الأحاديث، فقال: في عقيدتي أنّ الشيعة يستطيعون أن يثبتوا جميع معتقدات مذهبهم «أصولها و فروعها» من مصادرنا و كتبنا، لأنّ في كتبنا أحاديث كافيه لصالح آراء الشيعة و صحه مذهبهم.

إلاّ أنّه من أجل أن يريح نفسه من جميع هذه الكتب، قال: أعتقد أن أسلافنا كانوا حسنى الظن، و قد أوردوا كل ما سمعوه في كتبهم، فليس لنا أن نأخذ كل ما أوردوه ببساطه!! «طبعا كان حديثه يشمل الكتب الصحاح و المسانيد المعتميره و ما هو عندهم في المرتبه الأولى».

فقلت له: ليس هذا هو الأسلوب في التحقيق، حيث يعتقد إنسان ما بمذهب معين، لأنّ آباءه كانوا عليه و ورثه عن سلفه، فما وجده من حديث ينسجم و مذهبه قال: إنّه صحيح، و ما لم ينسجم حكم عليه بعدم الصحه، لأنّ السلف الصالح كان حسن الظن، حتى لو كان الحديث معتبرا.

فما أحسن أن نختار أسلوبا آخر للتحقيق بدل ذلك، و هو أن نتجرّد من عقيدتنا الموروثة ثمّ ننتخب الأحاديث الصحيحه دون تعصب.

و نسأل الآن: لماذا سكتوا عن الأحاديث الشهيره التي تذكر فضل على و علو مقامه، بل نسوها و ربّما طعنوا فيها، فكأن مثل هذه الأحاديث لا وجود لها أصلا؟ و مع الالتفات إلى ما ذكرناه آنفا، ننقل كلاما لصاحب تفسير «المنار» المعروف، إذ أهمل شأن نزول الآيات محل البحث المذكور آنفا، و نقل روايه لا تنطبق و محتوى الآيات أصلا، و ينبغى أن نعدّها حديثا مخالفا للقرآن، فقال عنها:

إنّها معتبره!

ص: ٥٦٢

و هي ما نقل عن النعمان بن بشير إذ يقول: كنت جالسا في عده من أصحاب النبي إلى جوار منبره، فقال بعضهم: لا أرى عملا بعد الإسلام أفضل من سقايه الحاج و إروائهم، وقال الآخر: إن عماره المسجد الحرام أفضل من كل عمل، فقال الثالث، في سبيل الله أفضل ممّا قلتما.

فنهاهم عمر عن الكلام و قال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله -و كان ذلك اليوم يوم الجمعة- و لكنني سأسأل رسول الله بعد الفراغ من الصلاة-صلاه الجمعة- في ما اختلفتم فيه.

و بعد أن أتمّ صلاته جاء إلى رسول الله فسأله عن ذلك، فنزلت الآيات محل البحث (١).

إلا- أنّ هذه الزوايه لا تنسجم و الآيات محل البحث من عدّه جهات، و نحن نعرف أن كلّ روايه مخالفه للقرآن ينبغي أن تطرح جانبا و يعرض عنها؛ لأنه:

أولا: لم يكن في الآيات محل البحث قياس ما بين الجهاد و سقايه الحاج و عماره المسجد الحرام، بل القياس ما بين سقايه الحاج و عماره المسجد الحرام من جهه، و الإيمان بالله و اليوم الآخر و الجهاد من جهه أخرى، و هذا يدل على أن من كان يقوم بمثل السقايه و العماره في زمان الجاهليه كان يقيس عمله بالإيمان و الجهاد. فالقرآن يصرّح بأنّ سقايه الحاج و عماره المسجد الحرام لا- يستويان- كل منهما- مع الإيمان بالله و الجهاد في سبيله و ليس القياس بين الجهاد و عمران المسجد و سقايه الحاج (لاحظ بدقه).

ثانيا: إنّ جملة وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ تدل على أن أعمال الطائفه الأولى كانت معروفه بالظلم، و إنما يفهم ذلك فيما لو كانت هذه الأعمال صادرة في حال الشرك، لأنّ القرآن يقول إِنَّ الشُّرْكَ لظُلْمٌ عَظِيمٌ (٢).

ص: ٥٦٣

١-١) تفسير المنار، ج ١٠، ص ٢١٥.

٢-٢) سوره لقمان: الآيه ١٣.

و لو كان القياس بين الإيمان و سقايه الحاج المقرونه بالإيمان و الجهاد، لكانت جملة و الله لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ لغوا-و العياذ بالله-لأنها حينئذ لا مفهوم لها هنا.

ثالثا: إن الآيه الثانيه-محل البحث-التي تقول الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً مفهومها أن أولئك أفضل و أعظم درجه ممن لم يؤمنوا و لم يهاجروا و لم يجاهدوا في سبيل الله، و هذا المعنى لا ينسجم و كلام النعمان-أنف الذكر-لأن المتكلمين وفقا لحديثه كلهم مؤمنون و لعلمهم أسهموا في الهجره و الجهاد رابعا: كان الكلام في الآيات المتقدمه عن إقدام المشركين على عماره المساجد و عدم جواز ذلك: مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ وَ الْآيَاتِ محل البحث تعقب على الموضوع ذاته، و يدل هذا الأمر على أن موضوع الآيات هو عماره المسجد الحرام و سقايه الحاج حال الشرك، و هذا لا ينسجم و روايه النعمان.

و الشيء الوحيد الذي يمكن أن يستدل عليه هو التعبير ب أَعْظَمُ دَرَجَةً حيث يدل على أن الطرفين المقيسين كل منهما حسن بنفسه، و إن كان أحدهما أعظم من الآخر.

إلا أن الجواب على ذلك واضح، لأن أفعال التفضيل غالبا تستعمل في الموازنه بين أمرين، أحدهما واجد للفضيله و الآخر غير واجد، كأن يقال مثلا:

الوصول متأخرا خير من عدم الوصول، فمفهوم هذا الكلام لا يعنى أن عدم الوصول شيء حسن، لكن الوصول بتأخير أحسن.

أو أننا نقرأ في القرآن وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ أَى من الحرب [سوره النساء الآيه ٢٨]

فهذا لا يعنى أن الحرب شيء حسن.

أو نقرأ مثلا وَ لَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ [سوره البقره الآيه ٢٢١]

ترى

ص: ٥٦٤

هل المشرك حسن و فيه خير؟! أو نقرأ في سورة التوبه ذاتها(الآيه ١٠٨) لَمْ سِجِدْ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ أَى أَحَق من مسجد ضرار الذى بناه المنافقون للعباده، مع أننا نعرف أن العباده فى مسجد ضرار ليست بحق أبداً، فنظير هذه التعابير فى القرآن و اللغه العربيه، بل فى سائر اللغات كثير.

من مجموع ما ذكرناه نستنتج أن روايه النعمان بن بشير لأنها مخالفه لمحتوى القرآن ينبغى أن تطرح و تنبذ جانباً، و أن نأخذ بما ينسجم و ظاهر الآى، و هو ما قدمناه بين يدي تفسير هذه الآيات، على أنه سبب لتزولها، و أنه لفضيله كبرى لإمام الإسلام العظيم على عليه السلام.

نسأل الله أن يثبت أقدامنا على متابعه الحق و أهله من الأئمه الصالحين، و أن يجنبنا التعصب، و يفتح أبصارنا و أسماعنا و أفكارنا لقبول الحق.

٢- ما هو مقام الرضوان؟

يستفاد من الآيات-محل البحث- أن مقام الرضوان الذى هو من أعظم المواهب التى يهبها الله المؤمنين و المجاهدين فى سبيله، هو شىء غير الجنات و النعيم المقيم و غير رحمته الواسعه.

و سنتناول بيان هذا الموضوع ذيل الآيه (٧٢) من هذه السوره، فى تفسير جمله وَ رِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)

التفسير

اشاره

كل شيء فداء للهدف:

إن آخر وسوسه أو ذريعه يمكن أن يتذرع بها جماعه من المسلمين للامتناع عن جهاد المشركين (و فعلا فقد تذرع بعضهم وفقا لما ورد في قسم من التفاسير) بأن من بين المشركين و عبده الأوثان أقارب لهم، فقد يسلم الأب و يبقى ولده في الشرك على حاله، وقد يقع العكس إذ يخطو الابن نحو توحيد الله و يبقى أبوه مشركا، و هذه الحاله ربّما كانت موجوده بين الأخ و أحيه، و الزوج

و زوجته، و الفرد و عشيرته أو قبيلته، و هكذا.

فإذا كان القرار أن يجاهد الجميع المشركين فلا بد أن يعضوا أعينهم عن أرحامهم و أقاربهم و عشيرتهم إلخ. هذا كله من جهه. ثم و من جهه أخرى كانت رؤوس الأموال و القدره التجاريه بيد المشركين تقريبا، و لهذا يسبب تردد المشركين إلى مكه ازدهار التجاره.

و من جهه ثالثه كان للمسلمين فى مكه بيوت عامره نسبيا، فإذا قاتلوا المشركين فمن المحتمل أن يهدمها المشركون، أو تفقد قيمتها إذا عطل المشركون مراسم الحاج و مناسكه بمكّه.

فالأيتان-محل البحث-ناظرتان إلى مثل هؤلاء الأشخاص، و تردان عليهم ببيان صريح، فتقول الآيه الأولى منهما: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَ إِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ .
ثم تعقب-على وجه التأكيد-مضيفه: وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

و أى ظلم أسوأ من أن يظلم الإنسان نفسه بتعلقه بأعداء الحق و المشركين، و يظلم مجتمعه، و يظلم نبيه أيضا؟! أمّا الآيه التاليه فهى تتناول هذا الموضوع بنحو من التفصيل و التأكيد و التهديد و التفریح، فتخاطب النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ليعنف أولئك الذين لا- يرغبون فى جهاد المشركين لما ذكرناه آنفا، فتقول قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ وَ إِخْوَانُكُمْ وَ زُرَّاءُكُمْ وَ عَشِيرَتُكُمْ وَ أَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَ تِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَ مَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ رِسُولِهِ وَ جِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ .

و لما كان ترجيح مثل هذه الأمور على رضا الله و الجهاد فى سبيله، يعدّ نوعا من العصيان و الفسق البين، و إن من تشبث قلبه بالدنيا و زخرفها و زبرجها غير جدير بهدايه الله، فإن الآيه تعقب فى الختام قائله وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

و قد جاء فى تفسير على بن إبراهيم القمى فى شأن الآيتين ما يلى: «لما أذن أمير المؤمنين أن لا يدخل المسجد الحرام مشرك بعد ذلك، جزعت قريش جزعا شديدا، وقالوا: ذهبت تجارتنا و ضاعت علينا و خربت دورنا، فأنزل الله فى ذلك قل (يا محمد) إلخ...

و الآيتان- محل البحث- ترسمان خطوط الإيمان الأصيل و تميزانها عن الإيمان المبطن بالشرك و النفاق.

كما أنهما تضعان حدا فاصلا بين المؤمنين الواقعيين و بين ضعاف الإيمان، و تقول إحداهما بصراحه: إن كانت هذه الأمور الثمانية «فى الحياه الماديه» التى يتعلق أربعه منها بالأرحام و الأقارب أَبَاؤُكُمْ وَ أُمَّهَاتُكُمْ وَ إِخْوَانُكُمْ وَ أَزْوَاجُكُمْ .

و يتعلق قسم منها بالمجتمع و «العشيره».

و القسم السادس يرتبط بالمال.

و السابع بالتجاره و الاكتساب.

و أما الثامن -و هو الأخير- فيتعلق بالمساكن ذات الأناقه «و مساكن ترضونها».

فإذا كانت هذه الأمور الثمانية-المذكوره آنفا-أعلى و أعزّ و أحب عند الإنسان من الله و رسوله، و الجهاد فى سبيله و امتثال أوامره، حتى أن الإنسان لا- يكون مستعدا بالتضحيه بتلك الأمور الثمانية من أجل الله و الرسول و الجهاد، فيتضح أن إيمانه الواقعى لم يكمل بعد! فحقيقه الإيمان و روحه و جوهره، كل ذلك يتجلى بالتضحيه بمثل هذه الأمور من دون تردد.

أضف إلى ذلك، فإن من لم يكن مستعدا للتضحيه بمثل تلك الأمور، فقد ظلم

نفسه و مجتمعه فى الواقع، كما أنه سيقع فى ما كان يخاف من الوقوع فيه لأنّ الأمّة التى تتلكأ فى اللحظات الحساسة من تاريخها المصرى، و فى المآزق الحاسمه، فلا- يضحى أبناؤها بمثل ذلك، فستواجه الهزيمة عاجلاً أو آجلاً، و سيتعرض كلّ ما تعلق بالقلوب به فلم تجاهد من أجله الى خطر الضياع و التلف بيد الأعداء.

ملاحظات

إشارة

١- ما قرأناه فى الآيتين- محل البحث- ليس مفهومه قطع علائق المحبه بالأرحام، و إهمال رؤوس الأموال الاقتصادية، و الانسياق إلى تجاوز العواطف الإنسانية و إلغائها، بل المراد من ذلك أنه ينبغى أن لا ننحرف عند مفترق الطرق إلى الأموال و الأزواج و الأولاد و الدور و المقام الدنيوى، بحيث لا نطبّق فى تلك الحالة حكم الله، أو لا نرغب فى الجهاد، و يحول عشقنا المادى دون تحقيق الهدف المقدس.

لهذا يلزم على الإنسان إذا لم يكن على مفترق الطرق أن يرمى الجانبين «العلاقة بالله و العلاقة بالرحم».

فنحن نقرأ فى الآية (١٥) من سورة لقمان، قوله تعالى فى شأن الأبوين المشركين و إنّ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَ صَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .

٢- إنّ أحد تفاسير جملة فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ما أشرنا إليه آنفاً، و هو التهديد من قبل الله لأولئك الذين يقدمون منافعهم المادية و يفضلونها على رضا الله، و لما كان هذا التهديد مجملاً كان أثره أشدّ وحشه و إشفاقاً، و هذا التعبير يشبه قول من يكلم صاحبه الذى دونه و تحت أمره، فيقول له: إذا لم تفعل ما

أمرتك، فسأقوم بما ينبغي أيضا.

و هناك احتمال آخر لتفسير الجملة-محل البحث- وهو أنّ الله سبحانه يقول: إذا لم تكونوا مستعدين للتضحية، فإنّ الله يفتح لنبئه عن طريق آخر. وكيف شاء، إذ ليس ذلك بعسير عليه. ونظير هذا المعنى ما جاء فى الآية (٥٤) من سوره المائده، إذ نقرأ فيها يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ .

الماضى و الحاضر مرهونان بهذا الأمر:

٣- قد يتصور بعضهم بأنّ ما جاء فى الآيتين يخص صدر الإسلام و التاريخ الماضى، إلا أنّ ذلك خطأ كبير، فالآيتان تستوعبان حاضر المسلمين و مستقبلهم أيضا.

فإذا قدر للمسلمين أن لا- يضحوا بأموالهم و أنفسهم و أولادهم و دورهم إلخ... فى سبيل الله، و لا يكون لهم إيمان متين، و يفضلون الأمور الماديه على رضا الله، و تبقى قلوبهم متعلقه بالمال و الأولاد و زبارج الدنيا، فيكون مستقبلهم مظلما، لا مستقبلهم فحسب، بل حتى يومهم هذا، ففى مثل هذا الحال سيحرق بهم الخطر و سيفقدون موروثهم الحضارى، و تكون مصادر حياتهم بأيدى الأجانب و يفقدون معنى الحياه، لأن الحياه هى حياه الإيمان و الجهاد فى ظل الإيمان.

فعلينا أن نغرس مدلول هاتين الآيتين فى قلوب أطفال المسلمين و شبابهم و نجعله شعارا لنا، و نحى فى نفوس المسلمين روح التضحيه و الجهاد، ليحافظوا على ثقافتهم و موروثهم المعرفى.

اشاره

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مَّدْيَرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَ عَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧)

التفسير

اشاره

الكثرة وحدها لا تجدى نفعا:

في الآيات المتقدمه رأينا أنّ الله سبحانه يدعو المسلمين إلى التضيحه و الجهاد على جميع الصعد في سبيل الله و قلع جذور الشرك و عباده الأوثان، و يهدد بشده من يتقاعس منهم عن الجهاد و التضيحه بسبب التعلق بالأزواج و الأولاد و الأرحام و العشيره و المال و الثروه.

أمّا الآيات محل البحث فتشير إلى مسأله مهمه، و هي أنّ على كل قائد أن ينبه أتباعه في اللحظات الحساسه بأنه إذا كان فيهم بعض الأشخاص من ضعاف

الايمان و الذين يحجبهم التعلق بالمال و الولد و الأزواج و ما إلى ذلك عن الجهاد في سبيل الله، فلا ينبغي أن يقلق المؤمنون المخلصون من هذا الأمر، و عليهم أن يواصلوا طريقهم، لأن الله لم يتخل عنهم يوم كانوا قله، كما هو الحال في معركة بدر، و لا يوم كانوا كثره-ملء العين (كما في معركة حنين) و قد أعجبتهم الكثرة فلم تغن عنهم شيئاً، لكن الله سبحانه أنزل جنوداً لم تروها، و عذب الذين كفروا، فالله في الحالين ينصر المؤمنين و يرسل إليهم مدده...

لهذا فإن الآيه الأولى من الآيات محل البحث تقول لَقَدْ نَصَرَ كُمْ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ .

و المواطن جمع الموطن، و معناه المحل الذين يختاره الإنسان للسكن الدائم، أو المؤقت، إلا أن من معانيه أيضاً ساحه الحرب و المعركة، و ذلك لأن المقاتلين يقيمون في مكان الحرب مدّة قصيره أو طويله أحياناً.

ثم تضيف الآيه معقبه وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثُرْتُكُمْ و كان جيش المسلمين يوم حنين زهاء اثني عشر ألفاً، و قال بعض المؤرخين: كانوا عشره آلاف أو ثمانيه آلاف، غير أن الروايات المشهوره تؤيد ما ذكرناه آنفاً، إذ تقول:

إنهم كانوا اثني عشر ألفاً، و هذا الرقم لم يسبق له مثيل في الحروب الإسلاميه قبل ذلك الحين، حتى اغترب بعض المسلمين و قالوا: «لن نغلب اليوم».

إلا أنه- كما سنبين الموضوع في الحديث على غزوه حنين- قد فرّ كثير من المسلمين ذلك اليوم، لكونهم جديدي عهد بالإسلام و لم يتوغل الإيمان في قلوبهم فانكسر جيش المسلمين في البدايه و كاد العدو أن يغلبهم لولا أن الله أنزل بلطفه مدده و جنوده فنجّاهم.

و يصور القرآن هذه الهزيمه بقوله وَ ضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ .

و في هذه اللحظات الحساسه حيث تفرق جيش الإسلام هنا و هناك، و لم يبق مع النبي إلا القله، و كان النبي مضطربا و متألما جدا لهذه الحاله نزل التأييد الإلهي: **ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا**.

و كما قلنا في حديثنا عن غزوه بدر في ذيل الآيات الخاصه بها، أن نزول هذه الجنود غير المرئيه كان لشد أزر المسلمين و تقويه معنوياتهم، و إيجاد روح الثبات و الاستقامه في نفوسهم و قلوبهم، و لا يعنى ذلك اشتراك الملائكه و القوى الغيبه في المعركه (١).

و يذكر القرآن النتيجة النهائيه لمعركه حنين الحاسمه فيقول **وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ**.

و كان هذا العذاب و الجزاء أن قتل بعض الكافرين، و أسر بعضهم، و فر بعضهم إلى مناطق بعيده عن متناول الجيش الاسلامي.

و مع هذا الحال فإن الله يفتح أبواب توبته للأسرى و الفارين من الكفار الذين يرغبون في قبول مبدأ الحق «الإسلام» لهذا فإن الآيه الأخيره من الآيات محل البحث تقول: **ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَيَّ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**.

و جمله «يتوب» التي وردت بصيغه الفعل المضارع، و التي تدل على الاستمرار، مفهومها أن أبواب التوبه و الرجوع نحو الله مفتوحه دائما بوجه التائبين.

ص: ٥٧٣

(١-١) لمزيد من الإيضاح يراجع تفسير الآيات ٩-١٢ من هذا الجزء نفسه.

١- غزوه حنين ذات العبره

«حنين» منطقه قريبه من الطائف، و بما أنّ الغزوه وقعت هناك فقد سميت باسم المنطقه ذاتها، وقد عبّر عنها في القرآن بـ«يوم حنين» و لها من الأسماء- غزوه أوطاس، و غزوه هوازن أيضا.

أمّا تسميتها بأوطاس، فلأنّ «أوطاس» أرض قريبه من مكان الغزوه- و أمّا تسميتها بهوازن، فلأنّ إحدى القبائل التي شاركت في غزوه حنين تدعى بهوازن.

أمّا كيف حدثت هذه الغزوه، فبناء على ما ذهب إليه ابن الأثير في الكامل، أن هوازن لما علمت بفتح مكّه، جمع القبيله رئيسها مالك بن عوف و قال لمن حوله: من الممكن أن يغزونا محمّد بعد فتح مكّه، فقالوا: من الأحسن أن ندأه قبل أن يغزونا.

فلما بلغ ذلك النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم أمر المسلمين أن يتوجهوا إلى أرض هوازن (١).

و بالرغم من عدم الاختلاف بين المؤرخين في شأن هذه الغزوه و المسائل العامه فيها، إلا أنّ في جزئياتها روايات متعدده لا يكاد بعضها ينسجم مع الآخر، و ما نقله هنا فقد اقتضينا عن مجمع البيان للعلامه الطبرسي، بناء على روايته القائله: إنّ رؤساء طائفه هوازن جاءوا إلى مالك بن عوف و اجتمعوا عنده في أخريات شهر رمضان أو شوال في السنه الثامنه للهجره، و كانوا قد جاءوا بأموالهم و أبنائهم و أزواجهم لئلا يفكر أحدهم بالفرار حال المعركه، و هكذا فقد وردوا منطقه أوطاس.

فعقد النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم لواءه، و سلّمه عليّا عليه السلام و أمر حملة الرايات الذين ساهموا في فتح مكّه أن يتوجهوا براياتهم ذاتها مع علي بن أبي طالب إلى حنين، و أطلع

ص: ٥٧٤

(١-١) راجع الكامل لابن الأثير، ج ٢، ص ٢٦١، نقلنا القصة بشيء من الاختصار.

النبي أن صفوان بن أمية لديه دروع كثيرة، فأرسل النبي إليه أن أعرنا مائه درع، فقال صفوان: أ تريدونها عاريه أم غصبا؟ فقال النبي: بل عاريه نضمنها و نعيدها سالمه إليك، فأعطى صفوان النبي مائه درع على أنها عاريه، و تحرك مع النبي بنفسه إلى حنين.

و كان ألفا شخص قد أسلم في فتح مكّه، فأضيف عددهم إلى العشره آلاف الذين ساهموا في فتح مكّه، و صاروا حوالي اثني عشر ألفا، و تحركوا نحو حنين.

فقال مالك بن عوف- و كان رجلا- جريئا شهما- لقبيلته: اكسروا أغماد سيوفكم، و اختبئوا في كهوف الجبال و الوديان و بين الأشجار، و اكمنوا لجيش الإسلام، فإذا جاء وكم الغداه «عتمه» فاحملوا عليهم و أبيدوهم.

ثم أضاف مالك بن عوف قائلا: إن محمّدا لم يواجه حتى الآن رجال حرب شجعانا، ليذوق مراره الهزيمة!! فلما صلّى النبي صلاه الغداه «الصبح» بأصحابه أمر أن ينزلوا إلى حنين، ففوجئوا بهجوم هوازن عليهم من كل جانب و صوب، و أصبح المسلمون مرمى لسهامهم، ففرّت طائفه من المقاتلين جديدي الإسلام (بمكّه) من مقدمه الجيش، فكان أن ذهل المسلمون و اضطروا و فرّ الكثير منهم.

فخلّى الله بين جيش المسلمين و جيش العدو، و ترك الجيشين على حالهما، و لم يحم المسلمون لغرورهم- مؤقتا- حتى ظهرت آثار الهزيمة فيهم.

إلا- أنّ عليّا حامل لواء النبي بقي يقاتل في عدّه قليله معه، و كان النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم في (قلب) الجيش و حوله بنو هاشم، و فيهم عمه العباس، و كانوا لا يتجاوزون تسعه أشخاص عاشرهم أيمن ابن أم أيمن.

فمرّت مقدمه الجيش في فرارها من المعركه على النبي فأمر النبي عمّه العباس- و كان جهير الصوت- أن يصعد على تل قريب و ينادى فورا: يا معشر المهاجرين و الأنصار، يا أصحاب سوره البقره، يا أهل بيعه الشجره، إلى أين

تَفَرُّونَ؟ هذا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

فلَمَّا سَمِعَ الْمُسْلِمُونَ صَوْتَ الْعَبَّاسِ رَجَعُوا وَقَالُوا: لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ، وَ لَا سِيْمَا الْأَنْصَارِ إِذْ عَادُوا مُسْرِعِينَ وَ حَمَلُوا عَلَى الْعَدُوِّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ حَمْلَهُ شَدِيدَهُ، وَ تَقَدَّمُوا بِأُذُنِ اللَّهِ وَ نَصْرِهِ، بِحَيْثُ تَفَرَّقَتْ هَوَازِنُ شَذْرٍ مَذْرٍ مَذْعُورِهِ، وَ الْمُسْلِمُونَ مَا زَالُوا يَحْمِلُونَ عَلَيْهَا. فَقَتَلَ حِوَالِي مِائَةِ شَخْصٍ مِنْ هَوَازِنَ، وَ غَنِمَ الْمُسْلِمُونَ أَمْوَالَهُمْ كَمَا أُسْرُوا عَدَّهُ مِنْهُمْ (١).

وَ نَقَرْنَا فِي نَهَائِهِ هَذِهِ الْحَادِثَةَ التَّارِيخِيَّةَ أَنَّ مِمثْلِي هَوَازِنَ جَاءُوا النَّبِيَّ وَ أَعْلَنُوا إِسْلَامَهُمْ، وَ أَبْدَى لَهُمُ النَّبِيُّ صَفْحَهُ وَ حَبَّهُ، كَمَا أَسْلَمَ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ رَئِيسَ الْقَبِيلَةِ، فَرَدَّ النَّبِيُّ عَلَيْهِ أَمْوَالَ قَبِيلَتِهِ وَ أُسْرَاهُ، وَ صَيَّرَهُ رَئِيسَ الْمُسْلِمِينَ فِي قَبِيلَتِهِ أَيْضًا.

وَ الْحَقِيقَةُ أَنَّ السَّبَبَ الْمَهْمُ فِي هَزِيمَةِ الْمُسْلِمِينَ بِأَدْيِ الْأَمْرِ -بِالإِضَافَةِ إِلَى غُرُورِهِمْ لِكَثْرَتِهِمْ- هُوَ وَجُودُ أَلْفِي شَخْصٍ مِمَّنْ أَسْلَمَ حَدِيثًا وَ كَانَ فِيهِمْ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ طَبْعًا، وَ آخَرُونَ كَانُوا قَدْ جَاءُوا مَعَ النَّبِيِّ لِأَخْذِ الْغَنَائِمِ، وَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ كَانُوا بِلاَ هَدَفٍ، فَأَثَرُ فِرَارِ هَؤُلَاءِ فِي بَقِيَةِ الْجَيْشِ.

أَمَّا السَّرُّ فِي انْتِصَارِهِمُ النَّهَائِيَّ فَهُوَ وَقُوفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامِ وَ جَمَاعَةِ قَلِيلَةٍ مِنَ الْأَصْحَابِ، وَ تَذَكُّرُهُمْ عَهْدِهِمُ السَّابِقَةَ وَ إِيمَانَهُمُ بِاللَّهِ وَ الرُّكُونَ إِلَى لَطْفِهِ الْخَاصِّ وَ نَصْرِهِ.

٢- من هم الفارزين

مِمَّا لَاحَظْنَا فِيهِ أَنَّ الْأَكْثَرِيَّةَ السَّاحِقَةَ قَرَّبَ بِأَدْيِ الْأَمْرِ مِنْ سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ، وَ مَا تَبَقِيَ مِنْهُمْ كَانُوا عَشْرَةَ فَحَسَبَ، وَ قِيلَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ شَخْصًا، وَ أَقْصَى مَا أُوصِلَ عَدَدُهُمُ الْمُؤَرِّخُونَ لَمْ يَتَجَاوَزُوا مِائَةَ شَخْصٍ.

وَ لَمَّا كَانَتِ الرَّوَايَاتُ الْمَشْهُورَةُ تَصَّرَحُ بِأَنَّ مِنْ بَيْنِ الْفَارِيزِ الْخُلَفَاءِ الثَّلَاثَةَ،

ص: ٥٧٦

فإنَّ بعضَ المفسِّرينَ سعى لأنَّ يعدَّ هذا الفرارَ أمراً طبيعياً.

يقول صاحب تفسير المنار ما ملخصه: لما رشق العدو المسلمون بسهامه، كان جماعه قد التحقوا بالمسلمين من مكه، وفيهم المنافقون و ضعاف الإيمان و الطامعون «للغنائم» ففرَّ هؤلاء جميعاً و تفهقروا إلى الخلف، فاضطرب باقي الجيش طبعاً، و حسب العاده- لا خوفاً- فقد فرّوا أيضاً، و هذا أمر طبيعي عند فرار طائفه فإنَّه يتزلزل الباقي منهم فيفر أيضاً- ففرارهم لا يعنى ترك النبي و عدم نصرته أو تسليمه بيد عدوه، حتى يستحقوا غضب الله!! (١) و نحن لا- نعلّق على هذا الكلام، لكن نتركه للقراء ليحكموا فيه حكمهم.

كما ينبغي أن نذكر هذه المسأله و هى أنّ «صحيح البخارى» حين يتكلم عن الهزيمه و فرار المسلمين ينقل ما يلى:

فإذا عمر بن الخطاب فى الناس، و قلت: (الراوى): ما شأن الناس؟ قال: أمر الله، ثم تراجع الناس إلى رسول الله (٢).

غير أننا تجرّدنا من الأحكام المسبقه، و التفتنا إلى القرآن الكريم، و وجدناه لا يذم جماعه بعينها، بل يذم جميع الفارين.

و لا- ندري ما الفرق بين قوله تعالى ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ حيث قرأنا هذه العبارة فى الآيات محل البحث، و بين عباره أخرى وردت فى الآيه (١٦) من سوره الأنفال إذ تقول وَ مَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ! فبناء على ذلك لو ضمنا الآيتين بعضهما إلى بعض لعرفنا أنّ المسلمين ارتكبوا خطأ كبيراً يومئذٍ إلا القليل منهم، غايه ما فى الأمر أنّهم تابوا بعدئذٍ و رجعوا.

ص: ٥٧٧

١- ١) راجع تفسير المنار، و إقرار التفصيل فيه، ج ١، الصفحات ٢٦٢ و ٢٦٣ و ٢٦٥.

٢- ٢) المصدر السابق.

السكينة فى الأصل مأخوذه من السكون، و تعنى نوعا من الهدوء أو الاطمئنان الذى يبعد كل نوع من أنواع الشك و الخوف و القلق و الاستيحاش عن الإنسان، و يجعله راسخ القدم بوجه الحوادث الصعبة و الملتويه. و السكينة لها علاقة قربة بالإيمان، أى أنّ السكينة وليده الإيمان، فالمؤمنون حين يتذكرون قدره الله التى لا غاية لها، و يتصورون لطفه و رحمته يملأ قلوبهم موج الأمل و يغمرهم الرجاء.

و ما نراه من تفسير السكينة بالإيمان فى بعض الروايات (١)، أو بنسيم الجنة ممثلا فى صورته إنسان (٢) كل ذلك ناظر إلى هذا المعنى.

و نقرأ فى القرآن فى الآية (٤) من سورة الفتح قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ .

و على كل حال فهذه الحالة نفسية خارقه للعاده، و موهبه إلهيه بحيث يستطيع الإنسان أن يهضم الحوادث الصعبة، و أن يحس فى نفسه عالما من الدعه و الاطمئنان برغم كل ما يراه.

و ممّا يسترعى النظر أن القرآن- فى الآيات محل البحث- لا يقول: ثم أنزل الله سكينته على رسوله و عليكم، مع أنّ جميع الجمل فى الآية تحتوى على ضمير الخطاب (كم)، بل تقول الآية عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ و هى إشاره إلى أن المنافقين و أهل الدنيا و الذين كانوا مع النبي فى المعركة لم ينالوا سهما من السكينة و الاطمئنان، بل كانت السكينة من نصيب المؤمنين فحسب.

و نقرأ فى بعض الروايات أن نسيم الجنة هذا كان مع أنبياء الله و رسله (٣)،

ص: ٥٧٨

١-١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ١١٤.

٢-٢) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢٠١.

٣-٣) تفسير البرهان، ج ٢، ص ١١٢.

فلذلك كانوا-في الحوادث الصعبة التي يفقد فيها كل إنسان توازنه إزاءها- أصحاب عزم راسخ و سكينه و اطمئنان، و إرادته حديدية لا تقبل التزلزل.

و كان نزول السكينه على النبي صلى الله عليه و آله و سلم في معركة حنين- كما ذكرنا آنفا- لرفع الاضطراب الناشئ من فرار أصحابه من المعركة، و إلا فهو كالجبل الشامخ الركين، و كذلك ابن عمه على عليه السلام و قله من أصحابه (المسلمين).

٤- في الآيات محل البحث إشاره إلى أن الله نصر المسلمين في مواطن كثيرة! هناك كلام كثير بين المؤرخين حول عدد مغازي النبي و حروبه، التي أسهم فيها صلى الله عليه و آله و سلم شخصيًا، و قاتل الأعداء، أو حضرها دون أن يقاتل بنفسه، أو الحروب التي وقف فيها المسلمون بوجه أعدائهم و لم يكن الرسول حاضرا في المعركة.

إلا أنه يستفاد من بعض الروايات التي وصلتنا عن طرق أهل البيت عليهم السلام أنها تبلغ الثمانين غزوه.

و قد ورد في كتاب (الكافي) أن أحد خلفاء بني العباس كان قد نذر مالا كثيرا إن هو عوفى من مرضه «و يقال أنه قد سم»، فلما عوفى جمع الفقهاء الذين كانوا عنده، فسألهم عن المال الذي يجب أدائه لإيفاء نذره، فلم يعرفوا للمسألة جوابا. و أخيرا سأل الخليفة العباسي الإمام التاسع محمد بن علي الجواد عليه السلام

فقال:

«الكثير ثمانون».

فلما سأله عن دليبه في ذلك استشهد الإمام بالآية لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ثُمَّ قَالَ: عددنا حروب النبي التي انتصر فيها المسلمون على أعدائهم فكانت ثمانين (١).

٥- إن ما ينبغي على المسلمين أن يعتبروا به و يلزمهم أن يأخذوا منه درسا

ص: ٥٧٩

بليغا، هو أن ينظروا إلى الحوادث التي هي على شاكلة حادثه حين، فلا- يغتروا بكثرة العدد أو العدد، فالكثرة وحدها لا- تغني شيئاً، بل المهم في الأمر وجود المؤمنين الراسخين في الإيمان، ذوى الإرادة و التصميم، حتى لو كانوا قلة.

كما أنّ طائفه قليلة استطاعت أن تغير هزيمه حين إلى انتصار على العدو و كانت الكثيره بادئ الأمر سبب الهزيمه، لأنها لم تنصهر بالإيمان تماما.

فالمهم أن يتوفر في مثل هذه الحوادث أناس مؤمنون ذوو استقامه و تضحيه، لتكون قلوبهم مركزا للسكينه الإلهيه، و ليكونوا كالجبال الراسخه بوجه الأعاصير المدمره.

ص : ٥٨٠

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَ إِنْ حَفِظْتُمْ عَيْلَهُ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)

التفسير

اشاره

لا يحق للمشركين أن يدخلوا المسجد الحرام:

قلنا: إن واحدا من الأمور الأربعة التي بلغها الإمام على عليه السلام في موسم الحج في السنه التاسعه للهجره، هو أنه لا يحق لأحد من المشركين دخول المسجد الحرام، أو الطواف حول البيت، فالآيه محل البحث تشير إلى هذا الموضوع و حكمته، فتقول أولا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا .

و هل الآيه هذه دليل على نجاسه المشرك بالمفهوم الفقهي، أو لا؟! هناك كلام بين الفقهاء و المفسرين، و من أجل تحقيق معنى الآيه يلزمنا التحقيق في كلمه «نجس» قبل كل شىء...

«النجس» على زنه «الهوس» كلمه ذات معنى مصدرى، و تأتي للتأكيد و المبالغه و الوصف.

يقول الراغب في مفرداته: إنَّ النجاسه و النجس يطلقان على كل قذاره، و هى

على نوعين: قذاره حسيه، و قذاره باطنيه.

و يقول الطبرسي في مجمع البيان: كل ما ينفر منه الإنسان يقال عنه: إنه نجس.

فلذلك فإن كلمه نجس تستعمل في موارد كثيره—حتى في ما لا— مفهوم للنجاسه الظاهريه فيه—فمثلا— يسمّى العرب الأمراض الصعبه المزمه أو التي لا علاج لها بـ«النجس» كما يطلق على الشخص الشّرير، أو الساقط خلقيا، أو الشيخ الهرم، أنه نجس.

و من هنا يتّضح أنه مع ملاحظه ما جاء في الآيه—محل البحث—لا يمكن الحكم بأن إطلاق كلمه نجس على المشركين تعنى أن أجسامهم قذره كقذاره البول و الدم و الخمر و ما إلى ذلك أو لعقيدتهم «الوثنيه» فهي قذاره باطنيه، و من هنا لا يمكن الاستدلال بهذه الآيه على نجاسه الكفار، بل ينبغى البحث عن أدله أخرى.

ثم تعقب الآيه على ذوى النظره السطحيه الذين كانوا يزعمون بأن المشركين إذا انقطعوا عن المسجد الحرام ذهبت تجارتهم و غدوا فقراء معوزين فتقول و إن خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ .

كما فعل ذلك سبحانه على خير وجه، فباتساع رقعه الإسلام في عصر النبي صلى الله عليه و آله و سلم أخذ سيل الزائرين يتجه نحو بيت الله في مكّه، و ما زال هذا الأمر مستمرا حتى عصرنا الحاضر حيث أصبحت مكّه في أحسن الظروف فهي بين سلسله جبال صخريه لا ماء فيها و لا زرع، لكنّها مدينه عامره، و قد صارت بإذن الله مركزا مهما للبيع و الشراء التجاره.

و يضيف القرآن في نهايه الآيه قائلا: إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ فكل ما يأمركم به الله فهو وفق حكمته، و هو عليم بما سيؤول إليه أمره من نتائج مستقبلية، و هو خبير بذلك.

اشاره

فَاتُّلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)

التفسير

اشاره

مسئوليتنا إزاء أهل الكتاب:

كان الكلام في الآيات السابقه عن وظيفه المسلمين إزاء المشركين، أما الآيه -محل البحث (و ما يليها من الآي)- فتبين تكليف المسلمين و وظيفتهم إزاء أهل الكتاب.

و في هذه الآيات جعل الإسلام لأهل الكتاب سلسله من الأحكام تعدّ حدًا وسطا بين المسلمين و الكفار، لأنّ أهل الكتاب من حيث اتّباعهم لدينهم السماوى لهم شبه بالمسلمين، إلا أنّهم من جهه أخرى لهم شبه بالمشركين أيضا.

و لهذا فإنّ الإسلام لا يجيز قتلهم، مع أنّه يجيز قتل المشركين الذين يقفون بوجه المسلمين، لأنّ الخطه تقضى بقلع جذور الشرك و الوثنيه من لكره الأرضيه، غير أنّ الإسلام يسمح بالعيش مع أهل الكتاب فى صوره ما لو احترم

أهل الكتاب الإسلام، و لم يتأمرُوا ضده، أو يكون لهم إعلام مضاد.

و العلامه الأخرى لموافقتهم على الحياه المشتركه السلميه مع المسلمين هي أن يوافقوا على دفع الجزيه للمسلمين، بأن يعطوا كل عام إلى الحكومه الاسلاميه مبلغا قليلا من المال بحدود و شروط معينه سنتناولها في البحوث المقبله إن شاء الله.

و في غير هذه الحال فإنّ الإسلام يصدر أمره بمقاتلتهم، و يوضح القرآن دليل شده هذا الحكم في جمل ثلاث في الآيه محل البحث:

إذ تقول الآيه أوّلا: قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ .

لكن كيف لا- يؤمن أهل الكتاب- كاليهود و النصارى- بالله و باليوم الآخر، مع أننا نراهم في الظاهر يؤمنون بالله و يقرون بالمعاد أيضا؟ و الجواب: لأنّ إيمانهم مزيج بالخرافات و الأوهام، أمّا في مسأله الإيمان بالمبدأ و حقيقه التوحيد، فلاّنه:

أوّلا: يعتقد طائفه من اليهود- كما سنرى ذلك في الآيات المقبله- أن عزيرا ابن الله، كما يتعقد المسيحيون عامّه بألوهيه المسيح و التثليث [الله و الابن و روح القدس]

و ثانيا: كما يشار إليه في الآيات المقبله، فإنّ كلّا من اليهود و النصارى مشركون في عبادتهم، و يعبدون أحبارهم- عمليا- و يطلبون منهم العفو و الصفح عن الذنب، و هذا ممّا يختصّ به الله، مضافا إلى تحريف الأحكام الإلهيه بصوره رسميه.

و أمّا إيمانهم بالمعاد فإيمان محرّف، لأنّ المعاد كما يستفاد من كلامهم منحصر بالمعاد الروحاني، فبناء على ذلك فإنّ إيمانهم بالمبدأ مخدوش، و إيمانهم بالمعاد كذلك.

ثمّ تشير الآيه إلى الصفه الثّانيه لأهل الكتاب، فتقول: وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ

و من الممكن أن يكون المراد من كلمة «رسوله» نبيهم موسى أو عيسى عليهما السلام، لأنهم لم يكونوا أوفياء لأحكام دينهم، و كانوا يرتكبون كثيرا من المحرمات الموجودة في دين موسى أو عيسى، و لا يقتصرون على ذلك فحسب، بل كانوا يحكمون بحليتها أحيانا.

و يمكن أن يكون المراد من «رسوله» نبي الإسلام محمدا صلى الله عليه و آله و سلم، أى إنما أمر المسلمون بمقاتله اليهود و النصارى و جهادهم إياهم، لأنهم لم يذعنوا لما حرّمه الله على يد نبيه، و ارتكبوا جميع أنواع الذنوب.

و هذا الاحتمال يبدو أقرب للنظر، و الشاهد عليه الآية (٣٣) من هذه السورة ذاتها، و سنقف على تفسيرها قريبا، إذ تقول: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَ دِينِ الْحَقِّ .

أضف إلى ذلك حين ترد كلمة (رسوله) في القرآن مطلقه فالمراد منها النبي (محمّد) صلى الله عليه و آله و سلم.

و لو سلّمنا بأن المراد من (رسوله) هنا نبيهم، فكان ينبغي أن تكون الكلمة (تثنيه) أو جمعا، كما جاء في الآية (١٣) من سورة يونس وَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَ نظير هذا التعبير في القرآن ملحوظ و يمكن أن يقال: إِنَّ الْآيَةَ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ سَتَكُونُ مِنْ بَابِ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ أَوْ تَوْضِيحِ الْوَاضِحِ، لأن من البديهي أن غير المسلمين لا يحرمون ما حرّمه الإسلام.

لكن ينبغي الالتفات إلى أنّ المراد من هذه الصفات هو بيان عله جواز جهاد المسلمين اليهود و مقاتلتهم إياهم. أى يجوز أن تجاهدوا اليهود و النصارى -لأنهم لا يحرمون ما حرّم الإسلام ارتكبوا كثيرا من الآثام- إذا واجهوكم و خرجوا عن كونهم أقلية مسالمة.

و تذكر الآيه الصفه الثالثه التى كانوا يتصفون بها فتقول: وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ .

و يوجد احتمالان فى هذه الجملة أيضا، إلا أنّ الظاهر أنّ المراد من دين الحق هو دين الإسلام المشار إليه بعد بضع آيات.

و ذكر هذه الجملة بعد عدم اعتقادهم بالمحرمات الإسلاميه، هو من قبيل ذكر العام بعد الخاص، أى أن الآيه أشارت أولا إلى ارتكابهم لمحرمات كثيره، و هى محرّمات تلفت النظر كشرب الخمر و الربا و أكل لحم الخنزير، و ارتكاب كثير من الكبائر التى كانت تتسع يوما بعد يوم.

ثم تقول الآيه: إن هؤلاء لا يدينون بدين الحق أساسا، أى أن أديانهم منحرفه عن مسيرها الأصيل، ففسدوا كثيرا من الحقائق و التزموا بكثير من الخرافات مكانها، فعليهم أن يتقبلوا الإسلام، و أن يعيدوا بناء أفكارهم من جديد على ضوء الإسلام و هداه، أو يكونوا مسالمين -على الأقل- فيعيشوا مع المسلمين، و أن يقبلوا شروط الحياه السلميه مع المسلمين.

و بعد ذكر هذه الأوصاف الثلاثه، التى هى فى الحقيقه المسوغ لجهاد المسلمين لأهل الكتاب، تقول الآيه مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

و كلمه «من» فى الآيه بيانيه لا- تبعيضيّه، و بتعبير آخر: إنّ القرآن يريد أن يقول: إن أهل الكتاب السابقين -و للأسف- لا يدينون بدين الحق و انحرفوا عن المعتقدات الصحيحه، و هذا الحكم يشملهم جميعا.

ثم تبين الآيه الفرق بين أهل الكتاب و المشركين فى مقاتلتهم، بالجملة التاليه حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ .

«و الجزيه» مأخوذه من ماده الجزاء، و معناها المال المأخوذه من غير المسلمين الذين يعيشون فى ظلّ الحكومه الإسلاميه، و هذه التسميه لأنّها جزاء حفظ أموالهم و أرواحهم (هذا ما يستفاد من كلام الراغب فى مفرداته فلا بأس

بمراجعتها).

«و الصاغر» مأخوذ من «الصغر» على زنه «الكبر» و خلاف معناه، و معناه الراضى بالذله. و المراد من الآيه أن الجزية ينبغى أن تدفع فى حال من الخضوع للإسلام و القرآن.

و بتعبير آخر: هى علامه الحياه السلميه، و قبول كون الدافع للجزيه من الأقلية المحفوظه و المحترمه بين الأكثرية الحاكمه.

و ما ذهب إليه بعض المفسرين من أن المراد من الجزيه فى الآيه هو تحقير أهل الكتاب و إهانتهم و السخر منهم، فلا يستفاد ذلك من المفهوم اللغوى لكلمه الآيه، و لا ينسجم و روح تعاليم الإسلام السمحه، و لا ينطبق مع سائر التعاليم أو الدستور الذى وصلنا فى شأن معاملة الأقليات.

و ما ينبغى التنويه به هنا هو أن الآيه و إن ذكرت شرط «الجزيه» من بين شروط الذمه فحسب، إلا أن التعبير ب هُم صاغِرُونَ إشاره إجماليه إلى سائر شروط الذمه، لأنه يستفاد من هذه الجمله بأنهم -مثلا- يعيشون فى محيط إسلامى، فليس لهم أن يظاهروا أعداء الإسلام، و لا- يكون لهم إعلام مضاد للإسلام، و لا يقفوا حجر عثره فى رقيه و تقدمه، و ما إلى ذلك، لأن هذه الأمور تتنافى و روح الخضوع و التسليم للإسلام و التعاون مع المسلمين.

ما هى الجزيه!!

تعّد الجزيه ضريبه ماليه «إسلاميه» و هى تتعلق بالأفراد لا- بالأموال و لا- بالأراضى، أو بتعبير آخر: هى ضريبه ماليه سنويه على الرؤوس.

و يعتقد بعضهم أنها ليست من أصل عربى، بل هى فارسىه قديمه و أصلها «كزيت» و معناها الأموال التى تؤخذ للدعم العسكرى، أو ما يصطلح عليه فى عصرنا ب «المجهود الحربى». لكن الكثير يعتقدون أن هذه الكلمه «الجزيه»

ص: ٥٨٧

و كما ذكرنا آنفا فهي مأخوذة من الجزاء، لأنّ الضريبه التي تدفع، إنّما هي جزاء الأمن الذي توفره الحكومه الإسلاميه للأقليات المذهبيه.

و الجزيه، كانت قبل الإسلام، و يعتقد بعضهم أن أول من أخذ الجزيه هو كسرى أنوشروان الملك الساساني، و لو لم نسلم بأنّه الأوّل فلا- أقل من أن أنوشروان كان يأخذ من أبناء وطنه الجزيه، و كان يأخذ ممن لم يكن موظفا في الدوله و عمره أكثر من عشرين عاما و أقل من خميس عاما، مبلغا سنويا يتراوح بين ١٢ و ٨ و ٦ و ٤ درهم، على أنّه ضريبه سنويه على كل فرد.

و ذكروا أن فلسفه هذه الضرائب أو حكمتها هي الدفاع عن موجوديه الوطن و استقلاله و أمنه، و هي وظيفه عامّه على جميع الناس، فبناء على ذلك متى ما قام جماعه فعلا- بالمحافظه على الوطن و لم يستطع الآخرون أن يجندوا أنفسهم للدفاع عن الوطن، لأنّهم يكتسبون و يتّجرون- مثلا- فإن على الجماعه الثانيه أن تقوم بمصارف المقاتلين فتدفع ضرائب سنويه للدوله.

و ما لدينا من القرائن يؤيد فلسفه الجزيه...سواء قبل الإسلام أو بعده.

فمسأله السنّ في من يعطى الجزيه في عصر أنوشروان الذي ذكرناه آنفا «و هي أنّ الجزيه تقع على من عمره عشرين عاما إلى خميس عاما» دليل واضح على هذا المطلب، لأنّ أصحاب هذه المرحله، من العمر كانوا قادرين على حمل السلاح و المساهمه في الحفاظ على أمن البلاد، إلا أنّهم كانوا يدفعون الجزيه لأعمالهم و كسبهم.

و الشاهد الآخر على ذلك أنّه لا تجب الجزيه «في الإسلام» على المسلمين، لأنّ الجهاد واجب عليهم جميعا، و عند الضروره يجب على الجميع أن يتجهوا نحو ساحات القتال ليقفوا بوجه العدو، إلا أنّه لما كانت الأقليات المذهبيه في حلّ من أمر الجهاد، فعليها أن تدفع المال مكان الجهاد، ليكون لهم نصيب في

الحفاظ على أمن الوطن الذى يتمتعون بالحياه فيه.

ثم إن سقوط الجزية عن الأطفال و الشيوخ و المقعدين و النساء و العمى، دليل آخر على هذا الموضوع.

مما ذكرناه يتضح أن الجزية إعانه ماليه فحسب،يقدمها أهل الكتاب إزاء ما يتحمله المسلمون من مسؤوليه فى الحفاظ عليهم و على أموالهم.

فبناء على ذلك فإنّ من يزعم أنّ الجزية نوع من أنواع حق التسخير،لم يلتفت إلى روحها و حكمتها و فلسفتها،و هى أن أهل الكتاب متى دخلوا فى أهل الذمه فإنّ الحكومه الإسلاميه يجب عليها أن ترعاهم و تحافظ عليهم و تمنعهم من كل أذى أو سوء.و هكذا فإنّ أهل الذمه عند دفعهم الجزيه،بالإضافه إلى التمتع بالحياه مع المسلمين فى راحه و أمان فليس عليهم أى تعهد من المساهمه فى القتال مع المسلمين و فى جميع الأمور الدفاعيه-و يتضح أن مسؤوليتهم إزاء الحكومه الإسلاميه أقل من المسلمين بمراتب.

أى أنّهم يتمتعون بجميع المزايا فى الحكومه الإسلاميه بدفعهم مبلغا ضئيلا، و يكونون سواء هم و المسلمون.فى حين أنّهم لا يواجهون الأخطار و مشاكل الحرب.

و من الادله التى تؤيد فلسفه هذا الموضوع،أنّه فى المعاهدات التى كانت- فى صدر الإسلام بين المسلمين و أهل الكتاب فى شأن الجزيه،تصريح بأنّ على أهل الكتاب أن يدفعوا الجزيه،و فى قبال ذلك على المسلمين أن يمنعوهم(أى يحفظوهم)و أن يدافعوا عنهم إذا داهمهم العدو الخارجى.

و هذه المعاهدات كثيره،و نورد مثلا- منها،و هى المعاهده التى تمت بين خالد بن الوليد مع المسيحيين الذين كانوا يقطنون حول «الفرات»:

«هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا و قومه، إني عاهدتكم على الجزية و المنعه، فلك الذمه و المنعه، و ما منعناكم فلنا الجزية و إلا فلا، كتب سنة اثنتي عشرة في صفر» (١).

و الذى يسترعى النظر هو أننا نقرأ فى هذه المعاهده و أمثالها أنه متى ما قصير المسلمون فى الحفاظ على أهل الذمه أو لم يمنعوهم، فالجزية تعاد إليهم أو لا تؤخذ منهم عندئذ أصلاً.

و ينبغى الالتفات إلى أن الجزية ليس لها مقدار معين و ميزانها بحسب استطاعه من تجب عليهم، غير أن الاستفادة من التواريخ أنها عبارة عن مبلغ ضئيل قد لا يتجاوز الدينار (٢) فى السنه، و ربما قيد فى المعاهده أن على دافعى الجزية أن يدفعوا بمقدار استطاعتهم جزية.

و من جميع ما تقدم ذكره يتضح أن جميع ما أثير من شبهات أو إشكالات فى هذا الصدد، باطل لا اعتبار له، و يثبت أن هذا الحكم الإسلامى حكم عادل و منصف.

ص: ٥٩٠

١-١) نقلا عن تفسير المنار، ج ١٠، ص ٢٩٤.

٢-٢) من المناسب أن أشير إلى أن المقصود بالدينار ليس هو الدينار المتعارف بينا كالدينار العراقى أو الدينار الأردنى أو الدينار الكويتى و هلم جرا، بل هو الدينار الذهبى الذى يعادل مثقالا و نصف أو أدنى من ذلك بقليل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩